المملكة العربية السعودية
الأمانة العامة للاحتفال
بمرور مائة عام على تأسيس المملكة

عرش الرحمن

وما ورد فيه من الآيات والأحاديث

تأليف

شيخ الإسلام ابن تيمية

ويليه مجموعة الرسائل والمسائل لشيخ الإسلام

وهي ثلاثة أقسام

الجزء الأول

هذا الكتاب سبق طبعه على نفقة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود

وأعيد طبعه بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة على نفقة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

اهداءات ٢٠٠٢

الأمانة العامة

المملكة العربية السعودية

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم

عرش الرحمن وما ورد فيه من الآيات والأحاديث .- الرياض ،

٤٦٤ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك ٨-٢-٠-٦٦٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

٦-٣-٠-٦٦٠-٩٩٦٠ (ج١)

١ - التوحيد ٢ - عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ونشر الكتب

أ - العنوان

ديوي ٢٤١ ١٨/٣٨٣٧

رقم الإيداع : ٣٨٣٧ / ١٨

ردمك : ٨-٢-٠-٦٦٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

٦-٣-٠-٦٦٠-٩٩٦٠ (ج١)

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد للّه الذي أمرنا بشكر النِّعم، ووَعَد الشاكرين بمزيدٍ من فضله العَمِيم ، والصلاة والسلام على نبِّينا محمد وعلى آله وصحبه ، أما بعد ..

فإن الله – جلَّ وعلا – قد أكرمنا في هذه البلاد الطيبة بجمع كلمتنا تحت راية الإسلام الخالدة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ؛ فكلمة التوحيد هي الأساس الذي قامت عليه هذه البلاد ، واتخذتها شعاراً لها ومنهجاً لحياتها وأساساً لنظامها ، أكَّد ذلك الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود حين دخل مدينة الرياض في الخامس من شوال سنة ١٣١٩ هـ ؛ استمراراً للمنهج الذي سار عليه آباؤه وأجداده المستَمدَّ من كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وقد جاءت فكرة الاحتفال بمناسبة مرور مائة عام على دخول الملك عبد العزيز مدينة الرياض ؛ وتأسيس المملكة العربية السعودية ، تأكيداً لاستمرار المنهج القويم الذي سارت عليه المملكة العربية السعودية والمبادىء السَّاميَة التي قامت عليها ؛ ورصداً لبعض الجهود المباركة التي قام بها المؤسِّس الملك عبد العزيز – رحمه الله – في سبيل توحيد المملكة عرفاناً لفضله ووفاءً بحقه وتسجيلاً لأبرز المكاسب والإنجازات الوطنية التي تحقَّقت في عهده وعهد أبنائه خلال المائة عام ، والتعريف بها للأجيال القادمة .

وما الأعمال العلمية التي تُصدرها الأمانة العامة للاحتفال بهذه المناسبة إلا شواهد صادقة على نهضة هذه البلاد الزاهرة في ظلّ دوحةِ علمٍ أصولها ثابتة وفروعها نابتة ، تَوَلَّى غرسها الملك المؤسِّس ، وتعهَّدها من بعده بَنُوهُ ؛ فواصلوا رعايتها حتى امتدَّ ظِلُّها ، وزاد ثمرها ، فعمَّ البلاد خيرُها ، وانتفع بها الجميع .

وهذا الكتاب أحد الكتب التي سبق أن أمر جلالة الملك عبد العزيز - يرحمه الله - بطبعها ونشرها على نفقته الخاصة ممًا يعطي دلالة واضحة على اهتمامه بالعلم ، وحرصه على نشره ، وتكريمه لأهله ، وعنايته بطلابه ، وقد أمر خادم الحرمين الشريفين - يحفظه الله - بإعادة طبع هذا الكتاب مع مجموعة الكتب التي سبق أن أمر بطبعها الملك عبد العزيز - رحمه الله - لنشرها ضمن فعاليَّات الاحتفال بهذه المناسبة المباركة ، ورأينا أن تكون هذه الطبعة مُشتملة على ما استُجِدَّ على بعض هذه الكتب من تحقيق أو تعليق أو تصحيح .

اللَّهم إنا نشكرك ، ونتحدَّث بعظيم نعمتك علينا ، وقد وعدت الشاكرين بالمزيد ؛ فأدمها نعمةً ؛ واحفظها من الزوال .

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبِّينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أمير منطقة الرياض

رئيس اللجنة العليا ورئيس اللجنة التحضيرية

للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة

سلمان بن عبد العزيز

عرش الرحمن

وما ورد فيه من الآيات والاحاديث

وكونه فوق العالم كله، ومعنى التوجه في الدعاء الى جهة العلو

وبطلان ماقيل من ان العرش هو الفلك التاسع عند علماء الهيئة اليونانية

تأليف

شيخ الاسلام ابن تيمية

قدس الله سره

طبع على نفقة صاحب الجلالة السعودية ، ومحيي السنة المحمدية

الامام عبد العزيز آل سعود

ملك الحجاز ونجد وملحقاتها

ويليه مجموعة الرسائل والمسائل لشيخ الاسلام

وهى ثلاثة أقسام

مطبعة المنار بمصر

عـرش الرحمـن

وما ورد فيـه من الآيـات والأحـاديث

وكونه فوق العالم كله ، ومعنى التوجه في الدعاء
إلى جهة العلو وبطلان ما قيل من أن العرش
هو الفلك التاسع عند علماء الهيئة اليونانية

تأليف

شيخ الإسلام ابن تيميـة

بسم الله الرحمن الرحيم

{ سئل } شيخنا وسيدنا شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية أعاد الله تعالى من بركته آمين: ما تقول في العرش ، هل هو كري أم لا ؟ فإذا كان كرياً والله من ورائه محيط بائن عنه ، فما فائدة أن العبد يتوجه إلى الله حين دعائه وعبادته فيقصد العلو دون غيره؟ فلا فرق حينئذ وقت الدعاء بين قصد جهة العلو وغيرها من الجهات التي تحيط بالداعي ، ومع هذا نجد في قلوبنا قصداً بطلب العلو لا يلتفت يمينه ولا يساره ، فأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا وقد فطرنا عليها ، وابسطوا لنا الجواب في ذلك .

{ أجاب } رضي الله عنه :

الحمد لله رب العالمين ، الجواب عن هذا بثلاث مقامات:

(أحدها) أن لقائل أن يقول : لم يثبت بدليل يعتمد عليه أن العرش فلك من الأفلاك المستديرة الكرية الشكل لا بدليل شرعي ولا دليل عقلي ، وإنما ذكر طائفة من المتأخرين الذين نظروا في علم الهيئة وغيره من أجزاء الفلسفة فرأوا أن الأفلاك تسعة وأن التاسع -وهو الأطلس- محيط بها مستدير كاستدارتها ، وهو الذي يحركها الحركة الشرقية ، وإن كان لكل فلك حركة تخصه غير هذه الحركة العامة ، ثم سمعوا في أخبار الأنبياء ذكر عرش الله وذكر كرسيه وذكر السموات السبع ، فقالوا بطريق الظن: إن العرش هو الفلك التاسع ؛ لاعتقادهم أن ليس وراء ذلك التاسع شيء إما مطلقاً وإما إنه ليس وراءه مخلوق ، ثم إن منهم من رأى أن التاسع هو الذي

يحرك الأفلاك كلها فجعلوه مبدأ الحوادث ، وزعموا أن الله تعالى يحدث فيه ما يقدره في الأرض أو يحدثه في النفس التي زعموا أنها متعلقة به ، أو في العقل الذي زعموا أنه صدر عنه هذا الفلك ، وربما سمَّاه بعضهم الروح ، وربما جعل بعضهم ذلك النفس هو اللوح المحفوظ كما جعل العقل هو العلم ، وتارة يجعلون اللوح هو العقل الفعال العاشر الذي لفلك القمر والنفس المتعلقة به . وربما جعلوا ذلك بالنسبة إلى الحق كالدماغ بالنسبة إلى الإنسان يقدر فيه ما يفعله قبل أن يكون ، إلى غير ذلك من المقالات التي قد شرحناها وبينَّا فسادها في غير هذا الموضع . ومنهم من يدعي أنه علم ذلك بطريق الكشف والمشاهدة ويكون كاذباً فيما يدعيه ، وإنما أخذ ذلك عن هؤلاء المتفلسفة تقليداً لهم أو موافقة لهم على طرقهم الفاسدة ، كما فعل أصحاب رسائل إخوان الصفا وأمثالهم .

وقد ينتحل المرء في نفسه ما تقلده عن غيره فيظنه كشفاً كما ينتحل النصراني التثليث الذي يعتقده ، وقد يرى ذلك في منامه فيظنه كشفاً ، وإنما يخيل لما اعتقده[1] وكثر من أرباب الاعتقادات الفاسدة إذا ارتاضوا صقلت الرياضة نفوسهم فتتمثل لهم اعتقاداتهم فيظنونها كشفاً ، وقد بسطنا الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

---

(١) لعل أصله : يخيل إليه ما اعتقده ، وأن بعض النصارى يرون في المنام وفي حال تغلب الخيال عند أولي المزاج العصبي في اليقظة السيد المسيح أو السيدة مريم عليهما السلام أو غيرهما من الحواريين ومن دونهم ، ويسمعون منهم ما يوافق عقائدهم كما يقع لكثير من المسلمين فيغترون بهذه الخيالات.

والمقصود هنا أن ما ذكروه من أن العرش هو الفلك التاسع قد يقال : إنه ليس لهم عليه دليل لا عقلي ولا شرعي ، أما العقلي فإن أئمة الفلسفة مصرحون بأنه لم يقم عندهم دليل على أن الأفلاك هي تسعة فقط ، بل يجوز أن تكون أكثر من ذلك ، ولكن دلتهم الحركات المختلفة والكسوفات ونحو ذلك على ما ذكروه . وما لم يكن لهم دليل على ثبوته فهم لا يعلمون لا ثبوته ولا انتفاءه .

مثال ذلك أنهم علموا أن هذا الكوكب تحت هذا بأن السفلي يكسف العلوي من غير عكس ، فاستدلوا بذلك على أنه من فلك فوقه ، كما استدلوا بالحركات المختلفة على أفلاك مختلفة ، حتى جعلوا في الفلك الواحد عدة أفلاك كفلك التدوير وغيره ، فأما ما كان موجوداً فوق هذا ولم يكن لهم ما يستدلون به على ثبوته فهم لا يعلمون نفيه ولا إثباته بطريقه . وكذلك قول القائل : إن حركة التاسع مبدأ الحوادث خطأ وضلال على أصولهم ، فإنهم يقولون : إن الثامن له حركة تخصه بما فيه من الثوابت ، ولتلك الحركة قطبان غير قطبي التاسع ، وكذلك السابع والسادس .

وإذا كان لكل فلك حركة تخصه والحركات المختلفة هي سبب الأشكال الحادثة المختلفة الفلكية ، وتلك الأشكال سبب الحوادث السفلية ؛ كانت حركة التاسع جزء السبب كحركته ، فالأشكال الحادثة في الفلك كمقارنة الكوكب للكوكب في درجة واحدة ومقابلته له إذا كان بينهما نصف الفلك ، وهو مائة وثمانون درجة ، وتثليثه إذا كان بينهما ثلث الفلك مائة وعشرون درجة ، وتربيعه له إذا كان بينهما ربعه تسعون درجة ، وتسديسه له إذا كان بينهما سدس الفلك ستون درجة ـ وأمثال ذلك من الأشكال ـ إنما حدثت بحركات

مختلفة ، وكل حركة ليست عن الأخرى ؛ إذ حركة الثامن التي تخصه ليست عن حركة التاسع وإن كان تابعاً له في الحركة الكلية كالإنسان المتحرك في السفينة إلى خلاف حركتها ، وكذلك حركة السابع التي تخصه ليست عن التاسع ولا عن الثامن ، وكذلك سائر الأفلاك فإن حركة كل واحد التي تخصه ليست عما فوقه من الأفلاك ، فكيف يجوز أن يجعل مبدأ الحوادث كلها مجرد حركة التاسع كما زعمه من ظن أنه العرش ؟ كيف والفلك التاسع عندهم بسيط متشابه الأجزاء لا اختلاف فيه أصلا ، فكيف يكون سبباً لأمور مختلفة لا باعتبار القوابل وأسباب أخر ؟ ولكن هم قوم ضالون يجعلونه مع هذا ثلثمائة وستين درجة ، ويجعلون لكل درجة من الأثر ما يخالف الأخرى لا باختلاف القوابل ، كمن يجيء إلى ماء واحد فيجعل لبعض أجزائه من الأثر ما يخالف الآخر ؛ لا بحسب القوابل بل يجعل أحد جزئيه مسخناً ، والآخر مبرداً ، والآخر مسعداً ، والآخر مشقيا ، وهذا مما يعلمون هم وكل عاقل أنه باطل وضلال ، وإذا كان هؤلاء ليس عندهم ما ينفي وجود شيء آخر فوق الأفلاك التسعة كان يجزم أن ما أخبرت به الرسل من العرش هو الفلك التاسع رجماً بالغيب وقولاً بلا علم .

هذا كله على تقدير ثبوت الأفلاك التسعة على المشهور عند أهل الهيئة ؛ إذ في ذلك من النزاع والاضطراب وفي أدلة ذلك ما ليس هذا موضعه ، وإنما نتكلم على هذا التقدير أيضاً فالأفلاك في أشكالها وإحاطة بعضها ببعض من جنس واحد ؛ فنسبة السابع إلى السادس كنسبة السادس إلى الخامس . وإذا كان هناك فلك تاسع فنسبته إلى الثامن كنسبة الثامن إلى السابع .

وأما العرش فالأخبار تدل على مباينته لغيره من المخلوقات ، وإنه ليس نسبته إلى بعضها كنسبة بعضها إلى بعض ، قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ [غافر ٧] .وقال تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحاقة: ١٧] . فأخبر أن للعرش حملةً اليوم ويوم القيامة ، وأن حملته ومن حوله يسبحون ويستغفرون للمؤمنين ، والمعلوم أن قيام فلك من الأفلاك بقدرة الله تعالى كقيام سائر الأفلاك لا فرق في ذلك بين كرة وكرة ، وإن قدر أن لبعضها في نفس الأمر ملائكة تحملها فحكمه حكم نظيره .

قال الله تعالى :﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الزمر ٧٥]. فذكر هنا أن الملائكة تحف من حوله ، وذكر في موضع آخر أن له حملة ، وجمع في موضع ثالث بين حملته ومن حوله ، فقال : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ [غافر ٧] وأيضاً فقد أخبر أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ [هود ٧] .

وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ أنه قال : «كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض» ، وفي رواية له : « كان الله

ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض ، وكتب في الذكر كل شيء » ، وفي رواية لغيره صحيحة : « كان الله ولم يكن شيء معه ، وكان عرشه على الماء ثم كتب في الذكر كل شيء » .

وثبت في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال : «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء» فهذا التقدير بعد وجود العرش وقبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وهو سبحانه وتعالى يتمدح بأنه ذو العرش المجيد كقوله سبحانه : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء ٤٢] . وقوله تعالى : ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر ١٥-١٦] .

وقال سبحانه : ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج ١٤ : ١٦] . وقد قرئ « المجيد » بالرفع صفة لله ، وقرئ بالخفض صفة للعرش ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [المؤمنون ٨٦ : ٨٧] . فوصف العرش بأنه مجيد وأنه عظيم .

وقال تعالى : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون ١١٦] . فوصفه بأنه كريم أيضاً ، وكذلك في الصحيحين عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ كان يقول عند الكرب : « لا إله

إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم » فوصفه في الحديث بأنه عظيم وكريم أيضاً .

فيقول القائل المنازع : إن نسبة الفلك الأعلى إلى ما دونه كنسبة الآخر إلى ما دونه ، فلو كان العرش من جنس الأفلاك لكانت نسبته إلى ما دونه كنسبة الآخر إلى ما دونه ، وهذا لا يوجب خروجه عن الجنس وتخصيصه بالذكر كما لم يوجب ذلك تخصيص سماء دون سماء ، وإن كانت العليا بالنسبة إلى السفلى كالفلك على قول هؤلاء .

وإنما امتاز عما دونه بكونه أكبر ؛ كما تمتاز السماء العليا على الدنيا بل نسبة السماء إلى الهواء ونسبة الهواء إلى الماء والأرض كنسبة فلك إلى فلك ؛ ومع هذا فلا يخص واحد من هذه الأجناس عما يليه بالذكر ولا بوصفه بالكرم والمجد والعظمة ، وقد علم أنه ليس سبباً لذاتها ولا لحركاتها ، بل لها حركات تخصها ؛ فلا يجوز أن يقال : إن حركته هي سبب الحوادث ، بل إن كانت حركة الأفلاك سبباً للحوادث فحركات غيره التي تخصه أكثر ، ولا يلزم من كونه محيطاً بها أن يكون أعظم من مجموعها ؛ إلا إذا كان له من الغلظ ما يقاوم ذلك ، وإلا فمن المعلوم أن الغليظ إذا كان متقارباً مجموع الداخل أعظم من المحيط بل قد يكون بقدره أضعافاً ، بل الحركات المختلفة التي ليست عن حركته أكثر لكن حركته تشملها كلها .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن جويرية بنت الحارث أن النبي ﷺ دخل عليها وكانت تسبح بالحصى إلى الضحى فقال : « لقد قلت كلمة تعدل كلماتٍ لو وزنت بما قلتيه لوزنتهن: سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله

رضى الله نفسه ، سبحان الله مداد كلماته»(١) فهذا يبين أن زنة العرش أثقل الأوزان ، وهم يقولون : إن الفلك التاسع لا خفيف ولا ثقيل ، بل يدل على أنه وحده أثقل ما يمثل به كما أن عدد المخلوقات أكثر ما يمثل به .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه فقال: يا محمد ، رجل من أصحابك لطم وجهي . فقال النبي ﷺ : « ادعوه » فقال : « لم لطمت وجهه ؟ » فقال يا رسول الله : إني مررت بالسوق وهو يقول: والذي اصطفى موسى على البشر ، فقلت : يا خبيث ، وعلى محمد ؟ فأخذتني غضبة فلطمته ، فقال النبي ﷺ «لا تخيروا بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة ؛ فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقته» فهذا فيه بيان أن للعرش قوائم ، وجاء ذكر القائمة بلفظ الساق ، والأفلاك متشابهة في هذا الباب .

---

(١) لهذا الحديث في مسلم وكذا في السنن لفظان عن جويرية ـ رضي الله عنها ـ أحدهما : أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلَّى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال : « ما زلت على الحال التي فارقتك عليها ؟ قالت نعم. قال النبي ﷺ : لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته » واللفظ الآخر أنه قال : « سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله مداد كلماته » وليس في الرواية أنها كانت تسبِّح بالحصى ، ولعله قد ثبت عنها في رواية أخرى كما ثبت عن صفية ـ رضي الله عنها ـ والحديث ذكره أبو داود في باب التسبيح بالحصى ولكنه ذكر التسبيح بالحصى عن غيرها.

وقد أخرجا في الصحيحين عن جابر قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ» قال فقال رجل لجابر : إن البراء يقول اهتز السرير قال: إنه كان بين هذين الحيين الأوس والخزرج ضغائن. سمعت نبي الله ﷺ يقول : «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ» ورواه مسلم في صحيحه من حديث أنس أن النبي ﷺ قال - وجنازة سعد موضوعة - : «اهتز لها عرش الرحمن» ، وعندهم أن حركة الفلك التاسع دائمة متشابهة ، ومن تأول ذلك على أن المراد به استبشار حملة العرش وفرحهم ؛ فلا بد له من دليل على ما قال كما ذكر أبو الحسين الطبري وغيره أن سياق الحديث ولفظه ينفي هذا الاحتمال ، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها» قالوا: يا رسول الله ، أفلا نبشر الناس بذلك ؟ قال : «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ، كل درجتين بينهما كما بين السماء والأرض. فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة».

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا سعيد، من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً وجبت له الجنة» فعجب لها أبو سعيد فقال: أَعِدها عليَّ يا رسول الله ، ففعل، قال: «وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» قال : وما هي يا رسول الله ؟ قال : «الجهاد في سبيل الله»، وفي صحيح البخاري أن أم الربيع

بنت البراء وهي أم حارثة بن سراقة أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ، ألا تحدثني عن حارثة ، وكان قتل يوم بدر -أصابه سهم غَرْب [1]، فإن كان في الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء . قال : «يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى» .

فهذا قد يبين أن العرش فوق الفردوس الذي هو أوسط الجنة وأعلاها ، وأن الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها .

وإذا كان العرش فوقه فلقائل أن يقول: إذا كان كذلك كان في هذا من العلو والارتفاع ما لم يعلم بالهيئة ؛ إذ لا يعلم بالحساب أن بين التاسع والأول كما بين السماء والأرض مائة مرة ، بل عندهم أن التاسع ملاصق للثامن . فهذا قد بين أن العرش فوق الفردوس الذي هو أوسط الجنة وأعلاها ، وفي حديث أبي ذر المشهور قال: قلت يا رسول الله ، أيما أنزل عليك أعظم؟ قال: « آية الكرسي » ثم قال: يا أبا ذر، « ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة » ، والحديث له طرق ، وقد رواه أبو حاتم بن حبّان في صحيحه ، وأحمد في المسند ، وغيرها .

وقد استدل من استدل على أن العرش مقبب بالحديث الذي في سنن أبي داود وغيره عن جبير بن مطعم قال: أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال :

---

(١) بفتح الراء وسكونها ، أي لا يعرف راميه.

يا رسول الله ، جهدت الأنفس وجاع العيال ، وهلك المال ، فادع الله لنا ؛ فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك . فسبح رسول الله ﷺ حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، وقال : «ويحك ، أتدري ما تقول ! إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ، إن الله على عرشه ، وإن عرشه على سماواته وأرضه لهكذا - وقال بأصابعه مثل القبة » وفي لفظ : «وإن عرشه فوق سماواته ، وسماواته فوق أرضه ، لهكذا» وقال بأصابعه مثل القبة . وفي لفظ : «وإن عرشه فوق سماواته ، وسماواته فوق أرضه لهكذا» وقال بأصابعه مثل القبة (١) وهذا الحديث وان دل على التقبب وكذلك

---

(١) لهذا الحديث بقية ، وألفاظه مختلفة ، قال البيهقي بعد إيراده في الأسماء والصفات عن أبي داود : وهذا حديث ينفرد به محمد بن إسحاق بن يسار عن يعقوب بن عتبة ، وصاحبا الصحيح لم يحتجا به إنما استشهد مسلم بن الحجاج بمحمد بن إسحاق في أحاديث معدودة أظنهن خمسة قد رواهن غيره. وذكره البخاري في الشواهد ذكراً من غير رواية ، وكان مالك بن أنس لا يرضاه ، ويحيى بن سعيد القطان لا يروي عنه ، ويحيى بن معين يقول : ليس هو بحجة ، وأحمد بن حنبل يقول : يكتب عنه هذه الأحاديث - يعني المغازي ونحوها - فإذا جاء الحلال والحرام أردنا قوما هكذا - يريد أقوى منه - فإذا كان لا يحتج به في الحلال والحرام فأولى أن لا يحتج به في صفات الله سبحانه ، وإنما نقموا عليه في روايته عن أهل الكتاب ثم عن ضعفاء الناس وتدليسه أساميهم. فإذا روى عن ثقة وبين سماعه منه فجماعة من الأئمة لم يروا به بأسا . وهو إنما روى هذا الحديث عن يعقوب بن عتبة ، وبعضهم يقول عن عتبة وعن محمد بن جبير ولم يبين سماعه منهما ، واختلف عليه في لفظه كما ترى ا هـ فجملة القول أن هذا الحديث لا يصح ، ولعل الشيخ أودره استيفاءً للروايات النافية لأقوال أهل الهيئة.

قوله عن الفردوس : « إنها أوسط الجنة وأعلاها » مع قوله : « وإن سقفها عرش الرحمن » أو « إن فوقها عرش الرحمن » ، والأوسط لا يكون الأعلى إلا في المستدير ؛ فهذا لا يدل على أنه فلك من الأفلاك ، بل إذا قدر أنه فوق الأفلاك كلها أمكن هذا فيه سواء قال القائل : إنه محيط بالأفلاك أو قال : إنه فوقها . وليس يحيط بها ، كما أن وجه الأرض فوق النصف الأعلى من الأرض وإن لم يكن محيطاً بذلك ، وقد قال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبة . ومعلوم أن الفلك مستدير مثل ذلك ، لكن لفظ القبة يستلزم استدارة من العلو لا يستلزم استدارة من جميع الجوانب إلا بدليل منفصل ، ولفظ الفلك يستدل به على الاستدارة مطلقاً ، فقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء ٣٣]. وقوله تعالى : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس ٤٠] . يقتضي أنها في فلك مستديرة مطلقا كما قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ في فلكة مثل فلكة المغزل . وأما لفظ القبة فإنه لا يعترض هذا المعنى لا بنفي ولا إثبات ، لكن يدل على الاستدارة من العلو كالقبة الموضوعة على الأرض ، وقد قال بعضهم : إن الأفلاك غير السموات ؛ لكن رد عليه غيره هذا القول بأن الله تعالى قال: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾ [نوح ١٥ – ١٦] . فأخبر أنه جعل القمر فيهن، وقد أخبر أنه في الفلك [1].

---

(١) الذي يفهمه أهل اللغة من الفلك هنا أنه مدار الكواكب ، وعبارة القاموس مدار النجوم ، قال: ومن كل شيء مستداره ومعظمه ، وهذا غير المراد من الفلك عن =

وليس هذا موضع بسط الكلام في ذلك ، وتحقيق الأمر فيه وبيان أن ما علم بالحساب علماً صحيحاً لا ينافي ما جاء به السمع وأن العلوم السمعية الصحيحة لا تنافي معقولاً صحيحاً ؛ إذ قد بسطنا الكلام على هذا وأمثاله في غير هذا الموضع ، فإن ذلك يحتاج إليه في هذا ونظائره مما قد أشكل على كثير من الناس حيث يرون ما يقال إنه معلوم بالعقل مخالفاً لما يقال إنه معلوم بالسمع ، وأوجب ذلك أن كذبت كل طائفة بما لم تحط بعلمه ، حتى آل الأمر بقوم من أهل الكلام أن تكلموا في معارضة الفلاسفة في الأفلاك بكلام ليس معهم به حجة لا من شرع ولا من عقل ، وظنوا أن ذلك من نصر الشريعة وكان ما جحدوه معلوماً بالأدلة الشرعية أيضاً .

وأما المتفلسفة وأتباعهم فغايتهم أن يستدلوا بما شاهدوه من الحسيات ولا يعلمون ما وراء ذلك ، مثل أن يعلموا أن البخار المتصاعد ينعقد سحابا ، وأن السحاب إذا اصطك حدث عنه صوت به[1] ونحو ذلك ، لكن علمهم بهذا كعلمهم بأن المني يصير في الرحم (جنينا) لكن ما الموجب للمني المتشابه

= علماء الهيئة اليونانية فهو عندهم جسم مستدير صلب شفاف لا يقبل الخرق والإلتئام ، وكل فلك من الأول إلى السابع فيه كوكب من الدراري السبع يدور فيه ، والثامن للنجوم الثابتة كلها ، والتاسع أطلس ليس فيه شيء.

(١) يعنون بهذا الصوت الرعد ، وهو قول باطل لم يجدوا ما يعللون به صوت الرعد غيره. وأما علماء الكون في هذا العصر فقد ثبت عندهم أن البرق والرعد يحدثان من اشتعال الكهربائية بالتقاء الإيجابي منها بالسلبي ، وبهذا الاشتعال يحدث تفريغ في الهواء يكون له صوت بقدره ، كما يحدث بإطلاق المدفع ، وهو صوت الرعد والصواعق .

الأجـزاء أن يخلق منه هذه الأعـضـاء المخـتلفـة والمنافع المخـتلفـة على هذا الترتيب المحكم المتقن الذي فيه من الحكمة والرحمة ما بهر الألباب ؟ ، وكذلك ما الموجب لأن يكون الهواء أو البخار ينعقد سحاباً مقدراً بقدر مخصوص في وقت مخصوص على مكان يختص به وينزل على قوم عند حاجتهم إليه ؛ فيسقيهم بقدر الحاجة لا يزيد فيهلكوا ولا ينقص فيعوزوا ؟ وما الموجب لأن يساق إلى الأرض الجُرُز التي لا تمطر أو تمطر مطراً لا يغنيها كأرض مصر أو كان المطر القليل لا يكفيها والكثير يهدم أبنيتها[1] قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة ٢٧] .

وكذلك السحاب المتحرك ، وقد علم أن كل حركة فإما أن تكون قسرية وهي تابعة للقاسر ، أو طبيعية ، وإنما تكون إذا خرج المطبوع من مركزه فيطلب عوده إليه أو إرادته وهي الأصل ، فجميع الحركات تابعة للحركة الإرادية التي تصدر عن ملائكة الله تعالى التي هي المدبرات أمراً والمقسمات أمراً ، وغير ذلك مما أخبر الله تعالى به عن الملائكة . وفي المعقول ما يصدق ذلك . فالكلام في هذا وأمثاله له موضع غير هذا .

والمقصود هنا أن نبين ما ذكر في السؤال زائل على كل تقدير ؛ فيكون الكلام في الجواب مبنياً على حجج علمية لا تقليدية ولا مسلمة ، وإذا بينا

---

(١) إن كون نزول المطر في كل أرض بقدر حاجة أهلها لا يزيد ولا ينقص غير مسلَّم ، والمعلوم بالمشاهدة خلافه ، فكثيراً ما يزيد فيحدث ضرراً عظيماً ؛ أو ينقص فتهلك الزروع وتقل الغلال وتحدث المجاعات ، وقدعلم البشر من سنن الله في ذلك في عصرنا أكثر مما كان يعلم من قبلهم ، ولا يزالون يجهلون منها أضعاف ما علموا.

حصول الجواب على كل تقدير ـ كما سنوضحه ـ لم يضرنا بعد ذلك أن يكون بعض التقديرات هو الواقع ، وان كنا نعلم ذلك؛ لكن تحرير الجواب على تقدير دون تقدير وإثبات ذلك فيه طول لا يحتاج إليه هنا ، فإن الجواب إذا كان حاصلاً على كل تقدير كان أحسن وأوجز .

المقام الثاني

أن يقال: العرش سواء كان هذا الفلك التاسع ، أو جسما محيطاً بالفلك التاسع ، أو كان فوقه من جهة وجه الأرض محيطاً به ، أو قيل فيه غير ذلك ، فيجب أن يعلم أن العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى الخالق تعالى في غاية الصغر كما قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر ٦٧]. وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : «يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة ، ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟» وفي الصحيحين ـ واللفظ لمسلم ـ عن عبدالله بن عمر: قال قال رسول الله ﷺ : «يطوي الله السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» ثم يطوي الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » وفي لفظ في الصحيح عن عبدالله بن مقسم أنه نظر إلى عبدالله بن عمر كيف يحكي النبي ﷺ قال : « يأخذ الله سماوته وأرضه بيده ويقول : أنا الملك ، ويقبض

أصابعه ويبسطها ، أنا الملك» حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني أقول : أساقط هو برسول الله ﷺ ؟ ، وفي لفظ قال : «رأيت رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول : يأخذ الجبار سماواته وأرضه – وقبض بيده وجعل يقبضها ويبسطها – ويقول : أنا الرحمن ، أنا الملك ، أنا السلام ، أنا المؤمن ، أنا المهيمن ، أنا العزيز ، أنا الجبار المتكبر ، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تكن شيئا ، أنا الذي أعدتها أين الملوك ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟» ويتميل رسول الله ﷺ على يمينه وعلى شماله ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول : أساقط هو برسول الله ﷺ ؟ والحديث مروي في الصحيح والمسانيد وغيرها بألفاظ يصدق بعضها بعضا ، وفي بعض ألفاظه قال : قرأ على المنبر ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ الآية . [الزمر ٦٧] . قال : « مطوية في كفه يرمي بها كما يرمي الغلام بالكرة » ، وفي لفظ : « يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده فيجعلها في كفه ثم يقول بها هكذا كما يقول الصبيان بالكرة ، أنا الله الواحد » وقال ابن عباس : « يقبض عليهما فما يرى طرفاهما بيده » وفي لفظ عنه : « ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن بيد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم » وهذه الآثار معروفة في كتب الحديث .

وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال : أتى النبي ﷺ رجل يهودي، فقال: يا محمد ، إن الله يجعل السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، فيهزهن فيقول: أنا الملك ، أنا الملك ، قال : فضحك النبي

ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر[1] ثم قال : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ إلى آخر الآية . [الزمر ٦٧] .

ففي هذه الآية والأحاديث الصحيحة المفسرة لها المستفيضة التي اتفق أهل العلم على صحتها وتلقِّيها بالقبول ما يبين أن السموات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمة الله تعالى أصغر من أن يكون مع قبضه لها إلا كالشيء الصغير في يد أحدنا حتى يدحوها كما تدحى الكرة[2].

قال عبدالعزيز بن عبدالله بن أبي سلمة الماجشون الإمام - نظير مالك - في كلامه المشهور الذي رد فيه على الجهمية ومن خلفها[3] قال: فأما الذي جحد ما وصف الرب من نفسه تعمقاً وتكلفاً قد استهوته الشياطين في الأرض حيران ، فصار يستدل بزعمه على جحد ما وصف الرب وسمى من نفسه بأن قال : لا بد إن كان له كذا من أن يكون له كذا ، فعمي عن البين بالخفي ، فجحد ما سمى الرب من نفسه فصمت الرب عما لم يسم منها ؛ فلم يزل يمثل له الشيطان حتى جحد قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة ٢٢ ، ٢٣] . فقال : لا يراه أحد يوم القيامة فجحدوا الله

---

(١) قوله : تصديقاً لقول الحبر قال بعض شراح الصحيحين : إن هذه زيادة من الراوي قالها بحسب فهمه ، وهي ليست في كل الروايات ، وأنكروا أن يكون ﷺ صدق اليهودي ، بل قالوا : إنه أراد الإنكار عليه ، وتلا الآية الدالة على ذلك ، وخالفهم آخرون . فراجع الأقوال في شرح الحديث من كتاب التوحيد في فتح الباري.

(٢) دحا الكرة يدحوها : دحرجها .

(٣) أي من جاء بعد الجهمية ممن يقول قولهم.

أفضل كرامته التي أكرم الله أولياءه يوم القيامة من النظر إلى وجهه ونظرته له إياهم ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر ٥٥] . وقد قضى أنهم لا يموتون ؛ فهم بالنظر إليه ينضرون – إلى أن قال – : وإنما جحدوا رؤية الله يوم القيامة إقامة للحجة الضالة المضلة ؛ لأنه قد عرف إذا تجلى لهم يوم القيامة رأوا منه ما كانوا به قبل ذلك مؤمنين وكان له جاحداً .

وقال المسلمون : يا رسول الله ، هل نرى ربنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هل تضارون[1] في رؤية الشمس ليس دونها سحاب ؟ » قالوا : لا ، قال : « فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ » قالوا : لا ، قال : « فإنكم ترون ربكم كذلك » ، وقال رسول الله ﷺ : « لا تمتلىء النار حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول قط قط ، وينزوي بعضها إلى بعض » .

وقال لثابت بن قيس : « قد ضحك الله مما فعلت بضيفك البارحة » وقال فيما بلغنا عنه : « إن الله يضحك من أزْلكم وقنوطكم وسرعة إجابتكم » [2] وقال له رجل من العرب : إن ربنا يضحك ؟ قال « نعم » قال: لن نعدم من رب يضحك خيراً . وفي أشباه لهذا مما لم نحصه . وقال تعالى : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى ١١] ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور ٤٨] .

---

(١) يروى بتشديد الراء وتخفيفها ؛ فالتشديد بمعنى لا تتخالفون ولا تتجادلون في صحة النظر إليه لوضوحه وظهوره . وقال الجوهري : أراد بالمضارة الاجتماع والازدحام عند النظر اليه . وأما التخفيف فهو من الضير وهو لغة في الضر.

(٢) قال في النهاية : هكذا يروى في بعض الطرق. والمعروف « من إلكم » والال والازل بالفتح : الشدة والضيق ؛ كأنه أراد من شدة يأسكم وقنوطكم.

وقال : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه ٣٩] . وقال : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص ٧٥] وقال : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر ٦٧] . فوالله ما دلّهم على عظم ما وصف به نفسه وما تحيط به قبضته إلا صغر نظيرها منهم عندهم أن ذلك الذي ألقى في روعهم وخلق على معرفة قلوبهم . فما وصف الله من نفسه وسماه على لسان رسوله سميناه كما سماه ، ولم نتكلف منه علم ما سواه لا هذا ولا هذا ، لا نجحد ما وصف ، ولا نتكلف معرفة ما لم يصف . انتهى .

وإذا كان كذلك فإذا قدر أن المخلوقات كالكرة فهذا قبضه لها ورميه بها وإنما بين لنا من عظمته وصغر المخلوقات بالنسبه إليه ما يعقل نظيره منا .

ثم الذي في القرآن والحديث يبين أنه إن شاء قبضها وفعل بها ما ذكر كما يفعل ذلك يوم القيامة ، وإن شاء لم يفعل ذلك ، فهو قادر على أن يقبضها ويدحوها كالكرة ، وفي ذلك من الإحاطة بها ما لا يخفى ، وإن شاء لم يفعل ذلك ، وبكل حال فهو مباين لها ليس بمحايث لها .

ومن المعلوم أن الواحد منا – ولله المثل الأعلى – إذا كان عنده خردلة إن شاء قبضها فأحاطت بها قبضته ، وإن شاء لم يقبضها بل حولها تحته فهو في الحالتين مباين لها ، وسواء قدر أن العرش هو محيط بالمخلوقات كإحاطة الكرة بما فيها أو قيل : إنه فوقها وليس محيطا بها كوجه الأرض الذي نحن

عليه بالنسبة إلى جوفها وكالقبة بالنسبة إلى ما تحتها أو غير ذلك : فعلى التقديرين يكون العرش فوق المخلوقات والخالق سبحانه وتعالى فوقه ، والعبد في توجهه إلى الله يقصد العلو دون التحت .

وتمام هذا ببيان (المقام الثالث) وهو أن يقول : لا يخلو إما أن يكون العرش كرياً كالأفلاك ويكون محيطاً بها ، وإما أن يكون فوقها وليس هو كريا ، فإن كان الأول فمن المعلوم باتفاق من يعلم هذا أن الأفلاك مستديرة كرية الشكل ، وأن الجهة العليا هي جهة المحيط وهو المحدب ، وأن الجهة السفلى هي المركز[1] وليس للأفلاك إلا جهتان ؛ العلوُّ والسفل فقط .

وأما الجهات الست فهي للحيوان فإن له ستة جوانب يؤم جهة فتكون أمامه ويخلف أخرى فتكون خلفه ، وجهة تحاذي يمينه وجهة تحاذي شماله ، وجهة تحاذي رأسه ، وجهة تحاذي رجليه . وليس لهذه الجهات الست في نفسها صفة لازمة ، بل هي بحسب النسبة والإضافة ، فيكون يمين هذا ما يكون يسار هذا ، ويكون أمام هذا ما يكون خلف هذا ، ويكون فوق هذا

---

(١) أي لمركز الوسط من الداخل ، وهو المقعر الذي تكون جوانب المحيط بالنسبة إليه متساوية إذا كان المحيط متساوياً كمحيط الفلك عندهم ؛ لأنه كرة تامة ، وأما الأرض فهي كرة غير تامة ؛ لأن في محيطها تسطيحاً وانبطاحاً من جانبي قطبيها الشمالي والجنوبي فمركزها أقرب إليهما منه إلى سطح الأقاليم الاستوائية ، وناهيك بما فيها من الجبال ، ولكن المركز هو جهة السفل لها من كل جانب ، والسطح محيطها وهو جهة العلو من كل جانب ، وأما جهة العلو لمن على سطحها كالإنسان فهو ما فوق رأسه من السماء أينما كان .

ما يكون تحت هذا . لكن جهة العلو والسفل للأفلاك لا تتغير ، فالمحيط هو العلو والمركز هو السفل ، مع أن وجه الأرض التي وضعها الله للأنام وأرساها بالجبال هو الذي عليه الناس والبهائم والشجر والنبات والجبال والأنهار الجارية .

فأما الناحية الأخرى من الأرض فالبحر محيط بها ، وليس هناك شيء من الآدميين وما يتبعهم . ولو قدر أن هناك أحد لكان على ظهر الأرض ولم يكن من في هذه الجهة تحت من في هذه الجهة ، ولا من في هذه تحت من في هذه ، كما أن الأفلاك محيطة بالمركز وليس أحد جانبي الفلك تحت الآخر، ولا القطب الشمالي تحت الجنوبي ولا بالعكس ، وإن كان الشمالي هو الظاهر لنا فوق الأرض وارتفاعه بحسب بعد الناس عن خط الاستواء ، فما كان بعده عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلاً كان ارتفاع القطب عنده ثلاثين درجة وهو الذي يسمى عرض البلد . فكما أن جوانب الأرض المحيطة بها وجوانب الفلك المستدير ليس بعضها فوق بعض ولا تحته ، فكذلك من يكون على الأرض من الحيوان والنبات لا يقال : إنه تحت أولئك ، وإنما هذا خيال يتخيله الإنسان ، وهو تحت إضافي ، كما لو كانت نملة تحت سقف ؛ فالسقف فوقها وإن كانت رجلاها تحاذيه ، وكذلك من علق منكوساً فإنه تحت السماء ، وإن كانت رجلاه على السماء ، وكذلك قد يتوهم الإنسان إذا كان في أحد جانبي الأرض أو الفلك أن الجانب الآخر تحته (١).

---

(١) كل ما قاله شيخ الإسلام في الأرض فهو مبني على كونها كرة كما جزم به علماء الهيئة المتقدمون والمتأخرون ومن اطلع على هذا العلم وفهمه من علماء الإسلام =

وهذا أمر لا يتنازع فيه اثنان ممن يقول: إن الأفلاك مستديرة ، واستدارة الأفلاك كما أنه قول أهل الهيئة والحساب ؛ فهو الذي عليه علماء المسلمين كما ذكره أبو الحسين بن المنادى وأبو محمد بن حزم وأبو الفرج بن الجوزي وغيرهم أنه متفق عليه بين علماء المسلمين ، وقد قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء ٣٣] . قال ابن عباس في فلكة مثل فلكة المغزل ، والفلك في اللغة هو المستدير[1] ومنه قولهم: تفلك ثدي الجارية إذا استدار. وكل من جعل الأفلاك مستديرة يعلم أن المحيط هو العالي على المركز في كل جانب . ومن توهم أن من يكون في الفلك من ناحيته يكون تحته من في الفلك من الناحية الأخرى في نفس الأمر فهو متوهم عندهم .

= الأعلام . وهذه مسألة قطعية لا ظنية ، وصرح بها ابن القيم من علماء الحديث بالتبع لأستاذة المؤلف وللإمام ابن حزم واقتناعاً بأدلتها ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ ﴾ الآية . [الزمر ٥] . فإن التكوير هو اللف على الجسم الكري المستدير كتكوير العمامة على الرأس ، وكذا قوله تعالى : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ ﴾ [النازعات ٣٠] . فإن الدحو في أصل اللغة دحرجة الكرة وما في معناها . ولا يعارضه قوله تعالى : ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الغاشية ٢٠] . كما توهم الجلال وغيره ؛ لأن وجه الكرة سطح لها ، والسطح في اللغة أعم منه في عرف أهل الهندسة ، وكذلك الخط .

(١) هذا معناه العام . وأما معناه الخاص بالكواكب فهي مدار الكوكب كما تقدم في حاشية (ص ١٤ ، ١٥) وهو مستدير على كل حال سواء كان كما قال المتقدمون من اليونان والعرب أم كان فضاء ، فما نقله شيخ الإسلام من اتفاق علماء المسلمين على استدارة الأفلاك صحيح على كل حال فإن الكواكب كلها مستديرة كرية الشكل وأفلاكها التي تدور فيها كذلك ، والعالم كله كري الشكل ، وكل جرم من أجرامه يسبح دائراً في فلك له مستدير بنظام حسابي مطرد ، كما قال تعالى : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الرحمن ٥] .

وإذا كان الأمر كذلك فإذا قدر أن العرش مستدير محيط بالمخلوقات كان هو أعلاها وسقفها وهو فوقها مطلقاً ؛ فلا يتوجه إليه وإلى ما فوقه الإنسان إلا من العلو لا من جهته الباقية أصلا .

ومن توجه إلى الفلك التاسع أو الثامن أو غيره من الأفلاك من غير جهة العلو كان جاهلاً باتفاق العقلاء ، فكيف بالتوجه إلى العرش أو إلى ما فوقه ؟! وغاية ما يقدر أن يكون كري الشكل ، والله تعالى محيط بالمخلوقات كلها إحاطة تليق بجلاله (١) فإن السموات السبع في يده أصغر من الحمصة في يد أحدنا.

وأما قول القائل: إذا كان كريا والله من ورائه محيط به بائن عنه ، فما فائدة أن العبد يتوجه إلى الله حين دعائه وعبادته فيقصد العلو دون التحت ، فلا فرق حينئذ وقت الدعاء بين قصد جهة العلو وغيرها من الجهات التي تحيط بالداعي ؟ ومع هذا نجد في قلوبنا قصداً بطلب العلو ، لا نلتفت يمنة ولا يسرة فأخبرونا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا وقد فطرنا عليها.

فيقال له : هذا السؤال إنما ورد لتوهم المتوهم أن نصف الفلك يكون تحت الأرض وتحت ما على وجه الأرض من الآدميين والبهائم ، وهذا غلط عظيم ، فلو كان الفلك تحت الأرض من جهة لكان تحتها من كل جهة ، فكان يلزم أن يكون الفلك تحت الأرض مطلقاً ، وهذا قلب للحقائق ؛ إذ الفلك هو فوق الأرض مطلقاً ، وأهل الهيئة يقولون : لو أن الأرض مخروقة إلى ناحية

---

(١) أما دليل إحاطته فقوله عز وجل : ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البروج ٢٠] . وأما قوله : إحاطة تليق بجلاله فلنفي التشبيه بإحاطة الأجسام بعضها ببعض ، على قاعدة السلف التي قررها شيخ الإسلام مراراً ، وهي الإيمان بالنصوص من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تأويل .

أرجلنا وألقي في الخرق شيء ثقيل كالحجر ونحوه لكان ينتهي إلى المركز ، حتى لو ألقي من تلك الناحية حجر آخر لالتقيا جميعاً في المركز(1) ولو قدر أن إنسانين التقيا في المركز بدل الحجر لالتقت رجلاهما ولم يكن أحدهما تحت الآخر ؛ بل كلاهما فوق المركز وكلاهما تحت الفلك كالمشرق والمغرب ، فإنه لو قدر أن رجلاً بالمشرق في السماء أو الأرض ، ورجلا بالمغرب في السماء أو الأرض لم يكن أحدهما تحت الآخر ، وسواء كان رأسه أو رجلاه أو بطنه أو ظهره أو جنبه مما يلي السماء أو مما يلي الأرض ، وإذا كان مطلوب أحدهما ما فوق الفلك لم يطلبه الآخر إلا من الجهة العليا ، لم يطلبه من جهة رجليه أو يمينه أو يساره ؛ لوجهين :

(أحدهما) أن مطلوبه من الجهة العليا أقرب إليه من جميع الجهات ، فلو قدر رجل أو ملك يصعد إلى السماء أو إلى ما فوق كان صعوده مما يلي رأسه إذا أمكنه ذلك ولا يقول عاقل: إنه يخرق في الأرض ثم يصعد من تلك الناحية، ولا إنه يذهب يمينا أو شمالاً أو أماماً أو خلفاً إلى حيث أمكن من الأرض ثم يصعد ؛ لأن أي مكان ذهب إليه كان بمنزلة مكانه أو هو دونه ، وكان الفلك هناك فوقه ، فيكون ذهابه إلى الجهات الخمس تطويلاً وتعباً من غير فائدة ، ولو أن رجلاً أراد أن يخاطب الشمس والقمر فإنه لا يخاطبه إلا من الجهة العليا ، مع أن الشمس والقمر قد تشرق وقد تغرب فتنحرف عن سمت

---

(1) هذا متفق عليه بين المتقدمين والمتأخرين من علماء الفلك ، ويعللون به جاذبية الثقل : فهي تختلف بقدر بعد المحيط عن المركز ، وهو يختلف في المنطقة الاستوائية عن منطقتي القطبين ؛ كما أشرنا إليه في حاشية (ص ١٤ ، ١٥) .

الرأس ، فكيف بما هو فوق كل شيء دائماً لا يأفل ولا يغيب سبحانه وتعالى ؟!
وكما أن الحركة كحركة الحجر تطلب مركزها بأقصر طريق وهو الخط المستقيم ، فالطلب الإرادي الذي يقوم بقلوب العباد كيف يعدل عن الصراط المستقيم القريب ؟ ويعدل إلى طريق منحرف طويل ؟ والله فطر عباده على الصحة والاستقامة إلا من اجتالته الشياطين فأخرجته عن فطرته التي فطر عليها .

(الوجه الثاني) أنه إذا قصد السفل بلا علو كان منتهى قصده المركز ، وإنْ قصده أمامه أو وراءه أو يمينه أو يساره من غير قصد العلو كان منتهى قصده أجزاء الهواء فلا بد له من قصد العلو ضرورة ، سواء قصد مع ذلك هذه الجهات أو لم يقصدها ، ولو فرض أنه قال : أقصده من اليمين مع العلو، أو من السفل مع العلو كان هذا بمنزلة من يقول : أريد أن أحج من الغرب فأذهب إلى خراسان[1] ثم أذهب إلى مكة ، بل بمنزلة من يقول أصعد إلى الأفلاك فأنزل في الأرض لأصعد إلى الفلك من الناحية الأخرى ، فهذا وإن كان ممكنا في المقدار ، لكنه يستحيل من جهة امتناع إرادة القاصد له ، وهو مخالف للفطرة ، فإن القاصد يطلب مقصوده بأقرب طريق لا سيما إذا كان مقصوده معبوده الذي يعبده ويتوكل عليه . وإذا توجه إليه على غير الصراط المستقيم كان مسيره منكوساً معكوساً .

---

(١) أي من الشام – حيث كان المؤلف – إلى خراسان ، ومعلوم أن مكة في الجهة الجنوبية للشام ، وخراسان في الجهة الشرقية ؛ فالذهاب من الشام غرباً إلى خراسان في الشرق ثم إلى مكة ممكن ؛ لأن الأرض كرة ، ولكن هذا عمل لا يعمله من لا يريد بطواف أكثر محيط الأرض إلا مكة للحج إلا أن يكون مجنوناً. وإنما يفعله العاقل إذا كانت الرحلة إلى هذه الأقطار مقصودة لذاتها.

وأيضاً فإن هذا الجمع في سيره وقصده بين النفي والإثبات بين أن يتقرب إلى المقصود ويتباعد عنه ، ويريده وينفر منه ، فإنه إذا توجه إليه من الوجه الذي هو عنه أبعد وأقصى ، وعدل عن الوجه الأقرب الأدنى ، كان جامعاً بين قصدين متناقضين ، فلا يكون قصده له تاماً ؛ إذ القصد التام ينفي نقيضه وضده ، وهذا معلوم بالفطرة ، فإن الشخص إذا كان يحب النبي ﷺ محبة تامة ويقصده أو يحب غيره مما يحب – سواء كانت محبة محمودة أو مذمومة– ومتى كانت المحبة تامة ، وطلب المحبوب طلبه من أقرب طريق يصل إليه[1] بخلاف ما إذا كانت المحبة مترددة مثل أن يحب ما يكره محبته في الدين فتبقى شهوته تدعوه إلى قصده ، وعقله ينهاه عن ذلك فتراه يقصده من بعيد ، كما يقول العامة : رِجْلٌ إلى قدام ، ورِجْلٌ إلى خلف[2] . وكذلك إذا كان في دينه نقص وعقله يأمره بقصد المسجد أو الجهاد أو غير ذلك من المقصودات التي تُحبُّ في الدين ، وتكرهها النفس ، فإنه يبقى قاصداً لذلك من طريق بعيد : متباطئاً في السير ، وهذا كله معلوم بالفطرة .

وكذلك إذا لم يكن القاصد يريد الذهاب بنفسه ، بل يريد خطاب المقصود ودعاءه ونحو ذلك ؛ فإنه يخاطبه من أقرب جهة يسمع دعاءه منها وينال به مقصوده إذا كان القصد تاماً ، ولو كان رجلاً في مكان عال ، وآخر يناديه لتوجَّه إليه وناداه ولوحط رأسه في بئر وناداه بحيث يسمع صوته لكان هذا

---

(١) قوله : طلبه من أقرب طريق إلخ جواب إذا ومتى ؛ أي إذا كان يجب ما ذكر ومتى كانت محبته له تامة وطلبه بمقتضاها طلبه من أقرب طريق، وفيه ما ترى من التعقيد.

(٢) مأخوذ من المثل العربي : مالي أراك تقدِّم رجلاً وتؤخِّر أخرى.

ممكنا ، لكن ليس في الفطرة أن يفعل ذلك من يكون قصده إسماعه من غير مصلحة راجحة ولا يفعل نحو ذلك إلا عند ضعف القصد ونحوه .

وحديث الإدلاء الذي روي من حديث أبي هريرة وأبي ذر قد رواه الترمذي وغيره من حديث الحسن عن أبي هريرة وهو منقطع ، فإن الحسن لم يسمع من أبي هريرة ، ولكن يقويه حديث أبي ذر المرفوع ، فإن كان ثابتاً فمعناه موافق لهذا[1] فإن قوله « لو أدلى أحدكم بحبل لهبط على الله » إنما هو تقدير مفروض : لو وقع الإدلاء لوقع عليه ، لكنه لا يمكن أن يدلي أحد على الله شيئاً لأنه عال بالذات ، وإذا هبط شيء إلى جهة الأرض وقف في المركز ولم يصعد إلى الجهة الأخرى لكن بتقدير فرض الإدلاء ، لا يكون ما ذكر من الجزاء .

فهكذا ما ذكره السائل إذا قدر أن العبد يقصده من تلك الجهة كان هو سبحانه يسمع كلامه ، وإن كان متوجهاً إليه بقلبه ، لكن هذا ما يمتنع من الفطرة ؛ لأن قصده للشيء التام ينافي قصد ضده ؛ فكما أن الجهة العليا بالذات تنافي الجهة السفلى ، فكذلك قصد الأعلى بالذات ينافي قصده من أسفل ، فكما أن ما يهبط إلى جوف الأرض يمتنع صعوده إلى تلك الناحية ؛

---

(١) إن شيخ الإسلام يعلم أن الحديث غير ثابت ، وتقوية الضعيف بالضعيف لا يعتد بها في ثبوت حكم شرعي ؛ فعدم الاعتداد بها في صفات الله أولى ؛ ولا سيما هذه المتشابهات. ولكنه يجيب عن الإشكال فيه بفرض وقوعه ، وعبر عنه بقوله : « إن كان ثابتاً » لأن الأصل في شرط « إن » عدم الوقوع لامتناعه أو لتنزيله منزلة الممتنع كما حققناه في تفسير ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة ٢٣] من جزء التفسير الأول .

لأنها عالية فترد الهابط بعلوها ، كما أن الجهة العليا من عندنا ترد ما يصعد إليها من الثقيل فلا يصعد الثقيل إلا برافع يرفعه يدافع به ما في قوته من الهبوط ، فكذلك ما يهبط من أعلى الأرض إلى أسفلها وهو المركز ، لا يصعد من هناك إلى ذلك الوجه إلا برافع يرفعه يدافع به ما في قوته من الهبوط إلى المركز ، فإن قدر أن الرافع أقوى كان صاعداً به إلى الفلك من تلك الناحية ، وصعد به إلى الله .

وإنما يسمى هبوطاً باعتبار ما في أذهان المخاطبين أن ما يحاذي أرجلهم يكون هابطاً ويسمى هبوطاً مع تسمية إهباطه إدلاءً ، وهو إنما يكون إدلاءً حقيقياً إلى المركز ، ومن هناك إنما يكون مدخاً للحبل والدلو لا إدلاءً له (١).

لكن الجزاء والشرط مقدران لا محققان ، فإنه قال : لو أدلى لهبط ، أي لو فرض أن هناك هبوطاً وهو يكون إدلاءً وهبوطاً إذا قدر أن السموات تحت الأرض، وهذا التقدير منتفٍ ، ولكن فائدته بيان الإحاطة والعلو من كل جانب.

وهذا المفروض ممتنع في حقنا لا نقدر عليه ، فلا يتصور أن يهبط على الله شيء لكن الله قادر على أن يخرق من هنا إلى هناك بحبل ، ولكن لا يكون في حقه إدلاء فلا يكون في حقه هبوط عليه ، كما لو خرق بحبل من القطب أو من مشرق الشمس إلى مغربها ، وقدرنا أن الحبل مر في وسط الأرض فإن الله قادر على ذلك كله ، ولا فرق بالنسبة إليه على هذا التقدير بين أن

---

(١) كذا في الأصل ، والمدح لا يظهر معناه هنا ، والذي يقتضيه المقام أن يقال : إن ما يمد أو يدفع من مركز الكرة إلى جانب من المحيط يكون مده أو دفعه رفعا وإعلاءً له لا إدلاءً ؛ لأن المركز هو الأسفل ، والمحيط هو الأعلى . كما تقدم .

يخرق من جانب اليمين منا إلى جانب اليسار، أو من جهة أمامنا إلى جهة خلفنا ، ومن جهة رءوسنا إلى جهة أرجلنا إذا مر الحبل بالأرض . فعلى كل تقدير قد خرق بالحبل من جانب المحيط إلى جانبه الآخر مع خرق المركز وتقدير إحاطة قبضته بالسموات والأرض ؛ فالحبل الذي قدرأنه خرق به العالم وصل إليه ، ولا يسمى شيء من ذلك بالنسبة إليه لا إدلاءً ولا هبوطاً .

وأما بالنسبة إلينا فإن ما تحت أرجلنا تحت لنا ، وما فوق رءوسنا فوق لنا ، وما ندليه من ناحية رءوسنا إلى ناحية أرجلنا نتخيل أنه هابط[1] فإذا قدر أن أحدنا أدلى بحبل كان هابطا على ما هناك ، لكن هذا تقدير ممتنع في حقنا .

والمقصود به بيان إحاطة الخالق تعالى كما بين أنه يقبض السموات ويطوي الأرض ونحو ذلك مما فيه بيان إحاطته بالمخلوقات ؛ ولهذا قرأ في تمام هذا الحديث : ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد ٣] .

وهذا كله كلام على تقدير صحته فإن الترمذي لما رواه قال : وفسَّره بعض أهل العلم بأنه هبط على علم الله .

وبعض الحلولية والاتحادية يظن أن في هذا الحديث ما يدل على قولهم الباطل ، وهو أنه حلّ بذاته في كل مكان ، أو أن وجوده وجود الأمكنة ونحو ذلك.

---

(١) قوله : « نتخيل أنه هابط » إنما سمي هذا تخيلا ؛ لأن الجهات الست المذكورة أمور نسبية لا حقيقة ثابتة في نفسها.

والتحقيق أن الحديث لا يدل على شيء من ذلك إن كان ثابتاً ، فإن قوله : « لو دلي بحبل لهبط » يدل على أنه (١) ليس في المدلي ولا في الحبل ولا في الدلو ولا في غير ذلك ، وإنما يقتضي أنه من تلك الناحية .

وكذلك تأويله بالعلم تأويل ظاهر الفساد من جنس تأويلات الجهمية ، بل تقدير ثبوته يكون دالاً على الإحاطة ، والإحاطة قد علم أن الله قادر عليها ، وعلم أنها تكون يوم القيامة بالكتاب والسنة (٢) فليس في إثباتها في الجملة ما يخالف العقل ولا الشرع ، لكن لا نتكلم إلا بما نعلم ، وما لم نعلمه أمسكنا عنه ، وما كان مقدمة دليله مشكوكاً فيها عند بعض الناس ، كان حقه أن يشك فيه حتى يتبين له الحق ، وإلا فليسكت عما لا يعلم .

وإذا تبين هذا ، فكذلك قصده بقصده إلى تلك الناحية ، ولو فرض أنا فعلناه لكنا قاصدين له على هذا التقدير لكن قصدنا له بالقصد إلى تلك الجهة ممتنع في حقنا ؛ لأن القصد التام الجازم يوجب طلب المقصود بحسب الإمكان.

ولهذا قد بينًا في غير هذا الموضع لما تكلمنا على تنازع الناس في النية المجردة عن الفعل هل يعاقب عليها أم لا يعاقب ؟ بينًا أن الإرادة الجازمة توجب أن يفعل المريد ما يقدر عليه من المراد . ومتى لم يفعل مقدوره لم تكن

---

(١) الضمير راجع إلى الله تعالى ؛ يعني أنه لو كان تعالى في هذه الأشياء أو لو كان عينها لما صح التعبير الذي بني على أن هنالك حبلاً ودلواً وإنساناً مدلياً للدلو المعلق بالحبل ، وأن غاية فعله وصول الحبل إلى الله الذي هو غير ما ذكر.

(٢) قوله : « بالكتاب والسنة » متعلق بعلم .

إرادته جازمة بل يكون همًّا « ومن همَّ بسيئة فلم يفعلها لم تكتب عليه فان تركها للّه كتب له حسنة» ؛ ولهذا وقع الفرق بين همِّ يوسف ـ عليه السلام ـ وهمِّ امرأة العزيز كما قال الإمام أحمد : « الهمُّ همَّان : همّ خطرات ، وهمّ إصرار، فيوسف ـ عليه السلام ـ همّ همّاً تركه للّه فأثيب عنه ، وتلك همّت همّ إصرار ففعلت ما قدرت عليه من تحصيل مرادها وإن لم يحصل لها المطلوب » .

والذين قالوا : يعاقب بالإرادة ، احتجوا بقوله ﷺ : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا : يا رسول الله ، هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : « إنه أراد قتل صاحبه» وفي لفظ : « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » فهذا أراد إرادة جازمة وفعل ما يقدر عليه وإن لم يدرك مطلوبه ، فهو بمنزلة امرأة العزيز ، فمتى كان القصد جازماً لزم أن يفعل القاصد ما يقدر عليه في حصول المقصود ، وإذا كان قادراً على حصول مقصوده بطريق مستقيم امتنع مع القصد التام أن يحصله بطريق معكوس بعيد.

ولهذا امتنع في فطر العباد عند ضرورتهم ودعائهم لله تعالى وتمام قصدهم له أن يتوجهوا إليه توجها مستقيما ، فيتوجهون إلى العلو دون سائر الجهات ؛ لأنه الصراط المستقيم القريب ، وما سواه فيه من البعد والانحراف والطول ما فيه ، فمع القصد التام الذي هو حال الداعي العابد والسائر المضطر يمتنع أن يتوجه إليه إلا إلى العلو ، ويمتنع أن يتوجه إليه إلى جهة أخرى ، كما يمتنع أن يدلي بحبل يهبط عليه ، فهذا هذا، والله أعلم .

وأما من جهة الشريعة فإن الرسل صلوات الله عليهم بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها ، لا بتبديل الفطرة وتغييرها . قال ﷺ في الحديث المتفق عليه: « كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء » أي مجتمعة الخلق سوية الأطراف ليس فيها نقص كجدع وغيره « هل ترون فيها من نقص ؟ هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » .

وقال تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [الروم ٣٠] . فجاءت الشريعة بالعبادة والدعاء بما يوافق الفطرة ، بخلاف ما عليه أهل الضلال من المشركين والصابئين المتفلسفة وغيرهم فإنهم غيّروا الفطرة في العلم والإرادة جميعاً ، وخالفوا العقل والنقل ، كما قد بسطناه في غير هذا الموضع .

وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن النبي ﷺ قال : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق قِبَل وجهه فإن الله قِبَل وجهه ، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكاً ، ولكن ليبصق عن يساره أو تحت رجله » ، وفي رواية أنه أذن أن يبصق في ثوبه .

وفي حديث أبي رزين المشهور الذي رواه عن النبي ﷺ لما أخبر النبي ﷺ : « إنه ما من أحد إلا سيخلو به ربه » فقال له أبو رزين : كيف يسمعنا يا رسول الله وهو واحد ونحن جميع ؟ فقال : « سأنبئك بمثل ذلك في آلاء

الله ، هذا القمر آية من آيات الله كلكم يراه مخليا به ، فالله أكبر » ومن المعلوم أن من توجَّه إلى القمر وخاطبه إذا قدر أن يخاطبه لا يتوجه إليه إلا بوجهه مع كونه فوقه ؛ ومن الممتنع في الفطرة أن يستدبره ويخاطبه مع قصده التام له وإن كان ذلك ممكنا ، وإنما يفعل ذلك من ليس مقصوده مخاطبته كما يفعل من ليس مقصوده التوجه إلى شخص بخطاب فيعرض عنه بوجهه أو يخاطب غيره ليسمع هو الخطاب ، فأما مع زوال المانع فإنما يتوجه إليه ، فكذلك العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه يستقبل ربه وهو فوقه فيدعوه من تلقائه لا من يمينه ولا من شماله ، ويدعوه من العلو لا من السفل ، كما إذا قدر أنه يخاطب القمر.

وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيحين أنه قال : « لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم في الصلاة أو لا ترجع إليهم أبصارهم » ، واتفق العلماء على أن رفْع المصلي بصره إلى السماء منهي عنه ، وروى أحمد عن محمد بن سيرين أن النبي ﷺ كان يرفع بصره في الصلاة إلى السماء حتى أنزل الله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون ١ ، ٢] . فكان بصره لا يجاوز موضع سجوده .

فهذا مما جاءت به الشريعة تكميلا للفطرة ؛ لأن الداعي السائل الذي يؤمر بالخشوع – وهو الذل والسكون – لا يناسب حاله أن ينظر إلى ناحية من يدعوه ويسأله ، بل يناسب حاله الإطراق وغض البصر أمامه . وليس نهي المصلي عن رفع بصره في الصلاة رداً على أهل الإثبات الذين يقولون :

إنه على العرش كما يظنه بعض جهَّال الجهمية ، فإن الجهمية عندهم لا فرق بين العرش وقعر البحر فالجميع سواء ، ولو كان كذلك لم ينه عن رفع البصر إلى جهة ويؤمر بردِّه إلى أخرى ؛ لأن هذه وهذه عند الجهمية سواء .

وأيضاً فلو كان الأمر كذلك لكان النهي عن رفع البصر شاملاً لجميع أحوال العبد . وقد قال تعالى : ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة ١٤٤] فليس العبد بمنهي عن رفع بصره مطلقاً ، وإنما نهي في الوقت الذي يؤمر فيه بالخشوع ؛ لأن خفض البصر من تمام الخشوع ، كما قال تعالى : ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ [القمر ٧] . وقال تعالى : ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى ٤٥] .

وأيضاً فلو كان النهي عن رفع البصر إلى السماء وليس في السماء إله لكان لا فرق بين رفعه إلى السماء ورده إلى جميع الجهات .

ولو كان مقصوده أن ينهى الناس أن يعتقدوا أن الله في السماء أو يقصدوا بقلوبهم التوجه إلى العلو لبيَّن لهم ذلك كما بيَّن لهم سائر الأحكام ، فكيف وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا في قول سلف الأمة حرف واحد يذكر فيه أنه ليس الله فوق العرش ، أو أنه ليس فوق السماء ، أو أنه لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا محايث له ، ولا مباين له ، أو أنه لا يقصد العبد إذا دعاه العلو دون سائر الجهات ؟ بل جميع ما يقوله الجهمية من النفي ويزعمون أنه الحق ليس معهم به حرف من كتاب الله ولا سنة رسوله ولا قول أحد من سلف الأمة وأئمتها ، بل الكتاب والسنة وأقوال السلف والأئمة مملوءة بما يدل على نقض قولهم ، وهم يقولون : إن ظاهر ذلك كفر فنؤول أو نفوض .

فعلى قولهم ليس في الكتاب والسنة وأقوال السلف والأئمة في هذا الباب إلا ما ظاهره كفر ، وليس فيها من الإيمان في هذا الباب شيء .

والسلب الذي يزعمون أنه الحق الذي يجب على المؤمن أو خواص المؤمنين اعتقاده عندهم ، لم ينطق به رسول ولا نبي ولا أحد من ورثة الأنبياء والمرسلين ، والذي نطقت به الأنبياء وورثتهم ليس عندهم هو الحق بل هو مخالف للحق في الظاهر ، بل حذاقهم يعلمون [(١)] أنه مخالف للحق في الظاهر والباطن ، لكن هؤلاء منهم من يزعم أن الأنبياء لم يمكنهم أن يخاطبوا الناس إلا بخلاف الحق الباطن فلبسوا أو كذبوا لمصلحة العامة .

فيقال لهم : فهلّا نطقوا بالباطن لخواصهم الأذكياء الفضلاء إن كان ما تزعمونه حقاً ! وقد علم أن خواص الرسل هم على الإثبات أيضاً ، وأنه لم ينطق بالنفي أحد منهم إلا أن يكذب على أحدهم كما يقال عن عمر : إن النبي ﷺ وأبا بكر كانا يتحدثان وكنت كالزنجي بينهما . وهذا مختلق باتفاق أهل العلم ، وكذلك ما نقل عن علي وأهل بيته أن عندهم علماً باطناً يختلف عن الظاهر الذي عند جمهور الأمة .

وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن علي - رضي الله عنه - أنه لم يكن عندهم عن النبي ﷺ شيء ليس عند الناس ، ولا كتاب مكتوب إلا ما كان في الصحيفة ، وفيها الديات وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر[(٢)] .

---

(١) لعلّ أصل هذه الكلمة : يعتقدون ؛ لأنه ليس للجهمية علم بذلك ، بل ظنٌ ولّدته نظرياتهم الباطلة التي بيّن الشيخ بطلانها في عدة مواضع من كتبه.

(٢) وتحريم المدينة كمكة ؛ وهذه الصحيفة كتب بها هذه المسائل التي سمعها من النبي ﷺ ، وكانت معلقة في سيفه ، وقد ذكر البخاري حديثه في عدة من كتبه ؛ أولها كتاب العلم.

ثم إنه من المعلوم أن من جعله الله هادياً مبلغاً بلسان عربي مبين إذا كان لا يتكلم أبداً قط إلا بما يخالف الحق الباطن الحقيقي فهو إلى الضلال والتدليس أقرب منه إلى الهدى والبيان ، وبسط الرد عليهم له موضع غير هذا.

والمقصود أن ما جاء عن النبي ﷺ في هذا الباب وغيره كله حق يصدق بعضه بعضاً ، وهو موافق لفطرة الخلائق وما جعل فيهم من العقول الصريحة، وليس العقل الصحيح ولا الفطرة المستقيمة بمعارضة النقل الثابت عن رسول الله ﷺ ، فإنما يظن تعارضهما من صدق بباطل من المنقول وفهم منه ما لم يدل عليه ، أو إذا اعتقد شيئاً ظنه من العقليات وهو من الجهليات ، أو من المكشوفات وهو من المكسوفات ، إذا كان ذلك معارضاً لمنقول صحيح ، وإلا عارض بالعقل الصريح ، أو الكشف الصحيح ، ما يظنه منقولاً عن النبي ﷺ ويكون كذبا عليه ، أو ما يظنه لفظاً دالاً على معنى ولا يكون دالاً عليه ، كما ذكروه في قوله ﷺ : «الحجر الأسود يمين الله في الأرض فمن صافحه وقبّله فكأنما صافح الله وقبّل يمينه» حيث ظنوا أن هذا وأمثاله محتاج إلى التأويل ، وهذا غلط منهم ؛ لو كان هذا اللفظ ثابتاً عن النبي ﷺ فإن هذا اللفظ صريح في أن الحجر الأسود ليس هو من صفات الله ؛ إذ قال : هو « يمين الله في الأرض » فتقييده بالأرض يدل على أنه ليس هو يده على الإطلاق فلا يكون اليد الحقيقية . وقوله : « فمن صافحه وقبّله فكأنما صافح الله وقبّل يمينه » صريح في أن مصافحه ومقبّله ليس مصافحاً لله ولا مقبِّلاً ليمينه ؛ لأن المشبه ليس هو المشبه به ، وقد أتى بقوله «فكأنما»

وهي صريحة في التشبيه ، وإذا كان اللفظ صريحاً في أنه جعله بمنزلة اليمين لا أنه نفس اليمين ، كان من اعتقد أن ظاهره أنه حقيقة اليمين ، قائلا للكذب المبين .

فهذا كله بتقدير أن يكون العرش كري الشكل سواء كان هو الفلك التاسع أو غير الفلك التاسع ؛ وقد تبين أن سطحه هو سقف المخلوقات ، وهو العالي عليها من جميع الجوانب ، وأنه لا يجوز أن يكون شيء مما في السماء والأرض فوقه ، وأن القاصد إلى ما فوق العرش بهذا التقدير إنما يقصد إلى العلو لا يجوز في الفطرة ولا في الشريعة مع تمام قصده أن يقصد جهة أخرى من جهاته الست ، بل هو أيضاً يستقبله بوجهه مع كونه أعلى منه كما ضربه النبي ﷺ من المثل بالقمر ، ولله المثل الأعلى ، وبيَّن أن مثل هذا إذا جاز في القمر وهو آية من آيات الله فالخالق أعلى وأعظم .

وأما إذا قدِّر أن العرش ليس كري الشكل بل هو فوق العالم من الجهة التي هي وجه ، وأنه فوق الأفلاك الكرية كما أن وجه الأرض الموضوع للأنام فوق نصف الأرض الكري ، أو غير ذلك من المقادير التي يقدر فيها أن العرش فوق ما سواه وليس كري الشكل ، فعلى كل تقدير لا يتوجه إلى الله إلا إلى العلو لا إلى غير ذلك من الجهات .

فقد ظهر أنه على كل تقدير لا يجوز أن يكون التوجه إلى الله إلا إلى العلو مع كونه على عرشه مبايناً لخلقه ، وسواء قدر مع ذلك أنه محيط بالمخلوقات كما يحيط بها إذا كانت في قبضته أو قدر مع ذلك أنه فوقها من غير أن يقبضها ويحيط بها فهو على التقديرين يكون فوقها مبايناً لها .

فقد تبين أنه على هذا التقدير في الخالق وهذا التقدير في العرش لا يلزم شيء من المحذور والتناقض ، وهذا يزيل كل شبهة . وإنما تنشأ الشبهة من اعتقادين فاسدين : (أحدهما) أن يظن أن العرش إذا كان كريا والله فوقه وجب أن يكون الله كريا ، ثم يعتقد أنه إذا كان كرياً فيصح التوجه إلى ما هو كري كالفلك التاسع من جميع الجهات .

وكل من هذين الاعتقادين خطأ وضلال ؛ فإن الله تعالى مع كونه فوق العرش ومع القول بأن العرش كري سواء كان هو التاسع أو غيره لا يجوز أن يظن أنه مشابه للأفلاك في أشكالها ، كما لا يجوز أن يظن أنه مشابه لها في أقدارها ، ولا في صفاتها ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الإسراء ٤٣] .

بل قد تبين أنه أعظم وأكبر من أن تكون المخلوقات عنده بمنزلة داخل الفلك في الفلك وأنها أصغر عنده من الحمصة والفلفلة ونحو ذلك في يد أحدنا، فإذا كانت الحمصة أو الفلفلة بل الدرهم والدينار ، أو الكرة التي يلعب بها الصبيان ، ونحو ذلك في يد الإنسان أو تحته أو نحو ذلك ، هل يتصور عاقل إذا استشعر علو الإنسان على ذلك وإحاطته ، هل يكون الإنسان كالفلك؟ فالله – وله المثل الأعلى – أعظم من أن يظن ذلك به ، وإنما يظنه الذين لم يقدروا الله حق قدره ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر ٦٧] .

وكذلك اعتقادهم الثاني وهو أن ما كان فلكاً فإنه يصح التوجه إليه من الجهات الست خطأ باتفاق أهل العقل الذين يعلمون الهيئة وأهل العقل الذين يعلمون أن القصد الجازم يوجب فعل المقصود بحسب الإمكان .

فقد تبين أن كل واحدة من المقدمتين خطأ في العقل والشرع ، وأنه لا يجوز أن تتوجه القلوب إليه إلا إلى العلو لا إلى غيره من الجهات على كل تقدير يفرض من التقديرات ، سواء كان العرش هو الفلك التاسع أو غيره ، وسواء كان محيطاً بالفلك كري الشكل أو كان فوقه من غير أن يكون كرياً ، وسواء كان الخالق سبحانه محيطاً بالمخلوقات كما يحيط بها في قبضته أو كان فوقها من جهة العلو منها التي تلي رؤوسنا دون الجهة الأخرى .

فعلى أي تقدير فرض به كان كل من مقدمتي السؤال باطلة ، وكان الله تعالى إذا دعوناه إنما ندعوه بقصد العلو دون غيره كما فطرنا على ذلك ، وبهذا يظهر الجواب عن السؤال من وجوه متعددة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

((يقول محمد رشيد آل رضا صاحب منار الإسلام))

رحم الله شيخ الإسلام ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، فوالله ، إنه ما وصل إلينا من علم أحد منهم ما وصل إلينا من علمه في بيان حقيقة هذا الدين وحقية عقائده ، وموافقة العقل السليم وعلومه للنقل الصحيح من كتاب الله تعالى وسنة رسوله (ﷺ) بل لا نعرف أحداً منهم أوتي مثل ما أوتي من الجمع بين علوم النقل وعلوم العقل بأنواعها مع الاستدلال والتحقيق ، دون المحاكاة والتقليد ، وغرضه من هذا الكتاب أو

الفتوى تفنيد ما زعمه المتأولون للعرش بأنه الفلك التاسع ، من أن ذلك يعارض ما ثبت في الكتاب والسنة وأقوال أئمة الأمة من أن الله تعالى على عرشه فوق سماواته ، ومن أن الفطرة مؤيدة للشريعة في أن جهة العلو قبلة الدعاء ، فهو يثبت هذه الحقيقة على كل احتمال يمكن أن يكون عليه العرش ككونه كرياً أو قبة أو غير ذلك ، ولكنه لم يتكلم في حقيقة شكل العرش بأكثر مما ورد في كلام الله تعالى وكلام رسوله (ﷺ) ؛ لأنه من عالم الغيب الذي يجب الإيمان بما ورد فيه من النصوص بغير زيادة ولا نقصان ، ولا تأويل ولا تعطيل ، ولا تشبيه لله في علوه واستوائه عليه ولا تمثيل . ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأحزاب ٤] .

فهـــرس

كتاب عرش الرحمن

استفتاء شيخ الإسلام في العرش ، وما قيل من كونه هو الفلك التاسع عند أهل الهيئة ، وكيف يتفق ذلك مع صفة العلو لله والاستواء على العرش ؟ وما اتفقت عليه الملة من أن السماء هي قبلة الدعاء ، وأن الله تعالى لا يتوجه إليه إلا في جهة العلو .

(جواب شيخ الإسلام ، وهو في ثلاثة مقامات)

صفحة

(تم الفهرس ، ويليه القسم الأول من هذا المجموع)

(تنبيه في وقف هذا الكتاب)

إنَّ هذا المجموع من رسائل شيخ الإسلام وسائر ما طبع على نفقة صاحب الجلالة عبد العزيز الأول ملك الحجاز ونجد وملحقاتها من كتب التفسير والتوحيد والفقه والحديث وكتب علماء نجد ورسائلهم وغيرها وقف لله تعالى ؛ لا يجوز بيعه ، بل يجب أن يبذل لمن ينتفع به بغير ثمن كله .

القسم الأول من مجموعة الرسائل

كتاب مذهب السلف القويم

في تحقيق مسألة

كلام الله الكريم

مجموع من فتاوى

شيخ الإسلام ابن تيمية

وما حققه في مواضع من كتبه ومؤلفاته

أشرف على تصحيحه وعلق عليه بعض الحواشي

السيد محمد رشيد رضا

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام أبو الحسن بن عروة - رحمه الله تعالى - في الكواكب(١)

نقل من سؤال قدم من بلاد كيلان في مسألة القرآن إلى دمشق في سنة أربع وسبعمائة من جهة سلطان تلك البلاد على يد قاضيها : لأجل معرفة الحق من الباطل عندما كثر عندهم الاختلاف والاضطراب ، ورغب كل من الفريقين في قبول كلام شيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن تيمية في هذا الباب ، فأملاه شيخ الإسلام في المجلس ، وكتبه أحمد بن محمد بن مري الشافعي بخط جيِّد قوي . ثم إن كاتب هذه الأوراق اطلع على هذه الفتوى يوم الإثنين ثالث ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وثمانمائة فاخترت لنفسي منها مواضع نقلتها في هذه الأوراق ؛ إذ الجواب جواب طويل جداً .

صورة السؤال

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين - رضي الله عنهم - في قوم يقولون : إن كلام الناس وغيرهم قديم ، سواء كان الكلام(٢) صدقاً أو كذباً ، فحشاً أو غير فحش ، نظماً أو نثراً ، ولا فرق بين كلام الله عز وجل وكلامهم في القدم إلا من جهة الثواب . وقال قوم منهم ، بل أكثرهم : أصوات الحمير والكلاب كذلك لما(٣) قرئ عليهم ما نقل عن الإمام أحمد رداً على قولهم

---

(١) نقل من الجزء العشرين من الكواكب المودع في خزانة المكتبة العمومية بدمشق في المدرسة الظاهرية .

(٢) وجد في الأصل ههنا لفظة (كلام) ، وهي زائدة كما أشار إليه في حاشية نسختنا .

(٣) لعل الأصل : (ولما) .

تأولوا ذلك القول ، وقالوا : إن أحمد إنما قال ذلك خوفاً من الناس ، فهل هم مصيبون أو مخطئون ؟ فإذا كانوا مخطئين فهل على ولي الأمر - وفقه الله - ردعهم وزجرهم عن ذلك أم لا؟ وإذا وجب زجرهم فهل يكفرون إن أصرّوا ، أم لا ؟ وهل الذي نقل عن الإمام أحمد حق ، أو هو كما يزعمون ؟ أفتونا مأجورين .

أجاب الإمام العلامة شيخ الإسلام قامع البدع ومظهر الحق للخلق ، أبو العباس أحمد بن تيمية .

الحمد لله . بل هؤلاء مخطئون في ذلك خطأ محرماً فاحشاً بإجماع المسلمين ، وقد قالوا منكراً من القول وزوراً ، بل كفراً وضلالا ومحالا ، ويجب نهيهم عن هذا القول الفاحش ، ويجب على ولاة الأمور عقوبة من لم ينته منهم عن ذلك جزاءً بما كسب نكالاً من الله ، فإن هذا القول مخالف للعقل والنقل والدين ، مناقض للكتاب والسنة وإجماع المؤمنين . وهي بدعة شنيعة لم يقلها قط أحد من علماء المسلمين ، لا من علماء السنة ولا من علماء البدعة ، ولا يقولها عاقل يفهم ما يقول ، ولا يحتاج في مثل هذا الكلام الذي فساده معلوم ببداهة العقل أن يحتج له بنقل عن إمام من الأئمة ، إلا من جهة أن رده وإنكاره منقول عن الأئمة ، وأن قائله مخالف للأمة مبتدع في الدين ، ولتزول بذلك شبهة من يتوهم أن قولهم من لوازم قول أحد من السلف ، وليعلم أنهم مخالفون لمذاهب الأئمة المقتدى بهم ، بل قول الأئمة مناقض لقولهم ، فإن الأئمة كلهم نصوا على أن كلام الآدميين مخلوق ، بل

نص أحمد على أن أفعال العباد مخلوقة عموماً وعلى كلام الآدميين خصوصاً ، لم يمتنعوا عن هذا الإطلاق لأجل الشبهة التي عرضت لمثل هؤلاء المبتدعة .

ثم ساق الشيخ كلاماً طويلاً إلى أن قال : ومن المشهور في كتاب صريح السنة لمحمد بن جرير الطبري - وهو متواتر عنه - لما ذكر الكلام في أبواب السنة قال : وأما القول في ألفاظ العباد بالقرآن فلا أثر فيه نعلمه عن صحابي مضى ، ولا عن تابعي قفا ، إلا عمن في قوله الشفا والغنى ، وفي اتباعه الرشد والهدى ، ومن قام مقام الأئمة الأُول : أبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل ، فإن أبا إسماعيل الترمذي حدّثني قال : سمعت أبا عبدالله يقول : اللفظية جهمية . قال ابن جرير : سمعت جماعة من أصحابنا لا أحفظ أسماءهم يحكون عنه أنه كان يقول : من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع . قال ابن جرير : القول في ذلك عندنا لا يجوز أن يقول أحد غير قوله ؛ إذ لم يكن أمام قائم به سواه ، وفيه كفاية لكل متبع ، وقناعة لكل مقتنع ، وهو الإمام المتبع .

وقال صالح بن الإمام أحمد : بلَغ أبي أن أبا طالب يحكي عن أبي أنه يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فقال : ابعث إلى أبي طالب ، فوجهت إليه فجاء ، فقال له أبي : أنا قلت لك لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ وغضب أبي وجعل يرتعد ، فقال له : قرأت عليك ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ [الإخلاص ١] فقلت لي : هذا ليس بمخلوق ، فقال له : فلمَ حكيت عني أني قلت لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ وبلغني أنك وضعت ذلك في كتابك وكتبتْ به لي قوم ،

فإن كان في كتابك فامحه أشد المحو ، واكتب إلى القوم الذين كتبت إليهم أني لم أقل هذا ، وغضب وقال له : تحكي عني ما لم أقل؟ فجعل فوزان يعتذر إليه[1] وانصرف من عنده وهو مرعوب ، فعاد أبو طالب فذكر أنه حكَّ ذلك من كتابه ، وكتب إلى أولئك القوم يخبرأنه وهم على أبي عبدالله في الحكاية عنه. قال أبو عبدالله : القرآن حيث انصرف غير مخلوق .

وقال عبدالوهاب الوراق : من قال لفظي بالقرآن غير مخلوق فإنه يهجر ولا يكلم ويحذر منه ، وذكر الخلال في كتاب القراءة عن إسحاق بن إبراهيم قال : قال أبو عبدالله - يعني أحمد بن حنبل - يوما ، وكنت سألته عن قوله[2] : « من لم يتغن بالقرآن » قال : هو الرجل يرفع صوته به فهذا معناه إذا رفع صوته فقد تغنى به ، وعن منصور وصالح أنه قال لأبيه : يرفع صوته بالقرآن بالليل ؟ فقال : نعم إن شاء رفع ، ثم ذكر حديث أم هانيء : « كنت أسمع قراءة النبي ﷺ وأنا على عريشي من الليل » وقال الأثرم : سألت أبا عبدالله عن القراءة بالألحان فقال : كل شيء محدث فإنه لا يعجبني إلا أن يكون صوت رجل لا يتكلفه .

قال وأما قول القائل : إن أحمد قال ذلك خوفاً من الناس ؛ فبطلان هذا القول يعلمه كل عاقل بلغه شيء من أخبار أحمد ، وقائل هذا هو إلى العقوبة البليغة أحوج منه إلى جوابه لافترائه على الأئمة ، فإن الإمام أحمد صار

---

(١) كذا بالأصل ، وليحرر .

(٢) يعني قول النبي ﷺ ، وهو في سنن أبي داود بلفظ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن».

مثلاً سائراً يضرب به المثل في المحنة والصبر على الحق ، فإنه لم يكن يأخذه في الله لومة لائم ، حتى صارت الإمامة مقرونة باسمه في لسان كل أحد فيقال قال الإمام أحمد ، وهذا مذهب الإمام أحمد لقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة ٢٤] فإنه أُعطي من الصبر واليقين ما نال به الإمامة في الدين ، وقد تداوله ثلاثة خلفاء يسلطون عليه من شرق الأرض إلى غربها ومعهم من العلماء المتكلمين والقضاة والوزراء والسعاة والأمراء والولاة ما لا يحصيه إلا الله ، فبعضهم تسلط عليه بالحبس ، وبعضهم بالتهديد الشديد ، وبعضهم يعده بالقتل ، وبغيره من الرعب ، وبعضهم بالترغيب في الرياسة والمال ، وبعضهم بالنفي والتشريد من وطنه ، وقد خذله في ذلك أهل الأرض حتى أصحابه العلماء والصالحون ، وهو مع ذلك لا يجيبهم إلى كلمة واحدة مما طلبوا منه ، وما رجع عما جاء به الكتاب والسنة ولا كتم العلم ، ولا استعمل التقية ، بل قد أظهر من سنة رسول الله ﷺ وآثاره ما دفع به البدع المخالفة لذلك مما لم يتأت مثله لعالم من نظرائه ؛ ولهذا قال بعض علماء الشام : لم يظهر أحد ما جاء به الرسول كما أظهره أحمد بن حنبل ، فكيف يظن به أنه كان يخاف ؛ فقال : هذه الكلمة التي لا قدر لها ، وأيضاً فمن أصوله أنه لا يقول في الدين قولاً مبتدعاً ، فكيف بكلمة ما قالها أحد قبله !

(قال) فالمنتسبون إلى السنة والحديث وإن كانوا أصلح من غيرهم ، وفيهم من الخير ما لا يوجد في غيرهم ، فإن السنة في الإسلام كالإسلام في الملل ؛ فكما أنه يوجد في المنتسبين إلى الإسلام ما يوجد في غيرهم من

الخير ؛ فكل خير فهو في المسلمين أكثر ، وكل شر في المسلمين فهو في غيرهم أكثر ، فكذلك المنتسبون إلى السنة قد يوجد فيهم من الخير ما لا يوجد في غيرهم ، وإن كان في غيرهم خير فهو فيهم أكثر ، وكل شر فيهم فهو في غيرهم أكثر .

(قال) : ويجب القطع بأن كلام الآدميين مخلوق ، ويطلق القول بذلك إطلاقاً ، ولا يحتاج إلى تفصيل ؛ بأن يقال نظمه أو تأليفه أو غير ذلك ، وذلك لأن كلام المتكلم هو عبارة عن ألفاظه ومعانيه ، وعامة ما يوجد في كتاب الله وسنة رسوله وكلام السلف وسائر الأمم عربهم وعجمهم ، فإنه عند إطلاقه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً لشموله لهما فيقال عن كلام الله وهو القرآن ، هذا كلام الله ، وهذا كلام فلان .

(قال) : وأما الأمة الوسط الباقون على الفطرة فيقولون لما بلغه المبلغ عن غيره وأداه : هذا كلام ذاك لا كلامك وإنما بلغته بقولك ، كما قال أبو بكر الصديق لما خرج على قريش فقرأ ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾ الآية . [الروم ١ - ٣] فقالوا : هذا كلامك أو كلام صاحبك ، فقال : ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ، ولكنه كلام الله.

وفي سنن أبي داود من حديث جابر أن رسول الله ﷺ كان يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول : « ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل » فبين أن ما يبلغه ويتلوه هو كلام الله لا كلامه ، وإن كان يبلغه بأفعاله وصوته ، والأمم متفقون

على هذا إذا سمعوا من يروي قصيدة أو كلاما أو قرآنا أو مسألة قالوا : هذا كلام فلان وقوله ؛ فإنه هو الذي اتصف به وألفه وأنشأه .

(قال) : وكذلك من تبع آباءه الذين سلفوا من غير اعتصام منه بالكتاب والسنة والإجماع ، فإنه ممن ذمَّه الله في كتابه في مثل قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾[المائدة ١٠٤] وفي قوله : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا ﴿٦٧﴾ ﴾ الآية . [الأحزاب ٦٦، ٦٧] وكذلك من اتبع الظنون والأهواء معتقداً أنها عقليات وذوقيات فهو ممن قال الله فيه : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النجم ٢٣] وإنما يفصل بين الناس فيما تنازعوا فيه الكتاب المنزل من السماء ، والرسول المؤيد بالمعجزات ؛ كما قال تعالى : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [البقرة ٢١٣] وقال : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء ٥٩] وقال : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ الآية . [البقرة ١١٢] وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ الآية . [الحج ١٧] فأخبر سبحانه عمن مضى ممن كان متمسكاً بدين حق من اليهود والنصارى والصابئين ، وعن المؤمنين بعد مبعث محمد من جميع الأمم أن من تلبس بهذه الخصال من سائر الأمم وهي جماع الصلاح ، وهي الإيمان بالله والبعث والمعاد واليوم الآخر وعمل صالحاً ، وهو أداء المأمورات وترك المحظورات ، فإن له

أجره عند ربه ولا خوف عليه مما أمامه ، ولا يحزن على ما وراءه . وإسلام الوجه هو إخلاص الدين لله ، وهو عبادته وحده لا شريك له ، وهو حقيقة قول : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾[الفاتحة ٥] وهو محسن ، فالأول وهو إسلام الوجه هو النية ، وهذا الثاني وهو الإحسان هو العمل الصالح . وهذا الذي ذكره في هاتين الآيتين هو الإيمان العام والإسلام العام الذي أوجبه على جميع عباده من الأولين والآخرين ، وهو دين الله العام الذي بعث به جميع الرسل وأنزل به جميع الكتب .

فكان أول بدعة حدثت في هذه الأمة بدعة الخوارج المكفرة بالذنوب ؛ فإنهم يكفرون الفاسق الملي ، فزعمت الخوارج والمعتزلة أن الذنوب الكبيرة - ومنهم من قال والصغيرة - لا تجامع الإيمان أبداً بل تنافيه وتفسده كما يفسد الأكل والشرب الصيام ، (قالوا) : والإيمان هو فعل المأمور وترك المحظور ؛ فمتى بطل بعضه بطل كله كسائر المركبات ، فيكون العاصي كافراً ؛ لأنه ليس إلا مؤمن أو كافر ، وقالت المعتزلة : ننزله منزلة بين المنزلتين : نخرجه من الإيمان ولا ندخله في الكفر ، وقابلتهم المرجئة والجهمية ومن اتبعهم من الأشعرية والكرامية فقالوا : ليس من الإيمان فعل الأعمال الواجبة ولا ترك المحظورات البدنية ؛ فإن الإيمان لا يقبل الزيادة ولا النقصان ، بل هو شيء واحد يستوى فيه جميع المؤمنين من الملائكة والمقتصدين والمقربين والظالمين .

وأما السلف والأئمة فاتفقوا على أن الإيمان قول وعمل ، فيدخل في القول قول القلب واللسان ، وفي العمل عمل القلب والأركان ، (وقال)

المنتصرون لمذهبهم[1] : إن للإيمان أصولاً وفروعاً ، وهو مشتمل على أركان وواجبات ومستحبات بمنزلة اسم الحج والصلاة وغيرها من العبادات ، فإن اسم الحج يتناول كل ما يشرع فيه من فعل أو ترك مثل الإحرام ، ومثل ترك محظوراته ، والوقوف بعرفة ومزدلفة ومنى ، والطواف بالبيت وبين الجبلين المكتنفين له وهما الصفا والمروة ؛ ثم الحج مع هذا اشتمل على أركان متى تركت لم يصح الحج كالوقوف بعرفة ، وعلى ترك محظور متى فعله فسد حجه وهي الوطء ، ومشتمل على واجبات من فعل وترك يأثم بتركها عمدا ، ويجب مع تركها لعذر أو غيره الجبران بدم ، كالإحرام من المواقيت المكانية، والجمع بين الليل والنهار بعرفة ، وكرمي الجمار ونحو ذلك ، ومشتمل على مستحبات من فعل وترك يكمل الحج بها ولا يأثم بتركها ولا توجب دما؛ مثل رفع الصوت بالإهلال والإكثار منه ، وسوق الهدى ، وذكر الله ودعائه في تلك المواضع ، وقلة الكلام إلا في أمر أو نهي أو ذكر : من فعل الواجب وترك المحظور فقد تم حجه وعمرته لله ، وهو مقتصد من أصحاب اليمين في هذا العمل ، لكن من أتى المستحب فهو أكمل منه وأتم حجا وعملاً وهو سابق مقرب ، ومن ترك المأمور وفعل المحظور لكنه أتى بأركانه وترك مفسداته فهو ذو حج ناقص يثاب على ما فعله من الحج ويعاقب على ما تركه ، وقد سقط عنه أصل الفرض بذلك مع عقوبته على ما ترك ، ومن أخلّ بركن أو فعل مفسداً فحجه فاسد لا يسقط به فرضه بل عليه إعادته ، مع أنه قد تنازعوا في إثابته على ما فعله وإن لم يسقط به الفرض ، والأشبه أنه يثاب

---

(١) لفظ (وقال) ليست من الأصل الذي طبعنا عنه ، ولكنها ضرورية .

عليه ، فصار الحج ثلاثة أقسام : كاملا بالمستحبات، وتاماً بالواجبات فقط، وناقصا عن الواجب ، والفقهاء يقسمون الوضوء إلى كامل فقط ومجزئ ، ويريدون بالكامل ما أتى بمفروضه ومسنونه ؛ وبالمجزئ ما اقتصر على واجبه فهذا في الأعمال المشروعة وكذلك في الأعيان المشهودة فإن الشجرة مثلاً اسم لمجموع الجذع والأغصان ، وهي بعد ذهاب الورق شجرة كاملة وبعد ذهاب الأغصان شجرة ناقصة ، فليكن مثل ذلك في مسمى الإيمان .

والذين قالوا[1] الإيمان ثلاث درجات : إيمان السابقين المقربين ، وهو ما أتى فيه بالواجبات والمستحبات من فعل وترك ، وإيمان المقتصدين أصحاب اليمين وهو ما ترك صاحبه فيه بعض الواجبات ، أو فعل فيه بعض المحظورات ؛ ولهذا قال علماء السنة : لا يكفر أحد بذنب ، إشارة إلى بدعة الخوارج الذين يكفرون بالذنب ، وإيمان الظالمين لأنفسهم وهو من أقر بأصل الإيمان، وهو الإقرار بما جاءت به الرسل عن الله وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، ولم يفعل المأمورات ويجتنب المحظورات ؛ فإن أصل الإيمان التصديق والانقياد فهذا أصل الإيمان الذي من لم يأت به فليس بمؤمن ، وقد تواتر في الأحاديث « أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، مثقال حبة من خير ، مثقال ذرة من خير » و « الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون[2] شعبة ؛ أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء

---

(١) قوله : (والذين قالوا) ليس بعده ما يصلح أن يكون خبراً له ؛ فالظاهر أن أصله : وقالوا .

(٢) هذه رواية مسلم بالشك، واعتمد البخاري رواية العدد الأول، وأصحاب السنن العدد الثاني.

شعبة من الإيمان» فعلم أن الإيمان يقبل التبعيض والتجزئة ، وأن قليله يخرج به صاحبه من النار إن دخلها ، وليس كما يقوله الخارجون عن مقالة أهل السنة : إنه لا يقبل التبعيض والتجزئة بل هو شيء واحد ؛ إما أن يحصل كله وإما أن لا يحصل منه شيء .

واعلم أن عامة السور المكية التي أنزلها الله بمكة هي في هذا الإيمان العام المشترك بين الأنبياء جميعهم ، وهذا القدر المشترك هو في بعض الملل أعظم قدراً ووصفاً ، فإن ما جاء به محمد من صفات الله وأسمائه وذكر اليوم الآخر أكمل مما جاء به سائر الأنبياء ، ومنه ما تختلف فيه الشرائع والمناهج ، كالقبلة والنسك ، ومقادير العبادات ، وأوقاتها وصفاتها ، والسنن والأحكام وغير ذلك ؛ فمسمى الإيمان والدين في أول الإسلام ليس هو مسماه في آخر زمان النبوة ، بل مسماه في الآخر أكمل من مسماه في أول البعثة وأوسطها، كما قال تعالى في آخر الأمر : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة ٣] وقال بعدها : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ [المائدة ٥] ولهذا قال الإمام أحمد : كان الإيمان في أول الإسلام ناقصاً فجعل يتم . وهكذا مسمى الإيمان والدين قد يتنوع بحسب الأشخاص ، وبحسب أمر الله كلاً منهم ، وبحسب ما يفعله مما أمر به ، وبحسب إقباله وحضوره وإخلاصه ؛ فإن المؤمنين من الأولين والآخرين مشتركون في الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، ولكن بينهم تفاوت ما في القلوب إذا ذكر الله وما في اليوم الآخر ، ما تفاوت به الإيمان ، فعند ذكر الجنة والنجاة من النار ، وذم من ترك بعضه ونحو ذلك ، يزداد الإيمان الواجب لقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ

آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ الآية . [الحجرات ١٥] وقوله : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾ الآيات . [الأنفال ٢] وقوله : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع ﴾ الآية . [النور ٦٢] وقوله في الجنة : ﴿ أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ﴾ [الحديد ٢١] وقوله ﷺ : «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» الحديث ، نفي الإيمان الواجب عنه الذي يستحق به الجنة ، ولا يستلزم ذلك نفي أصل الإيمان وسائر أجزائه وشعبه . هذا معنى قولهم نفي كمال الإيمان، وحقيقة ذلك أن الكمال الواجب ليس هو الكمال المستحب المذكور في قول الفقهاء : الغسل كامل ومجزىء ، ومنه قوله عليه السلام : «من غشنا فليس منا» ليس المراد به أنه كافر كما تأولته الخوارج ، ولا أنه ليس من خيارنا كما تأولته المرجئة ، ولكن المضمر يطابق المظهر، والمظهر هو المؤمنون المستحقون للثواب ، السالمون من العذاب ، والغاش ليس منا(١) ؛ لأنه متعرض لعذاب الله وسخطه.

إذا تبين هذا فمن ترك بعض الإيمان الواجب في الجملة لعجزه عنه إما لعدم تمكنه من العلم أو لعدم تمكنه من العمل ؛ لم يكن مأموراً بما يعجز عنه ، ولم يكن ذلك من الإيمان والدين الواجب في حقه ، وإن كان من الدين والإيمان الواجب في الأصل ، بمنزلة صلاة المريض والخائف وسائر أهل الأعذار الذين يعجزون عن إتمام الصلاة ، فإن صلاتهم صحيحة بحسب ما قدروا عليه وبه أمروا ، وإن كانت صلاة القادر على الإتمام أفضل وأكمل

(١) الأظهر أن يكون ليس منهم .

كما قال النبي ﷺ : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»، رواه مسلم من حديث أبي هريرة ، وفي حديث حسن السياق : « إن الله لا يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس » ولو أمكنه العلم به دون العمل لوجب الإيمان به علما واعتقاداً وإن لم يعمل به ، (قال) : فإن الله قد بيَّن بنصوص معروفة أن الحسنات يذهبن السيئات ، وأنه من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، وأن مصائب الدنيا تكفر الذنوب ، وأنه يقبل شفاعة النبي ﷺ في أهل الكبائر ، وأنه يغفر الذنوب جميعا ، ويغفر ما دون الشرك ، وأن الصدقة يبطلها المن والأذى ، وأن الرياء يبطل العمل ، ونحو ذلك ، فجعل للسيئات ما يوجب رفع عقابها ، كما قد جعل للحسنات ما قد يبطل ثوابها ، لكن ليس شيء يبطل جميع السيئات إلا التوبة ، كما أنه ليس شيء يبطل جميع الحسنات إلا الرِّدة ، وبهذا يتبين أنا نشهد بأن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً على الإطلاق والعموم ، ولا نشهد لمعين أنه في النار ؛ لأنا لا نعلم لحوق الوعيد له بعينه ؛ لأن لحوق الوعيد بالمعين مشروط بشروط وانتفاء موانع ، ونحن لا نعلم ثبوت الشروط وانتفاء الموانع في حقه . وفائدة هذا الوعيد أن هذا الذنب سبب مقتضٍ لهذا العذاب ، والسبب قد يقف تأثيره على وجود شرطه وانتفاء مانعه .

يبين هذا أنه قد ثبت عن النبي ﷺ أنه لعن الخمر ، وعاصرها ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وشاربها ، وساقيها ، وبائعها ، ومبتاعها وآكل ثمنها . وثبت عنه في الصحيح أن رجلاً كان يكثر شرب

الخمر فلعنه رجل فقال النبي ﷺ : «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله» فنهى عن لعن هذا المعين وهو مدمن الخمر لأنه يحب الله ورسوله ، وقد لعن أولاً شاربها على العموم .

(قال) فمسألة تكفير أهل البدع والأهواء متفرعة على هذا الأصل فنبدأ بمذاهب الأئمة في ذلك قبل التنبيه على الحجة فنقول : المشهور من مذهب أحمد وعامة أئمة السنة تكفير الجهمية وهم المعطلة لصفات الرحمن ، فإن قولهم صريح في مناقضة ما جاءت به الرسل من الكتاب ، وحقيقة قولهم جحود الصانع وجحود ما أخبر به عن نفسه على لسان رسوله ، بل وجميع الرسل ؛ ولهذا قال عبدالله بن المبارك : إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية . وقال غير واحد من الائمة : إنهم أكفر من اليهود والنصارى ، وبهذا كفَّروا من يقول : إن القرآن مخلوق وإن الله لا يرى في الآخرة ، وإن الله ليس على العرش ، وإنه ليس له علم ولا قدرة ولا رحمة ولا غضب ، ونحو ذلك من صفاته . وأما المرجئة فلا تختلف نصوصه أنه لا يكفرهم ؛ فإن بدعهم من جنس اختلاف الفقهاء في الفروع ، وكذلك الذين يفضلون علياً على أبي بكر لا يختلف قوله إنه لا يكفرهم ، وذلك قول طائفة من الفقهاء ، ولكن يبدعون .

(قال) وعنه في تكفير من لم يكفر الجهمية روايتان أصحهما لا يكفر ؛ والجهمية عند كثير من السلف مثل : ابن المبارك ويوسف بن أسباط وطائفة من أصحاب أحمد ليسوا من الثلاث والسبعين فرقة التي افترقت عليها هذه الأمة ، بل أصول هذه الفرق هم الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية .

(قال) فإن الدعاء إلى المقالة أعظم من قولها[1] وإثابة قائلها ، وعقوبة تاركها أعظم من مجرد الدعاء إليها .

(قال) وفي الأدلة الشرعية ما يوجب أن الله لا يعذب من هذه الأمة مخطئاً على خطئه وإن عذب المخطئ من غير هذه الأمة ، فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «قال رجل لم يعمل حسنة قط لأهله إذا مات فحرقوه ، ثم ذروا نصفه في البر ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين ، فلما مات الرجل فعلوا به كما أمرهم ؛ فأمر الله البر فجمع ما فيه ؛ وأمر البحر فجمع ما فيه ؛ ثم قال : لم فعلت هذا ؟ قال : من خشيتك يارب وأنت أعلم ، فغفر له» . وهذا الحديث متواتر عن النبي ﷺ ؛ رواه أصحاب الصحيح والمسانيد من حديث أبي سعيد وحذيفة وعقبة بن عامر وغيرهم عن النبي ﷺ من وجوه متعددة يعلم أهل الحديث أنها تفيد العلم اليقيني وإن لم يحصل ذلك لغيرهم؛ فهذا الرجل قد وقع له الشك والجهل في قدرة الله تعالى على إعادة من يصل إلى الحالة التي أمر أهله أن يفعلوها به ، وإن من أحرق وذري لا يقدر الله أن يعيده ويحشره إذا فعل به ذلك ، وإنه ظن ذلك ظناً ولم يجزم به .

وهذان أصلان عظيمان : أحدهما متعلق بالله ، وهو الإيمان بأنه على كل شيء قدير ، والثاني متعلق باليوم الآخر ؛ وهو الإيمان بأن الله يعيد هذا الميت ولو صار إلى ما يقدر صيرورته إليه مهما كان ، فلا بد أن الله يحييه

(١) هذه الجملة تعليل لمن كفروا دعاة البدعة دون سائر أهلها، وكان ينبغي لابن عروة أن لا يحذف ذكرهم من تخليصه لكلام شيخ الإسلام .

ويجزيه بأعماله . فهذا الرجل مع هذا لما كان مؤمناً بالله في الجملة ، ومؤمناً باليوم الآخر في الجملة ، وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت ، فهذا عمل صالح ، وهو خوفه من الله أن يعاقبه على تفريطه ، غفر له بما كان معه من الإيمان بالله واليوم الآخر ، وإنما أخطأ من شدة خوفه ، كما أن الذي وجد راحلته بعد إياسه منها أخطأ من شدة فرحه .

وقد وقع الخطأ كثيراً لخلقٍ من هذه الأمة ، واتفقوا على عدم تكفير من أخطأ ، مثل ما أنكر بعض الصحابة أن يكون الميت يسمع نداء الحي ، وأنكر بعضهم أن يكون المعراج يقظة ، ولبعضهم في الخلافة والتفضيل كلام، وكذلك لبعضهم في قتال بعض وتكفير بعض أقوال معروفة ، وكان القاضي شريح ينكر قراءة من قرأ ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ [الصافات ١٢] ويقول : إن الله لا يعجب ، فبلغ ذلك إبراهيم النخعي فقال : إنما شريح شاعر يعجبه علمه ، كان عبدالله أفقه منه وكان يقرأ ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ [الصافات ١٢] فهذا قد أنكر قراءة ثابتة ، وأنكر صفة لله دلّ عليها الكتاب والسنة ، واتفقت الأمة على أن شريحا إمام من الأئمة . وكذلك بعض العلماء أنكر حروفا من القرآن كما أنكر بعضهم ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الرعد ٣١] فقال : إنما هي ﴿ أو لم ييأس الذين آمنوا ﴾ وآخر أنكر ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء ٢٣] فقال : إنما هي ﴿ ووصّى ربك ﴾ ، وبعضهم كان حذف المعوذتين . وآخر يكتب سورتي القنوت . وهذا الخطأ معفو عنه بالإجماع ، وكذلك الخطأ في الفروع العملية فإن المخطئ فيها لا يكفر ولا يفسق بل ولا يؤثم ، وإن كان بعض المتكلمة والمتفقهة يجعل المخطئ فيها آثماً . وبعض المتفقهة يعتقد أن

كل مجتهد فيها مصيب ، فهذان القولان شاذان ، ولم يقل أحد بتكفير المخطئ فيها ؛ فقد أخطأ بعض السلف فيها ؛ مثل خطأ بعضهم في بعض أنواع الربا واستحلال آخرين الخمر ، واستحلال آخرين القتال في الفتنة ، وقد قال تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء ٧٨ ، ٧٩] وفي الصحيح : «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» .

والسنة والإجماع منعقدان على أن من بلغته دعوة النبي ﷺ فلم يؤمن فهو كافر لا يقبل منه الاعتذار بالاجتهاد ؛ لظهور أدلة الرسالة وأعلام النبوة ، والنصوص إنما أوجبت رفع المؤاخذة بالخطأ لهذه الأمة ، وإذا كان كذلك فالمخطىء في بعض هذه المسائل إما أن يلحق بالكفار من المشركين وأهل الكتاب مع مباينته لهم في عامة أصول الإيمان ، وإما أن يلحق بالمخطئين في مسائل الإيجاب والتحريم مع أنها أيضاً من أصول الإيمان ، فإن الإيمان الذي يوجب الواجبات الظاهرة المتواترة ويحرّم المحرمات الظاهرة المتواترة هو أعظم أصول الإيمان وقواعد الدين ، والجاحد لها كافر بالاتفاق، مع أن المجتهد في بعضها إذا أخطأ ليس بكافر بالاتفاق ، وإذا كان لا بد من إلحاقه بأحد الصنفين فإلحاقه بالمؤمنين المخطئين أشد شبهاً من إلحاقه بالمشركين وأهل الكتاب ، مع العلم بأن كثيراً من أهل البدع منافقون النفاق الأكبر ، فما أكثر ما يوجد في الرافضة والجهمية ونحوهم زنادقة منافقون[1] وأولئك في الدرك الأسفل من النار . بل أصل هذه البدع من

(١) كذا في الأصل ، وهو محرّف ؛ فإما أن يكون أول الجملة فأكثر ما يوجد إلخ ، وإما أن يكون آخرها . (من الزنادقة المنافقين) .

المنافقين الزنادقة ممن يكون أصل زندقته مأخوذاً عن الصابئين والمشركين ، وأصل هؤلاء هو الإعراض عما جاء به الرسول من الكتاب والحكمة وابتغاء الهدى في غير ذلك ممن كان هذا أصله ، فهو يعد الرسالة إنما هي للعامة دون الخاصة ، كما يقوله قوم من المتفلسفة والمتكلمة والمتصوفة ، فنفي الصفات كفر ، والتكذيب بأن الله لا يرى في الآخرة كفر ، وإنكار أن يكون الله على العرش كفر ، وكذلك ما كان في معنى ذلك كإنكار تكليم الله لموسى واتخاذ الله إبراهيم خليلا .

(قال) فإن الجزاء في الحقيقة إنما هو في الدار الآخرة التي هي دار الثواب والعقاب ، وأما الدنيا فإنما يشرع فيها ما شرع من العقوبات دفعاً للظلم والعدوان وكسراً للنفوس العاتية الباغية ودفعاً لشر الجبار الطاغي ، وإذا كان الأمر كذلك فعقوبة الدنيا غير مستلزمة لعقوبة الآخرة ولا بالعكس ؛ ولهذا أكثر السلف على قتل الداعي إلى البدعة ؛ لما يجري على يديه من الفساد في الدين سواء قالوا : هو كافر أو ليس بكافر .

وإذا عرف هذا فتكفير المعين من هؤلاء الجهال وأمثالهم بحيث يحكم عليه بأنه مع الكفار ، لا يجوز الإقدام عليه إلا بعد أن تقوم على أحدهم الحجة بالرسالة التي يبين بها لهم أنهم مخالفون للرسول ، وإن كانت مقالتهم هذه لا ريب أنها كفر ، وهكذا الكلام في جميع تكفير المعينين ، مع أن بعض هذه البدع أشد من بعض ، وبعض المبتدعة يكون فيه من الإيمان والعمل الصالح ما ليس في بعض ، والله أعلم .

فصـــل

[في مسألة القرآن العزيز وذكر دلالة الكتاب والسنة على ما اتفق عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ومن بعدهم من أئمة المسلمين : الأئمة الأربعة وغيرهم ، والتنبيه على الأقوال التي حدثت بعد السلف الصالح كقول السلف : إن القرآن كلام الله] .

قال تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة ٦] وهو منزل من الله كما قال تعالى : ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام ١١٤] فأخبر سبحانه أنهم يعلمون ذلك ، والعلم لا يكون إلا حقا .

وقال تعالى : ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [الزمر ١] ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ [غافر ٢] ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ [فصلت ٢] وقال تعالى : ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: ١٣] وقال تعالى : ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ [طه: ١٢٩] ونحو ذلك ، وقال تعالى : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل ١٠٢] فأخبر سبحانه أنه منزل من الله ولم يخبر عن شيء أنه منزل من الله إلا كلامه ، بخلاف نزول الملائكة والمطر والحديد وغير ذلك ؛ ولهذا كان القول المشهور عن السلف أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، فإن من

قال : إنه مخلوق يقول : إنه خلق في بعض المخلوقات القائمة بنفسها ، فمن ذلك المخلوق أنزل وبدأ لم ينزل من الله ، فإخبار الله تعالى أنه منزل من الله يناقض أن يكون قد نزل من غير الله ؛ ولهذا فسّر الإمام أحمد قوله : « منه بدأ » أي : هو المتكلم ، وقال أحمد : كلام الله من الله ليس ببائن عنه ، وأيضاً فلو كان مخلوقاً في غيره لم يكن كلامه ، بل كان يكون كلاماً لذلك المخلوق فيه ، وكذلك سائر ما وصف به نفسه من الإرادة والمحبة والمشيئة والرضى والغضب والمقت وغير ذلك من الأمور ، لو كان مخلوقاً في غيره لم يكن الرب تعالى متصفاً به ، بل كان يكون صفة لذلك المحل ، فإن المعنى إذا قام بمحل كان صفة لذلك المحل ولم يكن صفة لغيره فيمتنع أن يكون المخلوق أو الخالق موصوفاً بصفة موجودة قائمة بغيره لأنه فطر ذلك(١) ما وصف به نفسه من الأفعال اللازمة يمتنع أن يوصف الموصوف بأمر لم يقم به . وهذا مبسوط في مواضع أخر .

ومن قول السلف : إن الناس من الله تعالى كما يقول ذلك بعض المتأخرين، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ [آل عمران ١٦٤] وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال لي النبي ﷺ : « اقرأ عليَّ القرآن » قلت : أقرأ عليك وعليك أُنزِل ؟ قال : « إني أحب أن أسمعه من غيري » ، فقرأت عليه سورة النساء ، حتى بلغت إلى هذه الآية ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء ٤١]

---

(١) قوله : (لأنه فطر ذلك) ليس له معنى ؛ فلا بد أن يكون محرّفاً ، وما قبله وما بعده سيأتي بيانه في مواضيع أخرى من هذه المباحث كما أشار إليه في قوله : وهذا مبسوط في مواضع أخر .

قال : « حسبك » فنظرت فإذا عيناه تذرفان من البكاء ، والنبي ﷺ سمعه من الله تعالى ، كما نص على ذلك أحمد وغيره من الأئمة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة ٩٧] وقال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء ١٩٣ - ١٩٥] وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [النحل ١٠١، ١٠٢] فأخبر سبحانه أنه نزله روح القدس - وهو الروح الأمين وهو جبريل - من الله بالحق ، ولم يقل أحد من السلف أن النبي ﷺ سمعه من الله ، وإنما قال ذلك بعض المتأخرين ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة ١٧ - ١٩] هو كقوله تعالى : ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ [القصص ٣] وقوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ ﴾ [يوسف ٣] ونحو ذلك مما يكون الرب فعله بملائكته، فإن لفظ (نحن) هو للواحد المطاع الذي له أعوان يطيعونه، فالرب تعالى خلق الملائكة وغيرها تطيعه الملائكة أعظم مما يطيع المخلوق أعوانه ، فهو سبحانه أحق باسم نحن ، وفعلنا ، ونحو ذلك من كل ما يستعمل .

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدة وكان مما يحرك شفتيه ، فقال ابن عباس : أنا أحركهما لك كما كان رسول الله ﷺ يحركهما . وقال سعيد بن جبير : أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما ، فحرك شفتيه فأنزل الله ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ

به ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ ﴾ [القيامة ١٦ ، ١٧] قال : جمعه لك في صدرك وتقرأه ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ﴾ [القيامة ١٨] فإذا قرأه رسولنا، وفي لفظ : فإذا قرأه جبريل فاستمعْ له وأنصت ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة ١٩] أي نقرؤه . فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه.

وقد بينَّ الله تعالى أنواع تكليمه لعباده في قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ [الشورى ٥١] فبيَّن سبحانه أن التكليم تارة يكون وحياً ، وتارة من وراء حجاب كما كلَّم موسى ، وتارة يرسل رسولاً فيوحي الرسول بإذن الله ما يشاء ، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج ٧٥] فإذا أرسل الله تعالى رسولاً كان ذلك مما يكلم به عباده فيتلوه عليهم وينبئهم به كما قال تعالى : ﴿ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾[التوبة ٩٤] وإنما نبأهم بوساطة الرسول ، والرسول مبلغ به ، كما قال تعالى: ﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ ﴾ [الجن ٢٨] وقال تعالى : ﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ ﴾ [الجن ٢٨] وقال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النور ٥٤] والرسول أمر أمته بالتبليغ عنه ؛ ففي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال : « بلِّغوا عني ولو آية ، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » وقال ﷺ ، لما خطب المسلمين : «ليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أوعي من سامع» وقال ﷺ : «نضَّر الله امرأ سمع منا حديثا فبلغه إلى من لم يسمعه ، فرب حامل فقه

وهو غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» وفي السنن عن جابر قال كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول : « ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلِّغ كلام ربي فإن قريشا منعوني أن أبلِّغ كلام ربي » وكما لم يقل أحد من السلف إنه مخلوق فلم يقل أحد منهم إنه قديم ، لم يقل واحداً من القولين أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا من بعدهم من الائمة الأربعة ولا غيرهم ، بل الآثار متواترة عنهم بأنهم كانوا يقولون : القرآن كلام الله ، ولما ظهر من قال إنه مخلوق قالوا رداً لكلامه : إنه غير مخلوق ، ولم يريدوا بذلك أنه مفترى كما ظنه بعض الناس ، فإن أحداً من المسلمين لم يقل إنه مفترى بل هذا كفر ظاهر يعلمه كل مسلم، وإنما قالوا : إنه مخلوق خلقة الله في غيره ، فردَّ السلف هذا القول ، كما تواترت الآثار عنهم بذلك ، وصنف في ذلك مصنفات متعددة ، وقالوا : منه بدأ وإليه يعود.

وأول من عُرِف أنه قال مخلوق ؛ الجعد بن درهم ، وصاحبه الجهم بن صفوان ، وأول من عُرِف أنه قال هو قديم ؛ عبدالله بن سعيد بن كلاب ، ثم افترق الذين شاركوه في هذا القول ؛ فمنهم من قال : الكلام معنى واحد قائم بذات الرب ومعنى القرآن كله والتوراة والإنجيل وسائر كتب الله وكلامه هو ذلك المعنى الواحد الذي لا يتعدد ولا يتبعض ، والقرآن العربي لم يتكلم الله به بل هو مخلوق خلقه في غيره . وقال جمهور العقلاء : هذا القول معلوم الفساد بالاضطرار فإنه من المعلوم بصريح العقل أن معنى آية الكرسي ليس معنى آية الدين ، ولا معنى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ [الإخلاص ١] معنى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد ١] فكيف بمعاني كلام الله كله في الكتب المنزلة وخطابه لملائكته وحسابه لعباده

يوم القيامة وغير ذلك من كلامه ! ومنهم من قال : هو حروف أو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لذاته لم يزل ولا يزال يقول : يا نوح ، يا إبراهيم ، يا أيها المزمل ، يا أيها المدثر ، كما قد بسطت أقوالهم في غير هذا الموضع ، ولم يقل أحد من السلف بواحد من القولين ، ولم يقل أحد من السلف: إن هذا القرآن عبارة عن كلام الله ولا حكاية له، ولا قال أحد منهم : إن لفظي بالقرآن قديم أو غير مخلوق ، فضلاً عن أن يقول : إن صوتي به قديم أو غير مخلوق ، بل كانوا يقولون بما دلّ عليه الكتاب والسنة من أن هذا القرآن كلام الله ، والناس يقرأونه بأصواتهم ، ويكتبونه بمدادهم ، وما بين اللوحين كلام الله ، وكلام الله غير مخلوق.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : «لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو» وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢)﴾ [البروج ٢١، ٢٢] والمداد الذي يكتب به القرآن مخلوق ، والصوت الذي يقرأ به هو صوت العبد ، والعبد وصوته وحركاته وسائر صفاته مخلوقة ، فالقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الباريء ، والصوت الذي يقرأ به العبد صوت القاريء ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة ٦] وقال النبي ﷺ : «زيِّنوا القرآن بأصواتكم» ؛ فبيِّن أن الأصوات التي يُقرأ بها القرآن أصواتنا ، والقرآن كلام الله ؛ ولهذا قال أحمد ابن حنبل وغيره من أئمة السنة : يحسّنه الإنسان بصوته كما قال أبو موسى الأشعري للنبي ﷺ : لو علمت أنك تسمع لحبّرته لك تحبيراً . فكان ما قاله أحمد وغيره من أئمة السنة من أن الصوت صوت العبد موافقاً للكتاب والسنة،

وقد قال تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان ١٩] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات ٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات ٣] . وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف ١٠٩] ففرق سبحانه بين المداد الذي تكتب به كلماته وبين كلماته ، فالبحر وغيره من المداد الذي تكتب به الكلمات مخلوق ، وكلمات الله غير مخلوق . وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان ٢٧] فالأبحر إذا قدرت مداداً تنفد ، وكلمات الله لا تنفد ؛ ولهذا قال أئمة السنة : لم يزل الله متكلما كيف شاء وبما شاء كما ذكرت الآثار بهذه المعاني عن ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما .

هذا ؛ وقد أخبر سبحانه عن نفسه بالنداء في أكثر من عشرة مواضع ، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف ٢٢] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص ٦٢] ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص ٦٥] وذكر سبحانه نداءه لموسى - عليه السلام - في سورة طه ، ومريم والطس الثلاث ، وفي سورة والنازعات ، وأخبر أنه ناداه في وقت بعينه فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص ٣٠] وقال تعالى:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ [النازعات ١٥، ١٦] وقال تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص ٤٦] واستفاضت الآثار عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة السنة أنه سبحانه ينادي بصوت ، نادى موسى وينادي عباده يوم القيامة بصوت ، ويتكلم بالوحي بصوت ، ولم ينقل عن أحد من السلف أنه قال : إن الله يتكلم بلا صوت أو بلا حرف ، ولا أنه أنكر أن يتكلم الله بصوت أو بحرف ، كما لم يقل أحد منهم : إن الصوت الذى سمعه موسى قديم ، ولا أن ذلك النداء قديم ، ولا قال أحد منهم : إن هذه الأصوات المسموعة من القراء هي الصوت الذى تكلم الله به ، بل الآثار مستفيضة عنهم بالفرق بين الصوت الذى يتكلم الله به وبين أصوات العباد.

وكان أئمة السنة يعدّون من أنكر تكلمه بصوت من الجهمية؛ كما قال الإمام أحمد لما سئل عمن قال : إن الله لا يتكلم بصوت ، فقال : هؤلاء جهمية ، إنما يدورون على التعطيل ـ وذكر بعض الآثار المروية في أنه سبحانه يتكلم بصوت ـ وقد ذكر من صنف في السنة من ذلك قطعة كما (١) من ذلك قطعة ، وعلى ذلك ترجم عليه البخارى في صحيحه قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ ٢٣] وقد ذكر البخارى في كتاب خلق الأفعال مما يبين به الفرق بين الصوتين آثارا متعددة . وكانت محنة البخاري مع أصحابه محمد بن يحي الذهلي وغيره بعد موت أحمد بسنين ولم يتكلم أحمد في البخاري إلا بالثناء عليه ، ومن نقل عن أحمد أنه تكلم في البخاري بسوء فقد افترى عليه.

---

(١) بياض في الأصل .

وقد ذكر الشيخ أبو الحسن محمد بن عبدالملك الكرخي في كتابه الذي سمّاه (الفصول في الأصول) قال: سمعت الإمام أبا منصور محمد بن أحمد يقول : سمعت أباحامد الإسفراييني يقول : مذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الأمصار أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر ، والقرآن حمله جبريل مسموعاً من الله ، والنبي ﷺ سمعه من جبريل ، والصحابة سمعوه من رسول الله ﷺ ، وهو الذي نتلوه نحن بألسنتنا ، وفيما بين الدفتين ، وما في صدورنا مسموعاً ومكتوباً ومحفوظاً ، وكل حرف منه كالباء والتاء كّله كلام الله غير مخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر ، عليه لعائن الله والناس أجمعين .

وقد كان طائفة من أهل الحديث والمنتسبين إلى السنة تنازعوا في اللفظ بالقرآن ؛ هل يقال : إنه مخلوق ؟ ، ولما حدث الكلام في ذلك أنكرت أئمة السنة كأحمد بن حنبل وغيره أن يقال : لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق ، وقالوا من قال : إنه مخلوق فهو جهمي ، ومن قال : إنه غير مخلوق فهو مبتدع . وأما صوت العبد فلم يتنازعوا أنه مخلوق ، فإن المبلغ لكلام غيره بلفظ صاحب الكلام إنما بلغ غيره ، كما يقال : روى الحديث بلفظه ، وإنما يبلغه بصوت نفسه لا بصوت صاحب الكلام .

واللفظ ـ في الأصل ـ مصدر لفظ يلفظ لفظاً ، وكذلك التلاوة والقراءة مصدران ، لكن شاع استعمال ذلك في نفس الكلام الملفوظ المقروء المتلو[1]

---

(١) يعبر عن الأول بالمعنى المصدري ، وعن الثاني بالحاصل بالمصدر .

وهو المراد باللفظ في إطلاقهم . فإذا قيل لفظي أو اللفظ بالقرآن مخلوق أشعر أن هذا القرآن الذي يقرؤه ويلفظ به مخلوق ، وإذا قيل لفظي غير مخلوق ، أشعر أن شيئاً مما يضاف إليه غير مخلوق ، وصوته وحركته مخلوقان ، لكن كلام الله الذي يقرؤه غير مخلوق ، والتلاوة قد يراد بها نفس الكلام الذي يتلى وقد يراد بها نفس حركة العبد ، وقد يراد بها مجموعها ؛ فإذا أريد بها الكلام نفسه الذي يتلى فالتلاوة هي المتلو ، وإذا أريد بها حركة العبد فالتلاوة ليست هي المتلو ، وإذا أريد بها المجموع فهي متناولة للفعل والكلام فلا يطلق عليها أنها المتلو ولا أنها غيره .

ولم يكن أحد من السلف يريد بالتلاوة مجرد قراءة العباد ، وبالمتلو مجرد معنى واحد يقوم بذات الباري تعالى ، بل الذي كانوا عليه أن القرآن كلام الله تكلم الله به بحروفه ومعانيه ليس شيء منه كلاما لغيره ، لا لجبريل ولا لمحمد ولا لغيرهما ، بل قد كفَّر الله من جعله قول البشر ، مع أنه سبحانه أضافه تارة إلى رسول من البشر وتارة إلى رسول من الملائكة، فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الحاقة ٤٠ - ٤٣] فالرسول هنا محمد ﷺ ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [التكوير ١٩ - ٢٧]

فالرسول هنا جبريل ، وأضافه سبحانه إلى كل منهما باسم رسول ؛ لأن ذلك يدل على أنه مبلغ له عن غيره، وأنه رسول فيه لم يحدث هو شيئاً منه ؛ إذ لو كان قد أحدث منه شيئاً لم يكن رسولاً فيما أحدثه بل كان منشئاً له من تلقاء نفسه ، وهو سبحانه يضيف إلى رسول من الملائكة تارة ومن البشر تارة ؛ فلو كانت الإضافة لكونه أنشأ حروفه لتناقض الخبران ، فإن إنشاء أحدهما له يناقض إنشاء الآخر له ، وقد كفَّر الله تعالى من قال : إنه قول البشر ، فمن قال : إن القرآن أو شيئاً منه قول بشر أو ملك فقد كذب ، ومن قال : إنه قول رسول من البشر ومن الملائكة بلغَّه عن مرسله ليس قول (١) ولم يقل أحد من السلف أن جبريل أحدث ألفاظه ولا محمداً ﷺ ولا أن الله تعالى خلقها في الهواء أو غيره من المخلوقات ، ولا أن جبريل أخذها من اللوح المحفوظ ؛ بل هذه الأقوال هي من أقوال بعض المتأخرين ، وقد بسط الكلام في غير هذا الموضع على تنازع المبتدعين الذين اختلفوا في الكتاب وبين فساد أقوالهم ، وأن القول السديد هو قول السلف ؛ وهو الذي يدل عليه النقل الصحيح والعقل الصريح ، وإن كان عامة هؤلاء المختلفين في الكتاب لم يعرفوا القول السديد قول السلف ، بل ولا سمعوه ولا وجدوه في كتاب من الكتب التي يتداولونها ؛ لأنهم لا يتداولون الآثار السلفية ولا معاني الكتاب والسنة إلا بتحريف بعض المحرفين لها ؛ ولهذا إنما يذكر أحدهم أقوالاً

---

(١) بياض بالأصل ، والمعنى يقتضي أن يكون المحذوف : (ليس قولاً أنشأه من عنده ، فقد صدق) .

مبتدعة إما قولين وإما ثلاثة وإما أربعة وإما خمسة ، والقول الذي كان عليه السلف ودل عليه الكتاب والسنة لا يذكره ؛ لأنه لا يعرفه ؛ ولهذا نجد الفاضل من هؤلاء حائراً مقراً بالحيرة على نفسه وعلى من سبقه من هؤلاء المختلفين ؛ لأنه لم يجد فيما قالوه قولاً صحيحاً .

وكان أول من ابتدع الأقوال الجهمية المحضة النفاة الذين لا يثبتون الأسماء والصفات ، فكانوا يقولون أولا : إن الله تعالى لا يتكلم ؛ بل خلق كلاماً في غيره ، وجعل غيره يعبر عنه ، وإن قوله تعالى : ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ [الشعراء ١٠] وقول النبي ﷺ : «إن الله ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة إذا بقي ثلث الليل ، فيقول : من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟» معناه أن ملكاً يقول ذلك عنه ، كما يقال : نادى السلطان ، أي أمر منادياً نادى عنه ، فإذا تلي عليهم ما أخبر الله تعالى به عن نفسه من أنه يقول ويتكلم . قالوا : هذا مجاز ؛ كقول العربي : امتلأ الحوض وقال قطني ، وقالت(١) اتساع بطنه ونحو ذلك .

فلما عرف السلف حقيقته ، وأنه مضاه لقول المتفلسفة المعطلة الذين يقولون : إن الله تعالى لم يتكلم ، وإنما أضافت الرسل إليه الكلام بلسان الحال كفروهم وبينوا ضلالهم ، ومما قالوا لهم : إن المنادي عن غيره كمنادي السلطان يقول : أمر السلطان بكذا ، خرج مرسومه بكذا ، لا يقول : إني آمركم بكذا وأنهاكم عن كذا ، والله تعالى يقول في تكليمه لموسى :

---

(١) كذا في الأصل ، والظاهر أنه سقط منه شيء .

﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ ﴾ [طه ١٤] ويقول تعالى : إذا نزل ثلث الليل الغابر : « من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه، من يستغفر فأغفر له»، وإذا كان القائل ملكاً قال – كما في الحديث الذي في الصحيحين – : « إذا أحب الله العبد نادى في السماء : يا جبريل ؛ إني أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، وينادي في السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول في الأرض » فقال جبريل في ندائه عن الله تعالى : إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، وفي نداء الرب يقول : « من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ » فإن قيل : فقد روي أنه يأمر منادياً فينادي ، قيل هذا ليس في الصحيح ، فإن صح أمكن الجمع بين الخبرين بأن ينادي هو ويأمر منادياً ينادي . أما أن يعارض بهذا النقل النقل الصحيح المستفيض الذي اتفق أهل العلم بالحديث على صحته وتلقِّيه بالقبول مع أنه صريح في أن الله تعالى هو الذي يقول : « من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ » فلا يجوز .

وكذلك جهم كان ينكر أسماء الله تعالى فلا يسمِّيه شيئاً ولا حيا ولا غير ذلك إلا على سبيل المجاز . قال : لأنَّه إذا سمي باسم تسمى به المخلوق كان تشبيهاً ، وكان جهم مجبراً يقول : إن العبد لا يفعل شيئاً ؛ فلهذا نقل عنه أنه سمى الله قادراً ؛ لأن العبد عنده ليس بقادر .

ثم إن المعتزلة الذين اتبعوا عمرو بن عبيد على قوله في القدر والوعيد دخلوا في مذهب جهم ، فأثبتوا أسماء الله تعالى ولم يثبتوا صفاته ، وقالوا :

نقول : إن الله متكلم حقيقة ، وقد يذكرون إجماع المسلمين على أن الله متكلم حقيقة ؛ لئلا يضاف إليهم أنهم يقولون : إنه غير متكلم ، لكن معنى كونه سبحانه متكلماً عندهم أنه خلق الكلام في غيره ، فمذهبهم ومذهب الجهمية في المعنى سواء ، لكن هؤلاء يقولون : هو متكلم حقيقة ، وأولئك ينفون أن يكون متكلماً حقيقة . وحقيقة قول الطائفتين أنه غير متكلم ، فإنه لا يعقل متكلم إلا من قام به الكلام ، ولا مريد إلا من قامت به الإرادة ، ولا محب ولا راض ولا مبغض ولا رحيم إلا من قامت به الإرادة والمحبة والرضى والبغض والرحمة ، وقد وافقهم على ذلك كثير ممن انتسب في الفقه إلى أبي حنيفة من المعتزلة . وغيرهم من أئمة المسلمين ليس فيهم من يقول بقول المعتزلة لا في نفي الصفات ، ولا في القدر ، ولا المنزلة بين المنزلتين ، ولا إنفاذ الوعيد .

ثم تنازع المعتزلة والكلابية في حقيقة المتكلم؛ فقالت المعتزلة: المتكلم من فعل الكلام ولو أنه أحدثه في غيره ؛ ليقولوا : إن الله يخلق الكلام في غيره وهو متكلم به وقالت الكلابية : المتكلم من قام به الكلام وإن لم يكن متكلماً بمشيئته وقدرته ولا فعل فعلاً أصلاً، بل جعلوا المتكلم بمنزلة الحي الذي قامت به الحياة ، وإن لم تكن حياته بمشيئته ولا قدرته ولا حاصلة بفعل من أفعاله .

وأما السلف وأتباعهم وجمهور العقلاء فالمتكلم المعروف عندهم من قام به الكلام وتكلم بمشيئته وقدرته ، لا يعقل متكلم لم يقم به الكلام ، ولا يعقل متكلم بغير مشيئته وقدرته ، فكان كل من تينك الطائفتين المبتدعتين أخذت بعض وصف المتكلم : المعتزلة أخذوا أنه فاعل ، والكلابية أخذوا أنه محل الكلام ، ثم زعمت المعتزلة أنه يكون فاعلاً للكلام في غيره ،

وزعموا هم ومن وافقهم من أتباع الكلابية ؛ كأبي الحسن [1] وغيره أن الفاعل لا يقوم به الفعل ، وكان هذا مما أنكره السلف وجمهور العقلاء ، وقالوا : لا يكون الفاعل إلا من قام به الفعل ، وأنه يفرق بين الفاعل والفعل والمفعول ، وذكر البخاري في كتاب خلق أفعال العباد إجماع العلماء على ذلك ، والذين قالوا: إن الفاعل لا يقوم به الفعل ، وقالوا مع ذلك : إن الله فاعل أفعال العباد كأبي الحسن [1] وغيره أن يكون الرب [2] هو الفاعل لفعل العبد ، وأن العبد لم يفعل شيئاً ، وأن جميع ما يخلقه العبد فعل له ، وهم يصفونه بالصفات الفعلية المنفصلة عنه ويقسمون صفاته إلى صفات ذات ، وصفات أفعال ، مع أن الأفعال عندهم هي المفعولات المنفصلة عنه فلزمهم أن يوصف بما خلقه من الظلم والقبائح مع قولهم : إنه لا يوصف بما خلقه من الكلام وغيره ؛ فكان هذا تناقضاً منهم تسلطت به عليهم المعتزلة . ولما قرروا ما هو من أصول أهل السنة ، وهو أن المعنى إذا قام بمحل اشتق له منه اسم ولم يشتق لغيره منه اسم كاسم المتكلم نقض عليهم المعتزلة ذلك باسم الخالق والعادل فلم يجيبوا عن النقض بجواب سديد .

وأما السلف والأئمة فأصلهم مطرد، ومما احتجوا به على أن القرآن غير مخلوق ما احتج به الإمام أحمد وغيره من قول النبي ﷺ : « أعوذ بكلمات الله

---

(١) أبو الحسن الأشعري .

(٢) كذا في الأصل ، ولعله سقط منه شيء « كأنكروا » فإنهم يقولون : إن العبد هو الفاعل لفعله من أكل وشرب ونوم ، ولو كان الله هو الفاعل لذلك لوجب أن يقال : إنه هو الآكل الشارب النائم ؛ لأن الفاعل من قام به الفعل .

التامات » قالوا : والمخلوق لا يستعاذ به ، فعورضوا بقوله : « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك» فطرد السلف والأئمة أصلهم وقالوا : معافاته فعله القائم به ، وأما العافية الموجودة في الناس فهي مفعولة.

وكذلك قالوا : إن الله خالق أفعال العباد ؛ فأفعال العباد القائمة بهم مفعولة له لا نفس فعله ، وهي نفس فعل العبد ، وكان حقيقة قول أولئك نفي فعل الرب ونفي فعل العبد . فتسلطت عليهم المعتزلة في مسألة الكلام والقدر تسلطاً بينوا به تناقضهم كما بينوا هم تناقض المعتزلة .

وهذا أعظم ما يستفاد من أقوال المختلفين الذين أقوالهم باطلة ؛ فإنه يستفاد من قول كل طائفة بيان فساد قول الطائفة الأخرى ، فيعرف الطالب فساد تلك الأقوال : ويكون ذلك داعياً له إلى طلب الحق ، ولا تجد الحق إلا موافقاً لما جاء به الرسول ﷺ ولا تجد ما جاء به الرسول إلا موافقاً لصريح المعقول ، فيكون ممن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وممن له قلب يعقل به وأذن يسمع بها ، بخلاف الذين قالوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك: ١٠] .

وقد وافق الكلابية على قولهم كثيرٌ من أهل الحديث والتصوف ومن أهل الفقه المنتسبين إلى الأئمة الأربعة وليس من الأئمة الأربعة ، وأمثالهم من أئمة المسلمين من يقول بقولهم .

وحدث مع الكلابية ونحوهم طوائف أخرى من الكرامية وغير الكرامية من أهل الفقه والحديث والكلام فقالوا : إنه سبحانه متكلم بمشيئته وقدرته

كلاماً قائماً بذاته ، وهو يتكلم بحروف وأصوات بمشيئته وقدرته ، ليتخلصوا بذلك من بدعتي المعتزلة والكلابية . لكن قالوا : إنه لم يكن يمكنه في الأزل أن يتكلم بل صار الكلام ممكناً له بعد أن كان ممتنعاً عليه ، من غير حدوث سبب أوجب إمكان الكلام وقدرته عليه ، وهذا القول مما وافق الكرامية عليه كثير من أهل الكلام والفقه والحديث ، لكن ليس من الأئمة الأربعة ونحوهم من أئمة المسلمين من نقل عنه مثل قولهم . وهذا مما شاركوا فيه الجهمية والمعتزلة يقولون : إنه خلق كلاماً في غيره من غير أن يقوم به كلام ؛ لأنه لو قام به كلام بمشيئته وقدرته لقامت به الحوادث قالوا ولا تقوم به الحوادث . قالت الجهمية والمعتزلة لأن الحوادث هي من جملة الصفات التي يسمونها الأعراض ؛ وعندهم لا يقوم به شيء من الصفات قالوا لأن الصفات أعراض ، والعرض لا يقوم إلا بجسم وليس هو بجسم؛ لأن الجسم لا يخلو من الحوادث ، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ، وقالت الكلابية : بل تقوم به الصفات ولا تقوم به الحوادث ، ونحن لا نسمي الصفات أعراضاً ؛ لأن العرض عندنا لا يبقى زمانين ، وصفات الله تعالى باقية . وقالوا : وأما الحوادث فلو قامت به لم يخل منها ؛ لأن القابل للشيء لا يخلو منه ومن ضده ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث .

فقال الجمهور المنازعون للطائفتين : أما قول أولئك : إنه لا تقوم به الصفات؛ لأنها أعراض ، والعرض لا يقوم إلا بجسم وليس بجسم ، فتسمية ما يقوم بغيره عرضاً اصطلاح حادث ، وكذلك تسمية ما يشار إليه جسماً

اصطلاح حادث أيضاً ، والجسم في لغة العرب هو البدن ، وهو الجسد كما قال غير واحد من أهل اللغة ؛ منهم الأصمعي وأبو عمرو، فلفظ الجسم يشبه لفظ الجسد وهو الغليظ الكثيف. والعرب تقول : هذا جسيم، وهذا أجسم من هذا أي أغلظ منه . قال تعالى : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ [البقرة ٢٤٧] وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [المنافقون ٤] ثم قد يراد بالجسم نفس الغلظ والكثافة ، ويراد به الغليظ الكثيف .

وكذلك النظار يريدون بلفظ الجسم تارة المقدار ، وقد يسمونه الجسم التعليمي ، وتارة يريدون به الشيء المقدر وهو الجسمي الطبيعي ، والمقدار المجرد عن المقدر كالعدد المجرد عن المعدود ، وذلك لا يوجد إلا في الأذهان دون الأعيان ؛ وكذلك السطح والخط والنقطة المجردة عن المحل الذي تقوم به لا يوجد إلا في الذهن ؛ قالوا : وإذا كان هذا معنى الجسم بلغة العرب فهو أخص من المشار إليه ، فإن الروح القائمة بنفسها لا يسمونها جسماً ، بل يقولون : خرجت روحه من جسمه . ويقولون : إنه جسم وروح ولا يسمون الروح جسماً ، ولا النفس الخارج من الإنسان جسماً ، لكن أهل الكلام اصطلحوا على أن كل ما يشار إليه يسمى جسماً ، كما اصطلحوا على أن كل ما يقوم بنفسه يسمى جوهراً ، ثم تنازعوا في أن كل ما يشار إليه هل هو مركب من الجواهر الفردة ، أو من المادة والصورة ، أو ليس مركباً لا من هذا ولا من هذا؟ على أقوال ثلاثة قد بسطت في غير هذا الموضع ؛ ولهذا كان كثير منهم يقولون : الجسم عندنا هو القائم بنفسه أو هو الموجود لا المركب .

قال أهل العلم والسنة : فإذا قالت الجهمية وغيرهم من نفاة الصفات : إن الصفات لا تقوم إلا بجسم ، والله تعالى ليس بجسم ، قيل لهم : إن أردتم بالجسم ما هو مركب من جواهر فردة ، أو ما هو مركب من المادة والصورة ، لم نسلم لكم المقدمة الأولى ، وهي قولكم : إن الصفات لا تقوم إلا بما هو كذلك ، قيل لكم : إن الرب تعالى قائم بنفسه ، والعباد يرفعون أيديهم إليه في الدعاء ويقصدونه بقلوبهم وهو العليّ الأعلى سبحانه ، ويراه المؤمنون بأبصارهم يوم القيام عيانا كما يرون القمر ليلة البدر ، فإن قلتم : إن ما هو كذلك فهو جسم وهو محدث - كان هذا بدعة مخالفة للغة والشرع والعقل ، وإن قلتم : نحن نسمي ما هو كذلك جسماً ونقول إنه مركب - قيل : تسميتكم التي ابتدعتموها هي من الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان ، ومن عمد إلى المعاني المعلومة بالشرع والعقل وسمّاها بأسماء منكرة لينفر الناس عنها قيل له : النزاع في المعاني لا في الألفاظ ، ولو كانت الألفاظ موافقة للغة ، فكيف إذا كانت من ابتداعهم ، ومعلوم أن المعاني التي يعلم ثبوتها بالشرع والعقل لا تدفع بمثل هذا النزاع اللفظي بالباطل ، وأما قولهم : إن كل ما كان يقوم به الصفات وترفع الأيدي إليه ويمكن أن يراه الناس بأبصارهم فإنه لا بد أن يكون مركباً من الجواهر المفردة أو من المادة والصورة ، فهذا ممنوع بل هو باطل عند جمهور العقلاء من النظار والفقهاء وغيرهم ، كما قد بسط في موضعه .

قال الجمهور: وأما تفريق الكلابية بين المعاني التي لا تتعلق بمشيئته وقدرته ، والمعاني التي تتعلق بمشيئته وقدرته التي تسمى الحوادث - ومنهم من

يسمي الصفات أعراضاً ؛ لأن المرض لا يبقى زمانين- فيقال قول القائل : إن العرض الذي هو السواد والبياض والطول والقصر ونحو ذلك لا يبقى زمانين قول محدث في الإسلام ، لم يقله أحد من السلف والأئمة ، وهو قول مخالف لما عليه جماهير العقلاء من جميع الطوائف ، بل من الناس من يقول: إنه معلوم الفساد بالاضطرار ، كما قد بسط في موضع آخر .

وأما تسمية المسمي للصفات أعرضاً ، فهذا أمر اصطلاحي لمن قاله من أهل الكلام ليس هو عرف أهل اللغة ولا عرف سائر أهل العلم ، والحقائق المعلومة بالسمع والعقل لا يؤثر فيها اختلاف الاصطلاحات ، بل يُعدّ هذا من النزاعات اللفظية ، والنزاعات اللفظية أصوبها ما وافق لغة القرآن والرسول والسلف ، فما نطق به الرسول والصحابة جاز النطق به باتفاق المسلمين ، وما لم ينطقوا به ففيه نزاع وتفصيل ليس هذا موضعه .

وأما قول الكلابية ما يقبل الحوادث لا يخلو منها وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، فقد نازعهم جمهور العقلاء في كلتا المقدمتين حتى أصحابهم المتأخرين نازعوهم في ذلك ، واعترفوا ببطلان الأدلة العقلية التي ذكرها سلفهم على نفي حلول الحوادث به ، واعترف بذلك المتأخرون من أئمة الأشعرية والشيعة والمعتزلة وغيرهم ؛ كما قد بسط في غير هذا الموضع .

وحدثت طائفة أخرى من السالمية وغيرهم ممن هو من أهل الكلام والفقه والحديث والتصوف ، ومنهم كثير ممن هو ينتسب إلى مالك والشافعي وأحمد ابن حنبل ، وكثر هذا في بعض المتأخرين المنتسبين إلى أحمد بن حنبل

فقالوا بقول المعتزلة وبقول الكلابية : وافقوا هؤلاء في قولهم : إنه قديم ، ووافقوا أولئك في قولهم : إنه حروف وأصوات ، وأحدثوا قولاً مبتدعاً كما أحدث غيرهم فقالوا : القرآن قديم ، وهو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لنفس الله تعالى أزلا وأبداً . واحتجوا على أنه قديم بحجج الكلابية ، وعلى أنه حروف وأصوات بحجج المعتزلة . فلما قيل لهم : الحروف مسبوقة بعضها ببعض فالباء قبل السين والشين قبل الميم ، والقديم لا يسبق بغيره ، والصوت لا يتصور بقاؤه فضلاً عن قدمه ، قالوا : الكلام له وجود وماهية ، كقول من فرق بين الوجود والماهية من المعتزلة وغيرهم . قالوا : والكلام له ترتيب في وجوده ، وترتيب ماهية الباء للسين بالزمان هي في وجوده وهي مقارنة لها في ماهيتها لم تتقدم عليها بالزمان وإن كانت متقدمة بالمرتبة كتقدم بعض الحروف المكتوبة على بعض ؛ فإن الكاتب قد يكتب آخر المصحف قبل أوله ومع هذا فإذا كتبه كان أوله متقدماً بالمرتبة على آخره .

فقال لهم جمهور العقلاء : هذا مما يعلم فساده بالاضطرار فإن الصوت لا يتصور بقاؤه ، ودعوى وجود ماهية غير الوجود في الخارج دعوى فاسدة كما قد بسط في موضع آخر . والترتيب الذي في المصحف هو ترتيب للحروف المدادية والمداد أجسام ، فهو كترتيب الدار والإنسان ، وهذا أمر يوجد الجزء الأول منه مع الثاني بخلاف الصوت فإنه لا يوجد الجزء الثاني منه حتى يعدم الأول كالحركة ، فقياس هذا بهذا قياس باطل ، ومن هؤلاء من يطلق لفظ القديم ولا يتصور معناه ، ومنهم من يقول يعني بالقديم أنه

بدأ من الله وأنه غير مخلوق ، وهذا المعنى صحيح لكن الذين نازعوا هل هو قديم أو غير قديم لم يعنوا هذا المعنى ، فمن قال لهم : إنه قديم وأراد هذا المعنى قد أراد معنى صحيحاً لكنه جاهل بمقاصد الناس ، مضل لمن خاطبه بهذا الكلام ، مبتدع في الشرع واللغة .

ثم كثير من هؤلاء يقولون : إن الحروف القديمة والأصوات ليست هي الأصوات المسموعة من القراء ولا المداد الذي في المصحف ، ومنهم من يقول : بل الأصوات المسموعة من القراء هو الصوت القديم ، ومنهم من يقول : بل يسمع من القارئ شيئان الصوت القديم وهو ما لا بد منه في وجود الكلام ، والصوت المحدث وهو ما زاد على ذلك ، وهؤلاء يقولون : المداد الذي في المصحف مخلوق لكن الحروف القديمة ليست هي المداد بل الأشكال والمقادير التي تظهر بالمداد ، وقد تنقش في حجر وقد تخرق في ورق ، ومنهم من يمنع أن يقال في المداد : إنه قديم أو مخلوق ، وقد يقول : لا أمنع عن ذلك بل أعلم أنه مخلوق لكن أسدُّ باب الخوض في هذا ، وهو مع هذا يهجر من يتكلم بالحق ومن يبين الصواب المرافق للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة مع موافقته لصريح المعقول ، ومع دفعه للشناعات التي يشنع بها بعضهم على بعض . وخوض الناس وتنازعهم في هذا الباب كثير قد بسطناه في مواضع . وإنما المقصود هنا ذكر قول مختصر جامع يبين الأقوال السديدة التي دل عليها الكتاب والسنة وكان عليها سلف الأمة في مسألة الكلام ، التي حيَّرت عقول الأنام ، والله تعالى أعلم .

مسألة الأحرف التي أنزلها الله على آدم

عليـه السـلام

وسئل شيخ الإسلام أبو العباس تقي الدين ابن تيمية ـ قدّس الله روحه ـ عن رجلين تجادلا في الأحرف التي أنزلها الله على آدم ؛ فقال أحدهما : إنها قديمة ليس لها مبتدأ ، وشكلها ونقطها محدث ؛ فقال الآخر : ليست بكلام الله وهي مخلوقة بشكلها ونقطها ، والقديم هو الله ، وكلامه منه بدأ وإليه يعود ، منزل غير مخلوق ، ولكنه كتب بها . وسألا أيهما أصوب قولاً وأصحّ اعتقاداً؟.

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . أصل هذه المسألة هو معرفة كلام الله تعالى، ومذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم ما دل عليه الكتاب والسنة ، وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة ؛ أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، فهو المتكلم بالقرآن والتوراة والإنجيل وغير ذلك من كلامه ليس مخلوقاً منفصلاً عنه ، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته ، فكلامه قائم بذاته ، ليس مخلوقاً بائناً عنه ، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته ، لم يقل أحد من سلف الأمة إن كلام الله مخلوق بائن عنه ، ولا قال أحد منهم : إن القرآن أو التوراة أو الإنجيل لازمة لذاته أزلا وأبداً ، وهو لا يقدر أن يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا قالوا : إن نفس ندائه لموسى أو نفس الكلمة المعينة قديمة أزلية ، بل قالوا : لم يزل الله متكلماً إذا شاء فكلامه قديم بمعنى أنه لم يزل متكلماً إذا شاء ،

وكلمات الله لا نهاية لها كما قال تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف ١٠٩] والله سبحانه تكلم بالقرآن العربي وبالتوراة العبرية ، فالقرآن العربي كلام الله ، كما قال تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ إلى قوله ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل ٩٨ - ١٠٣] فقد بيَّن سبحانه أن القرآن الذي يبدل منه آية مكان آية نزله روح القدس وهو جبريل - وهو الروح الأمين كما ذكر ذلك في موضع آخر- من الله بالحق ، وبين بعد ذلك أن من الكفار من قال : ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل ١٠٣] كما قال بعض المشركين يعلِّمه رجل بمكة أعجمي ، فقال تعالى : ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ [النحل ١٠٣] أي الذي يضيفون إليه هذا التعليم أعجمي ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل ١٠٣] ففي هذا ما يدل على أن الآيات التي هي لسان عربي مبين نزَّلها روح القدس من الله بالحق كما قال في الآية الأخرى : ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام ١١٤] والكتاب الذي أنزل مفصلاً هو القرآن العربي باتفاق الناس ، وقد أخبر أن الذين أتاهم الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق ، والعلم لا يكون إلا حقاً فقال : ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ولم يقل : يقولون ، فإن العلم لا يكون إلا حقاً ، بخلاف القول . وذكر علمهم ذكر مستشهد به ، وقد فرق سبحانه بين إيحائه إلى غير موسى وبين تكليمه لموسى في قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ﴾ إلى قوله : ﴿حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء ١٦٣ - ١٦٥] فرق سبحانه بين تكليمه لموسى وبين إيحائه

لغيره ووكد تكليمه لموسى بالمصدر ، وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ [البقرة ٢٥٢] وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ [الشورى: ٥١] إلى آخر السورة . فقد بين سبحانه أنه لم يكن لبشر أن يكلمه الله إلا على أحد الأوجه الثلاثة ، إما وحياً ، وإما من وراء حجاب ، وإما أن يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ، فجعل الوحي غير التكليم . والتكليم من وراء حجاب كان لموسى . وقد أخبر في غير موضع أنه ناداه كما قال : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ ﴾ الآية . [مريم ٥٢] وقال : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ ﴾ الآية . [القصص ٣٠] والنداء باتفاق أهل اللغة لا يكون إلا صوتاً مسموعاً ، فهذا مما اتفق عليه سلف المسلمين وجمهورهم ، وأهل الكتاب يقولون : إن موسى ناداه ربه نداء سمعه بأذنه ، وناداه بصوت سمعه موسى ، والصوت لا يكون إلا كلاما ، والكلام لا يكون إلا حروفاً منظومة ، وقد قال تعالى : ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ [الزمر ١] وقال : ﴿ حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [فصلت ١، ٢] وقال : ﴿ حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [الجاثية ١، ٢] فقد بين في غير موضع أن الكتاب والقرآن العربي منزل من الله .

وهذا معنى قول السلف : منه بدا ، قال أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ : منه أي هو المتكلم به ، فإن الذين قالوا : إنه مخلوق قالوا : خلقه في غيره فبدا من ذلك المخلوق ، فقال السلف : منه بدا ، أي هو المتكلم به لم يخلقه في غيره فيكون كلاماً لذلك المحل الذي خلقه فيه ، فإن الله تعالى إذا خلق صفة من الصفات في محل كانت الصفة صفة لذلك المحل ولم تكن صفة لرب العالمين،

فإذا خلق طعماً أو لونا في محل كان ذلك المحل هو المتحرك المتكون به ، وكذلك إذا خلق حياة أو إرادة أو قدرة أو علماً أو كليهما في محل كان ذلك المحل هو المريد القادر العالم المتكلم بذلك الكلام ، ولم يكن ذلك المعنى المخلوق في ذلك المحل صفة لرب العالمين ، وإنما يتصف الرب تعالى بما يقوم به من الصفات ، لا بما يخلقه في غيره من المخلوقات ، فهو الحي العليم القدير السميع البصير الرحيم المتكلم بالقرآن وغيره من الكلام ، بحياته وعلمه وقدرته وكلامه القائم به ، لا بما يخلقه في غيره من هذه المعاني، ومن جعل كلامه مخلوقاً لزمه أن يقول المخلوق هو القائل لموسى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ [طه ١٤] وهذا ممتنع لا يجوز أن يكون هذا كلاما إلا لرب العالمين ، وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن والتوراة وغير ذلك من الكتب بمعانيها وألفاظها المنتظمة من حروفها لم يكن شيء من ذلك مخلوقاً بل كان ذلك لرب العالمين ، وقد قيل للإمام أحمد بن حنبل : إن فلانا يقول : لما خلق الله الأحرف سجدت له إلا ألف ، فقالت : لا أسجد حتى أؤمر ، فقال : هذا كفر . فأنكر على من قال : إن الحروف مخلوقة ؛ لأنه إذا كان جنس الحروف مخلوقاً، لزم أن يكون القرآن العربي، والتوراة العبرية، وغير ذلك مخلوقاً، وهذا باطل مخالف لقول السلف والأئمة، مخالف للأدلة العقلية والسمعية ، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

والناس قد تنازعوا في كلام الله نزاعاً كثيراً . والطوائف الكبار نحو ست فرق ، فأبعدها عن الإسلام قول من يقول من المتفلسفة والصابئة : إن كلام الله إنما هو ما يفيض على النفوس ، إما من العقل الفعال ، وإما من

غيره ، وهؤلاء يقولون : إنما كلم الله موسى من سماء عقله؛ أي بكلام حدث في نفسه لم يسمعه من خارج . وأصل قول هؤلاء أن الأفلاك قديمة أزلية ، وأن الله لم يخلقها بمشيئته وقدرته في ستة أيام كما أخبرت به الأنبياء ، بل يقولون: إن الله لا يعلم الجزئيات، فلما جاءت الأنبياء بما جاءوا به من الأمور الباهرة ، جعلوا يتأولون ذلك تأويلات يحرفون فيها الكلم عن مواضعه ، ويريدون أن يجمعوا بينها وبين أقوال سلفهم الملاحدة ، فقالوا مثل ذلك . وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى ، وهم كثيرو التناقض ؛ كقولهم : إن الصفة هي الموصوف ، وهذه الصفة هي الأخرى فيقولون : هو عقل وعاقل ومعقول ، ولذيذ وملتذ ولذة ، وعاشق ومعشوق وعشق . وقد يعبرون عن ذلك بأنه حي عالم معلوم محب محبوب ، ويقولون نفس العلم هو نفس المحبة ، وهو نفس القدرة ، ونفس العلم هو نفس العالم ، ونفس المحبة هي نفس المحبوب ، ويقولون : إنه علة تامة في الأزل ؛ فيجب أن يقارنها معلولها في الأزل في الزمن وإن كان متقدما عليها بالعلة لا بالزمان ، ويقولون : إن العلة التامة ومعلولها يقترنان في الزمان ويتلازمان ، فلا يوجد معلول إلا بعلّة تامة، ولا تكون علة تامة إلا مع معلولها في الزمان ، ثم يعترفون بأن حوادث العالم حدثت شيئاً بعد شيء من غير أن يتجدد من المبدع الأول ما يوجب أن يصير علة للحوادث المتعاقبة ، بل حقيقة قولهم أن الحوادث حدثت بلا محدث ، وكذلك عدمت بعد حدوثها من غير سبب يوجب عدمها على أصلهم .

وهؤلاء قابلهم طوائف من أهل الكلام ظنوا أن المؤثر التام يتراخى عنه أثره ، وأن القادر المختار يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح ، والحوادث لها ابتداء ، وقد حدثت بعد أن لم تكن بدون سبب حادث . ولم

يهتد الفريقان للقول الوسط ، وهو أن المؤثر التام مستلزم أن يكون أثره عقب تأثيره التام لا مع التأثير ولا متراخياً عنه ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢] فهو سبحانه يكون كل شيء فيكون عقب تكوينه لا مع تكوينه في الزمان ولا متراخيا عن تكوينه ، كما يكوّن الانكسار عقب الكسر ، والانقطاع عقب القطع ، ووقوع الطلاق عقب التطليق، لا متراخياً عنه ولا مقارناً له في الزمان .

والقائلون بالتراخي ظنوا امتناع حوادث لا تتناهى ؛ فلزمهم أن الرب لا يمكنه فعل ذلك ، فالتزموا أن الرب يمتنع أن يكون لم يزل متكلماً بمشيئته ، ويمتنع أن يكون لم يزل قادراً على الفعل والكلام بمشيئته ؛ فافترقوا بعد ذلك ؛ منهم من قال : كلامه لا يكون إلا حادثاً ؛ لأن الكلام لا يكون إلا مقدوراً مرادا ، وما كان كذلك لا يكون إلا حادثاً ، وما كان حادثاً كان مخلوقاً منفصلاً عنه لامتناع قيام الحوادث به وتسلسلها في ظنهم .

ومنهم من قال : بل كلامه لا يكون إلا قائماً به، وما كان قائماً به لم يكن متعلقاً بمشيئته وإرادته ، بل لا يكون إلا قديم العين ؛ لأنه لو كان مقدوراً مرادا لكان حادثاً فكانت الحوادث تقوم به ، ولو قامت به لم يسبقها ولم يخل منها ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث لامتناع حوادث لا أول لها .

ومنهم من قال : بل هو متكلم بمشيئته وقدرته ، لكنه يمتنع أن يكون متكلما في الأزل أو أنه لم يزل متكلما بمشيئته وقدرته ؛ لأن ذلك يستلزم وجود حوادث لا أول لها ، وذلك ممتنع .

قالت هذه الطوائف : ونحن بهذا الطريق علمنا حدوث العالم فاستدللنا على حدوث الأجسام بأنها لا تخلو من الحوادث ولا تسبقها ، وما لم يسبق الحوادث فهو حادث ؛ ثم من هؤلاء من ظن أن هذه قضية ضرورية ولم يتفطن لإجمالها ، ومنهم من تفطن للفرق بين ما لم يسبق الحوادث المحصورة المحدودة وما يسبق جنس الحوادث المتعاقبة شيئاً بعد شيء . أما الأول فهو حادث بالضرورة ؛ لأن تلك الحوادث لها مبدأ معين فما لم يسبقها يكون معها أو بعدها ، وكلاهما حادث .

وأما جنس الحوادث شيئاً بعد شيء فهذا شيء تنازع فيه الناس ، فقيل : إن ذلك ممتنع في الماضي والمستقبل كقول الجهم وأبي الهذيل . فقال الجهم : بفناء الجنة والنار . وقال أبو الهذيل : بفناء حركات أهلهما . وقيل : بل هو جائز في المستقبل دون الماضي ؛ لأن الماضي دخل في الوجود دون المستقبل ؛ وهو قول كثير من طوائف النظار ؛ وقيل : بل هو جائز في الماضي والمستقبل ؛ وهذا قول أئمة أهل الملل وأئمة السنة ؛ كعبدالله بن المبارك وأحمد بن حنبل ، وغيرهما ممن يقول بأن الله لم يزل متكلما إذا شاء ، وأن كلمات الله لا نهاية لها ، وهي قائمة بذاته وهو متكلم بمشيئته وقدرته . وهو أيضاً قول أئمة الفلاسفة . لكن أرسطو وأتباعه مدعون ذلك في حركات الفلك ويقولون : إنه قديم أزلي . وخالفوا في ذلك جمهور الفلاسفة مع مخالفة الأنبياء والمرسلين وجماهير العقلاء ؛ فإنهم متفقون على أن الله خلق السموات والأرض بل هو خالق كل شيء ، وكل ما سوى الله مخلوق حادث كائن بعد أن لم يكن ، وأن القديم الأزلي هو الله تعالى بما هو

متصف به من صفات الكمال ، وليست صفاته خارجة عن مسمى اسمه ، بل من قال : عبدت الله ، ودعوت الله ؛ فإنما عبد ذاته المتصفة بصفات الكمال التي تستحقها ، ويمتنع وجود ذاته بدون صفاتها اللازمة لها .

ثم لما تكلم في النبوات من اتبع أرسطو كابن سينا وأمثاله ، ورأوا ما جاءت به الأنبياء من أخبارهم بأن الله يتكلم ، وأنه كلم موسى تكليما ، وأنه خالق كل شيء ، أخذوا يحرفون كلام الأنبياء عن مواضعه ، فيقولون : الحدوث نوعان ، ذاتي وزماني ، ونحن نقول : إن الفلك محدث الحدوث الزماني بمعنى أنه معلول وإن كان أزلياً لم يزل مع الله ، وقالوا : إنه مخلوق بهذا الاعتبار ، والكتب الإلهية أخبرت بأن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ، والقديم الأزلي لا يكون في أيام ، وقد علم بالاضطرار أن ما أخبرت به الرسل من أن الله خلق كل شيء وأنه خلق كذا ، إنما أرادوا بذلك أنه خلق المخلوق وأحدثه بعد أن لم يكن ، كما قال : ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ [مريم: ٩] والعقول الصريحة توافق ذلك وتعلم أن المفعول المخلوق المصنوع لا يكون مقارناً للفاعل في الزمان ولا يكون إلا بعده ، وأن الفعل لا يكون إلا بإحداث المفعول ، وقالوا لهؤلاء قولكم «إنه مؤثر تام في الأزل» لفظ مجمل يراد به التأثير العام في كل شيء ، ويراد به التأثير المطلق في شيء بعد شيء ، ويراد به التأثير في شيء معين دون غيره ، فإن أردتم الأول لزم أن لا يحدث في العالم حادث ، وهذا خلاف المشاهدة ، وإن أردتم الثاني لزم أن يكون كل ما سوى الله مخلوقاً حادثاً كائنا بعد أن لم يكن ، وإن كان الرب لم يزل متكلماً بمشيئته فعّالاً لما يشاء ،

وهذا يناقض قولكم ويستلزم أن كل ما سواه مخلوق ويوافق ما أخبرت به الرسل ، وعلى هذا يدل العقل الصريح ؛ فتبين أن العقل الصريح يوافق ما أخبرت به الأنبياء ، وإن أردتم الثالث فسد قولكم ؛ لأنه يستلزم أنه يشاء (حدوثها) بعد أن لم يكن فاعلا لها من غير تجدد سبب يوجب الإحداث ، وهذا يناقض قولكم ؛ فإن صح هذا جاز أن يحدث كل شيء بعد أن لم يكن محدثاً لشيء ، وإن لم يصح هذا بطل ؛ فقولكم باطل على التقديرين . وحقيقة قولكم أن المؤثر التام لا يكون إلا مع أثره ، ولا يكون الأثر إلا مع المؤثر التام في الزمن ، وحينئذ فيلزمكم أن لا يحدث شيء ويلزمكم أن كل ما حدث حدث بدون مؤثر ، ويلزمكم بطلان الفرق بين أثر وأثر ، ليس لكم أن تقولوا : بعض الآثار يقارن المؤثر التام وبعضها يتراخى عنه .

وأيضاً فكونه فاعلاً لمفعول معين مقارن له أزلا وأبداً باطل في صريح العقل ، وأيضاً فأنتم وسائر العقلاء موافقون على أن الممكن الذي لا يكون ممكنا يقبل الوجود والعدم ؛ وهو الذي جعلتموه الممكن الخاص الذي قسيمه الضروري الواجب والضروري الممتنع لا يكون إلا موجوداً تارة ومعدوماً أخرى ، وأن القديم الأزلي لا يكون إلا ضرورياً واجباً يمتنع عدمه ؛ وهذا مما اتفق عليه أرسطو وأتباعه حتى ابن سينا ، وذكره في كتبه المشهورة كالشفا وغيره ؛ ثم تناقض فزعم أن الفلك ممكن مع كونه قديماً أزلياً لم يزل ولا يزال ، وزعم أن الواجب بغيره القديم الأزلي الذي يمتنع عدمه يكون ممكنا يقبل الوجود والعدم ، وزعم أن له ماهية غير وجوده . وقد بسط الكلام على فساد قول هؤلاء وتناقضه في غير هذا الموضع .

والقول الثاني للناس في كلام الله تعالى قول من يقول : إن الله لم يقم به صفة من الصفات ، لا حياة ولا علم ولا قدرة ولا كلام ولا إرادة ولا رحمة ولا غضب ولا غير ذلك ، بل خلق كلاماً في غيره فذلك المخلوق هو كلامه ، وهذا قول الجهمية والمعتزلة .وهذا القول أيضاً مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف ، وهو مناقض لأقوال الأنبياء ونصوصهم ، وليس مع هؤلاء عن الأنبياء قول يوافق قولهم ، بل لهم شبه عقلية فاسدة قد بينا فسادها في غير هذا الموضع ، وهؤلاء زعموا أنهم يقيمون الدليل على حدوث العالم بتلك الحجج ، وهم لا الإسلام نصروا ، ولا لأعدائه كسروا .

والقول الثالث قول من يقول : إنه يتكلم بغير مشيئته وقدرته بكلام قائم بذاته أزلاً وأبدا ، وهؤلاء موافقون لمن قبلهم في أصل قولهم ؛ لكن قالوا : الرب يقوم به الصفات ولا يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الصفات الاختيارية ، وأول من اشتهر عنه أنه قال هذا القول في الإسلام عبدالله بن سعيد بن كلاب ، ثم افترق موافقوه ؛ فمنهم من قال : ذلك الكلام معنى واحد ؛ هو الأمر بكل مأمور ، والنهي عن كل محظور ، والخبر عن كل مخبر عنه ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة ؛ وقالوا : معنى القرآن والتوراة والإنجيل واحد ، ومعنى آية الكرسي هو معنى آية الدين . وقالوا : الأمر والنهي والخبر صفات الكلام لا أنواع له ؛ ومن محققيهم من جعل المعنى يعود إلى الخبر ، والخبر يعود إلى العلم .

وجمهور العقلاء يقولون : قول هؤلاء معلوم الفساد بالضرورة . وهؤلاء يقولون : تكليمه لموسى ليس إلا خلق إدراك يفهم به موسى ذلك المعنى ،

فقيل لهم : أفهم كل الكلام أم بعضه ؟ إن كان فهمه كله فقد علم علم الله ، وإن كان فهم بعضه فقد تبعض ، وعندهم كلام الله لا يتبعض ولا يتعدد . وقيل لهم : قد فرق الله بين تكليمه لموسى وإيحائه لغيره . وعلى أصلكم لا فرق . وقيل لهم : قد كفّر الله من جعل القرآن العربي قول البشر ، وقد جعله تارة قول رسول من البشر ، وتارة قول رسول من الملائكة ، فقال في موضع : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة ٤٠ - ٤٢] فهذا الرسول محمد ﷺ . وقال في الآية الأخرى : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير ١٩ - ٢١] فهذا جبريل ، فأضافه تارة إلى الرسول الملكي ، وتارة إلى الرسول البشري ، والله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس .وكان بعض هؤلاء ادّعى أن القرآن العربي أحدثه جبريل أو محمد فقيل لهم : لو أحدثه أحدهما لم يجز إضافته إلى الآخر ؛ وهو سبحانه أضافه إلى كل منهما باسم الرسول الدال على مرسله لا باسم الملك والنبي ، فدل ذلك على أنه قول رسول بلّغه عن مرسله لا قول ملك أو نبي أحدثه من تلقاء نفسه ، بل قد كفر من قال : إنه قول البشر .

والطائفة الأخرى التي وافقت ابن كلاب على أن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته قالت : بل الكلام القديم هو حروف أو حروف وأصوات لازمة لذات الرب أزلا وأبداً لا يتكلم بها بمشيئته وقدرته ولا يتكلم بها شيئاً بعد شيء . ولا يفرق هؤلاء بين جنس الحروف وجنس الكلام ، وبين عين الحروف قديمة أزلية ، وهذا أيضاً مما يقول جمهور العقلاء إنه معلوم الفساد بالضرورة ،

فإن الحروف المتعاقبة شيئاً بعد شيء يمتنع أن يكون كل منها قديماً أزلياً وإن كان جنسها قديماً ؛ لإمكان وجود كلمات لا نهاية لها وحروف متعاقبة لا نهاية لها، وامتناع كون منها قديما أزلياً ، فإن المسبوق بغيره لا يكون أزلياً. وقد فرق بعضهم بين وجودها وماهيتها فقال : الترتيب في ماهيتها لا في وجودها ، وبطلان هذا القول معلوم بالاضطرار لمن تدبره ، فإن ماهية الكلام الذي هو حروف لا يكون شيئاً بعد شيء ، والصوت لا يكون إلا شيئاً بعد شيء ، فامتنع أن يكون وجود الماهية المعينة أزلياً متقدماً عليها به ، مع أن الفرق بينهما بين لو قدر الفرق بينهما ؛ ويلزم من هذين الوجهين أن يكون وجودها أيضاً مترتباً ترتيباً متعاقباً .

ثم من هؤلاء من يزعم أن ذلك القديم هو ما يسمع من العباد من الأصوات بالقرآن والتوراة والإنجيل أو بعض ذلك ، وكان أظهر فساداً مما قبله ، فإنه يعلم بالضرورة حدوث أصوات العباد .

وطائفة خامسة قالت : بل الله يتكلم بمشيئته وقدرته بالقرآن العربي وغيره ، لكن لم يكن يمكنه أن يتكلم بمشيئته في الأزل لامتناع حوادث لا أولها ، وهؤلاء جعلوا الرب في الأزل غير قادر على الكلام بمشيئته ولا على الفعل كما فعله أولئك ، ثم جعلوا الفعل والكلام ممكناً مقدوراً من غيرتجدد شيء أوجب القدرة والإمكان كما قال أولئك في المفعولات المنفصلة .

وأما السلف فقالوا : لم يزل الله متكلماً إذا شاء ، وأن الكلام صفة كمال ،ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، كما أن من يعلم ويقدر أكمل ممن لا يعلم ولا يقدر ، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازما

لذاته ليس له عليه قدرة ولا له فيه مشيئته ؛ والكمال إنما يكون بالصفات القائمة بالموصوف لا بالأمور المباينة له ، ولا يكون الموصوف متكلما عالما قادراً إلا بما يقوم به من الكلام والعلم والقدرة ؛ وإذا كان كذلك فمن لم يزل موصوفاً بصفات الكمال أكمل ممن حدثت له بعد أن لم يكن متصفاً بها لو كان حدوثها ممكنا ؛ فكيف إذا كان ممتنعاً ؟ فتبين أن الرب لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الكمال ، منعوتاً بنعوت الجلال ، ومن أجلهما الكلام ، فلم يزل متكلماً إذا شاء ولا يزال كذلك ، وهو يتكلم إذا شاء بالعربية كما تكلم القرآن العربي ، وما تكلم الله به فهو قائم به ليس مخلوقاً منفصلاً عنه ، فلا تكون الحروف التي هي مباني أسماء الله الحسنى وكتبه المنزلة مخلوقة ؛ لأن الله تكلم بها .

فصـــــل

ثم تنازع بعض المتأخرين في الحروف الموجودة في كلام الآدميين ، وسبب نزاعهم أمران : أحدهما أنهم لم يفرقوا بين الكلام الذي يتكلم الله به فيُسمع منه ، وبين ما إذا بلغه عنه مبلغ فسمع من ذلك المبلغ ، فإن القرآن كلام الله تكلم به بلفظه ومعناه بصوت نفسه ؛ فإذا قرأه القرّاء قرأوه بأصوات أنفسهم ؛ فإذا قال القارئ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٣ ﴾ [الفاتحة ٢، ٣] كان هذا الكلام المسموع منه كلام الله لا كلام نفسه ، وكان هو قرأه بصوت نفسه لا بصوت الله ؛ فالكلام كلام البارىء ، والصوت صوت القارئ ، كما قال النبي ﷺ : « زينوا القرآن بأصواتكم »

وكان يقول : « ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلِّغ كلام ربي ؛ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلِّغ كلام ربي » ، وكلا الحديثين ثابت ، فبين أن الكلام الذي بلَّغه كلامُ ربه، وبين أن القارىء يقرأه بصوت نفسه ، وقال ﷺ : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » قال أحمد والشافعي وغيرهما : هو تحسينه بالصوت ، قال أحمد بن حنبل : يحسنه بصوته ؛ فبين أحمد أن القارئ يحسن القرآن بصوت نفسه .

والسبب الثاني أن السلف قالوا : كلام الله منزل غير مخلوق، وقالوا: لم يزل متكلما إذا شاء ؛ فبينوا أن كلام الله قديم ، أي جنسه قديم لم يزل ، ولم يقل أحد منهم : إن نفس الكلام المعين قديم ، ولا قال أحد منهم : القرآن قديم ، بل قالوا : إنه كلام الله منزل غير مخلوق ، وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن بمشيئته كان القرآن كلامه ، وكان منزلا منه غير مخلوق ، ولم يكن مع ذلك أزلياً قديماً بقدم الله وإن كان الله لم يزل متكلماً إذا شاء ، فجنس كلامه قديم . فمن فهم قول السلف وفرق بين هذه الأقوال زالت عنه الشبهات في هذه المسائل المعضلة التي اضطرب فيها أهل الأرض .

فمن قال : إن حروف المعجم كلها مخلوقة ، وإن الله تعالى مخالفاً[(١)] للمعقول الصريح ، والمنقول الصحيح ، ومن قال : إن نفس أصوات العباد أو مدادهم أو شيئاً من ذلك قديم فقد خالف أيضاً أقوال السلف ، وكان فساد

---

(١) كذا بالأصل ، ويظهر أنه قد سقط من هنا شيء ؛ فإن قوله : (وإن الله تعالى) ليس له خبر يتم به الكلام . وهو تمهيد للجواب عن الأقوال التي تقدَّم سؤال شيخ الإسلام عنها في صفحة (٤٣) ، وفيه أن الذين قالوا : إنها مخلوقة بشكلها ونقطها إلخ ، وقوله: «مخالفاً للمعقول» سقط من قبله العامل فيه، ولعله: فقد قال قولاً مخالفاً إلخ.

قوله ظاهراً لكل أحد ، وكان مبتدعاً قولاً لم يقله أحد من أئمة المسلمين ولا قالته طائفة كبيرة من طوائف المسلمين ، بل الأئمة الأربعة وجمهور أصحابهم بريئون من ذلك ؛ ومن قال : إن الحرف المعين أو الكلمة المعينة قديمة العين ، فقد ابتدع قولاً باطلاً في الشرع والعقل ؛ ومن قال : إن جنس الحروف التي تكلم الله بها بالقرآن وغيره ليست مخلوقة ، وأن الكلام العربي الذي تكلم به ليس مخلوقاً ، والحروف المنتظمة منه جزء منه ولازمة له ، وقد تكلم الله بها فلا تكون مخلوقة فقد أصاب .

وإذا قال : إن الله هدى عباده وعلّمهم البيان فأنطقهم بها باللغات المختلفة، وأنعم عليهم بأن جعلهم ينطقون بالحروف التي هي مباني كتبه وكلامه وأسمائه فهذا قد أصاب ، فالإنسان وجميع ما يقوم به من الأصوات والحركات وغيرها مخلوق كائن بعد أن لم يكن ، والرب تعالى بما يقوم به من صفاته وكلماته وأفعاله غير مخلوق ، والعباد إذا قرأوا كلامه ؛ فإن كلامه الذي يقرؤونه هو كلامه لا كلام غيره ، وكلامه الذي تكلم به لا يكون مخلوقاً وكان ما يقرؤون به كلامه من حركاتهم وأصواتهم مخلوقاً ، وكذلك ما يكتب في المصاحف من كلامه فهو كلامه مكتوباً في المصاحف وكلامه غير مخلوق ، والمداد الذي يكتب به كلامه وغير كلامه مخلوق ، وقد فرّق سبحانه وتعالى بين كلامه وبين مداد كلماته بقوله تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف ١٠٩] وكلمات الله غير مخلوقة، والمداد الذي يكتب به كلمات الله مخلوق، والقرآن المكتوب في المصاحف غير مخلوق ، وكذلك المكتوب في اللوح المحفوظ وغيره قال تعالى :

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج ٢١، ٢٢] وقال : ﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾ [عبس ١١ - ١٤] وقال تعالى : ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ [البينة ٢، ٣] وقال : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة ٧٧ - ٧٩] .

فصل

فهذان المتنازعان اللذان تنازعا في الأحرف التي أنزلها الله على آدم ، فقال أحدهما : إنها قديمة وليس لها مبتدأ وشكلها ونقطها محدث . وقال الآخر : إنها ليست بكلام وإنها مخلوقة بشكلها ونقطها ، وإن القديم هو الله وكلامه منه بدأ وإليه يعود ؛ منزل غير مخلوق ، ولكنه كتب بها . وسؤالهما أن نبين لهما الصواب ، وأيهما أصح اعتقاداً ؟ ، يقال لهما : يحتاج بيان الصواب إلى بيان ما في السؤال من الكلام المجمل فإن كثيراً من نزاع العقلاء لكونهما(1) لا يتصوران مورد النزاع تصوراً بيِّنا ، وكثير من النزاع قد يكون الصواب فيه في قول آخر غير القولين اللذين قالاهما ، وكثير من النزاع قد يكون مبنيا على أصل ضعيف إذا بين فساده ارتفع النزاع ؛ فأول ما في هذا السؤال قولهما : الأحرف التي أنزلها الله على آدم ، فإنه قد ذكر بعضهم أن الله أنزل عليه حروف المعجم مفرقة مكتوبة ، وهذا ذكره ابن قتيبة في المعارف ، وهو ومثله يوجد في التواريخ كتاريخ ابن جرير الطبري ونحوه ، وهذا ونحوه منقول عمن ينقل الأحاديث الإسرائيلية ونحوها من

(1) أي لكون المتنازعين منهم .

أحاديث الأنبياء المتقدمين ، مثل وهب بن منبه ، وكعب الأحبار ، ومالك بن دينار ، ومحمد بن إسحاق وغيرهم . وقد أجمع المسلمون على أن ما ينقله هؤلاء عن الأنبياء المتقدمين لا يجوز أن يجعل عمدة في دين المسلمين ؛ إلا إذا ثبت ذلك بنقل متواتر ، أو أن يكون منقولاً عن خاتم المرسلين ، وأيضاً فهذا النقل قد عارضه نقل آخر وهو أن أول من خطّ وخاط إدريس ؛ فهذا منقول عن بعض السلف ، وهو مثل ذلك وأقوى ، فقد ذكروا فيه أن إدريس أول من خاط الثياب وخطّ بالقلم ، وعلى هذا فبنو آدم من قبل إدريس لم يكونوا يكتبون بالقلم ولا يقرؤون كتبا . والذي في حديث أبي ذر المعروف عن أبي ذر عن النبي ﷺ : « إن آدم كان نبياً مكلّماً كلّمه الله قبلا » ، وليس فيه أنه أنزل عليه شيئاً مكتوباً ، فليس فيه أن الله أنزل على آدم صحيفة ولا كتاباً ولا هذا معروف عند أهل الكتاب ، فهذا يدل على أن هذا لا أصل له ولو كان هذا معروفاً عند أهل الكتاب لكان هذا النقل ليس هو في القرآن ولا في الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ ، وإنما هو من جنس الأحاديث الإسرائيلية التي لا يجب الإيمان بها ، بل ولا يجوز التصديق بصحتها إلا بحجة ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه ، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه » .

والله سبحانه علّم آدم الأسماء كلها وأنطقه بالكلام المنظوم ، وأما تعليم حروف مقطعة لا سيما إذا كانت مكتوبة فهو تعليم لا ينفع ، ولكن لما أرادوا تعليم المبتدئ بالخط صاروا يعلّمونه الحروف المفردة حروف الهجاء ، ثم يعلمونه تركيب بعضها إلى بعض فيعلم أبجد هوز . وليس هذا وحده كلاما .

فهذا المنقول عن آدم من نزول حروف الهجاء عليه لم يثبت به نقل ، ولم يدل عليه عقل ، بل الأظهر في كليهما نفيه ، وهو من جنس ما يروونه عن النبي ﷺ من تفسير ا ب ت ث ، وتفسير أبجد هوز حطي ، ويروونه عن المسيح أنه قال لمعلمه في الكتاب ، وهذا كله من الأحاديث الواهية بل المكذوبة ، ولا يجوز باتفاق أهل العلم بالنقل أن يحتج بشيء من هذه ، وإن كان قد ذكرها طائفة من المصنفين في هذا الباب ؛ كالشريف المزيدي ، والشيخ أبي الفرج وابنه عبدالوهاب ، وغيرهم ؛ وقد يذكر ذلك طائفة من المفسرين والمؤرخين ، فهذا كله عند أهل العلم بهذا الباب باطل لا يعتمد عليه في شيء من الدين ؛ وهذا وإن كان قد ذكره أبو بكر النقاش وغيره من المفسرين عن النقاش ، ونحوه نقله الشريف المزيدي الحراني وغيره[1] فأجل من ذكر ذلك من المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، وقد بين في تفسيره أن كل ما نقل في ذلك عن النبي ﷺ فهو باطل ؛ فذكر في آخر تفسيره اختلاف الناس في تفسير أبجد هوز حطي ، وذكر حديثا رواه من طريق محمد بن زياد الجزري عن فرات بن أبي الفرات عن معاوية بن قرة عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ : «تعلموا أباجاد وتفسيرها، ويل لعالم جهل تفسير أبي جاد» قال قالوا يا رسول الله : وما تفسيرها ؟ قال : «أما الألف فآلاء الله وحرف من أسمائه ، وأما الباء فبهاء الله ، وأما الجيم فجلال الله ، وأما الدال فدين الله ، وأما الهاء فالهاوية ، وأما الواو فويل لمن سها ، وأما الزاي فالزاوية .

---

(١) في هذا التركيب نظر ؛ والمعنى أن هذا إن كان النقاش والمزيدي وأبو الفرج وابنه قد ذكروه وسكتوه عليه ؛ فابن جرير قد ذكره ، وصرح ببطلانه ، وهو أجل منهم .

وأما الحاء فحطوط الخطايا عن المستغفرين بالأسحار» ، وذكر تمام الحديث من هذا الجنس ، وذكر حديثاً ثانياً من حديث عبدالرحيم بن واقد حدثني الفرات ابن السائب عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال : «ليس شيء إلا وله سبب ، وليس كل أحد يفطن له ولا بلغه ذلك ، إن لأبي جاد حديثاً عجيبا ، أما أبو جاد فأبى آدم الطاعة وجدّ في أكل الشجرة ، وأما هوز فزل آدم فهوى من السماء إلى الأرض ، وأما حطي فحطت عنه خطيئته ، وأما كلمن فأكله من الشجرة ومنَّ عليه بالتوبة» وساق تمام الحديث من هذا الجنس . وذكر حديثاً ثالثاً من حديث إسماعيل بن عياش عن إسماعيل بن يحيى عن ابن أبي مليكة عمن حدثه عن ابن مسعود ومسعر بن كدام عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : «إن عيسى ابن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب ليعلمه ، فقال له المعلم : اكتب بسم الله ، فقال له عيسى : وما بسم الله ؟ فقال له المعلم : ما أدري . فقال له عيسى : الباء بهاء الله والسين سناؤه ، والميم ملكه، والله إله الآلهة ، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة ، والرحيم رحيم الآخرة . أبو جاد : ألف آلاء الله ، وباء بهاء الله ، وجيم جمال الله ، ودال الله الدائم ، وهوز هاء الهاوية» ، وذكر حديثا من هذا الجنس ، وذكره عن الربيع بن أنس موقوفا عليه . وروى أبو الفرج المقدسي عن الشريف المزيدي حديثا عن عمر عن النبي ﷺ في تفسير أ ب ت ث من هذا الجنس .

ثم قال ابن جرير : ولو كانت الأخبار التي رويت عن النبي ﷺ في ذلك صحاح الأسانيد لم يعدل عن القول بها إلى غيرها ، ولكنها واهية الأسانيد

غير جائز الاحتجاج بمثلها ؛ وذلك أن محمد بن زياد الحزري الذي حدث حديث معاوية بن قرة عن فرات عنه غير موثوق بنقله ، وأن عبدالرحيم بن واقد الذي خالفه في رواية ذلك عن الفرات مجهول غير معروف عند أهل النقل ، وأن إسماعيل بن يحي الذي حدث عن ابن أبي مليكة غير موثوق بروايته ، ولا جائز عند أهل النقل الاحتجاج بأخباره .

قلت : إسماعيل بن يحيى هذا يقال له التيمي ؛ كوفي ؛ معروف بالكذب ، ورواية إسماعيل بن عياش في غير الشاميين لا يحتج بها ، بل هو ضعيف فيما ينقله عن أهل الحجاز وأهل العراق بخلاف ما ينقله عن شيوخه الشاميين فإنه حافظ لحديث أهل بلده كثير الغلط في حديث أولئك ، وهذا متفق عليه بين أهل العلم بالرجال ، وعبدالرحمن بن واقد لا يحتج به باتفاق أهل العلم ، وفرات بن السائب ضعيف أيضاً لا يحتج به فهو فرات بن أبي الفرات ، ومحمد بن زياد الجزري ضعيف أيضاً .

وقد تنازع الناس في أبجد هوز حطي ؛ فقال طائفة : هي أسماء قوم ، قيل أسماء ملوك مدين أو أسماء قوم كانوا ملوكاً جبابرة . وقيل : هي أسماء الأيام الستة التي خلق الله فيها الدنيا ؛ والأول اختيار الطبري ؛ وزعم هؤلاء أن أصلها أبو جاد مثل أبي عاد وهواز مثل رواد وجواب . وأنها لم تعرب لعدم العقد والتركيب .

والصواب أن هذه ليست أسماء لمسميات ، وإنما ألفت ليعرف تأليف الأسماء من حروف المعجم بعد معرفة حروف المعجم ؛ ولفظها : أبجد ، هوز ،

حطي . ليس لفظها أبو جاد هواز . ثم كثير من أهل الحساب صاروا يجعلونها علامات على مراتب العدد ؛ فيجعلون الألف واحداً ، والباء اثنين ، والجيم ثلاثة ، إلى الياء ثم يقولون : الكاف عشرون . . وآخرون من أهل الهندسة والمنطق يجعلونها علامات على الخطوط المكتوبة ، أو على ألفاظ الأقيسة المؤلفة كما يقولون : كل ألف ب ، وكل ب ج ، فكل ألف ج . ومثلوا بهذه لكونها ألفاظاً تدل على صورة الشكل. والقياس لا يختص بمادة دون مادة، كما جعل أهل التصريف لفظ (فعل) تقابل الحروف الأصلية ، والزائدة ينطقون بها ، ويقولون : وزن (استخرج) استفعل ، وأهل العروض يزنون بألفاظ مؤلفة من ذلك لكن يراعون الوزن من غير اعتبار بالأصل والزائد ، ولهذا سئل بعض هؤلاء عن وزن (نكتل) فقال : نفعل ، وضحك منه أهل التصريف ووزنه عندهم (نفتل) فإن أصله نكتال ، وأصل نكتال (نَكْتَيَل) تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا ، ثم لما جزم الفعل سقطت ، كما نقول مثل ذلك في نعتد ونقتد من اعتاد واقتاد البعير يقتاده .

ونحو ذلك في (نقتيل) فلما حذفوا الألف التي تسمى لام الكلمة صار وزنها وجعلت ثمانية تكون متحركة وهي الهمزة[١] وتكون ساكنة ، وهي حرفان على الاصطلاح الأول وحرف واحد على الثاني ، والألف تقرن بالواو والياء لأنهن حروف العلة ؛ ولهذا ذكرت في آخر حروف المعجم ونطقوا بأول لفظ

(١) قوله : ونحو ذلك في نقتيل – إلى هنا – محرف ؛ فكلمة « نقتيل » ليست من الناقص فتكون لام الكلمة في وزنها ألفاً منقلبة ، وقوله : « صار وزنها » قد سقط خبره ، ولو ذكر لعرفنا أصل الكلمة ، وقوله : « جعلت ثمانية » غير مفهوم فيفهم به ما قبله وما بعده إلخ .

كل حرف منها إلا الألف فلم يمكنهم أن ينطقوا بها ابتداء فجعلوا اللام قبلها فقالوا : «لاَ» والتي في الأول هي الهمزة المتحركة فإن الهمزة في أولها ؛ وبعض الناس ينطق بها «لام ألف» ، والصواب أن ينطق بها «لا» ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن العلم لا بد فيه من نقل مصدق ونظر محقق ؛ وأما النقول الضعيفة لاسيما المكذوبة فلا يعتمد عليها . وكذلك النظريات الفاسدة والعقليات الجهلية الباطلة لا يحتج بها .

(الثاني) أن يقال : هذه الحروف الموجودة في القرآن العربي قد تكلم الله بها بأسماء حروف مثل قوله : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ﴾ [البقرة ١] وقوله : ﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ ﴾ [الأعراف ١] وقوله : ﴿ طسٓ ﴿١﴾ ﴾ [النمل ١] ﴿ حمٓ ﴿١﴾ ﴾ [غافر ١] ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ﴾ [مريم ١] ﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ ﴾ [الشورى ١ – ٢] ﴿ نٓ ﴾ [القلم ١] ﴿ قٓ ﴾ [ق ١] فهذا كله كلام الله غير مخلوق .

(الثالث) أن هذه الحروف إذا وجدت في كلام العباد ، وكذلك الأسماء الموجودة في القرآن إذا وجدت في كلام العباد مثل آدم ونوح ومحمد وإبراهيم وغير ذلك ، فيقال : هذه الأسماء وهذه الحروف قد تكلم الله بها لكن لم يتكلم بها مفردة ، فإن الاسم وحده ليس بكلام ولكن يتكلم بها في كلامه الذي أنزله في مثل قوله : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾ [الفتح ٢٩] وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾ إلى قوله : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [إبراهيم ٣٥ – ٤٠] وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ

إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ﴾ [آل عمران ٣٣] ونحو ذلك ، ونحن إذا تكلمنا بكلام ذكرنا فيه هذه الأسماء فكلامنا مخلوق وحروف كلامنا مخلوقة ، كما قال أحمد بن حنبل لرجل : ألست مخلوقاً ؟ قال : بلى ، قال : أليس كلامك منك ؟ قال : بلى، قال : أليس كلامك مخلوقاً ؟ قال : بلى ، قال : فالله تعالى غير مخلوق ، وكلامه منه ليس بمخلوق .

فقد نص أحمد وغيره على أن كلام العباد مخلوق ، وهم إنما يتكلمون بالأسماء والحروف التي يوجد نظيرها فى كلام الله تعالى ، لكن الله تعالى تكلم بها بصوت نفسه وحروف نفسه وذلك غير مخلوق ، وصفات الله تعالى لا تماثل صفات العباد ؛ فإن الله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا صفاته ولا أفعاله . والصوت الذى ينادي به عباده يوم القيامة ، والصوت الذى سمعه منه موسى ليس كأصوات شيء من المخلوقات . والصوت المسموع هو حروف مؤلفة ، وتلك لا يماثلها شيء من صفات المخلوقين ، كما أن علم الله القائم بذاته ليس مثل علم عباده ؛ فإن الله لا يماثل المخلوقين في شيء من الصفات ، وهو سبحانه فقد علَّم العباد من علمه ما شاء كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة ٢٥٥] وهم إذا علّمهم الله ما علمهم من علمه فنفس علمه الذى اتصف به ليس مخلوقاً ونفس العباد وصفاتهم مخلوقه ، لكن قد ينظر الناظر إلى مسمى العلم مطلقاً ، فلا يقال : إنّ ذلك العلم مخلوق لاتصاف الرب به ، وإن كان ما يتصف به العبد مخلوقاً .

وأصل هذا أن ما يوصف الله به ويوصف به العباد يوصف الله به على ما يليق به[1]ويوصف به العباد بما يليق بهم من ذلك ، مثل الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام ، فإن الله له حياة وعلم وقدرة وسمع وبصر وكلام ؛ فكلامة يشتمل على حروف وهو يتكلم بصوت نفسه ، والعبد له حياة وعلم وقدرة وسمع وبصر وكلام ، وكلام العبد يشتمل على حروف وهو يتكلم بصوت نفسه ؛ فهذه الصفات لها ثلاثة اعتبارات : تارة تعتبر مضافة إلى الرب ، وتارة تعتبر مضافة إلى العبد ، وتارة تعتبر مطلقة لا تختص بالرب ولا بالعبد ؛ فإذا قال العبد : حياة الله وعلم الله وقدرة الله وكلام الله ونحو ذلك ؛ فهذا كله غير مخلوق ولا يماثل صفات المخلوقين ، وإذا قال : علم العبد

---

(١) يعني أن الاشتراك في إطلاق الوصف لا يقتضي المساواة ولا المشابهة في الصفة فضلاً عن مشابهة الموصوف . وقد اختلف العلماء هل هو اشتراك في الجنس أو في الاسم؟ وسببه أنه لا يمكن تعريف الوحي والرسل عباد الله بربهم وصفاته إلا بلغاتهم التي يفهمونها ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم ٤] فكان لا بد من تسميته صفاته تعالى بأسماء صفاتهم التي تدل عليها مع إعلامهم بعدم مماثلتها لها ، قال الغزالي في بيان هذا المعنى ما حاصله : إن لله صفة يصدر عنها الإبداع والاختراع ويسند الإيجاد والإعدام وهذه الصفة أجل وأرفع من أن تدركها عين واضع اللغة فيخصها باسم يدل على كنهها ، فلما أريد إعلام البشر بها استعير لها من ألسنة المتخاطبين باللغات أقرب الكلمات دلالة عليها أو إشارة إلى عظمة شأنها وأثرها في الخلق وهي كلمة القدرة ا هـ بالمعنى من غير مراجعة الأصل ، وهو في كتاب الشكر من الإحياء . وما يقال في القدرة يقال في العلم والكلام والصوت به الذي هو مقتضى النداء الثابت بالقرآن والمصرح به في الحديث ؛ خلافا لمن فرق بين هذه الصفات من المتكلمين بتحكم نظريات المذاهب .

وقدرة العبد وكلام العبد، فهذا كله مخلوق ولا يماثل صفات الرب . وإذا قال : العلم والقدرة والكلام ، فهذا مجمل مطلق لا يقال عليه كله : إنه مخلوق ولا إنه غير مخلوق ، بل ما اتصف به الرب من ذلك فهو غير مخلوق ، وما اتصف به العبد من ذلك فهو مخلوق . فالصفة تتبع الموصوف ؛ فإن كان الموصوف هو الخالق فصفاتة غير مخلوقة ، وإن كان الموصوف هو العبد المخلوق فصفاتة مخلوقة ؛ ثم إذا قرأ بأم القرآن وغيرها من كلام الله فالقرآن في نفسه كلام الله غير مخلوق ، وإن كان حركات العباد وأصواتهم مخلوقة . ولو قال الجنب : (الحمد لله رب العالمين) ينوي به القرآن منع من ذلك وكان قرآنا، ولو قاله ينوي به حمد الله لا يقصد به القراءة لم يكن قارئا وجازله ذلك . ومنه قول النبي ﷺ : «أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله الا الله ، والله أكبر» رواه مسلم في صحيحه . فأخبر أنها أفضل الكلام بعد القرآن الكريم ، وقال : هي من القرآن ، فهي من القرآن باعتبار، وليست من القرآن باعتبار، ولو قال القائل : (يا يحيى خذ الكتاب) ومقصوده القرآن ؛ كان قد يتكلم بكلام الله ولم تبطل صلاته باتقان العلماء ، وإن قصد مع ذلك تنبيه غيره لم تبطل صلاته عند جمهور العلماء . ولو قال لرجل اسمه يحيى وبحضرته كتاب : يا يحيى خذ الكتاب لكان هذا مخلوقا ؛ لأن لفظ « يحيى » هنا مراد به ذلك الشخص وبالكتاب ذلك الكتاب ، ليس مراداً به ما أراده الله بقوله : ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ ﴾ [مريم ١٢] والكلام كلام (المخلوق) بلفظه ومعناه .

وقد تنازع الناس في مسمى الكلام في الأصل ، فقيل : هو اسم اللفظ الدال علي المعنى ، وقيل : المعنى المدلول عليه باللفظ ، وقيل لكل منهما بطريق

الاشتراك اللفظي ، وقيل : بل هو اسم عام لهما جميعاً يتناولهما عند الإطلاق وإن كان مع التقييد يراد به هذا تارة . هذا قول السلف وأئمة الفقهاء وإن كان هذا القول لا يعرف في كثير من الكتب ؛ وهذا كما تنازع الناس في مسمى الإنسان هل هو الروح فقط أو الجسد فقط؟ والصحيح أنه اسم للروح والجسد جميعاً ، وإن كان مع القرينة قد يراد به هذا تارة وهذا تارة ؛ كتنازعهم في مسمى الناطق ؛ فمن سمَّى شخصاً محمداً وإبراهيم ، وقال : جاء محمد ، وجاء إبراهيم لم يكن هذا محمداً وإبراهيم المذكورين في القرآن ، ولو قال : محمد رسول الله ، وإبراهيم خليل الله ؛ يعني به خاتم الرسل وخليل الرحمن لكان قد تكلم بمحمد وإبراهيم الذي في القرآن لكن قد تكلم بالاسم وألفه كلاما فهو كلامه لم يتكلم به في القرآن العربي الذي تكلم الله به .

ومما يوضح ذلك أن الفقهاء قالوا في آداب الخلاء : إنه لا يستصحب ما فيه ذكر الله ، واحتجوا بالحديث الذي في السنن : «إن النبي – صلي الله عليه وسلم – كان إذا دخل الخلاء نزع خاتمه ، وكان خاتمه مكتوبا عليه : «محمد رسول الله» محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر . ولم يمنع أحد من العلماء أن يستصحب ما يكون فيه كلام العباد وحروف الهجاء[1] مثل ورق الحساب الذي يكتب فيه أهل الديوان الحساب ، ومثل الأوراق التي يكتب فيها الباعة ما يبيعونه ، ونحو ذلك ، وفي السيرة أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما صالح غطفان علي نصف تمر المدينة أتاه سعد فقال له : أهذا شيء

---

(١) يعني بالعلماء الأئمة المجتهدين ، وقد قال بعض فقهاء الحنفية باحترام المكتوب من كلام الناس .

أمر الله به فسمعاً وطاعة ، أم شيء تفعله لمصلحتنا ؟ فبين له النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه لم يفعل ذلك بوحي بل فعله باجتهاده ، فقال : «لقد كنا في الجاهلية ، وما كانوا يأكلون منها تمرة إلا بقرى أو بشراء ، فلما أعزّنا الله بالإسلام يريدون أن يأكلوا تمرنا ؟ لا يأكلون تمرة واحدة» وبصق سعد في الصحيفة وقطعها فأقرّه النبي - صلى الله عليه وسلم - على ذلك ولم يقل هذه حروف ، فلا يجوز إهانتها والبصاق فيها ، وأيضاً فقد كره السلف محو القرآن بالرجل ، ولم يكرهوا محو ما فيه كلام الآدميين .

وأما قول القائل : إن الحروف قديمة أو حروف المعجم قديمة ؛ فإن أراد جنسها فهذا صحيح ، وإن أراد الحرف المعين فقد أخطأ فإن له مبدأ ومنتهى ، وهو مسبوق بغيره ، وما كان كذلك لم يكن إلا محدثا .

وأيضا لفظ الحروف مجمل ، يراد بالحروف المنطوقة المسموعة التي هي مباني الكلام ، ويراد بها الحروف المكتوبة ، ويراد بها الحروف المتخيلة في النفس ، والصوت لا يكون كلاما إلا بالحروف باتفاق الناس ، وأما الحروف فهل تكون كلاما بدون الصوت ؟ فيه نزاع . والحرف قد يراد به الصوت المقطع ، وقد يراد به نهاية الصوت وحده ، وقد يراد بالحروف المداد ، وقد يراد بالحروف شكل المداد ، فالحروف التي تكلم الله بها غير مخلوقة وإذا كتبت في المصحف قيل : كلام الله المكتوب في المصحف غير مخلوق ، وأما نفس أصوات العباد فمخلوقة والمداد مخلوق وشكل المداد مخلوق ، فالمداد مخلوق بمادته وصورته ، وكلام الله المكتوب بالمداد غير مخلوق . ومن كلام الله الحروف التي تكلم الله بها ؛ فإذا كتبت بالمداد لم تكن مخلوقة وكان المداد مخلوقا . وأشكال الحروف المكتوبة مما يختلف فيها اصطلاح الأمم .

والخط العربي قد قيل : إن مبدأه كان من الأنبار ، ومنها انتقل إلى مكة وغيرها ، والخط العربي تختلف صورته : العربي القديم فيه تكوّف ، وقد اصطلح المتأخرون علي تغيير بعض صوره ، وأهل المغرب لهم اصطلاح ثالث حتى في نقط الحروف وترتيبها ، وكلام الله المكتوب بهذه الخطوط كالقرآن العربي هو في نفسه لا يختلف باختلاف الخطوط التي يكتب بها .

فإن قيل : فالحرف من حيث هو مخلوق أو غير مخلوق مع قطع النظر عن كونه في كلام الخالق أو كلام المخلوق ؟ فإن قلتم هو من حيث هو غير مخلوق لزم أن يكون غير مخلوق في كلام العباد ، وإن قلتم مخلوق لزم أن يكون مخلوقا في كلام الله ؟ قيل : قول القائل بل الحرف من حيث هو هو كقوله الكلام من حيث هو هو ، والعلم من حيث هو هو ، والقدرة من حيث هي هي ، والوجود من حيث هو هو ، ونحو ذلك .

والجواب عن ذلك : أن هذه الأمور وغيرها إذا أخذت مجردة مطلقة غير مقيدة ولا مشخصة لم يكن لها حقيقة في الخارج عن الأذهان إلا شيء معين ، فليس ثم وجود إلا وجود الخالق أو وجود المخلوق ، ووجود كل مخلوق مختص به ، وإن كان اسم الوجود عاما يتناول ذلك كله ، وكذلك العلم والقدرة اسم عام يتناول أفراد ذلك وليس في الخارج إلا علم الخالق وعلم المخلوق ، وعلم كل مخلوق مختص به قائم به ، واسم الكلام والحروف يعم كل ما يتناوله لفظ الكلام والحروف ، وليس في الخارج إلا كلام الخالق وكلام المخلوقين ؛ وكلام كل مخلوق مختص به ، واسم الكلام يعم كل ما يتناوله هذا اللفظ ، وليس في الخارج إلا الحروف التي تكلم الله بها الموجودة

في كلام الخالق ، والحروف الموجودة في كلام المخلوقين ، فإذا قيل : إن علم الرب وقدرته وكلامه غير مخلوق وحروف كلامه غير مخلوقة لم يلزم من ذلك أن يكون علم العبد وقدرته وكلامه غير مخلوق وحروف كلامه غير مخلوقة .

وأيضا فلفظ الحرف يتناول الحرف المنطوق والحرف المكتوب ، وإذا قيل: إن الله تكلم بالحروف المنطوقه كما تكلم بالقرآن العربي وبقوله : ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [البقرة ١] و ﴿حمٓ ۝١﴾ [غافر ١] و ﴿طسٓمٓ ۝١﴾ [الشعراء ١] و ﴿طسٓ﴾ [النمل ١] و ﴿يسٓ ۝١﴾ [يس ١] - و ﴿قٓ﴾ [ق ١] و ﴿ نٓ ﴾ [القلم ١] ونحو ذلك فهذا كلامه وكلامه غير مخلوق ، وإذا كتب في المصاحف كان ما كتب من كلام الرب غير مخلوق ؛ وإن كان المداد وشكله مخلوقا .

وأيضا فإذا قرأ الناس كلام الله فالكلام في نفسه غير مخلوق إذا كان الله قد تكلم به ، وإذا قرأه المبلغ لم يخرج عن أن يكون كلام الله ، فإن الكلام كلام من قاله مبتدئا ، أمراً يأمر به أو خبراً يخبره ليس هو كلام المبلغ له عن غيره إذ ليس علي الرسول إلا البلاغ المبين . وإذا قرأه المبلغ فقد يشار إليه من حيث هو كلام الله فيقال : هذا كلام الله مع قطع النظر عما بلغه به العباد من صفاتهم ، وقد يشارك إلي نفس صفة العبد كحركته وحياته ، وقد يشار إليهما ، فالمشار إليه الأول غير مخلوق ، والمشار إليه الثاني مخلوق ، والمشار إليه الثالث فمنه غير مخلوق ، وما يوجد في كلام الآدميين من نظير هذا هو نظير صفة العبد لا نظير صفة الرب أبدا ، وإذا قال القائل : القاف فى قوله : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۝١٤﴾ [طه ١٤] كالقاف في قوله : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل . قيل ما تكلم الله به وسمع منه لا يماثل

صفة المخلوقين ، ولكن إذا بلغنا كلام الله فإنما بلغناه بصفاتنا ، وصفاتنا مخلوقة ، والمخلوق يماثل المخلوق .

وفي هذا جواب للطائفتين لمن قاس صفة المخلوق بصفة الخالق فجعلها غير مخلوقة ؛ فإن الجهيمة المعطلة أشباه اليهود ، والحلولية الممثلة أشباه النصاري دخلوا في هذا وهذا ، أولئك مثلوا الخالق بالمخلوق فوصفوه بالنقائص التي تختص بالمخلوق كالفقر والبخل ، وهؤلاء مثلوا المخلوق بالخالق فوصفوه بخصائص الربوبية التي لا تصلح إلا لله ، والمسلمون يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفته به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل يثبتون له ما يستحقه من صفات الكمال ، وينزهونه عن الأكفاء والأمثال ، فلا يعطلون الصفات ولا يمثلونها بصفات المخلوقات ؛ فإن المعطل يعبد عدما ، والممثل يعبد صنمًا ، والله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى ١١] .

ومما ينبغي أن يعرف أن كلام المتكلم في نفسه واحد، وإذا بلغه المبلغون تختلف أصواتهم به فإذا أنشد المنشد قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل. كان هذا الكلام كلام لبيد لفظه ومعناه مع أن أصوات المنشدين له تختلف وتلك الأصوات ليست صوت لبيد ، وكذلك من روى حديث النبي – صلى الله عليه وسلم – بلفظه كقوله : «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى» كان هذا الكلام كلام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لفظه ومعناه ، ويقال لمن رواه : أدى الحديث بلفظه وإن كان صوت المبلغ ليس هو صوت الرسول؛ فالقرآن أولى أن يكون كلام الله لفظه ومعناه، وإذا قرأه القراء

فإنما يقرؤونه بأصواتهم ؛ ولهذا كان الإمام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنه يقولون : من قال: اللفظ بالقرآن أو لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال : إنه غير مخلوق فهو مبتدع ، وفي بعض الروايات عنه : من قال لفظي بالقرآن مخلوق يعني به القرآن فهو جهمي ؛ لأن اللفظ يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظاً ، ومسمى هذا فعل العبد وفعل العبد مخلوق ، ويراد باللفظ القول الذي يلفظ به اللافظ ، وذلك كلام الله لا كلام القارىء ؛ فمن قال : إنه مخلوق فقد قال : إن الله لم يتكلم بهذا القرآن ، وإن هذا الذي يقرؤه المسلمون ليس هو كلام الله ، ومعلوم أن هذا مخالف لما علم بالاضطرار من دين الرسول . وأما صوت العبد فهو مخلوق ، وقد صرّح أحمد وغيره بأنّ الصوت المسموع صوت العبد ، ولم يقل أحمد قط من قال : إن صوتى بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، وإنما قال من قال لفظي بالقرآن ، والفرق بين لفظ الكلام وصوت المبلغ له فرق واضح ، فكل من بلغ كلام غيره بلفظ ذلك الرجل فإنما بلغ لفظ ذلك الغير لا لفظ نفسه ، وهو إنما بلغه بصوت نفسه لا بصوت ذلك الغير ، ونفس اللفظ والتلاوه والقراءه والكتابه ونحو ذلك لما كان يراد به المصدر الذي هو حركات العباد وما يحدث عنها من أصواتهم وشكل المداد ، ويراد به نفس الكلام الذي يقرؤه التالي ويتلوه ويلفظ به ويكتبه ، منع أحمد وغيره من إطلاق النفي والإثبات الذي يقتضي جعل صفات الله مخلوقه أو جعل صفات العباد ومدادهم غير مخلوق ، وقال أحمد نقول : القرآن كلام الله غير مخلوق حيث تصرف ؛ أي حيث تلي وكتب وقرىء مما هو في نفس الأمر كلام الله فهو كلامه ، وكلامه غير مخلوق ، وما كان من صفات العباد

وأفعالهم التي يقرؤون ويكتبون بها كلامه كأصواتهم ومدادهم فهو مخلوق ؛ ولهذا من لم يهتد إلى هذا الفرق يحار ، فإنه معلوم أن القرآن واحد ويقرؤه خلق كثير ، والقرآن لا يكثر في نفسه بكثرة قراءة القراء ، وإنما يكثر ما يقرؤون به القرآن فما يكثر ويحدث في العباد فهو مخلوق ، والقرآن نفسه لفظه ومعناه الذي تكلم الله به وسمعه جبريل من الله ، وسمعه محمد من جبريل وبلغه محمد إلي الناس وأنذر به الأمم لقوله تعالى : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام ١٩] قرآن واحد ، وهو كلام الله ليس بمخلوق ، وليس هذا من باب ما هو واحد بالنوع متعدد الأعيان ، كالإنسانية الموجوده في زيد وعمرو ، ولا من باب ما يقول الإنسان مثل قول غيره كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ [البقرة ١١٨] ؛ فإن القرآن لا يقدر أحد أن يأتي بمثله ، كما قال تعالى : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء ٨٨] فالإنس والجن إذا اجتمعوا لم يقدروا أن يأتوا بمثل هذا القرآن مع قدرة كل قارىء على أن يقرأه ويبلغه ؛ فعلم أن ما قرأه هو القرآن ليس هو مثل ذلك القرآن ، وأما الحروف الموجوده في القرآن إذا وجد نظيرها في كلام غيره فليس هذا هو ذاك بعينه بل هو نظيره ، وإذا تكلم الله باسم من الأسماء كآدم ونوح وإبراهيم ، وتكلم بتلك الحروف والأسماء التي تكلم الله بها ؛ فإذا قرئت في كلامه فقد بلغ كلامه ، فإذا أنشأ الإنسان لنفسه كلاما لم يكن عين ما تكلم الله به من الحروف والأسماء هو عين ما تكلم به العبد حتى يقال : إن هذه الأسماء والحروف الموجودة في كلام العباد غير مخلوقة ، فإن بعض من

قال: إن الحروف والأسماء غير مخلوقة في كلام العباد ادعى أن المخلوق إنما هو النظم والتأليف دون المفردات ، وقائل هذا يلزمه أن يكون أيضاً النظم والتأليف غير مخلوق إذا وجد نظيره في القرآن كقوله : ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ﴾ [مريم ١٢] وإن أراد بذلك شخصاً اسمه يحيى وكتابا بحضرته .

(فإن قيل) : يحيى هذا والكتاب الحاضر ليس هو يحيى والكتاب المذكور في القرآن وإن كان اللفظ نظير اللفظ (قيل) : كذلك سائر الأسماء والحروف إنما يوجد نظيرها في كلام العباد لا في كلام الله ، وقولنا : يوجد نظيرها في كلام الله تقريب ؛ أي يوجد فيما نقرؤه ونتلوه ؛ فإن الصوت المسموع من لفظ محمد ويحيى وإبراهيم في القرآن هو مثل الصوت المسموع من ذلك في غير القرآن وكلا الصوتين مخلوق ؛ وأما الصوت الذي يتكلم الله به فلا مثل له لا يماثل صفات المخلوقين ، وكلام الله هو كلامه بنظمه ومعانيه . وذلك الكلام ليس مثل كلام المخلوقين ؛ فإذا قلنا : (الحمد لله رب العالمين) ، وقصد بذلك قراءة القرآن الذي تكلم الله به فذلك القرآن تكلم الله بلفظه ومعناه لا يماثل لفظ المخلوقين ومعناهم ، وأما إذا قصدنا به الذكر ابتداء من غير أن يقصد قراءة كلام الله فإنما نقصد ذكراً ننشئه نحن يقوم معناه بقلوبنا ، وننطق بلفظه بألسنتنا ، وما أنشأناه من الذكر فليس هو من القرآن ؛ وإن كان نظيره في القرآن ؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : «أفضل الكلام بعد القرآن أربع ، وهن من القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله اكبر» فجعل النبي ﷺ هذه الكلمات أفضل الكلام بعد القرآن ، فجعل درجتها دون درجة القرآن ، وهذا يقتضي أنها ليست من القرآن ، ثم قال : «هي من

القرآن» وكلا قوليه حق وصواب ؛ ولهذا منع أحمد أن يقال : الإيمان مخلوق ؛ وقال : لا إله إلا الله من القرآن ؛ وهذا الكلام لا يجوز أن يقال : إنه مخلوق وإن لم يكن من القرآن ، ولا يقال في التوراة والإنجيل : إنهما مخلوقان ، ولا يقال في الأحاديث الإلهية التي يرويها عن ربه : إنها مخلوقة كقولة «ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا» ، فكلام الله قد يكون قرآنا ، وقد لا يكون قرآنا ، والصلاة إنما تجوز وتصحّ بالقرآن . وكلام الله كله غير مخلوق .

فإذا فهم هذا في مثل هذا فليفهم في نظائره ، وإن ما يوجد من الحروف والأسماء في كلام الله ويوجد في غير كلام الله يجوز أن يقال : إنه من كلام الله باعتبار، كما أنه يكون من القرآن باعتبار وغير القرآن باعتبار، لكن كلام الله القرآن وغير القرآن غير مخلوق ، وكلام المخلوقين كله مخلوق ؛ فما كان من كلام الله فهو غير مخلوق ، وما كان من كلام غيره فهو مخلوق .

وهؤلاء الذين يحتجون على نفي الخلق أو إثبات القدم بشيء من صفات العباد وأعمالهم لوجود نظير ذلك فيما يضاف إلى الله وكلامه والإيمان به ، شاركهم في هذا الأصل الفاسد من احتج على خلق ما هو من كلام الله وصفاته بأن ذلك قد يوجد نظيره فيما يضاف إلى العبد ؛ مثل ذلك أن القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله قرؤوه بحركاتهم وأصواتهم ، فقال الجهمي : أصوات العباد ومدادهم مخلوقة ، وهذا هو المسمى بكلام الله أو يوجد نظيره في المسمى بكلام الله فيكون كلام الله مخلوقاً .

وقال الحلولي الاتحادي الذي يجعل صفة الخالق هي عين صفة المخلوق: الذي نسمعه من القراء هو كلام الله ، وإنما نسمع أصوات العباد فأصوات العباد بالقرآن كلام الله ، وكلام الله غير مخلوق فأصوات العباد بالقرآن غير ملخوقة ، والحروف المسموعة منهم غير مخلوقة ، ثم قالوا : الحروف الموجودة في كلامهم هي هذه أو مثل هذه فتكون غير مخلوقة . وزاد بعض غلاتهم فجعل أصوات كلامهم غير مخلوقة كما زعم بعضهم أن الأعمال من الإيمان وهو غير مخلوق والأعمال غير مخلوقة ، وزاد بعضهم أعمال الخير والشر ، وقال : هي القدر والشرع المشروع ، وقال عمر : ما مرادنا بالأعمال الحركات بل الثواب الذي يأتي يوم القيامة ؛ كما ورد في الحديث الصحيح : «إنه تأتي البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف» فيقال له : وهذا الثواب مخلوق ؛ وقد نص أحمد وغيره من الأئمة على أنه غير مخلوق ؛ وبذلك أجابوا من احتج على خلق القرآن بمثل هذا الحديث فقالوا له : الذي يجيء يوم القيامة هو ثواب القرآن لا نفس القرآن وثواب القرآن مخلوق ؛ إلى أمثال هذه الأقوال التي ابتدعها طوائف ، والبدع تنشأ شيئاً فشيئاً ، وقد بسط الكلام في هذا الباب في مواضع أخر .

وقد بينا أن الصواب في هذا الباب هو الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان ، وهو ما كان عليه الإمام أحمد بن حنبل ومن قبله من أئمة الإسلام ومن وافق هؤلاء ؛ فإن قول الإمام أحمد وقول الأئمة قبله هو القول الذي جاء به الرسول ودل عليه الكتاب والسنة، ولكن لما امتحن الناس بمحنة الجهمية وطلب منهم تعطيل الصفات،

وأن يقولوا بأن القرآن مخلوق ، وأن الله لا يُرى في الآخرة ونحو ذلك ، ثبّت الله الإمام أحمد في تلك المحنة فدفع حجج المعارضين النفاة ، وأظهر دلالة الكتاب والسنة ، وأن السلف كانوا على الإثبات فآتاه الله من الصبر واليقين ما صار به إماما كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة ٢٤] ولهذا قيل فيه - رحمه الله - : عن الدنيا ما كان أصبره ، وبالماضين ما كان أشبهه ؛ أتته البدع فنفاها ، والدنيا فأباها ، فلما ظهر به من السنة ما ظهر كان له من الكلام في بيانها وإظهارها أكثر وأعظم مما لغيره فصار أهل السنة من عامة الطوائف يعظمونه وينتسبون إليه .

وقد ذكرت كلامه وكلام غيره من الأئمة ونصوص الكتاب والسنة في هذه الأبواب في غير هذا الموضع ، وبينا أن كل ما يدل عليه الكتاب والسنة فإنه موافق لصريح المعقول ، وإن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح ، ولكن كثيراً من الناس يغلطون إما في هذا وإما في هذا ، فمن عرف قول الرسول ومراده به كان عارفاً بالأدلة الشرعية وليس في المعقول ما يخالف المنقول ؛ ولهذا كان أئمة السنة على ما قاله أحمد بن حنبل ، قال : معرفة الحديث والفقه فيه أحب إليَّ من حفظه ، أي معرفته بالتمييز بين صحيحه وسقيمه ، والفقه فيه معرفة مراد الرسول وتنزيله على المسائل الأصولية والفروعية أحب إلي من أن تحفظ من غير معرفة وفقه ، وهكذا قال علي بن المديني وغيره من العلماء فإنه من احتج بلفظ ليس بثابت عن الرسول (أو بلفظ ثابت عن الرسول) وحمله على ما لم يدل عليه فإنما أتى من نفسه .

وكذلك العقليات الصريحة إذا كانت مقدماتها وترتيبها صحيحاً لم تكن إلا حقاً لا تناقض شيئاً مما قاله الرسول ، والقرآن قد دل على الأدلة العقلية التي بها يعرف الصانع وتوحيده وصفاته وصدق رسله ، وبها يعرف مكان المعاد ؛ ففي القرآن من بيان أصول الدين التي تعلم مقدماتها بالعقل الصريح ما لا يوجد مثله في كلام أحد من الناس ، بل عامة ما يأتي به حذاق النظار من الأدلة العقلية يأتي القرآن بخلاصتها وبما هو أحسن منها ، قال تعالى : ﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣) ﴾ [الفرقان ٣٣] وقال : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الإسراء ٨٩] وقال : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الحشر ٢١].

وأما الحجج الداحضة التي يحتج بها الملاحدة وحجج الجهمية معطلة الصفات وحجج الدهرية وأمثالها كما يوجد مثل ذلك في كلام المتأخرين الذين يصنعون في الكلام المبتدع وأقوال المتفلسفة ويدعون أنها عقليات ففيها من الجهل والتناقض والفساد ؛ ما لا يحصيه إلا رب العباد . وقد بسط الكلام على هؤلاء في مواضع أخر .

وكان من أسباب ضلال هؤلاء تقصير الطائفتين أو قصورهم عن معرفة ما جاء به الرسول ، وما كان عليه السلف ، ومعرفة المعقول الصريح ؛ فإن هذا هو الكتاب ، وهذا هو الميزان ، وقد قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) ﴾ [الحديد ٢٥] وهذه المسألة لا تحتمل البسط على هذه الأمور ؛

إذْ كان المقصود هنا التنبيه على أن هؤلاء المتنازعين أجمعوا على أصل فاسد ، ثم تفرقوا فأجمعوا على أن جعلوا عين صفة الرب الخالق هي عين صفة المخلوق . ثم قال هؤلاء : وصفة المخلوق مخلوقة فصفة الرب مخلوقة ، فقال هؤلاء : صفة الرب قديمة فصفة المخلوق قديمة ، ثم احتاج كل منهما إلى طرد أصله فخرجوا إلى أقوال ظاهرة الفساد ، خرج النفاة إلى أن الله لم يتكلم بالقرآن ولا شيء من الكتب الإلهية ولا التوراة ولا الإنجيل ولا غيرهما ، وأنه لم يناد موسى بنفسه نداء يسمعه منه موسى ولا تكلم بالقرآن العربي ولا التوراة العبرية ، وخرج هؤلاء إلى أن ما يقوم بالعباد ويتصفون به يكون قديماً أزلياً ، وأن ما يقوم بهم ويتصفون به لا يكون قائماً بهم حالاً فيهم ؛ بل يكون ظاهراً فيهم من غير قيام بهم .

ولما تكلموا في حروف المعجم صاروا بين قولين : طائفة فرقت بين المتماثلين فقالت : الحرف حرفان هذا قديم وهذا مخلوق ، كما قال ابن حامد والقاضي أبو يعلى وابن عقيل وغيرهم ، فأنكر ذلك عليهم الأكثرون ، وقالوا : هذا مخالفة للحس والعقل ؛ فإن حقيقة هذا الحرف هي حقيقة هذا الحرف ، وقالوا : الحرف حرف واحد . وصنف في ذلك القاضي يعقوب البرزيني مصنفاً خالف به شيخه القاضي أبا يعلى مع قوله في مصنفه : وينبغي أن يعلم أن ما سطرته في هذه المسألة أن ذلك مما استفدته ، وتفرع عندي من شيخنا وإمامنا القاضي أبي يعلى بن الفراء ، وإن كان قد نصر خلاف ما ذكرته في هذا الباب ، فهو العالم المقتدى به في علمه ودينه ، فإني ما رأيت أحسن سمتا منه ، ولا أكثر اجتهاداً منه ، ولا تشاغلا بالعلم ، مع كثرة

العلم والصيانة ، والانقطاع عن الناس والزهادة فيما بأيديهم ، والقناعة في الدنيا باليسير ، مع حسن التجمل ، وعظم حشمته عند الخاص والعام ، ولم يعدل بهذه الأخلاق شيئاً من نفر من الدنيا .

وذكر القاضي يعقوب في مصنفه أن ما قاله قول أبي بكر أحمد بن المسيب الطبري ، وحكاه عن جماعة من أفضل أهل طبرستان ، وأنه سمع الفقيه عبدالوهاب بن حلبة قاضي حران يقول : هو مذهب العلوي الحراني وجماعة من أهل حران . وذكره أبو عبدالله بن حامد عن جماعة من أهل طبرستان ممن ينتمي إلى مذهبنا كأبي محمد الكشفل، وإسماعيل الكلوذري في خلق من أتباعهم يقولون : إنها قديمة ، قال القاضي أبو يعلى : وكذلك حكي لي عن طائفة بالشام أنها تذهب إلى ذلك ؛ منهم النابلسي وغيره ، وذكر القاضي حسين أن أباه رجع في آخر عمره إلى هذا . وذكروه عن الشريف أبي علي بن أبي موسى، وتبعهم في ذلك الشيخ أبو الفرج المقدسي وابنه عبدالوهاب وسائر أتباعه وأبو الحسن بن الزاغوني وأمثاله . وذكر القاضي يعقوب أن كلام أحمد يحتمل القولين ، وهؤلاء تعلقوا بقول أحمد لما قيل له : إن سريًا السقطي قال : لما خلق الله الأحرف سجدت له إلا الألف فقالت : لا أسجد حتى أومر . فقال أحمد : هذا كفر . وهؤلاء تعلقوا من قول أحمد بقوله : كل شيء من المخلوقين على لسان المخلوقين فهو مخلوق ، وبقوله : لو كان كذلك لما تمت صلاة بالقرآن كما لا تتم بغيره من كلام الناس . ويقول أحمد لأحمد بن الحسن الترمذي : ألست مخلوقاً ؟ قال : أليس كل شيء منك مخلوقاً ؟ قال : بلى ، قال : فكلامك منك وهو مخلوق .

(قلت) : الذي قاله أحمد في هذا الباب صواب يصدق بعضه بعضا ، وليس في كلامه تناقض ، وهو أنكر على من قال : إن الله خلق الحروف ، فإن من قال : إن الحروف مخلوقة كان مضمون قوله أن الله لم يتكلم بقرآن عربي ، وأن القرآن العربي مخلوق ، ونص أحمد أيضاً على أن كلام الآدميين مخلوق ، ولم يجعل شيئاً منه غير مخلوق ، وكل هذا صحيح ، والسري ـ رحمه الله ـ إنما ذكر ذلك عن بكر بن خنيس العابد، فكان مقصودهما بذلك أن الذي لا يعبد الله إلا بأمره هو أكمل ممن يعبده برأيه من غير أمر من الله ، واستشهدا على ذلك بما بلغهما أنه لما خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف فقالت : لا أسجد حتى أؤمر ، وهذا الأثر لا يقوم بمثله حجة في شيء ، ولكن مقصودهما ضرب المثل أن الألف منتصبة في الخط ليس هي مضطجعة كالباء والتاء ، فمن لم يفعل حتى يؤمر أكمل ممن فعل بغير أمر . وأحمد أنكر قول القائل : إن الله لما خلق الحروف ، وروي عنه أنه قال : من قال إن حرفاً من حروف المعجم مخلوق فهو جهمي ؛ لأنه سلك طريقاً إلى البدعة ، ومن قال : إن ذلك مخلوق فقد قال : إن القرآن مخلوق ؛ وأحمد قد صرح هو وغيره من الأئمة أن الله لم يزل متكلماً إذا شاء ، وصرح أن الله يتكلم بمشيئته ، ولكن أتباع ابن كلاب كالقاضي وغيره تأولوا كلامه على أنه أراد بذلك إذا شاء الإسماع ؛ لأنه عندهم لم يتكلم بمشيئته وقدرته.

وصرح أحمد وغيره من السلف أن القرآن كلام الله غير مخلوق . ولم يقل أحد من السلف : إن الله تكلم بغير مشيئته وقدرته ، ولا قال أحد منهم : إن نفس الكلام المعين كالقرآن أو ندائه لموسى أو غير ذلك من كلامه المعين

إنه قديم أزلي لم يزل ولا يزال ، وإن الله قامت به حروف معينة أو حروف وأصوات معينة قديمة أزلية لم تزل ولا تزال : فإن هذا لم يقله ولا دل عليه قول أحمد ولا غيره من أئمة المسلمين ، بل كلام أحمد وغيره من الأئمة صريح في نقيض هذا ، وإن الله يتكلم بمشيئته وقدرته ، وإنه لم يزل يتكلم إذا شاء ، مع قولهم إن كلام الله غير مخلوق ، وإنه منه بدا ليس بمخلوق ابتدأ من غيره ، ونصوصهم بذلك كثيرة معروفة في الكتب الثابتة عنهم ، مثل ما صنف أبو بكر الخلال في كتاب السنة وغيره ، وما صنفه عبدالرحمن ابن أبي حاتم من كلام أحمد وغيره ، وما صنفه أصحابه وأصحاب أصحابه كابنيه صالح وعبدالله ، وحنبل ، وأبي داود السجستاني صاحب السنن ، والأثرم ، والمروذي ، وأبي زرعة ، وأبي حاتم ، والبخاري صاحب الصحيح ، وعثمان بن سعيد الدرامي ، وإبراهيم الحربي ، وعبدالوهاب الوراق ، وعباس ابن عبدالعظيم العنبري ، وحرب بن إسماعيل الكرماني ، ومن لا يحصى عدده من أكابر أهل العلم والدين ، وأصحاب أصحابه ممن جمع كلامه واختاره كعبدالرحمن بن أبي حاتم ، وأبي بكرالخلال ، وأبي الحسن البناني الأصبهاني وأمثال هؤلاء ، ومن كان أيضاً يأتم به ويأمثاله من الأئمة في الأصول والفروع كأبي عيسى الترمذي صاحب الجامع ، وأبي عبدالرحمن النسائي وأمثالهما ، ومثل أبي محمد بن قتيبة وأمثاله ، وبسط هذا له موضع آخر ، وقد ذكرنا في المسائل الطبرستانية والكيلانية بسط مذاهب الناس ، وكيف تشعبت وتفرعت في هذا الأصل .

والمقصود هنا أن كثيراً من الناس المتأخرين لم يعرفوا حقيقة كلام السلف والأئمة ؛ فمنهم من يعظمهم ويقول إنه متبع لهم مع أنه مخالف لهم من حيث لا يشعر ، ومنهم من يظن أنهم كانوا لا يعرفون أصول الدين ولا تقريرها بالدلائل البرهانية ، وذلك لجهله بعلمهم بل لجهله بما جاء به الرسول من الحق الذي تدل عليه الدلائل العقلية مع السمعية ؛ فلهذا يوجد كثير من المتأخرين يشتركون في أصل فاسد ، ثم يفرع كل قوم عليه فروعاً فاسدة يلتزمونها ، كما صرحوا في تكلم الله تعالى بالقرآن العربي وبالتوراة العبرية وما فيهما من حروف الهجاء مؤلفاً أو مفرداً لما رأوا أن ذلك بلغ بصفات المخلوقين اشتبه بصفات المخلوقين ، فلم يهتدوا لموضع الجمع والفرق ، فقال هؤلاء : هذا الذي يقرأ ويسمع مثل كلام المخلوقين فهو مخلوق، وقال هؤلاء : هذا الذي من كلام الآدميين هو مثل كلام الله فيكون غير مخلوق ، كما ذكر ابن عقيل في كتاب الإرشاد عن بعض القائلين بأن القرآن مخلوق فهو شبهة اعترض بها على بعض أئمتهم فقال : أقل ما في القرآن من أمارات الحدث كونه مشبهاً لكلامنا، والقديم لا يشبه المحدث، ومعلوم أنه لا يمكن دفع ذلك ؛ لأن قول القائل لغلامه يحيى : يا يحيى خذ الكتاب بقوة ، يضاهي قوله سبحانه ، حتى لا يميز السامع بينهما من حيث حسه ، إلا أن يخبره أحدهما بقصده والآخر بقصده ، فيميز بينهما بخبر القائل لا بحسه ، وإذا اشتبها إلى هذا الحد فكيف يجوز دعوى قدم ما يشابه المحدث ويسد مسده ، مع أنه إن جاز دعوى قدم الكلام مع كونه مشاهدا للمحدث جاز دعوى التشبيه بظواهر الآي والإخبار ، ولا مانع من ذلك ، فلما فزعنا نحن

وأنتم إلى نفي التشبيه خوفاً من جواب دخول القرآن بالحدث علينا ، كذلك يجب أن تفزعوا من القول بالقدم مع وجود الشبه ، حتى إن بعض أصحابكم يقول لقوة ما رأى من الشبه بينهما : إن الكلام واحد والحروف غير مخلوقة، فكيف يجوز أن يقال في الشيء الواحد إنه قديم محدث ؟

قلت : وهذا الذي حكى عنه ابن عقيل من بعض الأصحاب المذكورين منهم القاضي يعقوب البرزيني ذكره في مصنفه فقال : (دليل عاشر) ؛ وهو أن هذه الحروف بعينها وصفتها ومعناها وفائدتها هي التي في كتاب الله تعالى وفي أسمائه وصفاته والكتاب بحروفه قديم . وكذلك هاهنا . قال : فإن قيل: لا نسلم أن تلك لها حرمة وهذه لا حرمة لها ، قيل: لا نسلم ، بل لها حرمة.

فإن قيل : لو كان لها حرمة لوجب أن تمنع الحائض والنفساء من مسها وقراءتها ، قيل قد لا نمنع من قراءتها ومسها ، ويكون لها حرمة كبعض آية لا تمنع من قراءتها ولها حرمة وهي قديمة ، وإنما لم تمنع من قراءتها ومسها للحاجة إلى تعليمها كما يقال في الصبي : يجوز له مس المصحف على غير طهارة للحاجة إلى تعليمه.

فإن قيل : فيجب إذا حلف بها حالف أن ينعقد يمينه ، وإذا خالف يمينه أن يحنث ، قيل له : كما في حروف القرآن مثله نقول هنا .

فإن قيل : أليس إذا وافقها في هذه المعاني دل على أنها هي ، ألا ترى أنه إذا تكلم متكلم بكلمة يقصد بها خطاب آدمي ، فوافق صفتها صفة ما في كتاب الله تعالى مثل قوله : ياداود ، يانوح ، يايحيى ، وغير ذلك فإنه موافق لهذه الأسماء التي في كتاب الله ؛ وإن كانت في كتاب الله قديمة وفي

خطاب الآدمي محدثة ، قيل : كل ما كان موافقاً لكتاب الله من الكلام في لفظه ونظمه وحروفه فهو من كتاب الله وإن قصد به خطاب آدمي .

فإن قيل : فيجب إذا أراد بهذه الأسماء آدمياً وهو في الصلاة أن لا تبطل صلاته ، قيل له : كذلك نقول قد ورد مثل ذلك عن عليّ وغيره ؛ إذ ناداه رجل من الخوارج ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزمر ٦٥] قال : فأجابه علي وهو في الصلاة ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الروم ٦٠] وعن ابن مسعود أنه استأذن عليه بعض أصحابه فقال : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يوسف ٩٩] .

قال : فإن قيل أليس إذا قال : ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم ١٢] ونوى خطاب غلام اسمه يحيى يكون الخطاب مخلوقاً وإن نوى به القرآن يكون قديماً ؟ قيل له : في كلا الحالين يكون قديماً ؛ لأن القديم عبارة عما كان موجوداً فيما لم يزل ، والمحدث عبارة عما حدث بعد أن لم يكن ، والنية لا تجعل المحدث قديماً ولا القديم محدثاً ، قال : ومن قال هذا فقد بالغ في الجهل والخطأ .

وقال أيضاً : كل شيء يشبه بشيء ما فإنما يشبهه في بعض الأشياء دون بعض ولا يشبهه من جميع أحواله ؛ لأنه إذا كان مثله في جميع أحواله كان هو لا غيره ، وقد بينا أن هذه الحروف تشبه حروف القرآن فهي غيرها ا هـ .

(قلت) هذا كلام القاضي يعقوب وأمثاله مع أنه أجل من تكلم في هذه المسألة ، ولما كان جوابه مشتملاً على ما يخالف النص والإجماع والعقل خالفه ابن عقيل وغيره من أئمة المذهب الذين هم أعلم به .

وأجاب ابن عقيل عن سؤال الذين قالوا هذا مثل هذا ، بأن قال : الاشتراك في الحقيقة لا يدل على الاشتراك في الحدوث ، كما أن كونه عالماً هو تبينه للشيء على أصلكم ، ومعرفته به على قولنا على الوجه الذي يبينه الواحد منا ، وليس مماثلاً لنا في كوننا عالمين ، وكذلك كونه قادراً هو صحة الفعل منه سبحانه وتعالى ، وليس قدرته على الوجه الذي قدرنا عليها ، فليس الاشتراك في الحقيقة حاصلاً ، والافتراق في القدوم والحدوث حاصل .

قال : وجواب آخر ، لا نقول : إن الله يتكلم بكلامه على الوجه الذي يتكلم به زيد ، بمعنى أنه يقول يايحيى ؛ فإذا فرغ من ذلك انتقل إلى قوله : خذ الكتاب بقوة وترتب في الوجود كذلك ، بل هو سبحانه وتعالى يتكلم به على وجه تعجز عن مثلة أدواتنا . فما ذكرته من الاشتباه من قول القائل : يا يحيى خذ الكتاب يعود إلى اشتباه التلاوة بالكلام المحدث . فأما أنه شابه الكلام القائم بذاته فلا .

قال ابن عقيل : قالوا فهذا لا يجيء على مذهبكم . فإن عندكم التلاوة هي المتلو والقراءة هي المقروء ؛ قيل : ليس معنى قولنا هي المتلو أنها هذه الأصوات المقطعة ، وإنما نريد به ما يظهر من الحروف القديمة في الأصوات المحدثة ، وظهورها في المحدث لا بد أن يكسبها صفة التقطيع لاختلاف الأنفاس وإدارة اللهوات ؛ لأن الآلة التي تظهر عليها لا تحمل الكلام إلا على وجه التقطيع ، وكلام الباري قائم بذاته على خلاف هذا التقطيع والابتداء والانتهاء والتكرار والبعدية والقبلية ؛ ومن قال ذلك لم يعرف حد القديم ، وادعى قدم الأعراض وتقطع القديم ، وتقطع القديم عرض لا يقوم بقديم .

ومن اعتقد أن كلام الله القائم بذاته على حد تلاوة التالي من القطع والوصل والتقريب والتبعيد والبعدية والقبلية فقد شبه الله بخلقه ؛ ولهذا روي في الخبر أن موسى سأله بنو إسرائيل : كيف سمعت كلام ربك ؟ قال : كالرعد الذي لا يترجع ، يعني ينقطع لعدم قطع الأنفاس وعدم الأنفاس والآلات والشفاه واللهوات ، ومن قال غير ذلك وتوهم أن الله تكلم على لسان التالي أو الكلام الذي قام بذاته على هذه الصفة من التقطيع والوصل والتقريب والتبعيد فقد حكم به محدثاً ؛ لأن الدلالة على حدوث العالم هو الاجتماع والافتراق ، ولأن هذه من صفات الأدوات ا هـ .

(قلت) فهذا الذي قاله ابن عقيل أقل خطأ مما قاله البرزيني ؛ فإن ذلك مخالف للنص والإجماع والعقل مخالفة ظاهرة ، فإنه قد ثبت بالنص والإجماع أن من تكلم في الصلاة بكلام الآدميين عامداً لغير مصلحتها عالما بالتحريم بطلت صلاته بالإجماع خلاف ما ذكره القاضي يعقوب ؛ ومتى قصد به التلاوة لم تبطل بالإجماع وإن قصد به التلاوة والخطاب ففيه نزاع ؛ وظاهر مذهب أحمد لا تبطل كمذهب الشافعي وغيره ، وقيل : تبطل كقول أبي حنيفة وغيره ؛ وما ذكروه عن الصحابة حجة عليهم ؛ فإن قول علي بن أبي طالب : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم ٦٠] هو كلام الله ، ولم يقصد علي أن يقول للخارجي : ولا يستخفنك الخوارج . وإنما قصد أن يسمعه الآية ، وأنه عامل بها صابر لا يستخفه الذين لا يوقنون ، وابن مسعود قال لهم وهو بالكوفة : ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يوسف ٩٩] ومعلوم أن مصر بلا تنوين هي مصر المدينة وهذه لم تكن بالكوفة ؛

وابن مسعود إنما كان بالكوفة فعلم أنه قصد تلاوة الآية ، وقصد مع ذلك تنبيه الحاضرين على الدخول فإنهم سمعوا قوله ادخلوا ، فعلموا أنه أذن لهم في الدخول ، وإن كان هو تلا الآية ، فهذا هذا .

وأما جواب ابن عقيل فبناه على أصل ابن كلاب الذي يعتقده هو وشيخه وغيرهما ؛ وهو الأصل الذي وافقوا فيه ابن كلاب ومن اتبعه كالأشعري وغيره ؛ وهو أن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته وأنه ليس فيما يقوم به شيء يكون بمشيئته وقدرته ، لامتناع قيام الأمور الاختيارية به عندهم ، لأنها حادث والله لا يقوم به حادث عندهم ؛ ولهذا تأولوا النصوص المناقضة لهذا الأصل ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة ١٠٥] فإن هذا يقتضي أنه سيرى الأعمال في المستقبل ، وكذلك قوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يونس ١٤] وقوله : ﴿ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة ١٠٥]، وكذلك قوله : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران ٣١] فإن هذا يقتضي أنه يحبهم بعد اتباع الرسول ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ [الأعراف ١١] فإن هذا يقتضي أنه قال لهم بعد خلق آدم ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ ﴾ [طه ١١] يقتضي أنه نودي لما أتاها ؛ لم ينادَ قبل ذلك ، وكذلك قوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس ٨٢] ومثل هذا في القرآن كثير .

وهذا الأصل هو مما أنكره الإمام أحمد على ابن كلاب وأصحابه حتى على الحارث المحاسبي مع جلالة قدر الحارث ، وأمر أحمد بهجره وهجر

الكلابية ، وقال : احذروا من حارث ، الآفة كلها من حارث ، فمات الحارث وما صلًّى عليه إلا نفر قليل بسبب تحذير الإمام أحمد عنه ، مع أن فيه من العلم والدين ما هو أفضل من عامة من وافق ابن كلاب على هذا الأصل ، وقد قيل : إن الحارث رجع عن ذلك ، وأقر بأن الله يتكلم بصوت كما حكى عنه ذلك صاحب (التعرف لمذهب التصوف) أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي .

وكثير من المتأخرين من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة وافقوا ابن كلاب على هذا الأصل ، كما قد بسط الكلام على ذلك في مواضع أخر .

واختلف كلام ابن عقيل في هذا الأصل ؛ فتارة يقول بقول ابن كلاب وتارة يقول بمذهب السلف وأهل الحديث : إن الله تقوم به الأمور الاختيارية، ويقول : إنه قام به إبصار متجدد حين تجدد المرئيات لم تكن قبل ذلك ، وقام به علم بأن كل شيء وجد غير العلم الذي كان أولا أنه سيوجد ، كما دل على ذلك عدة آيات في القرآن كقوله تعالى : ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ [البقرة ١٤٣] وغير ذلك . وكلامه في هذا الأصل وغيره يختلف ؛ تارة يقول هذا ، وتارة يقول هذا ، فإن هذه المواضع مواضع مشكلة كثر فيها غلط الناس لما فيها من الاشتباه والالتباس .

والجواب الحق أن كلام الله لا يماثل كلام المخلوقين ، كما لا يماثل في شيء من صفاته صفات المخلوقين ، وقول القائل : إن الاشتراك في الحقيقة لا يدل على الاشتراك في الحدوث لفظ مجمل ، فإنا إذا قلنا : لله علم ولنا علم، أو له قدرة ولنا قدرة ، أو له كلام ولنا كلام ، أو تكلم بصوت ونحن نتكلم بصوت ، وقلنا : صفة الخالق وصفة المخلوق اشتركتا في الحقيقة ؛ فإن أريد

بذلك أن حقيقتهما واحدة بالعين فهذا مخالف للحس والعقل والشرع ، وإن أريد بذلك أن هذه مماثلة لهذه في الحقيقة وإنما اختلفتا في الصفات العرضية ؛ كما قال ذلك طائفة من أهل الكلام – وقد بين فساد ذلك في الكلام على الأربعين للرازي وغير ذلك – فهذا أيضاً من أبطل الباطل ، وذلك يستلزم أن تكون حقيقة ذات الباري عز وجل مماثلة لحقيقة ذوات المخلوقين .

وإن أريد بذلك أنهما اشتركا في مسمى العلم والقدرة والكلام فهذا صحيح ، كما أنه إذا قيل : إنه موجود أو أن له ذاتاً فقد اشتركا في مسمى الوجود والذات ، لكن هذا المشترك أمر كلي لا يوجد كلياً إلا في الأذهان لا في الأعيان[(١)] فليس في الخارج شيء اشترك فيه مخلوقان كاشتراك الجزئيات في كلياتها بخلاف اشتراك الأجزاء في الكل فإنه يجب الفرق بين قسمة الكلي إلى جزئياته ؛ كقسمة الحيوان إلى ناطق وغير ناطق ، وقسمة الإنسان إلى مسلم وكافر ، وقسمة الاسم إلى معرب ومبني ، وقسمة الكل إلى أجزائه كقسمة العقار بين الشركاء ، وقسمة الكلام إلى اسم وفعل وحرف ، ففي الأول إنما اشتركت الأقسام في أمر كلي فضلاً عن أن يكون الخالق والمخلوقون مشتركين في شيء موجود في الخارج وليس في الخارج صفة لله يماثل بها صفة المخلوق ، بل كل ما يوصف به الرب تعالى فهو

---

(١) يظهر من هذا التفصيل أن شيخ الإسلام يرجح أن الاشتراك بين صفات الله وصفات المخلوق اشتراك في التسمية لا في الجنس الذي ينقسم إلى أنواع هي جزئياته . هذا هو الذي اختاره شيخنا في دراسة لرسالة التوحيد ، وذكرناه في حاشية لها ، وأشرنا إليه في حاشية سابقة على هذا الكتاب .

مخالف بالحد والحقيقة لما يوصف به المخلوق أعظم مما يخالف المخلوق المخلوق ، وإذا كان المخلوق مخالفاً بذاته وصفاته لبعض المخلوقات في الحد والحقيقة فمخالفة الخالق لكل مخلوق في الحقيقة أعظم من مخالفة أي مخلوق فرض لأي مخلوق فرض ، ولكن علمه ثبت له حقيقة العلم ، ولقدرته حقيقة القدرة ، ولكلامه حقيقة الكلام ؛ كما ثبت لذاته حقيقة الذاتية ، ولوجوده حقيقة الوجود ، وهو أحق بأن تثبت له صفات الكمال على الحقيقة من كل ما سواه؛ فهذا هوالمراد بقولنا علمه يشارك علم المخلوق في الحقيقة، فليس ما يسمع من العباد من أصواتهم مشابهاً ولا مماثلاً لما سمعه موسى من صوته إلا كما يشبه ويماثل غير ذلك من صفاته لصفات المخلوقين ، فهذا في نفس تكلمه سبحانه وتعالى بالقرآن ، والقرآن عند الإمام أحمد وسائر أئمة السنة كلامه تكلم به ، وتكلم بالقرآن العربي بصوت نفسه ، وكلم موسى بصوت نفسه الذي لا يماثل شيئاً من أصوات العباد .

ثم إذا قرأنا القرآن فإنما نقرؤه بأصواتنا المخلوقة التي لا تماثل صوت الرب ؛ فالقرآن الذي نقرؤه هو كلام الله مبلغاً عنه لا مسموعاً منه ، وإنما نقرؤه بحركاتنا وأصواتنا ، الكلام كلام الباري ، والصوت صوت القارئ ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة مع العقل ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ [التوبة ٦] وقال النبي ﷺ : « زينوا القرآن بأصواتكم » ، وقال الإمام أحمد في قول النبي ﷺ : «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» قال : يزينه ويحسنه بصوته كما قال : « زينوا القرآن بأصواتكم » فنص أحمد على ما جاء به الكتاب والسنة أنا

نقرأ القرآن بأصواتنا ، والقرآن كلام الله كله لفظه ومعناه ، سمعه جبريل من الله وبلغه إلى محمد ﷺ وسمعه محمد منه ، وبلغه محمد إلى الخلق ، والخلق يبلغه بعضهم إلى بعض ، ومعلوم أنهم إذا سمعوا كلام النبي ﷺ وغيره فبلغوه عنه كما قال : « نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه » فهم سمعوا اللفظ من الرسول بصوت نفسه بالحروف التي تكلم بها وبلغوا لفظة بأصوات أنفسهم ، وقد علم الفرق بين من يروي الحديث بالمعنى لا باللفظ ، واللفظ المبلغ لفظ الرسول وهو كلام الرسول ؛ فإن كان صوت المبلغ ليس صوت الرسول وليس ما قام بالرسول من الصفات والأعراض فارقته وما قامت بغيره بل ولا تقوم الصفة والعرض بغير محله ؛ وإذا كان هذا معقولاً في صفات المخلوقين ، فصفات الخالق أولى بكل صفة كمال وأبعد عن كل صفة نقص ، والتباين الذي بين صفة الخالق والمخلوق أعظم من التباين الذي بين صفة مخلوق ومخلوق ، وامتناع الاتحاد والحلول بالذات للخالق وصفاته في المخلوق أعظم من الاتحاد والحلول بالذات المخلوق وصفاته في المخلوق ، وهذه جمل قد بسطت في مواضع أخر .

هذا مع أن احتجاج الجهمية والمعتزلة بأن كلام المخلوق بقوله : ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم ١٢] مثل كلام الخالق غلط باتفاق الناس حتى عندهم ؛ فإن الذين يقولون : هو مخلوق يقولون : إنه خلقه في بعض الأجسام إما الهواء أو غيره ، كما يقولون : إنه خلق الكلام في نفس الشجرة فسمعه موسى ، ومعلوم أن تلك الحروف والأصوات التي خلقها الله ليست مماثلة لما يسمع من العبد ، وتلك هي كلام الله المسموع منه عندهم ؛ كما أن أهل السنة يقولون :

الذي تكلم هو الله بمشيئته وليس ذلك مماثلاً لصوت العبد ، وأما القائلون بعدم الكلام المعين سواء كانَ معنى أو حروفاً أو أصواتاً فيقولون : خلق لموسى إدراكاً أدرك به ذلك القديم . وبكل حال فكلام المتكلم إذا سمع من المبلغ عنه[1] فكيف يكون ذلك في كلام الله تعالى ؟.

فيجب على الإنسان في مسألة الكلام أن يتحرى أصلين : أحدهما ، تكلم الله بالقرآن وغيره ، هل تكلم به . بمشيئته وقدرته أم لا ؟ وهل تكلم بكلام قائم بذاته أم خلقه في غيره ؟ (والثاني) بتبليغ ذلك الكلام عن الله ، وأنه ليس مما يتصف به الثاني ؛ وإن كان المقصود بالتبليغ الكلام المبلغ . وبسط هذا له موضع آخر .

وأيضاً فهذان المتنازعان إذا قال أحدهما : إنها قديمة وليس لها مبتدأ وشكلها ونقطها محدث ، وقال الآخر : إنها ليست بكلام الله وإنها مخلوقة بشكلها ونقطها ؛ قد يفهم من هذا أنهما أرادا بالحروف الحروف المكتوبة دون المنطوقة ، والحروف المكتوبة قد تنازع الناس في شكلها ونقطها ، فإن الصحابة لما كتبوا المصاحف كتبوها غير مشكولة ولا منقوطة ؛ لأنهم إنما كانوا يعتمدون في القرآن على حفظه في صدروهم لاعلى المصاحف ، وهو منقول بالتواتر محفوظ في الصدور ، ولو عدمت المصاحف لم يكن للمسلمين

---

(١) قد سقط من الناسخ هنا خبر «فكلام المتكلم» ، ويعلم مما سبق وهو أن ما قام بنفس المبلغ غير ما قام بنفس المتكلم المنشيء للكلام ولكنه مثله لتماثل كلام البشر، وبه يظهر قوله : فكيف يكون ذلك في كلام الله تعالى ؟ يعني وهو لا يماثل كلام البشر .

بها حاجة ، فإن المسلمين ليسوا كأهل الكتاب الذين يعتمدون على الكتب التي تقبل التغير ، والله أنزل القرآن على محمد فتلقاه تلقيا وحفظه في قلبه ، لم ينزله مكتوباً كالتوراة ، وأنزله منجما مفرقاً ليحفظ فلا يحتاج إلى كتاب ؛ كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ الآية ، [الفرقان ٣٢] وقال تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ ﴾ الآية ، [الإسراء ١٠٦] وقال تعالى : ﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ ﴾ الآية ، [طه ١١٤] وقال تعالى ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ ﴾ الآية ، [القيامة ١٧] وفي الصحيح عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، وكان يحرك شفتيه ، فقال ابن عباس : أنا أحركهما لك كما كان النبي ﷺ يحركهما ، فحرك شفتيه ، فأنزل الله تعالى ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ ﴾ [القيامة ١٦، ١٧] قال : جمعه في صدرك ثم تقرأه ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ﴾ [القيامة ١٨] قال : فاستمع له وأنصت ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة ١٩] أي نبينه بلسانك ؛ فكان النبي ﷺ إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما أقرأه ؛ فلهذا لم يكن الصحابة ينقطون المصاحف ويشكلونها ، وأيضاً كانوا عرباً لا يلحنون فلم يحتاجوا إلى تقييدها بالنقط ، وكان في اللفظ الواحد قراءتان يقرأ بالياء والتاء مثل : يعملون ، وتعملون ؛ فلم يقيدوه بأحدهما ليمنعوه من الآخرة ؛ ثم إنه في زمن التابعين لما حدث اللحن صار بعض التابعين يشكل المصاحف وينقطها ، وكانوا يعملون ذلك بالحمرة ، ويعلمون الفتح بنقطة حمراء فوق الحرف ، والكسرة بنقطة حمراء تحته ، والضمة بنقطة حمراء أمامه ، ثم مدوا النقطة وصاروا يعلمون الشدة بقولك

شدّ ، ويعلمون المدة بقولك مدّ ، وجعلوا علامة الهمزة تشبه العين ؛ لأن الهمزة أخت العين ؛ ثم خففوا ذلك حتى صارت علامة الشدة مثل رأس السين وعلامة المدة مختصرة كما يختصر أهل الديوان ألفاظ العدد وغير ذلك ، وكما يختصر المحدثون (أخبرنا) و (حدثنا) فيكتبون أول اللفظ وآخره على شكل (أنا) وعلى شكل (ثنا) .

وتنازع العلماء هل يكره تشكيل المصاحف وتنقيطها؟ على قولين معروفين ، وهما روايتان عن الإمام أحمد ، ولكن لا نزاع بينهم أن المصحف إذا شكل ونقط وجب احترام الشكل والنقط كما يجب احترام الحرف ، ولا تنازع بينهم أن مداد النقطة والشكل مخلوق كما أن مداد الحرف مخلوق ، ولا نزاع بينهم أن الشكل يدل على الإعراب ، والنقط يدل على الحروف وأن الإعراب من تمام الكلام العربي .

ويروى عن أبي بكر وعمر أنهما قالا : حفظ إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه . ولا ريب أن النقطة والشكلة بمجردهما لا حكم لهما ولا حرمة ولا ينبغي أن يجرد الكلام فيهما ؛ ولا ريب أن إعراب القرآن العربي من تمامه ويجب الاعتناء بإعرابه ؛ والشكل يبين إعرابه كما تبين الحروف المكتوبة للحرف المنطوق ، كذلك يبين الشكل المكتوب للإعراب المنطوق .

فهذه المسائل إذا تصورها الناس على وجهها تصوراً تاماً ظهر لهم الصواب : وقلّت الأهواء والعصبيات ، وعرفوا موارد النزاع ، فمن تبين له الحق في شيء من ذلك اتبعه ، ومن خفي عليه توقف حتى يبينه الله له ، وينبغي له أن يستعين على ذلك بالدعاء لله ، ومن أحسن ذلك ما رواه مسلم

في صحيحه عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول : «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» .

وأقول : القائل الآخر كلامه كتب بها يقتضي أنه أراد بالحروف ما يتناول المنطوق والمكتوب كما قال النبي ﷺ : «من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف» قال الترمذي : حديث صحيح . فهنا لم يرد النبي ﷺ بالحرف نفس المداد وشكل المداد وإنما أراد الحرف المنطوق ، وفي مراده بالحرف قولان : قيل هذا اللفظ المفرد . وقيل أراد ﷺبالحرف الاسم كما قال : ألف حرف ولام حرف وميم حرف .

ولفظ الحرف والكلمة له في لغة العرب التي كان النبي ﷺ يتكلم بها معنى ، وله في اصطلاح النحاة معنى ، فالكلمة في لغتهم هي الجملة التامة ، الجملة الاسمية أو الفعلية ، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته : «كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم» وقال ﷺ : «إن أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل» وقال : «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب له بها رضوان الله إلى يوم القيامة ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن

أن تبلغ ما بلغت، يكتب له بها سخطه إلى يوم القيامة»، وقال لأم المؤمنين[1] : «لقد قلت بعدك أربع كلمات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن ، سبحان الله عدد خلقه ، سبحانه الله رضاء نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله مداد كلماته» ، ومنه قوله تعالى : ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف ٥] وقوله : ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح ٢٦] وقوله تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [آل عمران ٦٤] وقوله : ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾ [الزخرف ٢٨] وقوله : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة ٤٠] وقول النبي ﷺ : «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» ونظائره كثيرة ، ولا يوجد قط في الكتاب والسنة وكلام العرب لفظ الكلمة إلا والمراد به الجملة التامة . فكثير من النحاة أو أكثرهم لا يعرفون ذلك بل يظنون أن اصطلاحهم في مسمى الكلمة ينقسم إلى اسم وفعل وحرف هو لغة العرب ، والفاضل منهم[2] يقول « وكلمة بها كلام قد يؤم » ، ويقولون : العرب قد تستعمل الكلمة في الجملة التامة وتستعملها في المفرد ، وهذا غلط ، لا يوجد قط في كلام العرب لفظ الكلمة إلا للجملة التامة .

ومثل هذا اصطلاح للمتكلمين على أن القديم هو ما لا أول لوجوده أو مالم يسبقه عدم ، ثم يقول بعضهم : وقد يستعمل القديم في المتقدم على غيره سواء كان أزلياً أو لم يكن كما قال تعالى : ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝٣٩﴾ [يس ٣٩]

---

(١) لعل اسمها سقط من الناسخ ، وهي صفية (رضي الله عنها) .

(٢) هو ابن مالك صاحب الألفية المشهورة ـ رحمه الله ـ .

وقال : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الأحقاف ١١] وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾ [يوسف ٩٥] وقال : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الشعراء ٧٥،٧٦] وتخصيص القديم بالأول عرف اصطلاحي ، ولا ريب أنه أولى بالقدم في لغة العرب ؛ ولهذا كان لفظ المحدث في لغة العرب بإزاء القديم ، قال تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ [الأنبياء ٢] وهذا يقتضي أن الذي نزل قبله ليس بمحدث بل متقدم ؛ وهذا موافق للغة العرب التي نزل بها القرآن ، ونظير هذا لفظ القضاء فإنه في كلام الله وكلام الرسول المراد به إتمام العبادة ؛ وإن كان ذلك في وقتها كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة ١٠] وقوله : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ ﴾ [البقرة ٢٠٠] ثم اصطلح طائفة من الفقهاء فجعلوا لفظ القضاء مختصاً بفعلها في غير وقتها ، ولفظ الأداء مختصاً بما يفعل في الوقت ، وهذا التفريق لا يعرف قط في كلام الرسول ، ثم يقولون : قد يستعمل لفظ القضاء في الأداء فيجعلون اللغة التي نزل القرآن بها من النادر ؛ ولهذا يتنازعون في مراد النبي ﷺ : «فما أدركتم فصلُّوا ، وما فاتكم فاقضوا» وفي لفظ «فأتموا» فيظنون أن بين اللفظين خلافاً ، وليس الأمر كذلك بل قوله : « فاقضوا » كقوله : « فأتموا » لم يرد بأحدهما الفعل بعد الوقت ، بل لا يوجد في كلام الشارع أمر بالعبادة في غير وقتها ، لكن الوقت وقتان : وقت عام ، ووقت خاص لأهل الأعذار كالنائم والناسي إذا صليا بعد الاستيقاظ والذكر ؛ فإنما صليا في الوقت الذي أمر الله به ، وإن هذا ليس وقتاً في حق غيرها .

ومن أعظم أسباب الغلط في فهم كلام الله ورسوله أن ينشأ الرجل على اصطلاح حادث ، فيريد أن يفسر كلام الله بذلك الاصطلاح ، ويحمله على تلك اللغة التي اعتادها ، وما ذكر في مسمى الكلام ، مما ذكره سيبويه في كتابه عن العرب فقال : « واعلم إن (قلت) في كلام العرب إنما وقعت على أن تحكى ، وإنما تحكى بعد القول ما كان كلاما قولا ، وإلا فلا يوجد قط لفظ الكلام والكلمة إلا للجملة التامة في كلام العرب ، ولفظ الحرف يراد به الاسم والفعل وحروف المعاني واسم حروف الهجاء ؛ ولهذا سأل الخليل أصحابه : كيف تنطقون بالزاي من زيد ؟ فقالوا : زاي . فقال : نطقتم بالاسم ، والحرف زَهْ (١) ؛ فبين الخليل أن هذه التي تسمى حروف الهجاء هي أسماء » .

وكثيراً ما يوجد في كلام المتقدمين هذا حرف من الغريب يعبرون بذلك عن الاسم التام ، فقوله ﷺ : « فله بكل حرف مثله » بقوله (٢) : «ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف» وعلى نهج ذلك ، وذلك حرف والكتاب حرف ونحو ذلك ، وقد قيل : إن ذلك أحرف ، والكتاب أحرف ، وروي ذلك مفسراً في بعض الطرق .

---

(١) الهاء في قوله : (زه) ساكنة زيدت لأجل الوقف، وإنما مسمى الحرف الأول من زيد « ز » بالفتح ، والعرب لا تقف على متحرك كما أنها لا تبتدىء النطق بساكن.

(٢) كذا في الأصل الذي طبعنا عنه. ولفظ الحديث : « من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله به حسنة، الحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : الم حرف ، ولكن أقول : ألف حرف ، ولام حرف ،وميم حرف » . أخرجه الترمذي وصحّحه .

والنحاة اصطلحوا اصطلاحا خاصاً فجعلوا لفظ الكلمة يراد به الاسم أو الفعل أو الحرف الذي هو من حروف المعاني ؛ لأن سيبويه قال في أول كتابه: « الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل » فجعل هذا حرفاً خاصاً ، وهو الحرف الذي جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل ؛ لأن سيبويه كان حديث العهد بلغة العرب ، وقد عرف أنهم يسمون الاسم أو الفعل حرفاً، فقيد كلامه بأن قال : « وقسموا الكلام إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل » ، وأراد سيبويه أن الكلام ينقسم إلى ذلك قسمة الكل إلى أجزائه لا قسمة الكلي إلى جزئياته كما يقول الفقهاء بأن القسمة كما يقسم العقار والمنقول بين الورثة فيعطى هؤلاء قسم غير قسم هؤلاء ، كذلك الكلام هو مؤلف من الأسماء والأفعال وحروف المعاني فهو مقسوم إليها ، وهذا التقسيم غير تقسيم الجنس إلى أنواعه ؛ كما يقال الاسم ينقسم إلى معرب ومبني .

وجاء الجزولي وغيره فاعترضوا على النحاة في هذا ، ولم يفهموا كلامهم فقالوا : كل جنس قسِّم إلى أنواعه أو أشخاص أنواعه ، فاسم المقسوم صادق على الأنواع والأشخاص ، وإلا فليست أقساماً له ، وأراد بذلك الاعتراض على قول الزجاج : الكلام اسم وفعل وحرف ، والذي ذكره الزجاج هو الذي ذكره سيبويه وسائر أئمة النحاة ، وأرادوا بذلك القسمة الأولى المعروفة وهي قسمة الأمور الموجودة إلى أجزائها كما يقسم العقار والمال ، ولم يريدوا بذلك قسمة الكليات التي لا توجد كليات إلا في الذهن ؛ كقسمة الحيوان إلى ناطق وبهيم ، وقسمة الاسم إلى المعرب والمبني ، فإن المقسم هنا هو معنى عقلي كلي لا يكون كلياً إلا في الذهن .

فصـــــل

ولفظ الحرف يراد به حروف المعاني التي هي قسيمة الأسماء والأفعال ، مثل حروف الجر والجزم ، وحرفي التنفيس ، والحروف المشبهة للأفعال مثل إن وأخواتها ، وهذه الحروف لها أقسام معروفة في كتب العربية ؛ كما يقسِّمونها بحسب الإعراب إلى ما يختص بالأسماء ، وإلى ما يختص بالأفعال ، ويقولون : ما اختص بأحد النوعين ولم يكن كالجزء منه كان عاملاً كما تعمل حروف الجر وإنّ وأخواتها في الأسماء ، وكما تعمل النواصب والجوازم في الأفعال بخلاف حرف التعريف وحرفي التنفيس كالسين وسوف فإنهما لا يعملان ؛ لأنهما كالجزء من الكلمة ، ويقولون : كان القياس في «ما» أنها لا تعمل ؛ لأنّها تدخل على الجمل الاسمية والفعلية ، ولكن أهل الحجاز أعملوها لمشابهتها لليس ، وبلغتهم جاء القرآن في قوله : ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ [يوسف ٣١] ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ [المجادلة ٢] .

ويقسِّمون الحروف باعتبار معانيها إلى : حروف استفهام ، وحروف نفي ، وحروف تحضيض ، وغير ذلك ، ويقسمونها باعتبار بنيتها كما تقسَّم الأفعال والأسماء إلى مفرد وثنائي وثلاثي ورباعي وخماسي ؛ فاسم الحرف هنا منقول عن اللغة إلى عرف النحاة بالتخصيص ، وإلا فلفظ الحرف في اللغة يتناول الأسماء والحروف والأفعال ، وحروف الهجاء تسمى حروفاً وهي أسماء كالحروف المذكورة في أوائل السور ؛ لأن مسماها هو الحرف الذي هو حرف الكلمة .

وتقسم تقسيماً آخر إلى : حروف حلقية ، وشفهية ، والمذكورة في أوائل السور في القرآن هي نصف الحروف ، واشتملت من كل صنف على أشرف نصفيه : على نصف الحلقية والشفهية والمطبقة والمصمتة ، وغير ذلك من أجناس الحروف .

فإن لفظ الحرف أصله في اللغة هو الحد والطرف ؛ كما يقال حروف الرغيف وحروف الجبل ، قال الجوهري : حرف كل شيء طرفه وشفيره وحدّه ، ومنه حرف الجَبَل وهو أعلاه المحدد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَالْآخِرَةَ ﴾ [الحج ١١] فإن طرف الشيء إذا كان الإنسان عليه لم يكن مستقراً ؛ فلهذا كان من عبدالله على السراء دون الضراء عابدا له على حرف ؛ تارة يظهره وتارة ينقلب على وجهه كالواقف على حرف الجبل ، فسميت حروف الكلام حروفاً ؛ لأنها طرف الكلام وحده ومنتهاه ، إذ كان مبدأ الكلام من نفس المتكلم ومنتهاه حده وحرفه القائم بشفتيه ولسانه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ ﴾ [البلد ٨، ٩] . فلفظ الحرف يراد به هذا وهذا وهذا .

ثم إذا كتب الكلام في المصحف سموا ذلك حرفا ؛ فيراد بالحرف الشكل المخصوص ، ولكلامه شكل مخصوص هي خطوطهم التي يكتبون بها كلامهم ، ويراد به المادة ويراد به مجموعهما ، وهذه الحروف المكتوبة تطابق الحروف المنطوقة وتبينها وتدل عليها ؛ فسميت بأسمائها إذ كان الإنسان يكتب اللفظ بقلمه ؛ ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ إلى قوله : ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق ١ - ٥] فبين سبحانه في أول ما أنزله أنه

سبحانه هو الخالق الهادي الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، كما قال موسى : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه ٥٠] فالخالق يتناول كل ما سواه من المخلوقات، ثم خصّ الإنسان فقال: ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ﴾ [العلق ٢] ثم ذكر أنه علم فإن الهدى والتعليم هو كمال المخلوقات .

والعلم له ثلاث مراتب : علم بالجنان ، وعبارة باللسان ، وخط بالبنان[1] ولهذا قيل : إن لكل شيء أربع وجودات : وجود عيني وعلمي ولفظي ورسمي ، وجود في الأعيان ، ووجود في الأذهان ، واللسان والبنان ، لكن الوجود العيني هو وجود الموجودات في أنفسها والله خالق كل شيء ، وأما الذهني الجناني فهو العلم بها الذي في القلوب ، والعبارة عن ذلك هو اللساني ، وكتابة ذلك هو الرسمي البناني ، وتعليم الخط يستلزم تعليم العبارة واللفظ ، وذلك يستلزم تعليم القلم فقال : ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾ [العلق ٤] ؛ لأن التعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاث ، وأطلق التعليم ، ثم خص فقال : ﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق ٥].

وقد تنازع الناس في وجود كل شيء ، هل هو عين ماهيته أم لا ؟ وقد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع ، وبين أن الصواب من ذلك أنه قد يراد بالوجود ما هو ثابت في الأعيان ، ليس هو ماهيتها المتصورة في الأذهان ؛ لكن الله خلق الوجود الثابت في الأعيان وعلم الماهيات المتصورة

(١) المرتبتان الأوليان مما فطر عليه الإنسان ، والثالثة وهي الخط صناعةٌ استحدثها من قديم الزمان ، وقد استحدث في هذا الزمان صناعاتٍ أخرى ، وهي نقل الكلام بالآلات الكهربائية كالتلغراف السلكي والتلغراف الهوائي وألواح الآلة التي تسمى (فونغراف) ويدخل هذا في عموم قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق ٥].

في الأذهان ، كما أنزل بيان ذلك في أول سورة أنزلها من القرآن . وقد يراد بالوجود والماهية كليهما ما هو متحقق في الأعيان ، وما هو متحقق في الأذهان ، فإذا أريد بهذا وهذا ما هو متحقق في الأعيان أو ما هو متصور في الأذهان [1] ، فليس هما اثنين بل هذا هو هذا . وكذلك الذهن إذا تصور شيئاً فتلك الصورة هي المثال الذي تصورها ، وذلك هو وجودها الذهني الذي تتصوره الأذهان . فهذا فصل الخطاب في هذا الباب .

ومن تدبر هذه المسائل وأمثالها تبين له أن أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النور ٤٠] وقد بسط الكلام على أصول هذه المسائل وتفاصيلها في مواضع أخرى ؛ فإن الناس كثر نزاعهم فيها حتى قيل : مسألة الكلام ؛ حيرت عقول الأنام . ولكن سؤال هذين لا يحتمل البسط الكثير فإنهما يسألان بحسب ما سمعاه واعتقداه وتصوراه ، فإذا عرف السائل أصل مسألته ولوازمها وما فيها من الألفاظ المجملة والمعاني المشتبهة تبين له أن من الخلق من تكلم في مثل هذه الأسماء بالنفي والإثبات من غير تفصيل ؛ فلا بد له أن يقابله آخر بمثل إطلاقه .

ومن الأصول الكلية أن يعلم أن الألفاظ نوعان : نوع جاء به الكتاب والسنة فيجب على كل مؤمن أن يقر بموجب ذلك ؛ فيثبت ما أثبته الله ورسوله ، وينفي ما نفاه الله ورسوله ، فاللفظ الذي أثبته الله ، أو نفاه[2] فإن

---

(١) كانت في الأصل : (في الأعيان) ، ولم يكن المعنى بها ظاهراً.

(٢) كذا في الأصل ، وقد سقط منه الخبر الذي يتم به الكلام ويعلم من القرينة ومما بعده ، وهو: لا يكون إلا حقا في إثباته ونفيه.

الله يقول الحق وهو يهدي السبيل والألفاظ الشرعية لها حرمة . ومن تمام العلم أن يبحث عن مراد رسوله بها ليثبت ما أثبته وينفي ما نفاه من المعاني، فإنه يجب علينا أن نصدقه في كل ما أخبر ، ونطيعه في كل ما أوجب وأمر، ثم إذا عرفنا تفصيل ذلك كان ذلك من زيادة العلم والإيمان ، وقد قال تعالى :﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة ١١] .

وأما الألفاظ التي ليست في الكتاب والسنة ولا اتفق السلف على نفيها أو إثباتها فهذه ليس على أحد أن يوافق من نفاها أو أثبتها حتى يستفسر عن مراده ، فإن أراد بها معنى يوافق خبر الرسول أقر به ، وإن أراد بها معنى يخالف خبر الرسول أنكره .

ثم التعبير عن تلك المعاني إن كان في ألفاظه اشتباه أو إجمال عبر بغيرها أو بين مراده بها ، بحيث يحصل تعريف الحق بالوجه الشرعي ، فإن كثيراً من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة ومعان مشتبهة، حتى تجد الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على إطلاق ألفاظ ونفيها ، ولو سئل كل منهما عن معنى ما قاله لم يتصوره فضلاً عن أن يعرف دليله ، ولو عرف دليله لم يلزم أن من خالفه يكون مخطئاً بل يكون في قوله نوع من الصواب ، وقد يكون هذا مصيباً من وجه وهذا مصيباً من وجه ، وقد يكون الصواب في قول ثالث .

وكثير من الكتب المصنفة في أصول العلوم الدين وغيرها تجد الرجل المصنف فيها في المسألة العظيمة كمسألة القرآن والرؤية والصفات والمعاد

وحدوث العالم وغير ذلك يذكر أقوالاً متعددة . والقول الذي جاء به الرسول وكان عليه سلف الأمة ليس في تلك الكتب ولا عرفه مصنفوها ولا شعروا به ، وهذا من أسباب توكيد التفريق والاختلاف بين الأمة وهو مما نهيت الأمة عنه ، كما في قوله تعالى :﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران ١٠٥، ١٠٦] قال ابن عباس : تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة . وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الأنعام ١٥٩] وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [البقرة ١٧٦] وقد خرج النبي ﷺ على أصحابه وهم يتنازعون في القدر ، وهذا يقول : ألم يقل الله كذا ؟ وهذا يقول : ألم يقل الله كذا ؟ فقال : « أبهذا أمرتم ؟ أم إلى هذا دعيتم ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا : أن ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، انظروا ما أمرتم به فافعلوه ، وما نهيتم عنه فاجتنبوه » ومما أمر الناس به أن يعملوا بمحكم القرآن ويؤمنوا بمتشابهه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقد كتب في أصول هذه المسائل قواعد متعددة وأصول كثيرة ، ولكن هذا الجواب كتب وصاحبه مستوفز في قعدة واحدة ، والله تعالى يهدينا وسائر إخواننا لما يحبه ويرضاه . والحمد لله رب العالمين .

فصـــل

في بيان أن القرآن العظيم كلام الله العزيز العليم ليس شيء منه كلاماً لغيره لا جبريل ولا محمد ولا غيرهما ، قال الله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل ٩٨ - ١٠٣] فأمره أن يقـول : ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل ١٠٢] والضمير في قوله (نزله) عائد على (ما) في قوله : ﴿بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل ١٠١] فالمراد به القرآن كما يدل عليه سياق الكلام وقوله : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل ١٠١] فيه إخبار بأنه أنزله ، لكن ليس في هذه اللفظة بيان أن روح القدس نزل به ولا أنه منزل منه .

ولفظ الإنزال في القرآن قد يرد مقيداً بالإنزال منه كنزول القرآن ، وقد يرد مقيداً بالإنزال من السماء ويراد به العلو ، فيتناول نزول المطر من السحاب ونزول الملائكة من عند الله وغير ذلك . وقد يرد مطلقاً فلا يختص بنوع من الإنزال بل ربما يتناول الإنزال من رؤوس الجبال كقوله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد ٢٥] والإنزال من ظهور الحيوان

كإنزال الفحل الماء وغير ذلك فقوله : ﴿ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾ [النحل ١٠٢] بيان لنزول جبريل به من الله عز وجل ؛ فإن روح القدس هنا هو جبريل بدليل قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقر ٩٧] وهو الروح الأمين كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء ١٩٢ – ١٩٥] وفي قوله (الأمين) دلالة على أنه مؤتمن على ما أرسل به لا يزيد فيه ولا ينقص ، فإن الرسول الخائن قد يغير الرسالة كما قال تعالى في صفته في الآية الأخرى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [التكوير ١٩ – ٢١] .

وفي قوله : ﴿ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الأنعام ١١٤] دلالة على أمور : منها بطلان قول من يقول : إنه كلام مخلوق خلقه في جسم من الأجسام المخلوقة كما هو قول الجهمية الذين يقولون بخلق القرآن من المعتزلة والنجارية والضرارية وغيرهم ، فإن السلف كانوا يسمون كل من نفى الصفات وقال : إن القرآن مخلوق ، وإن الله لا يرى في الآخرة جهمياً ، فإن جهما أول من ظهرت عنه بدعة نفي الأسماء والصفات ، وبالغ في نفي ذلك ، فله في هذه البدعة مزية المبالغة في النفي والابتداء بكثرة إظهار ذلك والدعوة إليه ، وإن كان الجعد ابن درهم قد سبقه إلى بعض ذلك ، فإن الجعد أول من أحدث ذلك في الإسلام فضحى به خالد بن عبدالله القسري بواسط يوم النحر ، وقال : «يا أيها الناس ضحُّوا تقبل الله ضحاياكم ، فإني مضحٍّ بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ،

تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً» ثم نزل فذبحه ، ولكن المعتزلة إن وافقوا جهماً في بعض ذلك فهم يخالفونه في مسائل غير ذلك ؛ كمسائل الإيمان والقدر وبعض مسائل الصفات أيضاً ؛ ولا يبالغون في النفي مبالغته ، وجهم يقول : إن الله لا يتكلم أو يقول : إنه متكلم بطريق المجاز ، وأما المعتزلة فيقولون : إنه يتكلم حقيقة لكن قولهم في المعنى هو قول جهم ، وجهم ينفي الأسماء أيضاً كما نفتها الباطنية ومن وافقهم من الفلاسفة ، وأما جمهور المعتزلة فلا تنفي الأسماء .

فالمقصود أن قوله ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام ١١٤] فيه بيان أنه منزل من الله لا من مخلوق من المخلوقات ؛ ولهذا قال السلف : منه بدأ ، أي هو الذي تكلم به لم يبتدئ من غيره كما قال الخلقية .

ومنها أن قوله : ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام ١١٤] فيه بطلان قول من يجعله فاض على نفس النبي من العقل الفعال أو غيره(١) كما يقول ذلك طوائف من الفلاسفة والصابئة . وهذا القول أعظم كفراً وضلالا من الذي قبله .

---

(١) هذا يشبه قول بعض فلاسفة أوروبا : إنَّ وحي الأنبياء يفيض من أنفسهم في أحوال مخصوصة تستولي عليها وتستغرق إدراكها ووجدانها كاستيلاء كراهة الوثنية على نبينا ﷺ ، ويردّه أن الوحي إليه لم يكن مقصوراً على إبطال الوثنية وخرافاتها وإثبات التوحيد وما يناسبه من العبادات والفضائل ، بل فيه من أخبار الغيب الماضية والآتية ومن الحكمة وأصول التشريع ما لا يعقل أن يكون نابعاً من نفس رجل أمي ولا متعلم ؛ وإنما يعقل أن يكون وحيا من عالم الغيب والشهادة.

ومنها أن هذه الآية أيضاً تبطل قول من قال : إن القرآن العربي ليس منزلا من الله بل مخلوق ؛ إما في جبريل أو محمد أو جسم آخر غيرهما ، كما يقول ذلك الكلابية والأشعرية الذين يقولون : القرآن العربي ليس هو كلام الله وإنما كلامه المعنى القائم بذاته ؛ والقرآن العربي خلق ليدل على ذلك المعنى ، ثم إما أن يكون خلق في بعض الأجسام : الهواء أو غيره ، أو ألهمه جبريل فعبر عنه بالقرآن العربي ، أو ألهمه محمد فعبر عنه بالقرآن العربي ، أو يكون جبريل أخذه من اللوح المحفوظ أو غيره .

فهذه الأقوال التي تقدمت هي تفريع على هذا القول ، فإن هذا القرآن العربي لا بد له من متكلم تكلم به أولاً قبل أن يصل إلينا . وهذا القول يوافق قول المعتزلة ونحوهم في إثبات خلق القرآن العربي ، وكذلك التوراة العبرية ، ويفارقه من وجهين : (أحدهما) أن أولئك يقولون : إن المخلوق كلام الله وهم يقولون : إنه ليس كلام الله لكن يسمى كلام الله مجازاً ؛ هذا قول أئمتهم وجمهورهم ، وقال طائفة من متأخريهم : بل لفظ الكلام يقال على هذا وهذا بالاشتراك اللفظي ، لكن لفظ هذا الكلام ينقض أصلهم في إبطال قيام الكلام بغير المتكلم به ، ومع هذا لا يقولون : إن المخلوق كلام الله حقيقة كما يقوله المعتزلة مع قولهم إنه كلام حقيقة ، بل يجعلون القرآن العربي كلاما لغير الله وهو كلام حقيقة ، وهذا شر من قول المعتزلة ؛ وهذا حقيقة قول الجهمية . ومن هذا الوجه نقول : المعتزلة أقرب . وقول الآخرين هو قول الجهمية المحضة ، لكن المعتزلة في المعنى موافقون لهؤلاء ؛ وإنما ينازعونهم في اللفظ .

(الثاني) أن هؤلاء يقولون : لله كلام هو معنى قديم قائم بذاته ، والخلقية يقولون : لا يقوم بذاته كلام ، ومن هذا الوجه الكلابية خير من الخلقية في الظاهر ، لكن جمهور الناس يقولون : إن أصحاب هذا القول عند التحقيق لم يثبتوا كلاما له حقيقة غير المخلوق ؛ فإنهم يقولون : إنه معنى واحد هو الأمر والنهي والخبر ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة ، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً . ومنهم من قال : هو خمس معان .

وجمهور العقلاء يقولون : إن فساد هذا معلوم بالضرورة بعد التصور التام ، والعقلاء الكثيرون لا يتفقون على الكذب وجحد الضرورات من غير تواطىء واتفاق كما في الأخبار المتواترة ، وأما مع التواطىء فقد يتفقون على الكذب عمداً ، وقد يتفقون على جحد الضرورات وإن لم يعلم كل منهم أنه جاحد للضرورة ولم يفهم حقيقة القول الذي يعتقده لحسن ظنه فيمن يقلد قوله ومحبته ليصير(1) ذلك القول كما اتفقت النصارى والرافضة وغيرهم من الطوائف على مقالات يعلم فسادها بالضرورة .

وقال جمهور العقلاء : نحن إذا عربنا التوراة والإنجيل لم يكن معنى ذلك معنى القرآن بل معاني هذا ليست معاني هذا (2) وكذلك معنى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ [الإخلاص ١] ليس هو معنى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد ١] ولا

---

(١) كذا في الأصل ، ولعله لنصر ذلك القول .

(٢) بياض بالأصل قليل ، ويظهر أنه موضع شاهد كالشواهد التي بعده .

معنى آية الكرسي معنى آية الدين ، وقالوا : إذا جوزتم أن تكون الحقائق المتنوعة شيئاً واحداً فجوزوا أن يكون العلم والقدرة والكلام والسمع والبصر صفة واحدة ؛ فاعترف أئمة هذا القول بأن هذا الإلزام ليس لهم عنه جواب عقلي .

ثم منهم من قال : الناس في الصفات إما مثبت لها قائل بالتعدد ، وإما نافٍ لها ، وأما إثباتها واتحادها فخلاف الإجماع ، وهذه طريقة القاضي أبي بكر وأبي المعالي وغيرهما ؛ ومنهم من اعترف بأنه ليس له عنه جواب كأبي حسن الآمدي وغيره .

والمقصود هنا أن هذه الآية تبين بطلان هذا القول كما تثبت بطلان غيره ؛ فإن قوله : ﴿ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾ [النحل ١٠٢] يقتضي نزول القرآن من ربه ، والقرآن اسم للقرآن العربي لفظه ومعناه ؛ بدليل قوله : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ﴾ [النحل ٩٨] وإنما يقرأ القرآن العربي لا يقرأ معانيه المجردة . وأيضاً فضمير المفعول في قوله (نزله) عائد إلى (ما) في قوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ [النحل ١٠١] فالذي أنزله الله هو الذي نزله روح القدس ، فإذا كان روح القدس نزل بالقرآن العربي لزم أن يكون نزله من الله ، فلا يكون شيء منه نزله من عين من الأعيان المخلوقة ولا نزله من نفسه .

وأيضاً فإنه قال عقب هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ﴾ الآية . [النحل ١٠٣] وهم كانوا يقولون : إنما يعلمه هذا القرآن العربي بشر ، لم يكونوا يقولون : إنما يعلمه بشر معانيه فقط ؛ بدليل قوله : ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ

مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل ١٠٣] فإنه تعالى أبطل قول الكفار بأن لسان الذي ألحدوا إليه فجعلوه هو الذي يعلِّم محمداً القرآن لسان أعجمي ، والقرآن لسان عربي مبين ؛ فلو كان الكفار قالوا يعلِّمه معانيه فقط لم يكن هذا ردا لقولهم ؛ فإن الإنسان قد يتعلم من الأعجمي شيئاً بلغة ذلك الأعجمي ويعبر عنه بعباراته ؛ وقد اشتهر في التفسير أن بعض الكفار كانوا يقولون : هو تعلمه من شخص كان بمكة أعجمي ، قيل : إنه كان مولى لابن الحضرمي .

وإذا كان الكفار جعلوا الذي يعلمه ما نزل به روح القدس بشرا ، والله أبطل ذلك بأن لسان ذاك أعجمي وهذا لسان عربي مبين ، علم أن روح القدس نزل باللسان العربي المبين ، وأن محمداً لم يؤلف نظم القرآن بل سمعه من روح القدس ، وإذا كان روح القدس نزل به من الله ؛ علم أنه سمعه منه ولم يؤلفه هو ، وهذا بيان من الله أن القرآن الذي هو اللسان العربي المبين سمعه روح القدس من الله ، وكذلك قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ الآية . [الأنعام ١١٤] والكتاب اسم للكلام العربي بالضرورة والاتفاق ؛ فإن الكلابية أو بعضهم يفرق بين كلام الله وكتاب الله ، فيقول : كلام الله هو المعنى القائم بالذات وهو غير مخلوق ، وكتابه هو المنظوم المؤلف العربي وهو المخلوق ، والقرآن يراد به تارة هذا وتارة هذا ، والله تعالى قد سمى نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآنا وكتاباً وكلاماً ، فقال تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ﴾ [الحجر ١] وقال : ﴿ طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ [الشعراء ١، ٢] وقال : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ ﴾ الآية . [الأحقاف ٢٩] فبين أن الذي سمعوه هو القرآن ؛ وهو الكتاب ، وقال : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ ﴾ الآية . [البروج ٢١]

وقال : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ الآية . [الواقعة ٧٧] وقال : ﴿يَتْلُو صُحُفًا﴾ الآية . [البينة ٢] وقال : ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾﴾ الآية . [الطور ١] وقال : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا﴾ الآية . [الأنعام ٧] لكن لفظ الكتاب قد يراد به المكتوب فيكون هو الكلام ، وقد يراد به ما يكتب فيه كقوله : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ الآية . [الواقعة ٧٧] وقال : ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا﴾ الآية . [الإسراء ١٣] .

والمقصود هنا أن قوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [الأنعام ١١٤] يتناول نزول القرآن العربي على كل قول . وقد أخبر أن ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام ١١٤] إخبار مستشهد بهم لا مكذب لهم ، وقال : إنهم يعلمون ذلك لم يقل : إنهم يظنونه أو يقولونه ، والعلم لا يكون إلا حقاً مطابقاً للمعلوم بخلاف القول والظن الذي ينقسم إلى حق وباطل ، فعلم أن القرآن العربي ينزل من الله لا من الهواء ولا من اللوح ولا من جسم آخر ولا من جبريل ولا محمد ولا غيرهما ، وإذا كان أهل الكتاب يعلمون ذلك فمن لم يقر بذلك من هذه الأمة كان أهل الكتاب المقرون بذلك خيراً منه من هذا الوجه .

وهذا لا ينافي ما جاء عن ابن عباس وغيره من السلف في تفسير قوله : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر ١] إنه أنزله إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم أنزله بعد ذلك منجما مفرقاً بحسب الحوادث ، ولا ينافي أنه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل نزوله ، كما قال تعالى : ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ الآية . [البروج ٢١] وقال : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ الآية . [الواقعة ٧٧] وقال : ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾ الآية . [عبس ١١] وقال : ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ الآية ، [الزخرف ٤] وكونه مكتوباً في اللوح المحفوظ وفي صحف مطهرة بأيدي الملائكة

لا ينافي أن يكون جبريل نزل به من الله سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل أو غير ذلك ، وإذا كان قد أنزله مكتوباً إلى بيت العزة جملة واحدة في ليلة القدر فقد كتبه كله قبل أن ينزله ، والله تعالى يعلم ما كان وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون ؟ وهو سبحانه قدر مقادير الخلائق وكتب أعمال العباد قبل أن يعملوها ، كما ثبت ذلك بالكتاب والسنة وآثار السلف ، ثم إنه يأمر الملائكة بكتابتها بعدما يعملونها ، فيقابل من الكتابة المتقدمة على الوجود والكتابة المتأخرة عنها فلا يكون بينهما تفاوت ؛ هكذا قال ابن عباس وغيره من السلف ، وهو حق ، فإذا كان ما يخلقه ثابتاً عنه قبل كتبه أن يخلقه فكيف يستبعد أن يكتب كلامه الذي يرسل به ملائكته قبل أن يرسلهم به ؟.

ومن قال : إن جبريل أخذ القرآن عن الكتاب لم يسمعه من الله كان هذا باطلاً من وجوه : منها أن يقال : إن الله تعالى كتب التوراة لموسى بيده ؛ فبنو إسرائيل أخذوا كلام الله من الكتاب الذي كتبه هو سبحانه فيه[1] فإن كان محمد أخذه من جبريل ، وجبريل عن الكتاب ؛ كان بنو إسرائيل أعلى من محمد بدرجة ، ومن قال: إنه ألقي إلى جبريل معاني؛ وأن جبريل عبر عنها بالكلام العربي ، فقوله يستلزم أن يكون جبريل ألهمه إلهاماً ، وهذا الإلهام يكون لآحاد المؤمنين كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة ١١١] وقال : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص ٧] وقد أوحى إلى سائر النبيين ، فيكون هذا الوحي الذي لا يكون لآحاد الأنبياء والمؤمنين

(١) الذي عندهم أن الذي كتبه الله في الألواح هو الوصايا العشر لا كل ما يسمونه التوراة.

أعلى من أخذ محمد القرآن عن جبريل ؛ لأن جبريل الذي علمه لمحمد هو بمنزلة الواحد من هؤلاء ؛ ولهذا زعم ابن عربي أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، قال : لأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول . فجعل أخذه وأخذ الملك الذي جاء إلى الرسول من معدن واحد ، وادعى أن أخذه عن الله أعلى من أخذ الرسول للقرآن ، ومعلوم أن هذا من أعظم الكفر ، وإن هذا القول من جنسه .

وأيضاً فالله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ ﴾ الآية. [النساء ١٦٣] ففضل موسى بالتكليم على غيره ممن أوحى إليهم ، وهذا يدل على أمور : على أن الله يكلم عبده تكليما زائدا على الوحي الذي هو قسيم التكليم الخاص ، فإن لفظ التكليم والوحي كل منهما ينقسم إلى عام وخاص ، والتكليم العام هو المقسوم في قوله ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا﴾ الآية . [الشورى ٥١] والتكليم المطلق هو قسيم الوحي الخاص ليس قسماً منه ، وكذلك لفظ الوحي قد يكون عاماً فيدخل فيه التكليم الخاص كما في قوله لموسى ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [طه ١٣] وقد يكون قسيم التكليم الخاص كما في سورة الشورى . وهذا يبطل قول من يقول الكلام معنى واحد قائم بالذات ، فإنه حينئذ لا فرق بين التكليم الذي خص به موسى ، والوحي العام الذي هو لآحاد العباد ، ومثل هذا قوله في الآية الأخرى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى ٥١] فإنه فرق بين الإيحاء وبين التكليم من وراء حجاب وبين إرسال

الرسول يوحي بإذنه ما يشاء ، فدل على أن التكليم من وراء حجاب كما كلم موسى أمر غير الإيحاء .

وأيضاً فقوله : ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ [الزمر ١] وقوله : ﴿ حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [الجاثية ١، ٢] وقوله : ﴿ حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [فصلت ١، ٢] وأمثال ذلك يدل على أنه منزل من الله لا من غيره . وكذلك قوله تعالى : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة ٦٧] فإنه يدل على أنه مبلغ ما أنزل إليه من ربه ، وأنه مأمور بتبليغ ذلك .

وأيضاً فهم يقولون : إنه معنى واحد ؛ فإن كان موسى سمع جميع المعنى فقد سمع جميع كلام الله ، وإن كان سمع البعض فقد استمع بعضه فقد تبعض ، وكلاهما ينقض قولهم ، فإنهم يقولون : إنه معنى واحد لا يتعدد ولا يتبعض ؛ فإن كان ما سمعه موسى والملائكة هو ذلك المعنى كله كان كل منهم علم جميع كلام الله ، وكلامه متضمن لجميع خبره وجميع أمره ؛ فيلزم أن يكون كل واحد ممن كلمه الله وأنزل عليه شيئاً في كلامه عالما بجميع أخبار الله وأوامره ؛ وهذا معلوم الفساد بالضرورة ؛ وإن كان الواحد من هؤلاء إنما سمع بعضه فقد تبعض كلامه ؛ وذلك يناقض قولهم .

وأيضاً فقوله : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ [النساء ١٦٤] وقوله : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا ﴾ [الأعراف ١٤٣] وقوله تعالى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ [مريم ٥٢] وقوله : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ ﴾ الآيات . [طه ١١]

دليل على تكليم موسى ؛ والمعنى المجرد لا يسمع بالضرورة . ومن قال إنه يسمع فهو مكابر ، ودليل أنه ناداه والنداء لا يكون إلا صوتاً مسموعاً لا يعقل في لغة العرب لفظ النداء بغير صوت مسموع لا حقيقة ولا مجازا : وقد قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ﴾ إلى قوله : ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾﴾ [النمل ٨] .

وأيضاً فقوله : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه ١١، ١٢] وفي هذا دليل على أنه حينئذ نودي ولم يناد قبل ذلك ؛ و(لما) فيها من معنى الظرف ، كما في قوله : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] ومثل هذا قوله : ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص ٦٢] ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص ٦٥] فإن النداء وقت بظرف محدود ، فدل على أن النداء يقع في ذلك الحين دون غيره وجعل الظرف للنداء لا يسمع النداء إلا فيه .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة ٣٠] وقوله : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة ٣٤] وأمثال ذلك مما فيه توقيت بعض أقوال الرب بوقت معين فإن الكلابية ومن وافقهم من أصحاب الأئمة الأربعة يقولون : إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته بل الكلام المعين لازم لذاته كلزوم الحياة لذاته ، ومن هؤلاء من قال : إنه معنى واحد ؛ لأن الحروف والأصوات متعاقبة يمتنع أن تكون قديمة ؛ ومنهم من قال : بل الحروف والأصوات قديمة الأعيان ، وإنها مترتبة في مقارنة وجودها لم تزل ولا تزال قائمة بذاته .

ومنهم من قال: بل الحروف قديمة الأعيان بخلاف الأصوات، وكل هؤلاء يقولون : إن التكليم والنداء ليس إلا مجرد خلق إدراك في المخلوق بحيث يسمع ما لم يزل ولا يزال ، لا أنه يكون هناك كلام يتكلم الله به بمشيئته وقدرته ولا تكليم بكلام الله بمشيئته وقدرته ، بل تكليمه عندهم جعل العبد سامعاً لما كان موجوداً قبل سمعه بمنزلة ما يجعل الأعمى بصيراً لما كان موجوداً قبل رؤيته من غير إحداث شيء منفصل عنه ، وعندهم لما جاء موسى لميقات ربه سمع النداء القديم ، لا أنه حينئذ نودي ؛ ولهذا يقولون : إنه يسمع كلامه لخلقه بدل قول الناس يكلم خلقه ، وهؤلاء يردون على الخلقية الذين يقولون : القرآن مخلوق . ويقولون عن أنفسهم : إنهم أهل السنة الموافقون للسلف الذين قالوا : القرآن كلام الله غيرمخلوق وليس قولهم قول السلف لكن قولهم أقرب إلى قول السلف من وجه .

أما كون قولهم أقرب ؛ فلأنهم يثبتون كلاما قائماً بنفس الله ، وهذا قول السلف بخلاف الخلقية الذين يقولون : ليس كلامه إلا ما خلقه في غيره ، فإن قول هؤلاء مخالف لقول السلف. وأما كون الخلقية أقرب فلأنهم يقولون : إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته ، وهذا قول السلف ، وهؤلاء عندهم لا يقدر الله على شيء من كلامه فليس كلامه بمشيئته واختياره ، بل كلامه عندهم كحياته ، وهم يقولون : الكلام عندنا صفة ذات لا صفة فعل ، والخلقية يقولون : صفة فعل لا صفة ذات ، ومذهب السلف أنه صفة فعل وصفة ذات معاً ؛ فكل منهما موافق للسلف من وجه دون وجه .

واختلافهم في أفعاله ومسائل القدر بنسبة اختلافهم في كلامه تعالى فإن المعتزلة يقولون : إنه يفعل لحكمة مقصودة وإرادة الإحسان إلى العباد ، لكن لا يثبتون لفعله حكمة تعود إليه ، وأولئك يقولون : لا يفعل لحكمة ولا لمقصود أصلاً ؛ فأولئك أثبتوا حكمة لكن لا تقوم به ، وهؤلاء لا يثبتون له قصداً يتصف به ولا حكمة تعود إليه ، وكذلك في الكلام ، أولئك أثبتوا كلاماً هو فعله لا يقوم به ، وهؤلاء يقولون : ما لا يقوم به لا تعود حكمته إليه ، والفريقان يمنعون أن تقوم به حكمة مرادة له ، كما يمنع الفريقان أن يقوم به كلام وفعل يريده ؛ وقول أولئك أقرب إلى قول السلف والفقهاء ؛ إذ أثبتوا الحكمة والمصلحة في أفعاله وأحكامه، وأثبتوا كلاماً يتكلم به بقدرته ومشيئته ، وقول هؤلاء أقرب إلى قول السلف إذ أثبتوا الصفات ، وقالوا : لا يوصف بمجرد المخلوق المنفصل عنه الذي لم يقم به أصلا ، ولا يعود إليه حكم شيء لم يقم به ، فلا يكون متكلماً بكلام لم يقم به ، ولا قديراً بقدرة لم تقم به .

فكل من المعتزلة والأشعرية في مسائل كلام الله وأفعال الله ، وافقوا السلف والأئمة من وجه ؛ وخالفوهم من وجه ، وليس قول أحدهم قول السلف دون الآخر ، لكن الأشعرية في جنس مسائل الصفات والقدر أقرب إلى قول السلف والأئمة من المعتزلة .

(فإن قيل) فقد قال تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾ [الحاقة ٤٠] وهذا يدل على أن الرسول أحدث الكلام العربي (قيل) هذا باطل ، وذلك أن الله ذكر هذا في موضعين ؛ والرسول في أحد الموضعين محمد ، والرسول في الآية الأخرى جبريل ، قال تعالى في سورة الحاقة : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ

كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ الآية . [الحاقة: ٤٠، ٤١] فالرسول هنا محمد ﷺ ، وقال في سورة التكوير ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١] فالرسول هنا جبريل ، فلو كان أضافه إلى الرسول لكونه أحدث حروفه أو أحدث منه شيئاً ؛ لكان الخبران متناقضين ؛ فإنه إن كان أحدهما الذي أحدثها امتنع أن يكون الآخر هو الذي أحدثها .

وأيضاً فإنه قال : ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحاقة ٤٠] ولم يقل لقول ملك ولا نبي ، ولفظ الرسول يستلزم مرسلاً له ، فدل ذلك على أن الرسول مبلغ له عن مرسله لا أنه أنشأ منه شيئاً من جهة نفسه ، وهذا يدل على أنه أضافه إلى الرسول ؛ لأنه بلغه وأداه ؛ لا لأنه أنشأ منه شيئاً وابتدأه .

وأيضاً فإن الله قد كفّر من جعله قول البشر بقوله :﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ﴾ [المدثر ١٨، ١٩] (١) ومحمد بشر ؛ فمن قال : إنه قول محمد فقد كفر ، ولا يفرق بين أن يقول بشر أو جني أو ملك ؛ فمن جعله قولا لأحد من هؤلاء فقد كفر ، ومع هذا فقد قال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ [الحاقة ٤٠، ٤١] فجعله قول الرسول البشري مع تكفيره من يقول : إنه قول البشر ، فعلم أن المراد بذلك أن الرسول بلغه عن مرسله ، لا أنه قول من تلقاء نفسه ، وهو كلام الله تعالى الذي أرسله ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة ٦]

---

(١) يعني إلى قوله تعالى : ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المدثر ٢٥] .

فالذي بلّغه الرسول هو كلام الله تعالى لا كلامه ؛ ولهذا كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف ، ويقول : « ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ؛ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي» رواه أبو داود وغيره ، والكلام كلام من قاله مبتدئاً لا كلام من قاله مبلِّغاً مؤدياً .

وموسى سمع كلام الله من الله بلا واسطة ، والمؤمنون يسمعه بعضهم من بعض ، فسماع موسى سماع مطلق بلا واسطة ، وسماع الناس سماع مقيد بواسطة ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى ٥١] ففرق بين التكليم من وراء حجاب كما كلّم موسى وبين التكليم بواسطة الرسول كما كلّم الأنبياء بإرسال رسوله إليهم، والناس يعلمون أن النبي ﷺ إذا تكلم بكلام تكلم بحروفه ومعانيه بصوته ﷺ ثم المبلغون عنه يبلغون كلامه بحركاتهم وأصواتهم كما قال ﷺ : « نضّر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلّغه كما سمعه » فالمستمع منه مبلِّغ حديثه كما سمعه ؛ لكن بصوت نفسه لا بصوت الرسول ، فالكلام هو كلام الرسول تكلم به بصوته ، والمبلِّغ بلّغ كلام رسول الله بصوت نفسه .

وإذا كان هذا معلوما في تبليغ كلام المخلوق ، فكلام الخالق أولى بذلك ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة ٦] وقال النبي ﷺ : « زينوا القرآن بأصواتكم » ؛ فجعل الكلام كلام البارئ ، وجعل الصوت الذي يقرؤه به العبد صوت القارئ . وأصوات العباد ليست هي الصوت الذي ينادي الله به ويتكلم به، كما نطقت النصوص بذلك بل ولا مثله ، فإن الله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى ١١] لا في

ذاته ولا صفاته ولا أفعاله ، فليس علمه مثل علم المخلوقين ولا قدرته مثل قدرتهم ، ولا كلامه مثل كلامهم ، ولا نداؤه مثل ندائهم ، ولا صوته مثل أصواتهم ، فمن قال عن القرآن الذي يقرؤه المسلمون ليس هو كلام الله أو هو كلام غير الله فهو ملحد مبتدع ضال ، ومن قال : إن أصوات العباد أو المداد الذي يكتب به القرآن قديم أزلي فهو ملحد مبتدع ، بل هذا القرآن هو كلام الله ، وهو مثبت في المصاحف وكلام الله مبلَّغ عنه ، مسموع من القراء ليس مسموعاً منه ، فالإنسان يرى الشمس والقمر والكواكب بطريق المباشرة ويراها في ماء أو مرآة ، فهذه رؤية مقيدة بالواسطة ، وتلك مطلقة بطريق المباشرة ، ويسمع من المبلِّغ عنه بواسطة ، والمقصود بالسماع هو كلامه في الموضعين كما أن المقصود بالرؤية هو المرئي في الموضعين .

فمن عرف ما بين الحالين من الاجتماع والافتراق والاختلاف والاتفاق ، زالت عنه الشبهة التي تصيب كثيراً من الناس في هذا الباب ، فإن طائفة قالت : هذا المسموع كلام الله ، والمسموع صوت العبد ، وصوته مخلوق ، فكلام الله مخلوق ؛ وهذا جهل فإنه مسموع من المبلِّغ ، ولا يلزم إذا كان صوت المبلِّغ مخلوقاً أن يكون نفس الكلام مخلوقاً ، وطائفة قالت : هذا المسموع صوت العبد وهو مخلوق والقرآن ليس بمخلوق ، ولا يكون هذا المسموع كلام الله ، وهذا جهل ، فإن المخلوق هو الصوت لا نفس الكلام الذي يسمع من المتكلم به ومن المبلّغ عنه ، وطائفة قالت : هذا كلام الله وكلام الله غير مخلوق ، فيكون هذا الصوت غير مخلوق ، وهذا جهل ؛ فإنه إذا قيل : هذا كلام الله فالمشار إليه هو الكلام من حيث هو ، وهو الثابت إذا سمع من

الله وإذا سمع من المبلغ عنه ، وإذا قيل للمسموع : إنه كلام الله فهو كلام الله مسموعاً من المبلغ عنه لا مسموعاً منه ، فهو مسموع بواسطة صوت العبد وصوت العبد مخلوق ، وأما كلام الله منه فهو غير مخلوق حيث ما تصرف ، وهذه نكت قد بسط الكلام فيها في غير هذا الموضع .

فصــــل

فإن قيل : ما منشأ هذا النزاع والاشتباه والتفرق والاختلاف ؟ قيل منشؤه هو الكلام الذي ذمّه السلف وعابوه ، وهو الكلام المشتبه المشتمل على حق وباطل ، فيه ما يوافق العقل والسمع ، وفيه ما يخالف العقل والسمع ؛ فيأخذ هؤلاء جانب النفي المشتمل على نفي الحق والباطل ، وهؤلاء جانب الإثبات المشتمل على إثبات حق وباطل ، وجماعه هو الكلام المخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف ؛ فكل كلام خالف ذلك فهو باطل ، ولا يخالف ذلك إلا كلام مخالف للعقل والسمع .

وذلك أنه لما تناظروا في مسألة حدوث العالم وإثبات الصانع استدلت الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم من طوائف الكلام على (١) بأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، ثم إن المستدلين بذلك على حدوث الأجسام قالوا : إن الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان ، فتارة يثبتونها بأن الأجسام لا تخلو عن الاجتماع والافتراق ؛ وهما حادثان ، وتارة يثبتونها بأن الأجسام لا تخلو عن الأكوان الأربعة : الاجتماع والافتراق والحركة

---

(١) بياض في الأصل ، والمعروف أنهم استدلوا بما ذكر على قدم الصانع واجب الوجود.

والسكون ، وهي حادثة . وهذه طرق المعتزلة ومن وافقهم على أن الأجسام قد تخلو عن بعض أنواع الأعراض ، وتارة يثبتونها بأن الجسم لا يخلو من كل جنس من الأعراض عن عرض منه ، ويقولون : إن الأعراض يمتنع بقاؤها ؛ لأن العرض لا يبقى زمانين ، وهي الطريقة التي اختارها الآمدي وزيَّف ما سواها، وذكر أن جمهور أصحابه اعتمدوا عليها ، وقد وافقهم عليها طائفة من الفقهاء من أصحاب الأئمة الأربعة؛ كالقاضي أبي يعلى، والجويني، والباجي . وغيرهم.

وأما الهشامية والكرامية وغيرهما من الطوائف الذين لا يقولون بحدوث كل جسم يقولون : إن القديم تقوم به الحوادث ، فهؤلاء إذا قالوا بأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث كما في قول الكرامية وغيرهم موافقة للمعتزلة في هذا الأصل ؛ فإنهم قالوا : إن الجسم القديم لا يخلو عن الحوادث بخلاف الأجسام المحدثة .

والناس متنازعون في السكون هل هو أمر وجودي أو عدمي، فمن قال: إنه وجودي قال: الجسم الذي لا يخلو عن الحركة والسكون ؛ فإذا انتفت عنه الحركة فالسكون به وجودي ، وهذا قول من يحتج بتعاقب الحركة والسكون على حدوث المتصف بذلك ، ومن قال : إنه عدمي لم يلزم من عدم الحركة عن المحل ثبوت أن السكون وجودي؛ فمن قال: إنه تقوم به الحركة أو الحوادث بعد أن لم تكن مع قوله بامتناع تعاقب الحوادث كما هو قول الكرامية وغيرهم يقولون : إذا قامت به الحركة لم يعدم بقيامها سكون وجودي ، بلى ذلك عندهم بمنزلة قولهم مع المعتزلة والأشعرية وغيرهم فإنه يفعل بعد أن لم يكن فاعلا ، ولا يقولون: إن عدم الفعل أمر وجودي؛ كذلك الحركة عند هؤلاء.

وكان كثير من أهل الكلام يقولون: ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، أو ما لا يسبق الحوادث فهو حادث ؛ بناء على أن هذه مقدمة ظاهرة بأن ما لا يسبق الحادث فلا بد أن يقارنه أو يكون بعده ، وما قارن الحوادث فهو حادث ، وما كان بعده فهو حادث ، وهذا الكلام مجمل ؛ فإنه إذا أريد به ما لا يخلو عن الحوادث المعينة أو ما لا يسبق الحادث المعين فهو حق بلا ريب ولا نزاع فيه ؛ وكذلك إذا أريد بالحادث حكم ما له أول أو ما كان بعد العدم ، ونحو ذلك ، وأما إذا أريد الحوادث الأمور التي تكون شيئاً بعد شيء لا إلى أول ، وقيل : إنه ما لا يخلو عنها وما لم يخل فهو حادث ؛ لم يكن ذلك ظاهراً ولا بيِّنًا . بل هذا المقام حار فيه كثير من الأفهام ، وكثر فيه النزاع والخصام ؛ ولهذا صار المستدلون بقولهم : ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، يعلمون أن هذا الدليل لا يتم إلا إذا أثبتوا امتناع حوادث لا أول لها ، فذكروا في ذلك طرقاً قد تكلمنا عليها في غير هذا الموضع .

وهذا الأصل تنازع الناس فيه على ثلاثة أقوال : فقيل ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، وبامتناع حوادث لا أول لها مطلقاً . وهذا قول المعتزلة ومن اتبعهم من الكرامية والأشعرية ومن دخل معهم من الفقهاء وغيره ، وقيل : بل يجوز دوام الحوادث مطلقاً ، وليس كل ما قارب حادثاً بعد حادث لا إلى أول يجوزأن يكون حادثاً ، بل يجوز أن يكون قديماً سواء كان واجباً بنفسه أو بغيره ، وربما عبر عنه بالعلة والمعلول ، والفاعلية والمفعول ، ونحو ذلك، وهذا قول الفلاسفة القائلين بقدم العالم والأفلاك كأرسطو وأتباعه مثل: ثامبطوس ، والإسكندر الأفرديوسي ، وبوملس ، والفارابي ، وابن سينا ، وأمثالهم . وأما جمهور الفلاسفة المتقدمين على أرسطو فلم يكونوا يقولون

بهذا ، وقيل : بل إن كان الملتزم للحوادث ممْكننا بنفسه وجب أن يكون حادثاً فإن كان واجباً بنفسه لم يجز أن يكون حادثاً ؛ وهذا قول أئمة أهل الملل وأساطين الفلاسفة ؛ وهو قول جماهير أهل الحديث .

وصاحب هذا القول يقول : ما لا يخلو عن الحوادث وهو ممكن بنفسه فهو حادث ، وما لا يخلو عن الحوادث وهو معلول أو مفعول أو مبتدع أو مصنوع فهو حادث ؛ لأنه إن كان مفعولا ملتزماً للحوادث امتنع أن يكون قديماً ؛ فإن القديم المعلول لا يكون قديماً إلا إذا كان له موجب قديم بذاته يستلزم معلوله بحيث يكون معه أزلياً لا يتقدم عنه ، وهذا ممتنع ؛ فإن ما استلزم الحوادث يمتنع أن يكون فاعله موجباً بذاته يستلزم معلوله في الأزل؛ فإن الحوادث المتعاقبة شيئاً بعد شيء لا يكون مجموعها في الأزل ، ولا يكون شيء منها أزلياً ، بل الأزلي هو ذاتها واحد بعد واحد ، والموجب بذاته الملتزم لمعلوله في الأزل لا يكون معلوله شيئاً بعد شيء ، سواء كان صادراً عنه بواسطة أو بغير واسطة ، فإن ما كان واحداً بعد واحد يكون متعاقباً حادثاً شيئاً بعد شيء ، فيمتنع أن يكون معلولا مقارناً لعلته في الأزل بخلاف ما إذا قيل : إن المقارن لذلك هو الموجب بذاته الذي يفعل شيئاً بعد شيء . فإنه على هذا لا يكون في الأزل موجباً بذاته ولا علة سابقة تامة ؛ فلا يكون معه في الأزل شيء من المخلوقات، لكن فاعليته للمفعولات تكون شيئاً بعد شيء ، وكل مفعول يأخذ عنده وجود كمال فاعليته ؛ إذ المؤثر التام الملتزم لجميع شروط التأثير لا يتخلف عنه أثره ؛ إذ لو تخلف لم يكن مؤثراً تاماً ؛ فوجود الأثر يستلزم وجود المؤثر التام ، ووجود المؤثر التام يستلزم وجود الأثر؛

فليس في الأزل مؤثر تام ؛ فليس مع الله شيء من مخلوقاته قديم بقدمه ؛ والأزل ليس هو حداً محدوداً ولا وقتاً معيناً ، بل كلٌّ بتقدير العقل من الغاية التي ينتهي إليها ؛ فالأول قبل ذلك كما هو قبل ما قدره ؛ فالأزل لا أول له ، كما أن الأبد لا آخر له . وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ كان يقول : «أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء» فلو قيل : إنه مؤثر تام في الأزل لشيء من الأشياء لزم أن يكون مقارناً له دائماً ، وامتنع أن يقوم بالأثر شيء من الحوادث ؛ لأن كل حادث يحدث لا يحدث إلا إذا وجد مؤثره التام عند حدوثه ، وإن كانت ذات المؤثر موجودة قبل ذلك لكن لا بد من وجود شروط التأثير عند وجود الأثر ، وإلا لَزَمَ الترجيح من غير مرجح ، وتخلف المعلول عن العلة التامة ، ووجود الممكن بدون المرجح التام ؛ وكل هذا ممتنع ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

فصـــل

وإذا عرف الأصل الذي منه تفرع نزاع الناس فالذين قالوا ما لا يسبق الحوادث فهو حادث ؛ تنازعوا في كلام الله تعالى ، فقال كثير من هؤلاء : الكلام لا يكون إلا بمشيئة المتكلم وقدرته فيكون حادثاً كغيره من الحوادث ، ثم قالت طائفة : والرب تعالى لا يقوم به الحوادث فيكون الكلام مخلوقاً في غيره ، فجعلوا كلامه مخلوقاً من المخلوقات ، ولم يفرقوا بين قال وفعل ، وقد علم أن المخلوقات لا يتصف بها الخالق فلا يتصف بما يخلقه في غيره من الألوان والأصوات والروائح والحركة والعلم والقدرة والسمع والبصر ، فكيف

يتصف بما يخلقه في غيره من الكلام ؟ ، ولو جاز ذلك لكان ما يخلقه من إنطاق الجمادات علامة ، ومن علم أنه خالق كلام العباد وأفعالهم يلزمه أن يقول : كل كلام في الوجود فهو كلامه ، كما قال بعض الاتحادية (١) :

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وهذا قول الجهمية والنجارية والضرارية وغيرهم، فإن هؤلاء يقولون : إنه خالق أفعال العباد وكلامهم ؛ مع قولهم : إن كلامه مخلوق فيلزمهم هذا، وأما المعتزلة فلا يقولون : إن الله تعالى خالق أفعال العباد لكن الحجة توجب القول بذلك ، وقالت طائفة : بل الكلام لا بد أن يقوم بالمتكلم ، ويمتنع أن لا يكون كلامه إلا مخلوقاً في غيره ، وهو متكلم بمشيئته وقدرته ؛ فيكون كلامه حادثاً بعد أن لم يكن لامتناع حوادث لا أول لها ؛ وهذا قول الكرامية وغيرهم ؛ وقال كثير من هؤلاء الذين يقولون بامتناع حوادث لا أول لها مطلقا : الكلام لازم لذات الرب كلزوم الحياة ؛ ليس هو متعلقاً بمشيئته وقدرته ، بل هو قديم كقدم الحياة إذ لو قلنا : إنه بمشيئته وقدرته لزم أن يكون حادثاً ؛ وحينئذ لزم أن يكون مخلوقاً أو قائماً بذاته فيلزم قيام الحوادث به ، وذلك مستلزم لتسلسل الحوادث؛ لأن القابل للشيء لا يخلو عنه أو عن ضده قالوا: وتسلسل الحوادث ممتنع ؛ إذ التفريع على هذا الأصل .

ثم إنّ هؤلاء لما قالوا بقدم عين الكلام تنازعوا فيه ؛ فقالت طائفة : القديم لا يكون حروفاً ولا أصواتاً ؛ لأن تلك الحروف لا تكون كلاماً إلا إذا

---

(١) ابن عربي .

كانت متعاقبة ، والقديم لا يكون مسبوقاً بغيره ، فلو كانت الميم من (بسم) قديمة مع كونها مسبوقة بالسين والباء لكان القديم مسبوقاً بغيره ؛ وهذا ممتنع فيلزم أن يكون القديم هو المعنى فقط ولا يجوز تعدده ؛ لأنه لو تعدد لكان اختصاصه بقدر دون قدر ترجيحاً من غير مرجح ، وإلا كان لا ينافي لزوم وجود أعداد لا نهاية لها في آن واحد . قالوا : وهذا ممتنع ، فيلزم أن يكون معنى واحداً هو الأمر والخبر ومعنى التوراة والإنجيل والقرآن ، وهذا أصل قول الكلابية والأشعرية .

وقالت طائفة من أهل الكلام والحديث والفقهاء وغيرهم : بل هو حروف قديمة الأعيان لم تزل ولا تزال ، وهي مترتبة في ذاتها لا في وجودها كالحروف الموجودة في المصحف وليس بأصوات قديمة ، ومنهم من قال : بل هو أيضاً أصوات قديمة ، ولم يفرق هؤلاء بين الحروف المنطوقة التي لا توجد إلا متعاقبة وبين الحروف المكتوبة التي توجد في وقت واحد كما يفرق بين الأصوات والمداد ؛ فإن الأصوات لا تبقى بخلاف المداد فإنه جسم يبقى ، فإذا كان الصوت لا يبقى امتنع أن يكون الصوت المعين قديماً ؛ لأن ما وجب قدمه ؛ لزم بقاؤه وامتنع عدمه .

والحروف المكتوبة قد يراد بها نفس الشكل القائم بالمداد وما يقدر تقدير المداد ؛ كالشكل المصنوع في حجر وورق ؛ فإزالة بعض أجزائه (١) .

وقد يراد بالحروف نفس المداد ، وأما الحروف المنطوقة فقد يراد بها أيضاً الأصوات المقطعة المؤلفة ، وقد يراد بها حدود الأصوات وأطرافها كما

---

(١) سقط من الأصل خبر المبتدأ ؛ فتركنا له بياضاً يضعه فيه من علمه .

يراد بالحروف في الجسم حده ومنتهاه فيقال : حرف الرغيف وحرف الجبل . ومنه قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج ١١] ونحو ذلك ، وقد يراد بالحروف الحروف الخيالية ، وهي ما يسجل في باطن الإنسان من الكلام المؤلف المنظوم قبل أن يتكلم به .

وقد تنازع الناس ؛ هل يتمكن وجود حروف بدون أصوات قديمة لم تزل ولا تزال ، ثم القائلون بقدم الأصوات المعينة تنازعوا في المسموع من القارئ ؛ هل سمع منه الصوت القديم ؟ قيل : المسموع هو الصوت القديم ، وقيل : بل المسموع هو صوتان : أحدهما القديم ، والآخر المحدث ، فما لا بد منه في وجود القرآن فهو القرآن ، وما زاد على ذلك فهو المحدث . وتنازعوا في القرآن هل يقال : إنه حالّ في المصحف والصدور أم لا ؟ يقال على قولين : فقيل : هو ظاهر في المحدث ليس بحال فيه ، وقيل : بل القرآن حالّ في الصدور والمصاحف .

فهؤلاء الخلقية والحادثية والاتحادية والاقترانية أصل قولهم أن ما لا يسبق الحوادث فهو حادث مطلقاً ، ومن قال بهذا الأصل فإنه يلزم بعض هذه الأقوال أو ما يشبه ذلك ؛ فإنه إما أن يجعل كلام الله حادثاً أو قديماً ، وإذا كان حادثاً إما أن يكون حادثاً في غيره ، وإما أن يكون حادثاً في ذاته ، وإذا كان قديماً فإما أن يكون القديم المعنى فقط أو اللفظ ، أو كلاهما ، فإذا كان القديم هو المعنى فقط لزم أن لا يكون الكلام المقروء كلام الله . ثم الكلام في ذلك المعنى قد عرف .

وأما قدم اللفظ فقط فهذا لم يقل به أحد ، لكن من الناس من يقول : إن الكلام القديم هو اللفظ ، وأما معناه فليس هو داخل في مسمى الكلام ؛

فهذا يقول : الكلام القديم هو اللفظ فقط ؛ إما الحروف المؤلفة ، وإما الحروف والأصوات ؛ لكنه يقول : إن معناه قديم .

وأما الفريق الثاني الذين قالوا بجواز حوادث لا أول لها مطلقاً ، وإن القديم يجوز أن يعتقب عليه الحوادث مطلقاً وإن كان ممكناً لا واجباً بنفسه ، فهؤلاء هم القائلون بقدم العالم كما يقولون بقدم هذه الأفلاك ، وإنها لم تزل ولا تزال معلومة لعلة قديمة أزلية ، لكنِ المنتسبون إلى الملل كابن سينا ونحوه منهم قالوا : إنها صادرة عن الواجب بنفسه الموجب لها بذاته .

وأما أرسطو وأتباعه فإنهم قالوا : إن لها علة غائية تتحرك للتشبه بها فهي تحركها كما يحرك المعشوق عاشقه ، ولم يثبتوا لها مبدعاً قائماً بذاته ؛ وإنما أثبت واجب الوجود بطريقة ابن سينا وأتباعه ، وحقيقة قول هؤلاء وجود الحوادث بلا محدث أصلاً .

أما على قول من جعل الأزل علة غائية للحركة فظاهر ؛ فإنه لا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعلا لها ؛ فقولهم في حركات الأفلاك نظير قول القدرية في حركة الحيوان ، وكل من الطائفتين قد تناقض قولهم ، فإن هؤلاء يقولون بأن فعل الحيوان صادر عن غيره لكون القدرة والداعي يستلزمان وجود الفعل ، والقدرة والداعي كلاهما من غير العبد ، فيقال لهم : تقولون هكذا في حركة الفلك بقدرته وداعيه أنه يجب أن يكونا صادرين عن غيره ، وحينئذ فيكون الواجب بنفسه هو المحدث لتلك الحوادث شيئاً بعد شيء ، وإن كان ذلك بواسطة العقول، وهذا القول الذي يقوله ابن سينا وأتباعه باطل أيضاً؛

لأن الموجب بذاته القديم الذي يقارنه موجبه ومقتضاه يمتنع أن يصدر عنه حادث بواسطة أو بلا واسطة ، فإن صدور الحوادث عن العلة التامة الأزلية ممتنع بذاته .

وإذا قالوا بحركة توسطه قيل لهم : فالكلام إنما هو في حدوث الحركة ، فإن الحركة الحادثة شيئاً بعد شيء يمتنع أن يكون المقتضي لفاعله تامة أزلية مستلزمة لمعلولها ، فإن ذلك جمع بين النقيضين ؛ إذ القول بمقارنة المعلول لعلته في الأزل ووجوده معها يناقض أن يتخلف المعلول أو شيء من المعلول عن الأزل ، فصار حقيقة قولهم : إن الحوادث العلوية والسفلية لا يحدث بها .

وهؤلاء يقولون : كلام الله ما يفيض على النفوس الصافية كما أن ملائكة الله عندهم ما يتشكل فيها من الصور النورانية ، فلا يثبتون له كلاماً خارجاً عما في نفوس البشر ، ولا ملائكة خارجة عما في نفوسهم غير العقول العشرة والنفوس الفلكية التسعة ، مع أن أكثرهم يقولون : إنها أعراض .

وقد تبين في غير هذا الموضع أن ما يثبتونه من المجردات العقلية الحوادث(١) التي هي العقول والنفوس والمواد والصور إنما وجودها في الأذهان لا في الأعيان .

وأما الصنف الثالث الذين فرقوا بين الواجب والممكن، والخالق والمخلوق، والغني الذي لا يفتقر إلى غيره، والفقير الذي لا قوام له إلا بالغير، فقالوا: كل

---

(١) لعله للحوادث ؛ فليتأمل .

ما قارن الحوادث من الممكنات فهو حادث كائن بعد أن لم يكن ، وهو مخلوق مصنوع مربوب ، وأنه يمتنع أن يكون فيما هو فقير ممكن مربوب شيئاً قديماً فضلاً عن أن يقارن حوادث لا أول لها ؛ ولهذا كانت حركة الفلك دليلاً على حدوثه كما تقدم التنبيه عليه ، وأما الرب تعالى إذا قيل : لم يزل متكلماً إذا شاء ولم يزل فاعلاً ، لم يكن دوام كونه متكلماً بمشيئته وقدرته ودوام كونه فاعلاً بمشيئته وقدرته ممتنعاً ، بل هذا هو الواجب ؛ لأن الكلام صفة كمال لا نقص فيه، فالرب تعالى أحق أن يتصف به من كل موصوف بالكلام، إذ كل كمال يثبت للمخلوق فالحق أولى به ؛ لأن القديم الواجب الخالق أحق بالكمال من المحدث الممكن المخلوق ، ولأن كل كمال يثبت للمخلوق فإنما هو من الخالق وما جاز اتصافه به من الكمال وجب له ، فإنه لو لم يجب له لكان إما ممتنعاً وهو محال بخلاف الفرض ، وإما ممكنا يتوقف ثبوته له على غيره ، والرب تعالى لا يحتاج في ثبوت كماله إلى غيره ، فإن معطي الكمال أحق بالكمال ، فيلزم أن يكون غيره أكمل منه لو كان غيره معطياً له الكمال ؛ وهذا ممتنع ، بل هو بنفسه المقدسة مستحق لصفات الكمال فلا يتوقف ثبوت كونه متكلماً على غيره ، فيجب ثبوت كونه متكلماً وإن ذلك لم يزل ولا يزال ، والمتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازماً له بدون قدرته ومشيئته ، والذي لم يزل يتكلم إذا شاء ، أكمل ممن صار الكلام يمكنه بعد أن لم يكن الكلام ممكنا له[1] .

---

(١) هذا المذهب هو الذي قرره شيخنا في رسالة التوحيد بأوضح بيان عند إثبات الصفات ؛ ولكنه لم يفصل فروعه الآتية.

وحينئذ فكلامه قديم مع أنه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وإن قيل : إنه ينادي ويتكلم بصوت لا يلزم من ذلك قدم صوت معين ، وإذا كان قد تكلم بالقرآن والتوراة والإنجيل بمشيئته وقدرته لم يمتنع أن يتكلم بالباء قبل السين ، وإن كان نوع الباء والسين قديماً لم يستلزم أن تكون الباء المعينة والسين المعينة قديمة ، لما علم من القرآن من الفرق بين النوع والعين ، وهذا الفرق ثابت في الكلام والإرادة والسمع والبصر ؛ وغير ذلك من الصفات ، وبه تحل هذه الإشكالات الواردة على وحدة هذه الصفات وتعددها وقدمها وحدوثها ؛ وكذلك تزول به الإشكالات الواردة في أفعال الرب وقدمها وحدوثها وحدوث العالم .

وإذا قيل : إن حروف المعجم قديمة بمعنى النوع كان ذلك ممكنا بخلاف ما إذا قيل : اللفظ الذي نطق به زيد وعمرو قديم ، فإن هذا مكابرة للحس ، والمتكلم يعلم أن حروف المعجم كانت موجود قبل وجودها بنوعها ، وأما نفس الصوت المعين الذي قام به التقطيع والتأليف المعين فيعلم أن عينه لم تكن موجودة قبله .

والمنقول عن الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة مطابق لهذا القول ؛ ولهذا أنكروا على من زعم أن حرفاً من حروف المعجم مخلوق ، وأنكروا على من قال : لما خلق الله الحروف سجدت له الألف فقالت : لا أسجد حتى أؤمر ، مع أن هذه الحكاية نقلت لأحمد عن سري السقطي ، وهو نقلها عن بكر بن خنيس العابد ، ولم يكن قصد أولئك الشيوخ بها إلا إثبات أن العبد الذي يتوقف فعله على الأمر والشرع هو أكمل من العبد الذي يعبد الله بغير

شرع ، فإن كثيراً من العباد يعبدون الله بما تحبه قلوبهم وإن لم يكونوا مأمورين به ، فقصد أولئك الشيوخ أن من عبد الله بالأمر ولم يفعل شيئاً حتى يؤمر به ، فهو أفضل ممن عبده بما لم يؤمر به ، وذكروا هذه الحكاية الإسرائيلية شاهدة لذلك ، مع أن هذه لا إسناد لها ، ولا يثبت بها حكم ؛ ولكن الإسرائيليات إذا ذكرت على طريق الاستشهاد بها لما عرف صحته لم يكن بذكرها بأس .

وقصدوا بذلك الحروف المكتوبة؛ لأن الألف منتصبة ، وغيرها ليس كذلك، مع أن هذا أمر اصطلاحي ، وخط غير العرب لا يماثل خط العرب ، ولم يكن قصد أولئك الأشياخ أن نفس الحروف المنطوقة التي هي مباني أسماء الله الحسنى وكتبه المنزلة مخلوقة ثابتة عن الله ، بل هذا شيء لعله لم يخطر بقلوبهم ، والحروف المنطوقة لا يقال فيها بأنها منتصبة ولا ساجدة ، فمن احتج بهذا من قولهم على أنهم يقولون : إن الله لم يتكلم بالقرآن العربي ولا بالتوراة العبرية فقد قيل عنهم ما لم يقولوه .

وأما الإمام أحمد فإنه أنكر إطلاق هذا القول وما يفهم منه عند الإطلاق ، وهو أن نفس حروف المعجم مخلوقة كما نقل عنه أنه قال : ومن زعم أن حرفاً من حروف المعجم مخلوق فقد سلك طريقاً إلى البدعة ، قال : إن ذلك مخلوق ، وقد قال : إن القرآن مخلوق . ولا ريب أنه من جعل نوع الحروف مخلوقاً ثابتاً عن الله كائناً بعد أن لم يكن لزم (عنده) أن يكون كلام الله العربي والعبري ونحوهما مخلوقاً ، وامتنع أن يكون الله متكلماً بكلامه الذي

أنزله إلى عباده ، فلا يكون شيء من ذلك كلامه ؛ فطريقة الإمام أحمد وغيره من السلف مطابقة للقول الثابت الموافق لصريح المعقول وصحيح المنقول .

وقال الشيخ الإمام أبو الحسن محمد بن عبدالملك الكرخي في كتابه الذي سماه (الفصول في الأصول) : سمعت الإمام أبا منصور محمد بن أحمد يقول : سمعت الشيخ أبا حامد الإسفرايني يقول : مذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الأمصار أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر ، والقرآن حمله جبريل ـ عليه السلام ـ مسموعاً من الله تعالى ، والنبي ﷺ سمعه من جبريل ، والصحابه سمعوه من النبي ﷺ ، وهو الذي نتلوه بألسنتنا وفيما بين الدفتين ، وما في صدورنا مسموعاً ومكتوباً ومحفوظاً ، وكل حرف منه كالباء والتاء كله كلام الله غير مخلوق ، ومن قال مخلوقاً فهو كافر ؛ عليه لعائن الله والملائكة والناس أجمعين .

والكلام في هذه الأمور مبسوط في غير هذا الموضع ، وذكر ما يتعلق بهذا الباب من الكلام في سائر الصفات كالعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام في تعدد الصفات وإيجادها وقدمها وحدوثها ، أو قدم النوع دون الأعيان ، أو إثبات صفة كلية ، فإن عمومها متأولة بالأعيان مع تجدد كل معين من الأعيان أو غير ذلك مما قيل في هذا الباب ؛ فإن هذه أمور مشكلة ومحارات للعقول ؛ ولهذا اضطرب فيها طوائف من الناس ونظارهم . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، والله سبحانه أعلم ا هـ .

ذكـــــر

((ما لخصه الإمام شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ أيضاً في كتابه منهاج السنة في مسألة الكلام : ص٢٢١ج١))

هذه مسألة كلام الله تعالى . الناس فيها مضطربون ، قد بلغوا فيها إلى سبعة أقوال : (أحدها) قول من يقول : إن كلام الله ما يفيض على النفوس من المعاني التي تفيض ، إما من العقل الفعال عند بعضهم ، وإما من غيره . وهذا قول الصابئة والمتفلسفة الموافقين لهم كابن سينا وأمثاله ، ومن دخل مع هؤلاء من متصوفة الفلاسفة ومتكلميهم ، كأصحاب وحدة الوجود ؛ وفي كلام صاحب الكتب (المضنون بها على غير أهلها)[1] ورسالة (مشكاة الأنوار) وأمثلة ما قد يشار به إلى هذا ، وهو في غير ذلك من كتبه يقول ضد هذا ، لكن كلامه يوافق هؤلاء تارة وتارة يخالفه . وآخر أمره استقر على مخالفتهم ومطابقة الأحاديث النبوية .

و(ثانيها) قول من يقول : بأنه معنى واحد قديم قائم بذات الله ، هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة ، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه كالأشعري وغيره .

---

(١) هو أبو حامد الغزالي ، ولا نعرف له إلا كتاباً واحداً بهذا الاسم ، وما ذكر من الإشارات ليس فيها نص يدل على اعتقاده هذا المذهب ، واما ابن سينا فيقوله في حكاية مذهب الفلاسفة ، وهو يثبت الملائكة .

(ورابعها)[1] قول من يقول : إنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل ، وهذا قول طائفة من أهل الكلام وأهل الحديث ، ذكره الأشعري في (المقالات)[2] عن طائفة ـ وهو الذي يذكر عن السالمية ونحوهم ـ وهؤلاء قال طائفة منهم : إن تلك الاصوات القديمة هي الصوت المسموع من النار أو هي بعض الصوت المسموع من النار[3] ؛ وأما جمهورهم مع جمهور العقلاء فأنكروا ذلك ؛ وقالوا : هذا مخالفة لضرورة العقل .

(وخامسها وسادسها) قول من يقول : إنه حروف وأصوات ، لكن تكلم بعد أن لم يكن متكلماً ، وكلامه حادث في ذاته كما أن فعله حادث في ذاته ، بعد أن لم يكن متكلماً ولا فاعلاً ، وهذا قول الكرامية وغيرهم ؛ وهو قول هشام بن الحكم وأمثاله من الشيعة .

(وسابعها) قول من يقول : إنه لم يزل متكلماً إذا شاء بكلام يقوم به ، وهو متكلم بصوت يسمع ، وأن نوع الكلام قديم ، وإن لم يجعل نفس الصوت المعين قديماً ؛ وهذا هو المأثور عن أئمة الحديث والسنة .

وبالجملة أهل السنة والجماعة –أهل الحديث ومن انتسب إلى السنة والجماعة كالكلابية والكرامية والأشعرية والسالمية– يقولون : إن الكلام غير مخلوق . وهذا هو المتواتر عن السلف والأئمة من أهل البيت وغير أهل البيت ، ولكن تنازعوا بعد ذلك على الأقوال الخمسة المتأخرة .

---

(١) سقط الثالث من الأصل .

(٢) كتاب طبعه بعض المستشرقين من الألمان حديثاً في الآستانة .

(٣) أي في خطاب الله لموسى .

أما القولان الأولان فالأول قول الفلاسفة الدهرية القائلين بقدم العالم والصابئة المتفلسفة ونحوهم ، والثاني قول الجهمية من المعتزلة ومن وافقهم كالنجارية والضرارية .

وأما الشيعة فمتنازعون في هذه المسألة ، وقد حكينا النزاع عنهم فيما تقدم[1] وقدماؤهم كانوا يقولون : القرآن غير مخلوق كما يقوله أهل السنة والحديث ، وهذا هو المعروف عند أهل البيت كعلي بن أبي طالب وغيره مثل أبي جعفر الباقر وجعفر الصادق وغيرهم ، ولكن الإمامية تخالف أهل البيت في عامة أصولهم ، فليس من أئمة أهل البيت مثل علي بن الحسين وأبي جعفر الباقر وابنه جعفر بن محمد من كان ينكر الرؤية ، ولا يقول بخلق القرآن ولا ينكر القدر ولا يقول بالنص على عليّ [2] ولا بعصمة الأئمة الاثني عشر ، ولا يسب أبا بكر وعمر ، والمنقولات الثابتة المتواترة عن هؤلاء معروفة موجودة ، وكانت مما يعتمد عليه أهل السنة . وشيوخ الرافضة معترفون بأن هذا الاعتقاد في التوحيد والصفات والقدر لم يتلقوه لا عن كتاب ولا سنة ولا عن أئمة أهل البيت ، وإنما يزعمون أن العقل دلهم عليه كما يقول ذلك المعتزلة، وإنما يزعمون أنهم تلقوا عن الأئمة الشرائع ، وقولهم في الشرائع غالبه موافق لمذهب أهل السنة ، ولهم مفردات شنيعة لم يوافقهم عليها أحد ، ولهم مفردات عن المذاهب الأربعة قد قال بها غيرهم من السلف وأهل الظاهر وفقهاء المعتزلة وغير هؤلاء ، فهذه ونحوها من مسائل الاجتهاد التي يهون

---

(١) أي من كتاب منهاج السنة المنقول عنه هذا.

(٢) أي على إمامته .

الأمر فيها ، بخلاف الشاذ الذي يعرف أنه لا أصل له لا في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا سبقهم إليه أحد .

وإذا عرفت المذاهب فيقال لهذا (أي ابن المطهر الذي رد عليه ابن تيمية في هذا البحث) : قولك «إن أمره ونهيه وإخباره حادث لاستحالة أمر المعدوم ونهيه وإخباره ، أتريد به أنه حادث في ذاته ، أم حادث منفصل عنه ؟ » والأول قول أئمة الشيعة المتقدمة والجهمية والمرجئة والكرامية ، مع كثير من أهل الحديث وغيرهم . ثم إذا قيل : حادث ، أهو حادث النوع ، فيكون الرب قد صار متكلماً بعد أن يكن متكلماً ، أو حادث الإفراد وأنه لم يزل متكلماً إذا شاء ؟ والكلام الذي كلّم به موسى هو حادث ، وإن كان نوع كلامه قديماً لم يزل ؟ فهذه ثلاثة أنوا ع تحت قولك .

وقد علم أنك أردت النوع الأول ، وهو قول الذين جمعوا بين التشيع والاعتزال ، فقالوا : إنه مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه . فيقال لك : إذا كان الله قد خلقه منفصلاً عنه لم يكن كلامه ؛ فإن الكلام والقدرة والعلم وسائر الصفات إنما يتصف بها من قامت به لا من خلقها وفعلها في غيره ؛ ولهذا إذا خلق الله حركة وعلما وقدرة في جسم كان ذلك الجسم هو المتحرك العالم القادر بتلك الصفات ؛ ولم تكن تلك صفات الله بل مخلوقات له ، ولو كان متصفاً بمخلوقاته المنفصلة عنه لكان إذاً أنطق الجامدات ، كما قال : ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ ١٠] وكما قال : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور ٢٤] ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت ٢١] وكما قال : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا

﴿أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس ٦٥] ومثل تسليم الحجر على النبي ﷺ وتسبيح الحصى بيده ، وتسبيح الطعام وهم يأكلونه ، فإذا كان كلام الله لا يكون إلا ما خلقه في غيره ، وجب أن يكون هذا كله كلام الله فإنه خلقه في غيره ، وإذا تكلمت الأيدي فينبغي أن يكون ذاك كلام الله كما يقولون : إنه خلق كلاماً في الشجرة كلّم الله به موسى بن عمران .

وأيضاً فإذا كان الدليل قد قام على أن الله تعالى خالق أفعال العباد وأقوالهم وهو المنطق لكل ناطق؛ وجب أن يكون كل كلام في الوجود كلامه ، وهذا ما قالته الحلولية[1] من الجهمية كصاحب الفصوص ابن عربي قال :

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وحينئذ فيكون قول فرعون ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات ٢٤] كلام الله كما أن الكلام المخلوق في الشجرة ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾ [طه ١٤] كلام الله .

وأيضاً فالرسل الذين خاطبوا الناس وأخبروهم أن الله قال، ونادى، وناجى، ويقول، لم يُفهموهم أن هذه مخلوقات منفصلة عنه بل الذي أفهموهم إياه أن الله نفسه الذي تكلّم، والكلام قائم به لا بغيره؛ ولهذا عاب الله من يعبد إلهاً لا يتكلم فقال: ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه ٨٩] وقال : ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ [الأعراف ١٤٨] ولا يحمد

---

(١) لعله سقط من هنا لفظ (الاتحادية) الذي يطلقه عليهم دائماً في كتبه ؛ فابن عربي وابن الفارض وأمثالهم يقولون باتحاد الخالق بالخلق ، وإن هذا عين هذا إلا أنه غيره وحال فيه ، وإنه ما ثم غيره ، وهذا مفصّل في رده عليهم من هذا المجموع.

شـيء بأنـه مـتكلم ويذم بأنـه غـير مـتكلم إلا إذا كـان الكـلام قـائمـاً بـه ؛ وبالجـمـلة لا يعـرف في لغـة ولا عـقـل قـائل مـتكلم إلا مـن يقـوم بـه القـول والكـلام ، كما لا يعقـل حـي إلا مـن تقـوم به الحيـاة ، ولا عـالـم إلا من يقوم به العلـم ، ولا متـحـرك إلا من تقوم بـه الحـركـة ، ولا فـاعـل إلا مـن يقـوم به الفعـل ، فمن قـال : إن المتكلم هـو الذي يكـون كلامه منفصلاً عنـه ، قـال ما لا يعقـل ، ولم يفهم الرسل الناس هذا ، بل كل من سمع ما بلّغته الرسل عن الله يعلـم بالضرورة أن الرسـل لم تـرد بكـلام الله مـا هـو منفصل ؛ بل ما هو متصف به .

قـالوا : المتكلم من فعل الكلام ، والله تعـالى لما أحدث الكلام في غيـره صـار مـتكلماً ، فيقـال لهم : للمتـأخرين المختلفين هنا ثلاثة أقـوال ، قيل : المتكلم من فعل الكلام ولو كان منفصلاً عنه ، وهذا إنما قاله هؤلاء ، وقيل : المتكلم من قـام به الكلام ولو لـم يكن بفعله ولا هو بمشيئته ولا قدرته ، وهذا قول الكلابية والسالمية ومن وافقهم . وقيل : المتكلم من تكلم بفعله ومشيئته وقدرته فقام به الكلام ، وهذا قـول أكثر أهل الحـديث وطوائف من الشيـعة والمرجئـة والكرامية وغيرهم ، فأولئك يقولون : هـو صـفـة فـعل منفـصـل عن الموصـوف لا صـفـة ذات ، والصـنف الثـاني يقـولون : صـفـة ذات لازمـة للموصـوف لا تتعلق بمشيئتـه ولا قدرته ، والآخرون يقولون : هـو صـفـة ذات وصفة فعل ، وهو قائم به يتعلق بمشيئته وقدرته .

إذا كـان كـذلك فـقولكم : إنه صـفـة فـعل ينازعكم فيـه طائفـة ، وإذا لم ينازعوا في هذا فيقال : هب أنه صفة فعل لكن صفة فعل منفصل عن القائل

الفاعل أو قائم به ! أما الأول فهو قولكم الفاسد ، وكيف تكون الصفة غير قائمة بالموصوف ، أو القول غير قائم بالقائل ؟

فإن قلتم : هذا بناء على أن فعل الله لا يقوم به ؛ لأنه لو قام به لقامت به الحوادث؟ قيل : والجمهور ينازعونكم في هذا الأصل ، ويقولون : كيف يعقل فعل لا يقوم بفاعل[1] ونحن نعقل الفرق بين نفس التكوين وبين المخلوق المكون ؟ وهذا قول جمهور الناس كأصحاب أبي حنيفة وهو الذي حكاه البغوي وغيره من أصحاب الشافعي عن أهل السنة ، وهو قول أئمة أصحاب أحمد ؛ كأبي إسحاق بن شاقلا ؛ وأبي بكر بن عبدالعزيز ؛ وأبي عبدالله بن حامد ، والقاضي أبي يعلي في آخر قوليه ، وقول أئمة الصوفية ، وأئمة أصحاب الحديث؛ وحكاه البخاري في كتاب أفعال العباد عن العلماء مطلقاً؛ وهو قول طوائف من المرجئة والشيعة والكرامية .

ثم القائلون بقيام فعله به منهم من يقول : فعله قديم والمفعول متأخر ، كما أن إرادته قديمة والمراد متأخر ، كما يقول ذلك من يقوله من أصحاب أبي حنيفة وأحمد وغيرهم ، ومنهم من يقول : بل هو حادث النوع كما يقول ذلك من يقوله من الشيعة والمرجئة والكرامية ؛ ومنهم من يقول بمشيئته وقدرته شيئاً فشيئاً لكنه لم يزل متصفاً به فهو حادث الآحاد قديم النوع ، كما يقول ذلك من يقوله من أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعي وأحمد وسائر الطوائف .

---

(١) لعل الأصل : (بفاعله) فإن المردود عليهم يقولون : الكلام فعله ، ولكنه قام بغيره ؛ فيجعلون الفعل عين المفعول ؛ كما شرحه في مواضع تقدمت.

وإذا كان الجمهور ينازعونكم فتقدر المنازعة بينكم وبين أئمتكم من الشيعة ومن وافقهم ، فإن هؤلاء يوافقونكم على أنه حادث لكن يقولون : هو قائم بذات الله فيقولون : قد جمعنا حجتنا وحجتكم فقلنا : العدم لا يؤمر ولا ينهى ، وقلنا : الكلام لا بد أن يقوم بالمتكلم .

فإن قلتم لنا : فقد قلتم بقيام الحوادث بالرب قلنا لكم : نعم ، وهذا قولنا الذي دل عليه الشرع والعقل ، ومن لم يقل أن الباري يتكلم ويريد ويحب ويبغض ويرضى ويأتي ويجيء ؛ فقد ناقض كتاب الله ، ومن قال : إنه لم يزل ينادي موسى في الأزل فقد خالف كلام الله مع مكابرة العقل ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ﴾ [النمل ٨] وقال : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس ٨٢] فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال .

قالوا : وبالجملة فكل ما يحتج به المعتزلة والشيعة مما يدل على أن كلامه متعلق بمشيئته وقدرته وأنه يتكلم إذا شاء وأنّه يتكلم شيئاً بعد شيء ، فنحن نقول به ، وما يقول به من يقول : إن كلام الله قائم بذاته ، وإنه صفة له ، والصفة لا تقوم إلا بالموصوف فنحن نقول به ، وقد أخذنا بما في قول كل من الطائفتين من الصواب وعدلنا عما يرده الشرع والعقل من قول كل منهما ، فإذا قالوا لنا : فهذا يلزم منه أن تكون الحوادث قامت به قلنا : ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة ؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل ، وهو قول لازم لجميع الطوائف ، من أنكره فلم يعرف لوازمه وملزوماته .

ولفظ الحوادث مجمل ؛ فقد يراد به الأعراض والنقائص ، والله منزه عن ذلك ؛ ولكن يقوم به ما شاءه ويقدر عليه من كلامه وأفعاله ونحو ذلك مما دل عليه الكتاب والسنة .

ونحن نقول لمن أنكر قيام ذلك به : أتنكره لإنكارك قيام الصفة به كإنكار المعتزلة ، أم تنكره لأن من قامت به الحوادث لم يخل منها ونحو ذلك مما يقوله الكلابية؟ فإذا قال بالأول كان الكلام في أصل الصفات وفي كون الكلام قائماً بالمتكلم لا منفصلاً منه كافياً في هذا الباب .

وإن كان الثاني قلنا لهؤلاء : أتجوزون حدوث الحوادث بلا سبب حادث أم لا ؟ فإن جوزتم ذلك وهو قولكم لزم أن يفعل الحوادث ما لم يكن فاعلاً لها ولا لضدها ؛ فإذا جاز هذا فلمَ لا يجوز أن تقوم الحوادث بمن لم تكن قائمة به هي ولا ضدها؟ ومعلوم أن الفعل أعظم من القبول فإذا جاز فعلها بلا سبب حادث فكذلك قيامها بالمحل ، فإن قلتم : «القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده لزم تسلسل الحوادث ، وتسلسل الحوادث إن كان ممكنا ، كان القول الصحيح قول أهل الحديث الذين يقولون: لم يزل متكلماً إذا شاء، كما قاله ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما من أئمة السنة ، وإن لم يكن جائزاً كان قولنا هو الصحيح ؛ فقولكم أنتم باطل على كلا التقديرين .

فإن قلتم لنا : أنتم توافقوننا على امتناع تسلسل الحوادث ، وهو حجتنا وحجتكم على قدم العالم ، قلنا لكم : موافقتنا لكم حجة جدلية ، وإذا كنا قد قلنا بامتناع تسلسل الحوادث موافقة لكم ، وقلنا بأن الفاعل للشيء قد يخلو

عنه وعن ضده مخالفة لكم ، وأنتم تقولون : إن قيل بالحوادث لزم تسلسلها ، وأنتم لا تقولون بذلك ، قلنا : إن صحت هاتان المقدمتان ونحن لا نقول بموجبهما لزم خطؤنا إما في هذه وإما في هذه ، وليس خطؤنا فيما سلمناه لكم بأولى من خطئنا فيما خالفناكم فيه ؛ فقد يكون خطؤنا في منع تسلسل الحوادث لا في قولنا : إن القابل للشيء يخلو عنه وعن ضده ، فلا يكون خطؤنا في إحدى المسألتين دليلاً على جوابكم في الأخرى التي خالفناكم فيها، أكثر ما في هذا الباب أن نكون متناقضين ، والتناقض شامل لنا ولكم ولأكثر من تكلم في هذه المسئلة ونظائرها ، وإذا كنا متناقضين فرجوعنا إلى قول نوافق فيه العقل والنقل أولى من رجوعنا إلى قول نخالف فيه العقل والنقل .

فنقول : إن كون المتكلم يتكلم بكلام لا يتعلق بمشيئته وقدرته ، أو منفصل عنه لا يقوم به ، مخالف للعقل والنقل ، بخلاف تكلمه بكلام يتعلق بمشيئته وقدرته قائم به ؛ فإن هذا لا يخالف لا عقلا ولا نقلاً ، لكن قد نكون ممن نقله بلوازمه فنكون متناقضين ، وإذا كنا متناقضين كان الواجب أن نرجع عن القول الذي أخطانا فيه لنوافق ما أصبنا فيه ، لا نرجع عن الصواب ليطرد الخطأ ، فنحن نرجع عن تلك المتناقضات ، ونقول بقول أهل الحديث .

فإن قلتم : إثبات حادث بعد حادث لا إلى أول قول الفلاسفة الدهرية؟ قلنا : بل قولكم : إن الرب تعالى لم يزل معطلاً لا يمكنه أن يتكلم بشيء ولا أن يفعل شيئاً ثم صار يمكنه أن يتكلم وأن يفعل بلا حدوث سبب ؛ يقتضي ذلك قول مخالف لصريح العقل ولما عليه المسلمون ، فإن المسلمين يعلمون أن

الله لم يزل قادراً ، وإثبات القدرة مع كون المقدور ممتنعا غير ممكن ؛ لأنه جمع بين النقيضين ، فكان فيما عليه المسلمون من أنه لم يزل قادراً ما يبين أنه لم يزل قادراً على الفعل والكلام بقدرته ومشيئته ، والقول بدوام كونه متكلما ودوام كونه فاعلاً بمشيئته منقول عن السلف وأئمة المسلمين من أهل البيت وغيرهم ؛ كابن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، والبخاري ، وعثمان بن سعيد الدرامي ، وغيرهم ، وهو منقول عن جعفر الصادق بن محمد في الأفعال المتعدية فضلاً عن اللازمة وهو دوام إحسانه .

والفلاسفة الدهرية قالوا بقدم العالم ، وأن الحوادث فيه لا إلى أول ، وأن الباري موجب بذاته للعالم ليس فاعلاً بمشيئته وقدرته ولا يتصرف بنفسه، وأنتم وافقتموهم على طائفة من باطلهم ، حيث قلتم : إنه لا يتصرف بنفسه ولا يقوم به أمر يختار ، ويقدر عليه ، وجعلتموه كالجماد الذي لا تصرف له ولا فعل ، وهم جعلوه كالجماد الذي لزمه وعلق به ما لا يمكنه دفعه عنه ولا قدرة له على التصرف فيه فوافقتموهم على بعض باطلهم .

ونحن قلنا بما يوافق العقل والنقل ، من كمال قدرته ومشيئته ، وأنه قادر على الفعل بنفسه كيف شاء ، وقلنا : إنه لم يزل موصوفاً بصفات الكمال متكلماً ذاتا ، فلا نقول : إن كلامه مخلوق منفصل عنه ؛ فإن حقيقة هذا القول أنه لا يتكلم ، ولا نقول : إنه شيء واحد أمر ونهي وخبر ، وأن معنى التوراة والإنجيل واحد ، وأن الأمر والنهي صفة لشيء واحد ، فإن هذا مكابرة للعقل ، ولا نقول : إنه أصوات متقطعة متضادة أزلية ؛ فإن الأصوات لا تبقى زمانين .

وأيضاً فلو قلنا بهذا القول والذي قبله ، لزم أن يكون تكليم الله للملائكة ولموسى ولخلقه يوم القيامة ليس إلا مجرد خلق الإدراك لهم لما كان أزلياً لم يزل ، ومعلوم أن النصوص دلت على ضد ذلك ، ولا نقول : إنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً ، فإنه وصف له بالكمال بعد النقص ، وإنه صار محلا للحوادث التي كمل بها بعد نقصه ، ثم حدوث ذلك الكمال لا بد له من سبب . والقول في الثاني كالقول في الأول ؛ ففيه تجدد جلاله ودوام أفعاله ؛ وبهذا يمكن أن يكون العالم وكل ما فيه مخلوقاً له حادثاً بعد أن لم يكن ؛ لأنه يكون بسبب الحدوث وهو ما قام بذاته من كلماته وأفعاله وغير ذلك ، فيعقل سبب حدوث الحوادث ، ومع هذا يمتنع أن يقال بقدم شيء من العالم؛ لأنه لو كان قديماً لكان مبدعه موجباً بذاته يلزمه موجبه ومقتضاه ، فإذا كان الخالق فاعلاً بفعل يقوم بنفسه بمشيئته واختياره امتنع أن يكون موجباً بذاته لشيء من الأشياء ، فامتنع قدم شيء من العالم ، وإذا امتنع من الفاعل المختار أن يفعل شيئاً منفصلاً عنه مقارنا له مع أنه لا يقوم به فعل اختياري فلأن يمتنع ذلك إذا قام به فعل اختياري بطريق الأولى والأحرى ؛ لأنه على هذا التقدير الأول يكفي في نفس المشيئة والفعل الاختياري والقدرة ، ومعلوم أن ما يتوقف على المشيئة والفعل الاختياري القائم به أن يكون أولى بالحدوث والتأخر مما لم يتوقف إلا على بعض ذلك .

والكلام على هذه الأمور مبسوط في غير هذا الموضع .

وأكثر الناس لا يعلمون كثيراً من هذه الأقوال ؛ ولذلك كثر بينهم القيل والقال ، وما ذكرناه إشارة إلى مجامع المذاهب . انتهى .

فصل آخر

فيما قاله في مسألة اللفظ كما في كتابه : (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول[1]) وهذا نصه :

لما كان السلف والأئمة متفقين على أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وقد علم المسلمون أن القرآن بلَّغه جبريل عن الله إلى محمد ، وبلَّغه محمد إلى الخلق ، وأن الكلام إذا بلّغه المبلغ عن قائله لم يخرج عن كونه كلام المبلَّغ عنه ، بل هو كلام لمن قاله مبتدئاً ، لا كلام من بلَّغه عنه مؤدياً ؛ فالنبي ﷺ إذا قال : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى» وبلّغ هذا الحديث عنه واحد بعد واحد حتى وصل إلينا كان من المعلوم أنا إذا سمعناه من المحدث به إنما سمعنا كلام رسول الله ﷺ الذي تكلّم به بلفظه ومعناه ، وإنما سمعناه عن المبلّغ عنه بفعله وصوته ، ونفس الصوت الذي تكلم به النبي ﷺ لم نسمعه ، وإنما سمعنا صوت المحدث عنه ، والكلام كلام رسول الله ﷺ لا كلام المحدث ، فمن قال : إن هذا الكلام ليس كلام رسول الله ﷺ كان مفترياً ، وكذلك من قال : إن هذا لم يتكلم به رسول الله ﷺ وإنما أحدثه في غيره ، أو أن النبي ﷺ لم يتكلم بلفظه وحروفه بل كان ساكتاً أو عاجزاً عن التكلم بذلك فعلم غيره ما في نفسه فنظم هذه الألفاظ ليعبر عما في نفس النبي ﷺ ونحو هذا الكلام ؛ فمن قال هذا كان مفترياً ، ومن قال : إن هذا الصوت المسموع صوت النبي ﷺ كان مفتريا ، فإذا كان هذا معقولاً في

(١) (ص ١٥٣ ج١ ، هامش منهاج السنة).

كلام المخلوق ؛ فكلام الخالق أولى بإثبات ما يستحقه من صفات الكمال ، وتنزيه الله أن تكون صفاته وأفعاله هي صفات العباد وأفعالهم أو مثل صفات العباد وأفعالهم .

فالسلف والأئمة كانوا يعلمون أن هذا القرآن المنزل المسموع من القارئين كلام الله كما قال تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة ٦] ليس هو كلاماً لغيره لا لفظه ولا معناه ، ولكن بلَّغه عن الله جبريل وبلَّغه محمد عن جبريل ؛ ولهذا أضافه الله إلى كل من الرسولين ؛ لأنه بلَّغه وأداه ، لا لأنه أحدثه لا لفظه ولا معناه ؛ إذ لو كان أحدهما هو الذي أحدث ذلك لم يصح إضافة الأحداث إلى الآخر فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة ٤٠ - ٤٣] فهذا محمد ﷺ . وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير ١٩ - ٢١] فهذا جبريل عليه السلام . وقد توعد تعالى من قال : ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر ٢٥] .

فمن قال : إن هذا القرآن قول البشر فقد كفر ، وقال بقول الوحيد الذي أوعده الله سقر ، ومن قال : إن شيئاً منه قول البشر ؛ فقد قال بعض قوله ، ومن قال : إنه ليس بقول رسول كريم وإنما هو قول شاعر أو مجنون أو مفتر أو قال : هو قول شيطان نزل به عليه ونحو ذلك فهذا أيضاً كافر ملعون .

وقد علم المسلمون الفرق بين أن يسمع كلام المتكلم منه أو من المبلِّغ عنه ، وأن موسى سمع كلام الله من الله بلا واسطة ، وأنَّا نحن إنما نسمع

كلام الله من المبلغين عنه ، وإن كان الفرق ثابتاً بين من سمع كلام النبي ﷺ منه ومن سمعه من الصاحب المبلّغ عنه فالفرق هنا أولى ؛ لأن أفعال المخلوق وصفاته أشبه بأفعال المخلوق وصفاته، من أفعاله وصفاته بأفعال الله وصفاته.

ولما كان الجهمية يقولون : إن الله لم يتكلم في الحقيقة ، بل خلق كلاماً في غيره ، ومن أطلق منهم أن الله تكلم حقيقة فهذا مراده فالنزاع بينهم لفظي ، كان من المعلوم أن القائل إذا قال : هذا القرآن مخلوق كان مفهوم كلامه أن الله لم يتكلم بهذا القرآن ، وأنه هو ليس بكلامه بل خلقه في غيره ، وإذا فسر مراده بأني أردت أن حركات العبد وصوته والمداد مخلوق ، كان هذا المعنى وإن كان صحيحاً ليس هو مفهوم كلامه ولا معنى قوله ؛ فإن المسلمين إذا قالوا : هذا القرآن كلام الله ، لم يريدوا بذلك أن أصوات القائلين وحركاتهم قائمة بذات الله ، كما أنهم إذا قالوا : هذا الحديث حديث رسول الله ﷺ ولم يريدوا بذلك أن حركات المحدث وصوته قامت بذات رسول الله ﷺ ، بل وكذلك إذا قالوا في إنشاد المنشد ، ألا كل شيء ما خلا الله باطل ، هذا شعر لبيد وكلام لبيد ، لم يريدوا بذلك أن صوت المنشد هو صوت لبيد بل أرادوا أن هذا القول المؤلف لفظه ومعناه هو للبيد ، وهذا منشد له .

فمن قال : إن هذا القرآن مخلوق أو إن القرآن المنزل مخلوق أو نحو هذه العبارات ، كان بمنزلة من قال : إن هذا الكلام ليس هو كلام الله ، وبمنزلة من قال عن الحديث المسموع من المحدث : إنّ هذا ليس كلام رسول الله ﷺ ، وإنّ النبي ﷺ لم يتكلم بهذا الحديث ، وبمنزلة من قال : إن هذا الشعر ليس هو شعر لبيد ولم يتكلم به لبيد ، ومعلوم أن هذا كله باطل .

ثم إن هؤلاء صاروا يقولون : هذا القرآن المنزل المسموع هو تلاوة القرآن ، وقراءة القرآن مخلوقة ، ويقولون : تلاوتنا للقرآن مخلوقه ، وقراءتنا له مخلوقة . ويدخلون في ذلك نفس الكلام المسموع ويقولون : لفظنا بالقرآن مخلوق . ويدخلون في ذلك القرآن الملفوظ المتلو المسموع ، فأنكر الإمام أحمد وغيره من أئمة السنة هذا ، وقالوا : اللفظية جهمية ؛ وقالوا : افترقت الجهمية ثلاث فرق : فرقة قالت : القرآن مخلوق ، وفرقة قالت : نقف فلا نقول مخلوق ولا غير مخلوق ، وفرقة قالت : تلاوة القرآن واللفظ بالقرآن مخلوق ، فلما انتشر ذلك عن أهل السنة غلطت طائفة فقالت : لفظنا بالقرآن غير مخلوق وتلاوتنا له غير مخلوقة ؛ فبدع الإمام أحمد هؤلاء وأمر بهجرهم ؛ ولهذا ذكر الأشعري في مقالاته هذا عن أهل السنة وأصحاب الحديث فقال : والقول باللفظ والوقف عندهم بدعة ؛ من قال : اللفظ بالقرآن مخلوق فهو مبتدع عندهم ومن قال : غير مخلوق فهو مبتدع .

وكذلك ذكر محمد بن جرير الطبري في صريح السنة ، أنه سمع غير واحد من أصحابه يذكر عن الإمام أحمد أنه قال : من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال إنه غير مخلوق فهو مبتدع . وصنف أبو محمد ابن قتيبة في ذلك كتاباً ، وقد ذكر أبو بكر الخلال هذا في كتاب السنة وبسط القول في ذلك ، وذكر ما صنفه أبو بكر المروذي في ذلك ، وذكر قصة أبي طالب المشهورة عن أحمد التي نقلها عنه أكابر أصحابه كعبدالله وصالح ابنيه ، والمروذي وأبي محمد فوزان ، ومحمد بن إسحاق الصنعاني ، وغير هؤلاء.

وكان أهل الحديث قد افترقوا في ذلك فصار طائفة منهم يقولون : لفظنا بالقرآن غير مخلوق ، ومرادهم أن القرآن المسموع غير مخلوق ، وليس مرادهم صوت العبد ، كما يذكر ذلك عن أبي حاتم الرازي ومحمد بن داود المصيصي ، وطوائف غير هؤلاء ، وفي أتباع هؤلاء من قد يدخل صوت العبد أو فعله في ذلك أو يقف ، ففهم ذلك بعض الأئمة فصار يقول : أفعال العباد أصواتهم مخلوقة رداً لهؤلاء ؛ كما فعل البخاري ، ومحمد بن نصر المروزي، وغيرهما من أهل العلم والسنة، وصار يحصل بسبب كثرة الخوض في ذلك ألفاظ مشتركة وأهواء للنفوس حصل بذلك نوع من الفرقة والفتنة .

وحصل بين البخاري وبين محمد بن يحيى الذهلي في ذلك ما هو معروف ، وصار قوم مع البخاري كمسلم بن الحجاج ونحوه ؛ وقوم عليه كأبي زرعة وأبي حاتم وغيرهما ، وكل هؤلاء من أهل العلم والسنة والحديث وهم من أصحاب أحمد بن حنبل ؛ ولهذا قال ابن قتيبة : إن أهل السنة لم يختلفوا في شيء من أقوالهم إلا في مسألة اللفظ ، وصار قوم يطلقون القول بأن التلاوة هي المتلو والقراءة هي المقروء ، وليس مرادهم بالتلاوة المصدر ؛ ولكن الإنسان إذا تكلم بالكلام فلا بد له من حركة ومما يكون عن الحركة من أقواله التي هي حروف منظومة ومعان مفهومة .

والقول والكلام يراد به تارة المجموع فتدخل الحركة في ذلك ، ويكون الكلام نوعا من العمل وقسما منه ، ويراد به تارة ما يقترن بالحركة ويكون عنها لا نفس الحركة ؛ فيكون الكلام قسيماً للعمل ونوعاً آخر ليس هو منه .

ولهذا تنازع العلماء في لفظ العمل المطلق هل يدخل فيه الكلام ؟ على قولين معروفين لأصحاب أحمد وغيرهم ، وبنوا على ذلك ما إذا حلف لا يعمل اليوم عملاً فتكلم هل يحنث ؟ على قولين : وذلك لأن لفظ الكلام قد يدخل في العمل وقد لا يدخل ، فالأول كما في قول النبي ﷺ : «لا تحاسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل والنهار فهو يقول : لو أوتيت مثل ما أوتي هذا لعملت مثل ما يعمل» كما أخرجه الشيخان في الصحيحين ؛ فقد جعل فعل هذا الذي يتلوه آناء الليل والنهار عملاً ؛ كما قال لعملت فيه مثل ما يعمل الثاني ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر ١٠] وقوله تعالى : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس ٦١] .

فالذين قالوا : التلاوة هي المتلو من أهل العلم والسنة . قصدوا أن التلاوة هي القول والكلام المتلو ، وآخرون قالوا : بل التلاوة غير المتلو والقراءة غير المقروء .

والذين قالوا ذلك من أهل السنة والحديث أرادوا بذلك أن أفعال العباد ليست هي كلام الله ولا أصوات العباد هي صوت الله ، وهذا الذي قصده البخاري ، وهو مقصود صحيح .

وسبب ذلك أن لفظ التلاوة والقراءة واللفظ مجمل مشترك ، يراد به المصدر ويراد به المفعول ؛ فمن قال : اللفظ ليس هو الملفوظ والقول ليس هو المقول ، وأراد باللفظ والقول المصدر كان معنى كلامه أن الحركة ليست هي

الكلام المسموع، وهذا صحيح، ومن قال : اللفظ هو الملفوظ والقول هو نفس المقول . وأراد باللفظ والقول نفس المقول وأراد باللفظ والقول مسمى المصدر، صار حقيقة مراده أن اللفظ والقول هو الكلام المقول الملفوظ، وهذا صحيح.

فمن قال: اللفظ بالقرآن أو القراءة أو التلاوة مخلوقة أو لفظي بالقرآن أو تلاوتي . دخل في كلامه نفس الكلام المقروء المتلو، وذلك هو كلام الله تعالى، وإن أراد بذلك مجرد فعله وصوته كان المعنى صحيحاً ، لكن إطلاق اللفظ يتناول هذا وغيره ؛ ولهذ قال أحمد في بعض كلامه : من قال لفظي بالقرآن مخلوق يريد به القرآن فهو جهمي ، احترازاً عما إذا أراد به فعله وصوته .

وذكر اللالكائي : أن بعض من كان يقول ذلك رأى في منامه كان عليه فروة ورجل يضربه فقال له : لا تضربني فقال : إني لا أضربك وإنما أضرب الفروة ، فقال : إن الضرب إنما يقع ألمه عليّ . فقال : هكذا إذا قلت لفظي بالقرآن مخلوق وقع الخلق على القرآن .

ومن قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق أو تلاوتي دخل في ذلك المصدر الذي هو عمله ، وأفعال العباد مخلوقة ، ولو قال : أردت به أن القرآن المتلو غير مخلوق لا نفس حركاتي ، قيل : لفظك هذا بدعة وفيه إجمال وإيهام ، وإن كان مقصودك صحيحاً فلهذا منع أئمة السنة الكبار إطلاق هذا وهذا، وكان هذا وسطاً بين الطرفين .

وكان أحمد وغيره من الأئمة يقولون : القرآن حيث تصرف كلام الله غير مخلوق ، من غير أن يقرن بذلك ما يشعر أن أفعال العباد وصفاتهم غير مخلوقة.

وصارت كل طائفة من النفاة والمثبتة في مسألة التلاوة تحكي قولها عن أحمد ، وهم كما ذكر البخاري في كتاب خلق الأفعال ، وقال : إن كل واحدة من هاتين الطائفتين تذكر قولها عن أحمد ، وهم لا يفقهون قوله لدقة معناه .

ثم صار ذلك التفرق موروثاً في أتباع الطائفتين ، فصارت طائفة تقول : إن اللفظ بالقرآن غير مخلوق موافقة لأبي حاتم الرازي ، ومحمد بن داود المصيصي ، وأمثالهما؛ كأبي عبدالله بن منده وأهل بيته ، وأبي عبدالله بن حامد ، وأبي نصر السجزي ، وأبي إسماعيل الأنصاري ، وأبي يعقوب الفرات الهروي ، وغيرهم . وقوم يقولون نقيض هذا القول من غير دخول في مذهب ابن كلاب مع اتفاق الطائفتين على أن القرآن كله كلام الله لم يحدث غيره شيئاً منه ، ولا خلق منه شيئاً في غيره ، لا حروفه ولا معانيه ، مثل : حسين الكرابيسي ، وداود بن علي الأصبهاني ، وأمثالهما .

وحدث مع هذا من يقول بقول ابن كلاب : إن كلام الله معنى واحد قائم بنفس المتكلم هو الأمر بكل ما أمر به والنهي عن كل ما نهى عنه والإخبار بكل ما أخبر به ، وإنه إن عبر عنه بالعربية كان هو القرآن وإن عبر عنه بالعبرية كان هو التوراة .

وجمهور الناس من أهل السنة والمعتزلة وغيرهم أنكروا ذلك ، وقالوا : إن فساد هذا معلوم بصريح العقل ؛ فإن التوراة إذا عربت لم تكن هي القرآن ، ولا معنى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص ١] هو معنى ﴿تَبَّتْ﴾ [المسد ١] ، وكان يوافقهم على إطلاق القول بأن التلاوة غير المتلو وأنها مخلوقة من لا

يوافقهم على هذا المعنى ؛ بل قصده أن التلاوة أفعال العباد وأصواتهم ، وصار أقوام يطلقون القول بأن التلاوة غير المتلو ، وأن اللفظ بالقرآن مخلوق ؛ فمنهم من يعرف أنه موافق لابن كلاب ، ومنهم من يعرف مخالفته له ، ومنهم من لا يعرف منه لا هذا ولا هذا ، وصار أبو الحسن الأشعري ونحوه ممن يوافق ابن كلاب على قوله موافقاً للإمام أحمد وغيره من أئمة السنة في المنع من إطلاق هذا وهذا ؛ فيمنعون أن يقال : اللفظ بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق ، وهؤلاء منعوه من جهة كونه يقال في القرآن إنه بلفظ أو لا بلفظ ، وقالوا : اللفظ الطرح والرمي . ومثل هذا لا يقال في القرآن . ووافق هؤلاء على التعليل بهذا طائفة ممن لا يقول بقول ابن كلاب في الكلام ؛ كالقاضي أبي يعلى وأمثاله . ووقع بين أبي نعيم الأصبهاني وأبي عبدالله بن منده في ذلك ما هو معروف ، وصنف أبو نعيم في ذلك كتابه في الرد على اللفظية والحلولية ، ومال فيه إلى جانب النفاة القائلين بأن التلاوة مخلوقة ، كما مال ابن مندة إلى جانب من يقول : إنها غير مخلوقة . وحكى كل منهما عن الأئمة ما يدل على كثير من مقصوده لا على جميعه ؛ فما قصده كل منهما من الحق وجد فيه من المنقول الثابت عن الأئمة ما يوافقه .

وكذلك وقع بين أبي ذر الهروي وأبي نصر السجزي في ذلك حتى صنف أبو نصر السجزي كتابه الكبير في ذلك المعروف بالإبانة ، وذكر فيه من الفوائد والآثار والانتصار للسنة وأهلها أموراً عظيمة المنفعة ؛ لكنه نصر فيه قول من يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، وأنكر على ابن قتيبة وغيره ما ذكروه من التفصيل ، ورجح طريقة من هجر البخاري ، وزعم أن أحمد بن

حنبل كان يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، وإنه رجع إلى ذلك ، وأنكر ما نقله الناس عن أحمد من إنكاره على الطائفتين ، وهي مسألة أبي طالب المشهورة ، وليس الأمر كما ذكره ؛ فإن الإنكار على الطائفتين مستفيض عن أحمد عند أخص الناس به من أهل بيته وأصحابه الذين اعتنوا بجمع كلام أحمد ، كالمروذي، والخلال ، وأبي بكر عبدالعزيز ، وأبي عبد الله بن بطة ، وأمثالهم . وقد ذكروا من ذلك ما يعلم كل عارف له أنه من أثبت الأمور عن أحمد.

وهؤلاء العراقيون أعلم بأقوال أحمد من المنتسبين إلى السنة والحديث من أهل خراسان الذين كان ابن منده وأبو نصر وأبو إسماعيل الهروي وأمثالهم يسلكون حذوهم ؛ ولهذا صنف عبدالله بن عطاء الإبراهيمي كتاباً فيمن أخذ عن أحمد العالم ، فذكر طائفة ذكر منهم أبا بكر الخلال ؛ وظن أنه أبو محمد الخلال شيخ القاضي أبي يعلى وأبي بكر الخطيب فاشتبه عليه هذا بهذا ، وهذا كما أن العراقيين المنتسبين إلى أهل الإثبات من أتباع ابن كلاب ؛ كأبي العباس القلانسي، وأبي الحسن الأشعري، وأبي الحسن علي ابن مهدي الطبري ، والقاضي أبي بكر الباقلاني وأمثالهم أقرب إلى السنة وأتبع لأحمد بن حنبل وأمثاله من أهل خراسان المائلين إلى طريقة ابن كلاب؛ ولهذا كان القاضي أبو بكر بن الطيب يكتب في أجوبته أحياناً «محمد ابن الطيب الحنبلي» كما كان يقول الأشعري ؛ إذ كان الأشعري وأصحابه منتسبين إلى أحمد بن حنبل وأمثاله من أئمة السنة ، وكان الأشعري أقرب إلى مذهب أحمد بن حنبل وأهل السنة من كثير من المتأخرين المنتسبين إلى

أحمد الذين مالوا إلى بعض كلام المعتزلة؛ كابن عقيل، وصدقة بن الحسين، وابن الجوزي ، وأمثالهم .

وكان أبو ذر الهروي قد أخذ طريقة الباقلاني وأدخلها إلى الحرم ، ويقال : إنه أول من أدخلها إلى الحرم ، وعنه أخذ ذلك من أخذه من أهل المغرب ؛ فإنهم كانوا يسمعون عليه البخاري ، ويأخذون ذلك عنه كما أخذه أبو الوليد الباجي ، ثم رحل الباجي إلى العراق فأخذ طريقة الباقلاني عن أبي جعفر السمناني الحنفي قاضي الموصل صاحب الباقلاني .

ونحن قد بسطنا الكلام في هذه المسائل ، وبينًا ما حصل فيها من النزاع والاضطراب في غير هذا الموضع ا هـ .

فصل آخر

أو فتوى في مسألة الكلام لشيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في رجل قال : إن الله لم يكلِّم موسى تكليما ، وإنما خلق الكلام والصوت في الشجرة ، وموسى ـ عليه السلام ـ سمع من الشجرة لا من الله ، وإن الله عز وجل لم يكلِّم جبريل بالقرآن ، وإنما أخذه من اللوح المحفوظ ، فهل هو على الصواب أم لا ؟

فأجاب : الحمد لله ، ليس هذا على الصواب ، بل هذا ضال مفتر كاذب باتفاق سلف الأمة وأئمتها، بل هو كافر يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل،

وإذا قال لا أكذب بلفظ القرآن وهو قوله : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ بل أقرُّ بأن هذا اللفظ حق لكن أنفي معناه وحقيقته(١) .

فإن هؤلاء هم الجهمية الذين اتفق السلف والأئمة على أنهم من شر أهل الأهواء والبدع حتى أخرجهم كثير من الأئمة عن الثنتين والسبعين فرقة .

وأول من قال هذه المقالة في الإسلام كان يقال له : الجعد بن درهم فضحَّى به خالد بن عبدالله القسري يوم أضحى ، فإنه خطب الناس فقال في خطبته : ضحوا أيها الناس ، تقبل الله ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد ابن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً . ثم نزل فذبحه . وكان ذلك في زمن التابعين فشكروا ذلك ، وأخذ هذه المقالة عنه جهم بن صفوان ، وقتله بخراسان سلمة بن أحور ، وإليه نسبت هذه المقالة التي تسمى مقالة الجهمية ، وهي نفي صفات الله تعالى ، فإنهم يقولون : إن الله لا يُرى في الآخرة ولا يكلِّم عباده ، وإنه ليس له علم ولا حياة ولا قدرة ونحو ذلك من الصفات ، ويقولون : القرآن مخلوق .

ووافق الجهم على ذلك المعتزلة أصحاب عمرو بن عبيد وضمُّوا إليها بدعاً أخرى في القدر وغيره ، لكن المعتزلة يقولون : إن الله كلَّم موسى حقيقة وتكلم حقيقة ، لكن حقيقة ذلك عندهم أنه خلق كلاماً في غيره إما في شجرة، وإما في هواء ، وإما في غير ذلك ، من غير أن يقوم بذات الله عندهم كلام ولا علم ولا قدرة ولا رحمة ولا مشيئة ولا حياة ولا شيء من الصفات .

---

(١) أي هو كافر ؛ وإن قال : لا أكذب بلفظ القرآن . إلخ.

والجهمية تارة يبوحون بحقيقة القول ، فيقولون : إن الله لم يكلِّم موسى تكليما ولا يتكلم ، وتارة لا يظهرون هذا اللفظ لما فيه من الشناعة المخالفة لدين الإسلام واليهود والنصارى ، فيقرون باللفظ ولكن يقرنونه بأن خلق في غيره كلاما .

وأئمة الدين كلهم متفقون على ما جاء به الكتاب والسنّة ، واتفق عليه سلف الأمة من أن الله كلم موسى تكليما ، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة ، كما تواترت به الأحاديث عن النبي ﷺ ، وأن لله علما وقدرة ونحو ذلك .

ونصوص الأئمة في ذلك مشهورة متواترة؛ حتى إن أبا القاسم الطبري الحافظ لما ذكر في كتابه في شرح أصول السنّة مقالات السلف والأئمة في الأصول ذكر من قال : القرآن كلام الله غير مخلوق وقال : فهؤلاء خمسمائة وخمسون نفساً أو أكثر من التابعين والأئمة المرضيين سوى الصحابة ، على اختلاف الأعصار ومضي السنين والأعوام ، وفيهم نحو من مائة إمام ممن أخذ الناس بقولهم وتدينوا بمذاهبهم . ولو اشتغلت بنقل قول أهل الحديث لبلغت أسماؤهم ألوفاً ، لكني اختصرت فنقلت عن هؤلاء عصراً بعد عصر لا ينكر عليهم منكر، ومن أنكر قولهم استتابوه أو أمروا بقتله أو نفيه أو صلبه، قال : ولا خلاف بين الأمة أن أول من قال القرآن مخلوق جعد بن درهم في سني نيف وعشرين ومائة ، ثم جهم بن صفوان ، فأما جعد فقتله خالد بن عبدالله القسري ، وأما جهم فقتل بمرو في خلافة هشام بن عبدالملك .

وروى بإسناده عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ من وجهين أنهم قالوا له يوم صفين : حكمت رجلين ؟ فقال : ما حكمت مخلوقاً ، ما حكمت إلا القرآن ، وعن عكرمة قال : كان ابن عباس في جنازة فلما وضع الميت في لحده قام رجل وقال : اللهم ، رب القرآن ، اغفر له فوثب إليه ابن عباس فقال : مه ، القرآن منه . وعن عبدالله بن مسعود قال : من حلف بالقرآن فعليه بكل آية يمين . وهذا ثابت عن ابن مسعود ، وعن سفيان بن عيينة قال : سمعت عمرو بن دينار يقول : أدركت مشايخنا والناس منذ سبعين سنة يقولون : القرآن كلام الله ، منه بدأ وإليه يعود ، وفي لفظ يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق ، وقال حرب الكرماني (ثنا) إسحق بن إبراهيم ، يعني ابن راهوية ، عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال : أدركت الناس منذ سبعين سنة أدركت أصحاب النبي ﷺ فمن دونهم يقولون : الله الخالق وما سواه مخلوق إلا القرآن فإنه كلام الله ، منه خرج وإليه يعود .

وهذا قد رواه عن ابن عيينة إسحق ، وإسحق إما أن يكون سمعه منه أو من بعض أصحابه عنه ، وعن جعفر الصادق بن محمد ـ وهو مشهور عنه ـ أنهم سألوه عن القرآن أخالق هو أم مخلوق ؟ فقال : ليس بخالق ولا مخلوق ، ولكنه كلام الله .

وهكذا روي عن الحسن البصري وأيوب السختياني وسليمان التيمي وخلق من التابعين ، وعن مالك بن أنس والليث بن سعد وسفيان الثوري وابن أبي ليلى وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحق بن راهوية ، وأمثال هؤلاء من الأئمة ، وكلام هؤلاء الأئمة وأتباعهم في ذلك كثير مشهور ؛ بل

اشتهر عن أئمة السلف تكفير من قال : القرآن مخلوق . وإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل ، كما ذكروا ذلك عن مالك بن أنس وغيره ؛ ولذلك قال الشافعي لحفص الفرد ، وكان من أصحاب ضرار بن عمر ممن يقول : القرآن مخلوق ، فلما ناظر الشافعي وقال له : القرآن مخلوق ، قال له الشافعي : كفرت بالله العظيم ؛ ذكره ابن أبي حاتم في الرد على الجهمية ، قال : كان في كتابي عن الربيع بن سليمان قال : حضرت الشافعي أو حدثني أبو شعيب ؛ إلا أني أعلم حضر عبدالله بن عبدالحكم ويوسف بن عمرو بن يزيد فسأل حفص عبد الله قال : ما تقول في القرآن ؟ فأبى أن يجيبه ، فسأل يوسف بن عمرو فلم يجبه ، وكلاهما أشار إلى الشافعي ، فسأل الشافعي فاحتج عليه ، وطالت فيه المناظرة ؛ فقال الشافعي بالحجة بأن القرآن كلام الله غير مخلوق وكفر حفصا الفرد . قال الربيع فلقيت حفصا في المسجد بعد هذا فقال : أراد الشافعي قتلي .

وأما مالك بن أنس فنقل عنه من غير وجه الرد على من يقول : القرآن مخلوق . واستتابته ، وهذا المشهور عنه متفق عليه بين أصحابه . وأما أبو حنيفة وأصحابه فقد ذكر أبو جعفر الطحاوي في الاعتقاد الذي قال في أوله : (ذكر بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة) أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري وأبي عبدالله محمد بن الحسن الشيباني) قال فيه : «وإن القرآن كلام الله ، منه بدأ بلا كيفية قولا ، وأنزله على نبيه وحيا ، وصدّقه المؤمنون على ذلك حقا ، وأثبتوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ؛ ليس بمخلوق ككلام البرية ، فمن

سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر ، وقد ذمّه الله وعابه وأوعده عذابه وتوعده حيث قال : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المدثر ٢٦] فلما أوعد الله سقر لمن قال : ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المدثر ٢٥] علمنا أنه قول خالق البشر ، ولا يشبه قول البشر» .

وأما أحمد بن حنبل؛ فكلامه في مثل هذا مشهور متواتر ، وهو الذي اشتهر بمحنة هؤلاء الجهمية ، فإنهم أظهروا القول بإنكار صفات الله تعالى وحقائق أسمائه وأن القرآن مخلوق ، حتى صار حقيقة قولهم تعطيل الخالق سبحانه وتعالى ، ودعوا الناس إلى ذلك ، وعاقبوا من لم يجبهم ؛ إما بالقتل؛ وإما بقطع الرزق ؛ وإما بالعزل عن الولاية ؛ وإما بالحبس أو بالضرب ، وكفّروا من خالفهم ، فثبّت الله تعالى الإمام أحمد حتى أظهر الله به باطلهم ، ونصر أهل الإيمان والسنة عليهم ، وأذلهم بعد العز ، وأخملهم بعد الشهرة ، واشتهر عند خواص الأمة وعوامها أن القرآن كلام الله غير مخلوق وإطلاق القول بأن من قال : إنه مخلوق فقد كفر .

وأما إطلاق القول بأن الله لم يكلم موسى فهذه مناقضة لنص القرآن فهو أعظم من القول بأن القرآن مخلوق ، وهذا بلا ريب يستتاب فإن تاب وإلا قتل ، فإنه أنكر نص القرآن ، وبذلك أفتى الأئمة والسلف في مثله ، والذي يقول : القرآن مخلوق فهو في المعنى موافق له ؛ فلذلك كفره السلف .

قال البخاري في كتاب (خلق الأفعال) قال سفيان الثوري : من قال القرآن مخلوق فهو كافر ، قال وقال عبدالله بن المبارك : من قال : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا ﴾ [طه ١٤] مخلوق ، فهو كافر ، ولا ينبغي لمخلوق أن يقول ذلك ،

قال : وقال ابن المبارك : لا نقول كما قالت الجهمية : إنه في الأرض ههنا ، بل على العرش استوى ، وقيل له : كيف نعرف ربنا ؟ قال : فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه .

وقال : من قال «لا إله إلا الله» مخلوق فهو كافر ، وإنا نحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية . قال وقال علي بن عاصم : ما الذين قالوا إن لله ولداً أكفر من الذين قالوا إن الله لا يتكلم .

قال البخاري : وكان إسماعيل بن أبي إدريس يسميهم زنادقة العراق ، وقيل له : سمعت أحداً يقول القرآن مخلوق؟ فقال : هؤلاء الزنادقة . قال وقال أبو الوليد: سمعت يحيى بن سعيد ـ وذكر له أن قوما يقولون القرآن مخلوق ـ فقال : كيف يصنعون بـ (قل هو الله أحد) وكيف يصنعون بقوله : (إني أنا الله لا إله إلا أنا) ! قال : وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : نظرت في كلام اليهود والمجوس فما رأيت قوماً أضل في كفرهم منهم ، وإني لأستجهل من لا يكفرهم إلا من لا يعرف كفرهم . قال وقال سليمان بن داود الهاشمي : من قال القرآن مخلوق فهو كافر ، وإن كان القرآن مخلوقاً كما زعموا ، فلمَ صار فرعون أولى بأن يخلد في النار؛ إذ قال : (أنا ربكم الأعلى) ؟ وزعموا أن هذا مخلوق ، والذي قال : (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) هذا أيضاً قد ادعى ما ادعى فرعون ، فلمَ صار فرعون أولى أن يخلد في النار من هذا ؟ وكلاهما عنده مخلوق ؛ فأخبر بذلك أبو عبيد فاستحسنه وأعجبه .

ومعنى كلام هؤلاء السلف ـ رضي الله عنهم ـ أن من قال : إن كلام الله مخلوق خلقه في الشجرة أو غيرها ؛ كما قال هذا الجهمي المعتزلي المسؤول

عنه ، كان حقيقة قوله أن الشجرة هي التي قالت لموسى : (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) ، ومن قال هذا مخلوق قال ذلك ، فهذا المخلوق عنده كفرعون الذي قال : أنا ربكم الأعلى ، كلاهما مخلوق ، وكلاهما قال ذلك . فإن كان قول فرعون كفراً فقول هؤلاء أيضاً كفر ؛ ولا ريب أن قول هؤلاء يؤول إلى قول فرعون ، وإن كانوا لا يفهمون ذلك ، فإن فرعون كذَّب موسى فيما أخبر به : من أن ربه هو الأعلى ، وأنه كلّمه ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ [غافر ٣٦، ٣٧] ، وهو قد كذَّب موسى في أن الله كلّمه ، ولكن هؤلاء يقولون : إذا خلق كلاماً في غيره صار هو المتكلم به ، وذلك باطل وضلال من وجوه كثيرة :

(أحدها) أن الله سبحانه أنطق الأشياء كلها نطقاً معتاداً ونطقاً خارجاً عن المعتاد ، قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس ٦٥] وقال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [فصلت ٢٠، ٢١] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور ٢٤] وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ [ص ١٨] وقد ثبت أن الحصى كان يسبح في يد النبي ﷺ ، وأن الحجر كان يسلم عليه ، وأمثال ذلك من إنطاق الجمادات ؛ فلو كان إذا خلق كلاماً في غيره كان هو المتكلم به ، كان هذا كله كلام الله تعالى ، ويكون قد كلّم من سمع

هذا الكلام كما كلّم موسى بن عمران ، بل قد ثبت أن الله خالق أفعال العباد ؛ فكل ناطق فالله خالق نطقه وكلامه ؛ فلو كان متكلماً بماخلقه من الكلام لكان كل كلام في الوجود كلاماً حتى كلام إبليس والكفار وغيرهم ، وهذا تقوله غلاة الجهمية كابن عربي وأمثاله[1] يقولون :

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وهكذا أشباه هؤلاء من غلاة المشبهة الذين يقولون : إن كلام الآدميين غير مخلوق ؛ فإن كل واحد من الطائفتين يجعلون كلام المخلوق بمنزلة كلام الخالق فأولئك يجعلون الجميع مخلوقاً ، وإن الجميع كلام الله ، وهؤلاء يجعلون الجميع كلام الله وهو غير مخلوق ؛ ولهذا كان قد حصل اتصال بين شيخ الجهمية الحلولية وشيخ المشبهة الحلولية بسبب هذه البدع وأمثالها من المنكرات المخالفة لدين الإسلام سلط الله أعداء الدين[2] ؛ فإن الله يقول : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا

---

(١) يكثر شيخ الإسلام في هذا البحث من هذا الجمع أو التنظير بين الجهمية وابن عربي وأمثاله من القائلين بوحدة الوجود ، ولا يذكر فيه الفرق بينهما وهو أن الجهمية ينكرون صفات الخالق هرباً من تشبيهه بخلقه فجعلوه كالعدم، والاتحادية زعموا أنه لا موجود غيره فهو الخالق والمخلوق عيناً وصفة ، ومن ثم كان كل كلام في الوجود كلامه ؛ إذ لا وجود كغيره ، وشيخ الإسلام قد فصّل مذهبهم هذا ، وبيّن بطلانه في رسالة أخرى من هذا المجموع.

(٢) في الكلام نقص لعله : (حتى سلّط الله علماء السنة ففضحوا أعداء الدين) أو نحو هذا مما ينتظم به الكلام .

عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج ٤٠، ٤١] وأي معروف أعظم من الإيمان بالله وأسمائه وآياته ؟! وأي منكر أعظم من الإلحاد في أسماء الله وآياته ؟!

(الوجه الثاني) أن يقال لهؤلاء الضالين : ما خلقه الله في غيره من الكلام وسائر الصفات فإنما يعود حكمه على ذلك المحل لا على غيره ؛ فإذا خلق الله في بعض الأجسام حركة أو طعماً أو لوناً أو ريحاً كان ذلك الجسم هو المتحرك المتلون المتروح المطعوم ، وإذا خلق بمحل حياة أو علماً أو قدرة أو إرادة أو كلاماً؛ كان ذلك المحل هو الحي العالم القادر المريد المتكلم . فإذا خلق كلاماً في الشجرة أو في غيرها من الأجسام كان ذلك الجسم هو المتكلم بذلك الكلام ، كما لو خلق فيه إرادة أو حياة أو علماً ، ولا يكون الله هو المتكلم به ، كما إذا خلق فيه حياة أو قدرة أو سمعاً أو بصراً كان ذلك المحل هو الحي به والقادر به والسميع به والبصير به ، فكما أنه سبحانه لا يجوز أن يكون متصفاً بما خلقه من الصفات المشروطة بالحياة وغير المشروطة بالحياة ، فلا يكون هو المتحرك بما خلقه في غيره من الحركات ، ولا المصوت بما خلقه في غيره من الأصوات ، ولا سمعه ولا بصره وقدرته ما خلقه في غيره من السمع والبصر والقدرة ، فكذلك لا يكون كلامه ما خلقه في غيره من الكلام ، ولا يكون متكلماً بذلك الكلام .

(الوجه الثالث) أن الاسم المشتق من معنى لا يتحقق بدون ذلك المعنى ؛ فاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعال التفضيل يمتنع ثبوت معناها دون معنى المصدر التي هي مشتقة منه ، والناس متفقون على

أنه لا يكون متحرك ولا متكلم إلا بحركة وكلام ، فلا يكون مريد إلا بإرادة ، وكذلك لا يكون عالم إلا بعلم ولا قادر إلا بقدرة ونحو ذلك .

ثم هذه الأسماء المشتقة من المصدر إنما يسمى بها من قام به مسمى المصدر ، فإنما يسمى بالحي من قامت به الحياة ، وبالمتحرك من قامت به الحركة ، وبالعالم من قام به العلم ، وبالقادر من قامت به القدرة . فأما من لم يقم به مسمى المصدر فيمتنع أن يسمى باسم الفاعل ونحوه من الصفات ؛ وهذا معلوم بالاعتبار في جميع النظائر .

وذلك لأن اسم الفاعل ونحوه من المشتقات هو مركب يدل على الذات وعلى الصفة ، والمركب يمتنع تحققه بدون تحقق مفرداته ؛ وهذا كما أنه ثابت في الأسماء المشتقة ، فكذلك في الأفعال مثل تكلم وكلّم ويتكلم ، وعلم ويعلم ، وسمع ويسمع ، ورأى ويرى ، ونحو ذلك ، سواء قيل : إن الفعل المشتق من المصدر أو المصدر مشتق من الفعل ، لا نزاع بين الناس أن فاعل الفعل هو فاعل المصدر ؛ فإذا قيل كلّم أو علّم أو تكلّم أو تعلّم ففاعل التكليم والتعليم هو المكلِّم والمعلِّم . وكذلك التعلُّم والتكلُّم ، والفاعل هو الذي قام به المصدر الذي هو التكليم والتعليم والتكلّم والتعلّم ، فإذا قيل : تكلّم فلان أو كلّم فلان فلانا ففلان هو المتكلم والمكلم ، فقوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء ١٦٤] وقوله : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة ٢٥٣] وقوله : ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف ١٤٣] يقتضي أن الله هو المكلِّم ، فكما يمتنع أن يقال : هو متكلم بكلام قائم بغيره يمتنع أن يقال : كلم بكلام قائم بغيره .

فهذه ثلاثة أوجه[١] :

(أحدها) أنه يلزم الجهمية على قولهم أن يكون كل كلام خلقه الله كلاماً له ؛ إذ لا معنى لكون القرآن كلام الله إلا كونه خلقه ، وكل من فعل كلاماً ولو في غيره كان متكلماً به عندهم ، وليس للكلام عندهم مدلول يقوم بذات الرب تعالى لو كان مدلول قائماً يدل لكونه خلق صوتاً في محل ، والدليل يجب طرده فيجب أن يكون كل صوت يخلقه له كذلك ، وهم يجوزون أن يكون الصوت المخلوق على جميع الصفات ، فلا يبقى فرق بين الصوت الذي هو كلام الله تعالى على قولهم : والصوت الذي هو ليس بكلام .

(الثاني) أن الصفة إذا قامت بمحل كالعلم والقدرة والكلام والحركة ؛ عاد حكمه إلى ذلك المحل ، ولا يعود حكمه إلى غيره .

(الثالث) أنه مشتق ، المصدر منه ، واسم الفاعل ، والصفة المشبهة به ، ونحو ذلك ، ولا يشتق ذلك لغيره . وهذا كله بيِّن ظاهر ، وهو ما يبين قول السلف والأئمة : إن من قال إن الله خلق كلاماً في غيره لزمه أن يكون حكم التكلم عائداً إلى ذلك المحل لا إلى الله .

(الرابع) أن الله أكد تكليم موسى بالمصدر ؛ فقال (تكليما) . قال غير واحد من العلماء : التوكيد بالمصدر ينفي المجاز ؛ لئلا يظن أنه أرسل إليه رسولاً ، أو كتب إليه كتاباً ، بل كلمه منه إليه .

---

(١) قوله : (فهذه ثلاثة أوجه) ، يعني ما تقدم ، وقد لخصها فيما يأتي ، وزاد عليها وجهين آخرين كان ينبغي أن يصرح بزيادتهما.

(والخامس) أن الله فضل موسى بتكليمه إياه على غيره ممن لم يكلمه وقال : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ الآية . [الشورى ٥١] فكان تكليم موسى من وراء الحجاب ، وقال : ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي ﴾ [الأعراف ١٤٤] وقال : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ [النساء ١٦٣، ١٦٤] والوحي هو ما نزّله الله على قلوب الأنبياء بلا واسطة ، فلو كان تكليمه لموسى إنما هو صوت خلقه في الهواء ؛ لكان وحي الأنبياء أفضل منه ؛ لأن أولئك عرفوا المعنى المقصود بلا واسطة ، وموسى إنما عرفه بواسطة ؛ ولهذا كان غلاة الجهمية من الاتحادية ونحوهم يدعون أن ما يحصل لهم من الإلهام أفضل مما حصل لموسى بن عمران ، وهذا من أعظم الكفر باتفاق المسلمين .

ولما فهم السلف حقيقة مذهب هؤلاء وأنه يقتضي تعطيل الرسالة(١) فإن الرسل إنما بعثوا ليبلغوا كلام الله ، بل يقتضي تعطيل التوحيد ، فإن من لا يتكلم ولا يقوم به علم ولا حياة هو كالموات ، بل من لا تقوم به الصفات فهو عدم محض ؛ إذ ذات لا صفة لها إنما يمكن تقديرها في الذهن لا في الخارج كتقدير وجود مطلق لا يتعين ولا يتخصص .

فكان قول هؤلاء مضاهياً لقول المتفلسفة الدهرية الذي يجعلون وجود الرب وجوداً مطلقاً بشرط الإطلاق لا صفة له ؛ وقد علم أن المطلق بشرط

---

(١) سقط جواب لما ؛ وتقديره ما يناسب المقام نحو : (كفّروهم ، أو أنكروا عليهم).

الإطلاق لا يوجد إلا في الذهن ؛ وهؤلاء الدهرية ينكرون أيضاً حقيقة تكليمه لموسى ، ويقولون : إنما هو فيض فاض عليه من العقل الفعال ، وهكذا يقولون في الوحي إلى جميع الأنبياء . وحقيقة قولهم : إن القرآن قول البشر لكنه صدر عن نفس صافية شريفة ؛ وإذا كانت المعتزلة خيراً من هؤلاء وقد كفَّر السلف من يقول بقولهم فكيف هؤلاء ؟! .

وكلام السلف والأئمة في مثل هؤلاء لا يحصى ، قال حرب بن إسماعيل الكرماني : سمعت إسحاق بن راهوية يقول : بين أهل العلم اختلاف أن القرآن كلام الله وليس بمخلوق ، وكيف يكون شيء من الرب عز ذكره مخلوقاً ؟! ولو كان كما قالوا ؛ لزمهم أن يقولوا : علم الله وقدرته ومشيئته مخلوقة ، فإن قالوا ذلك؛ لزمهم أن يقولوا : كان الله تبارك اسمه ولا علم ولا قدرة ولا مشيئة ، وهو الكفر المحض الواضح ، لم يزل الله عالما متكلماً له المشيئة والقدرة في خلقه ، والقرآن كلام الله وليس بمخلوق ؛ فمن زعم أنه مخلوق فهو كافر .

وقال وكيع بن الجراح : من زعم أن القرآن مخلوق فقد زعم أن شيئاً من الله مخلوق ، فقيل له : من أين قلت هذا ؟ قال : لأن الله يقول : ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة ١٣] ولا يكون من الله شيء مخلوق ؛ وهذا القول قاله غير واحد من السلف .

وقال أحمد بن حنبل : كلام الله من الله ليس ببائن منه ، وهذا معنى قول السلف : القرآن كلام الله ؛ منه بدأ ، ومنه خرج ، وإليه يعود ؛ كما في الحديث الذي رواه أحمد وغيره عن جبير بن نفير قال قال رسول الله ﷺ :

«إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه» يعني القرآن ، وقد روى أيضاً عن أبي أمامة مرفوعاً ، وقال أبو بكر الصديق لأصحاب مسيلمة الكذاب ؛ لما سمع قرآن مسيلمة : « ويحكم ، أين يذهب بعقولكم ؟ إنَّ هذا كلاماً لم يخرج من إلٍ» أي من رب .

وليس معنى قول السلف والأئمة : « إنه منه خرج ومنه بدا » ، أنه فارق ذاته وحل بغيره ، فإن كلام المخلوق إذا تكلم به لا يفارق ذاته ويحل بغيره ؛ فكيف يكون كلام الله؟ قال تعالى : ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ۝﴾ [الكهف ٥] فقد أخبر أن الكلمة تخرج من أفواههم ، ومع هذا فلم تفارق ذاتهم .

وأيضاً فالصفة لا تفارق الموصوف وتحل بغيره ، لا صفة الخالق ولا صفة المخلوق ، والناس إذا سمعوا كلام النبي ﷺ ثم بلَّغوه عنه ، كان الكلام الذي بلّغوه كلام رسول الله ﷺ ، وقد بلَّغوه بحركاتهم وأصواتهم فالقرآن أولى بذلك ، فالكلام كلام الباري والصوت صوت القارئ ؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ [التوبة ٦] وقال ﷺ : « زيِّنوا القرآن بأصواتكم » .

ولكن مقصود السلف الرد على هؤلاء الجهمية ؛ فإنهم زعموا أن القرآن خلقه الله في غيره فيكون قد ابتدأ وخرج من ذلك المحل الذي خلق فيه لا من الله ، كما يقولون : كلامه لموسى خرج من الشجرة ، فبيَّن السلف والأئمة أن القرآن من الله بدأ وخرج ، وذكروا قوله : ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة ١٣] فأخبر أن القول منه لا من غيره من المخلوقات .

و «مِنْ» هي لابتداء الغاية ، فإن كان المجرور بها عيناً يقوم بنفسه لم يكن صفة لله ؛ كقوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية ١٣] وقوله في المسيح : ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء ١٧١] وكذلك ما يقوم بالأعيان كقوله : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل ٥٣] وأما إذا كان المجرور بها صفة ؛ ولم يذكر لها محل كان صفة لله كقوله : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ [السجدة ١٣] وكذلك قد أخبر في غير موضع من القرآن أن القرآن نزل منه ، وأنه نزل به جبريل منه رداً على هذا المبتدع المفتري وأمثاله ممن يقول : إنه لم ينزل منه ، قال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام ١١٤] وقال تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [النحل ١٠٢] وروح القدس هو جبريل ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء ١٩٣، ١٩٤] وقال : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة ٩٧] وقال هنا: ﴿ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾ [النحل ١٠٢] فبين أن جبريل نزله من الله لا من هواء ولا من لوح ولا غير ذلك ، وكذلك سائر آيات القرآن كقوله : ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ [الزمر ١] وقوله : ﴿ حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [غافر ١، ٢] وقوله : ﴿ حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [فصلت ١، ٢] وقوله : ﴿ الم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [السجدة ١، ٢] وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة ٦٧] .

فقد بين في غير موضع أنه منزل من الله ، فمن قال : إنه منزل من بعض المخلوقات ؛ كاللوح والهواء فهو مفترٍ على الله ؛ مكذب لكتاب الله ؛ متبع لغير سبيل المؤمنين ، ألا ترى أن الله فرق بين ما نزل منه وما نزله من بعض المخلوقات كالمطر ؛ بأن قال : ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [البقرة ٢٢] فذكر المطر في غير موضع ، وأخبر أنه نزله من السماء ، والقرآن أخبر أنه منزل منه ، وأخبر بتنزيل مطلق في مثل قوله : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد ٢٥] لأن الحديد ينزل من رؤوس الجبال لا ينزل من السماء ، وكذلك الحيوان فإن الذكر ينزل الماء في الإناث ، فلم يقل فيه من السماء ، ولو كان جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ لكان اليهود أكرم على الله من أمة محمد ؛ لأنه قد ثبت بالنقل الصحيح أن الله كتب لموسى التوراة بيده وأنزلها مكتوبة [1] فيكون بنو إسرائيل قد قرأوا الألواح التي كتبها الله ، وأما المسلمون فأخذوه عن محمد ﷺ ، ومحمد أخذه عن جبريل ، وجبريل عن اللوح ، فيكون بنو إسرائيل بمنزلة جبريل ، وتكون منزلة بني إسرائيل أرفع من منزلة محمد ﷺ على قول هؤلاء الجهمية ، والله سبحانه جعل من فضائل أمة محمد ﷺ أنه أنزل عليهم كتاباً لا يغسله الماء ، وأنه أنزله عليهم تلاوة لا كتابة ، وفرقه عليهم لأجل ذلك ، فقال : ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء ١٠٦] وقال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢] .

(١) المراد بالتوراة هنا أصول الشرع في الوصايا التي في الألواح ؛ لا كل أحكام الشريعة من عبادات واحتفالات وعقوبات وغيرها ؛ فإن هذه شرعت بالتدريج ، وهذا مجمع عليه عند اليهود .

ثم إن كان جبريل لم يسمعه من الله ، وإنما وجده مكتوبا ، كانت العبارة عبارة جبريل ، وكان القرآن كلام جبريل ، ترجم به عن الله كما يترجم عن الأخرس الذي كتب كلاماً ولم يقدر أن يتكلم به ، وهذا خلاف دين المسلمين .

وإن احتج محتج بقوله : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير ١٩، ٢٠] قيل له : فقد قال في الآية الأخرى : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة ٤٠ - ٤٢] فالرسول في هذه الآية محمد ﷺ ، والرسول في الأخرى جبريل ، فلو أريد به أن الرسول أحدث عبارته لتناقض الخبران ، فعلم أنه أضافه إليه إضافة تبليغ لا إضافة إحداث ؛ ولهذا قال : ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ [الحاقة ٤٠] ولم يقل ملك ولا نبي ، ولا ريب أن الرسول بلَّغه كما قال : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة ٦٧] فكان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموسم ويقول : «ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي» ولما أنزل الله ﴿الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾﴾ [الروم ١، ٢] خرج أبو بكر الصديق فقرأها على الناس فقالوا : هذا كلامك أم كلام صاحبك؟ فقال : ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ، ولكنه كلام الله .

وإن احتج بقوله : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء ٢] قيل له : هذه الآية حجة عليك ، فإنه لما قال : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء ٢] علم أن الذكر منه محدث ، ومنه ما ليس بمحدث ؛ لأن النكرة إذا وصفت ميز بها بين الموصوف وغيره ، كما لو قال : ما يأتيني

من رجل مسلم إلا أكرمته ، وما آكل إلا طعاماً حلالاً ونحو ذلك . ويعلم أن المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي ، ولكنه الذي أنزل جديداً ؛ فإن الله كان ينزل القرآن شيئاً بعد شيء ، فالمنزل أولاً هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخراً ؛ وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب ، كما قال : ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس ٣٩] وقال : ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف ٩٥] وقال : ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف ١١] وقال : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء ٧٥، ٧٦] وكذلك قوله : ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف ٣] أي صيرناه عربياً لأنه قد كان قادراً على أن ينزله عجمياً ، فلما أنزله عربياً كان قد جعله عربياً دون عجمي ، وهذه المسألة في أصول أهل الإيمان والسنة التي فارقوا بها الجهمية من المعتزلة والفلاسفة ونحوهم ، والكلام عليها مبسوط في غير هذا الموضع . والله أعلم .

فتــــوى أخـــرى

{ لشيخ الإسلام في تكليم الله لموسى عليه السلام }

(وهل هو بحرف وصوت أم لا؟ ومن أنكره)

{مسألة} فيمن قال : إن الله لم يكلِّم موسى تكليما ، فقال له آخر : بل كلَّمه تكليما ، فقال : إن قلت : كلَّمه فالكلام لا يكون إلا بحرف وصوت ، والحرف والصوت محدث ، ومن قال : إن الله كلم موسى بحرف وصوت فهو كافر ، فهو كما قال أولا ؟

(الجواب) الحمد لله: أما من قال : إن الله لم يكلم موسى تكليماً ؛ فهذا إن كان لم يسمع القرآن فإنه يعرف أن هذا نص القرآن ، فإن أنكره بعد ذلك استتيب ؛ فإن تاب وإلا قتل ، ولا يقبل منه إن كان كلامه بعد[1] أن يجحد نص القرآن ، بل لو قال : إن معنى كلامي أنه خلق صوتاً في الهواء فأسمعه موسى؛ كان كلامه أيضاً كفراً، وهو قول الجهمية الذين كفَّرهم السلف قالوا: يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا ، لكن من كان مؤمناً بالله ورسوله مطلقاً ، ولم يبلغه من العلم ما يبين له الصواب؛ فإنه لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي من خالفها كفر ؛ إذ كثير من الناس يخطىء فيما يتأوله من القرآن ويجهل كثيراً مما يرد من معاني الكتاب والسنة ، والخطأ والنسيان مرفوعان عن هذه الأمة ، والكفر لا يكون إلا بعد البيان .

والأئمة الذين أمروا بقتل مثل هؤلاء الذين ينكرون رؤية الله في الآخرة ، ويقولون : القرآن مخلوق ونحو ذلك، قيل : إنهم أمروا بقتلهم لكفرهم، وقيل: لأنهم إذا دعوا الناس إلى بدعتهم أضلوا الناس ؛ فقتلوا لأجل الفساد في الأرض ، وحفظاً لدين الناس أن يضلوهم .

وبالجملة فقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن الجهمية من شر طوائف أهل البدع ، حتى أخرجهم كثير عن الثنتين والسبعين فرقة .

ومن الجهمية المتفلسفة والمعتزلة الذين يقولون : إن كلام الله مخلوق ، وإن الله إنما كلّم موسى بكلام مخلوق خلقه في الهواء ، وإنه لا يرى في الآخرة ، وإنه ليس مباينا لخلقه ، وأمثال هذه المقالات التي تستلزم تعطيل الخالق ، وتكذيب رسله ، وإبطال دينه .

---

(١) كذا ، ولعله : (وإن كان كلامه من غير أن) .

وأما قول الجهمي : إن قلت كلمة فالكلام لا يكون إلا بحرف وصوت ، والحرف والصوت محدث ، ومن قال : إن الله كلم موسى بحرف وصوت فهو كافر ؛ فيقال لهذا الملحد : أنت تقول : إنه كلمه بحرف وصوت ، لكن تقول بحرف وصوت خلقه في الهواء وتقول : إنه لا يجوز أن تقوم به الحروف والأصوات ؛ لأنها لا تقوم الا بمتحيز ، والباري ليس بمتحيز ، ومن قال : إنه متحيز فقد كفر ؛ ومن المعلوم أن من جحد ما نطق به الكتاب والسنة كان أولى بالكفر ممن أقر بما جاء به الكتاب والسنة .

وإن قال الجاحد لنص الكتاب والسنة : إن العقل معه قال له الموافق للنصوص : بل العقل معي وهو موافق للكتاب والسنة ، فهذا يقول : إن معه السمع والعقل ، وذاك إنما يحتج لقوله بما يدعيه من العقل الذي يبين منازعه فساده ، ولو قدر أن العقل معه والكفر هو من الأحكام الشرعية ، وليس كل من خالف شيئاً علم بنظر العقل يكون كافراً ، ولو قدر أنه جحد بعض صرائح العقول لم يحكم بكفره حتى يكون قوله كفراً في الشريعة .

وأما من خالف ما علم أن الرسول جاء به فهو كافر بلا نزاع ؛ وذلك أنه ليس في الكتاب والسنة ولا في قول أحد من سلف الأمة وأئمتها الإخبار عن الله بأنه متحيز أو أنه ليس بمتحيز ، ولا في الكتاب والسنة أن من قال هذا وهذا يكفر ؛ وهذا اللفظ مبتدع ، والكفر لا يتعلق بمجرد أسماء مبتدعة لا أصل لها في الكتاب والسنة ، بل يستفسر هذا القائل إذا قال : إنّ الله متحيز أو ليس بمتحيز ؛ فإن قال : أعني بقولي إنه متحيز : أنه دخل في

المخلوقات ، وأن المخلوقات قد حازته وأحاطت به فهذا باطل ؛ وإن قال : أعني به أنه محاز عن المخلوقات مباين لها ؛ فهذا حق .

وكذلك قوله : ليس بمتحيز ؛ إن أراد به أن المخلوق لا يحوز الخالق فقد أصاب ، وإن قال : إن الخالق لا يباين المخلوق وينفصل عنه فقد أخطأ .

وإذا عرف ذلك فالناس في الجواب عن حجته الداحضة ، وهي قوله : «لو قلت : إنه كلَّمه فالكلام لا يكون إلا بحرف وصوت ، والحرف والصوت محدث» ثلاثة أصناف : صنف منعوه المقدمة الأولى ، وصنف منعوه المقدمة الثانية، وصنف لم يمنعوه المقدمتين ؛ بل استفسروه ، وبينوا أن ذلك لا يمنع أن يكون الله كلَّم موسى تكليما .

فالصنف الأول أبو محمد عبدالله بن سعيد بن كلاب ، وأبو الحسن علي ابن إسماعيل الأشعري ، ومن اتبعهما قالوا : لا نسلم أن الكلام لا يكون إلا بحرف وصوت بل الكلام معنى قائم بذات المتكلم ، والحروف والأصوات عبارة عنه ، وذلك المعنى القائم بذات الله تعالى يتضمن الأمر بكل ما أمر به والخبر عن كل ما أخبر عنه ، فإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً ، وقالوا : إنه اسم الكلام حقيقة ، فيكون اسم الكلام مشتركاً أو مجازاً في كلام الخالق ، وحقيقة في كلام المخلوق .

والصنف الثاني سلموا لهم أن الكلام لا يكون إلا بحرف وصوت ، ومنعوهم المقدمة الثانية ، وهو أن الحرف والصوت لا يكون إلا محدثاً ، وصنف[1] قالوا : إن المحدث كالحادث سواء كان قائماً بنفسه أو بغيره ، وهو

(١) أي وصنف آخر من هذا الصنف الثاني؛ ولذلك تكرر؛ وإلا صارت الأصناف أربعة.

يتكلم بكلام لا يكون قديماً وهو بحرف وصوت ، وهذا قول من يقول : القرآن قديم وهو بحرف وصوت؛ كأبي الحسن بن سالم وأتباعه السالمية وطوائف ممن اتبعه ، وقال هؤلاء في الحرف والصوت نظير ما قاله الذين قبلهم في المعاني .

وقالوا : كلام لا بحرف ولا صوت لا يعقل ، ومعنى يكون أمراً ونهياً وخبراً ممتنع في صريح العقل ، ومن ادَّعى أن معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحد ، وإنما اختلفت العبارات الدالة عليه -فقوله معلوم الفساد بالاضطرار عقلاً وشرعاً ، وإخراج الحروف عن مسمى الكلام مما يعلم فساده بالاضطرار من جميع اللغات ؛ وإن جاز أن يقال : إن الحروف والأصوات المخلوقة في غير كلام الله حقيقة أمكن حينئذ أن يكون كلم موسى بكلام مخلوق في غيره .

وقالوا لإخوانهم الأولين : إذا قلتم : إن الكلام هو مجرد المعنى وقد خلق عبارة بيان(١) ؛ فإن قدم أن تلك العبارة كلامه حقيقة بطلت حجتكم على المعتزلة ، فإن أعظم حجتكم عليهم قولكم : إنه يمتنع أن يكون متكلماً بكلام يخلقه في غيره ، كما يمتنع أن يعلم بعلم قائم بغيره ، وأن يقدر بقدرة قائمة بغيره ، وأن يريد بإرادة قائمة بغيره ، وإن قلتم : هي كلام مجازاً لزم أن يكون الكلام حقيقة في المعنى مجازاً في اللفظ ، وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار من جميع اللغات .

والصنف الثالث : الذين لم يمنعوا المقدمتين ، ولكن استفسروهم ، وبينوا أن هذا لا يستلزم صحة قولكم، بل قالوا: إن قلتم إن الحرف والصوت

---

(١) هكذا في الأصل ، ولعله محرف .

محدث بمعنى أنه يجب أن يكون مخلوقاً منه منفصلاً عنه ؛ فهذا دليل على فساد قولكم وتناقضه ، وهذا قول ممنوع ، وإن قلتم بمعنى أنه لا يكون قديماً فهو مسلم لكن هذه التسمية محدثة .

وهؤلاء صنفان : صنف قالوا : إن المحدث هو المخلوق المنفصل عنه فإذا قلنا: الحرف والصوت لا يكون إلا محدثاً كان بمنزلة قولنا: لا يكون إلا مخلوقاً ، وحينئذ فيكون هذا المعتزلي أبطل قوله بقوله حيث زعم أنه يتكلم بحرف وصوت مخلوق ، ثم استدل على ذلك بما يقتضي أنه يتكلم لا يتكلم بكلام مخلوق وفيه تلبيس .

ونحن لا نقول : كلم موسى بكلام قديم ولا بكلام مخلوق ، بل هو سبحانه يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء ، كما أنه سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، وأنه سبحانه استوى إلى السماء وهي دخان ، وأنه سبحانه يأتي في ظلل من الغمام والملائكة ، كما قال : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر ٢٢] وقال : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام ١٥٨] وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس ٨٢] وقال تعالى : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة ١٠٥] وأمثال ذلك في القرآن والحديث كثير ، يبين الله سبحانه أنه إذا شاء فعل ما أخبر عنه من تكليمه وأفعاله القائمة بنفسه ، وما كان قائماً بنفسه هو كلامه لا كلام غيره ؛ والمخلوق لا يكون قائماً بالخالق ، ولا يكون الرب محلاً للمخلوقات ، بل هو سبحانه يقوم به ما شاء من كلماته وأفعاله ، وليس من

ذلك شيء مخلوقاً ، إنما المخلوق ما كان بائنا عنه ، وكلام الله من الله ليس ببائن منه ؛ ولهذا قال السلف : القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود ، فقالوا : منه بدأ، أي هو المتكلم به ، لا أنه خلقه في بعض الأجسام المخلوقة .

وهذا الجواب هو جواب أئمة أهل الحديث والتصوف والفقه وطوائف من أهل الكلام من أئمتهم ، من الهشامية والكرامية وغيرهم وأتباع الأئمة الأربعة أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ، منهم من يختار جواب الصنف الأول ، وهم الذين يرتضون قول ابن كلاب في القرآن ، وهم طوائف من متأخري أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة ، ومنهم من يختار جواب الصنف الثاني ، وهم الطوائف الذين ينكرون قول ابن كلاب ويقولون : إن القرآن قديم ؛ كالسالمية ، وطوائف من أصحاب مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وأبي حنيفة ، ومنهم من يختار جواب الطائفة الثالثة ، وهم الذين ينكرون قول الطائفتين المتقدمتين الكلابية والسالمية .

ثم من هؤلاء من يقول بقول الكرامية ، والكرامية ينتسبون إلى أبي حنيفة، ومنهم من لا يختار قول الكرامية أيضاً لما فيه من تناقض آخر، بل يقول بقول أئمة الحديث؛ كالبخاري ، وعثمان بن سعيد الدارمي، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ، ومن قبلهم من السلف ؛ كأبي بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام، ومحمد بن كعب القرظي، والزهري، وعبد الله بن المبارك ، وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ، وما نقل من ذلك عن الصحابة والتابعين، وفي ذلك آثار كثيرة معروفة في كتب السنن ، والآثار تضيق عنها هذه الورقة .

وبين الأصناف الثلاثة منازعات ودقائق تضيق عنها هذه الورقة ، وقد بسطنا الكلام عليها في مواضع ، وبيَّنا حقيقة كل قول ، وما هو القول الصواب في صريح المعقول وصحيح المنقول[1] لكن هؤلاء الطوائف كلهم متفقون على تضليل من يقول : إن كلام الله مخلوق . والأمة متفقة على أن من قال : إن كلام الله مخلوق لم يكلم موسى تكليما يستتاب ؛ فإن تاب وإلا قتل.

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيرا.

فتـــوى أخـــرى

لشيخ الإسلام - رحمه الله - في القرآن هل هو بحرف وصوت أم لا ؟

وفي نقط المصحف وشكله ، هل هما منه أم لا ؟

سئل رحمه الله تعالى : عن رجلين تباحثا ، فقال أحدهما : القرآن حرف وصوت ، وقال الآخر : ليس هو بحرف ولا صوت ، وقال أحدهما : النقط التي في المصحف والشكل من القرآن ، وقال الآخر : ليس ذلك من القرآن ، فما الصواب في ذلك ؟

(فأجاب رضي الله عنه) الحمد لله رب العالمين . هذه المسألة يتنازع فيها كثير من الناس ويخلطون الحق بالباطل ، فالذي قال : إن القرآن حرف وصوت إن أراد بذلك أن هذا القرآن الذي يقرأ للمسلمين هو كلام الله الذي نزل به الروح الأمين على محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين ، وأن جبريل سمعه من الله ، والنبي ﷺ سمعه من جبريل ، والمسلمون سمعوه من النبي

(١) قد تقدم كل هذا في مواضع من هذه المجموعة.

ﷺ كما قال تعالى : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ وقال : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ﴾ فقد أصاب في ذلك ؛ فإن هذا مذهب سلف الأمة وأئمتها ، والدلائل على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة والإجماع .

ومن قال : إن القرآن العربي لم يتكلم الله به ، وإنما هو كلام جبريل أو غيره عبر به عن المعنى القائم بذات الله ، كما يقول ذلك ابن كلاب والأشعري ومن وافقهما ؛ فهو قول باطل من وجوه كثيرة .

فإن هؤلاء يقولون : إنه معنى واحد قائم بالذات ، وإن معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحد ، وإنه لا يتعدد ولا يتبعض ، وإنه إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وبالعبرانية كان توراة ، وبالسريانية كان إنجيلاً ، فيجعلون معنى آية الكرسي وآية الدين و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص ١] و ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)﴾ [المسد ١] والتوراة والإنجيل وغيرهما معنى واحداً ، وهذا قول فاسد بالعقل والمشاهدة ، وهو قول أحدثه ابن كلاب لم يسبقه إليه غيره من السلف .

وإن أراد القائل بالحرف والصوت أن الأصوات المسموعة من القراء ، والمداد الذي في المصاحف قديم أزلي ؛ أخطأ وابتدع ، وقال ما يخالف العقل والشرع ، فإن النبي ﷺ قال : «زينوا القرآن بأصواتكم» فبين أن الصوت صوت القارئ ، والكلام كلام الباري ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة ٦] فالقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله لا كلام غيره كما ذكر الله ذلك ، وفي السنن عن جابر بن

عبدالله أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول : «ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ؛ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي» وقالوا لأبي بكر الصديق لما قرأ عليهم : ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢﴾ [الروم ١، ٢] أهذا كلامك أم كلام صاحبك ؟ فقال : ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ولكنه كلام الله تعالى.

والناس إذا بلّغوا كلام النبي ﷺ كقوله : «إنما الأعمال بالنيات» إن الحديث الذي يسمعونه حديث النبي ﷺ تكلم به بصوته وبحروفه ومعانيه ، والمحدث بلغه عنه بصوت نفسه لا بصوت النبي ﷺ ، فالقرآن أولى أن يكون كلام الله إذا بلغته الرسل عنه ، وقرأته الناس بأصواتهم .

والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه بصوت نفسه ، ونادى موسى بصوت نفسه ، كما ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف ، وصوت العبد ليس هو صوت الرب ولا مثل صوته ؛ فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

وقد نص أئمة الإسلام أحمد ومن قبله من الأئمة على ما نطق به الكتاب والسنة من أن الله ينادي بصوت ، وأن القرآن كلامه تكلم بحرف وصوت ليس منه شيء كلاماً لغيره ، لا جبريل ولا غيره ، وأن العباد يقرؤونه بأصوات أنفسهم وأفعالهم ، فالصوت المسموع من العبد صوت القارئ ، والكلام كلام البارئ .

وكثير من الخائضين في هذه المسألة لا يميز بين صوت العبد وصوت الرب ، بل يجعل هذا هو هذا ، فينفيهما جميعاً أو يثبتهما جميعاً ، فإذا نفى الحرف والصوت نفى أن يكون القرآن العربي كلام الله ، وأن يكون منادياً

لعباده بصوته ، وأن يكون القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله كما نفى أن يكون صوت العبد صفة لله عز وجل ، ثم جعل كلام الله المتنوع شيئاً واحداً لا فرق بين القديم والحادث ، وهو مصيب في هذا الفرق دون ذاك الثاني الذي فيه نوع من الإلحاد والتعطيل ، حيث جعل الكلام المتنوع شيئاً واحداً لا حقيقة له عند التحقيق .

وإذا ثبت جعل صوت الرب هو صوت العبد أو سكت عن التمييز بينهما مع قوله : إن الحروف متعاقبة في الوجود مقترنة في الذات قديمة أزلية الأعيان ؛ فجعل عين صفة الرب تحل في العبد أو يتحد بصفته ؛ فقال بنوع من الحلول والاتحاد يفضي إلى نوع من التعطيل .

وقد علم أن عدم الفرق والمباينة بين الخالق وصفاته والمخلوق وصفاته خطأ وضلال ؛ لم يذهب إليه أحدٌ من سلف الأمة وأئمتها ، بل هم متفقون على التمييز بين صوت الرب وصوت العبد ، ومتفقون على أن الله تكلم بالقرآن الذي أنزله على نبيه ﷺ حروفه ومعانيه، وأنه ينادي عباده بصوته، ومتفقون على أن الأصوات المسموعة من القراء أصوات العباد ، وعلى أنه ليس شيء من أصوات العباد ولا مداد المصاحف قديماً ، بل القرآن مكتوب في مصاحف المسلمين مقروء بألسنتهم محفوظ بقلوبهم ؛ وهو كله كلام الله ؛ والصحابة كتبوا المصاحف لما كتبوها بغير شكل ولا نقط ؛ لأنهم كانوا عرباً لا يلحنون ، ثم لما حدث اللحن نقط الناس المصاحف وشكلوها ، فإن كتبت بلا شكل ولا نقط جاز، وإن كتبت بنقط وشكل جاز ولم يكره في أظهر قولي العلماء؛ وهو إحدى الروايتين عن أحمد، وحكم النقط والشكل حكم الحروف،

فإن الشكل يبين إعراب القرآن كما يبين النقط الحروف ، والمداد الذي يكتب به الحروف ويكتب به الشكل والنقط مخلوق ، وكلام الله العربي الذي أنزله وكتب في المصاحف بالشكل والنقط وبغير شكل ونقط ليس بمخلوق ، وحكم الإعراب حكم الحروف ، لكن الإعراب لا يستقل بنفسه بل هو تابع للحروف المرسومة ؛ فلهذا لا يحتاج لتجريدهما وإفرادهما بالكلام ، بل القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله معانيه وحروفه وإعرابه ، والله تكلم بالقرآن العربي الذي أنزله على محمد ﷺ والناس يقرؤونه بأفعالهم وأصواتهم ؛ والمكتوب في مصاحف المسلمين هو كلام الله ، وهو القرآن العربي الذي أُنزل على نبيه سواء كتب بشكل ونقط ؛ أو بغير شكل ونقط ، والمداد الذي كتب به القرآن ليس بقديم بل هو مخلوق ، والقرآن الذي كتب في المصحف بالمداد هو كلام الله منزل غير مخلوق ، والمصاحف يجب احترامها باتفاق المسلمين لأن كلام الله مكتوب فيها ، واحترام النقط والشكل إذا كتب المصحف مشكلاً منقوطاً كاحترام الحروف باتفاق علماء المسلمين ، كما أن حرمة إعراب القرآن كحرمة حروفه المنقوطة باتفاق المسلمين ؛ ولهذا قال أبو بكر وعمر : حفظ إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه .

والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه ؛ فجميعه كلام الله فلا يقال : بعضه كلام الله وبعضه ليس بكلام الله ، وهو سبحانه نادى موسى بصوت سمعه موسى ، فإنه قد أخبر أنه نادى موسى في غير موضع من القرآن ؛ كما قال تعالى : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ [النازعات ١٥، ١٦] والنداء لا يكون إلا صوتاً باتفاق أهل اللغة ، وقد قال تعالى :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) ﴾ [النساء ١٦٣، ١٦٤] فقد فرق الله بين إيحائه إلى النبيين وبين تكليمه لموسى ، فمن قال : إن موسى لم يسمع صوتاً بل ألهم معناه ، لم يفرق بين موسى وغيره ، وقد قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة ٢٥٣] وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ [الشورى ٥١] فقد فرق بين الإيحاء والتكلم من وراء حجاب كما كلم الله موسى ، فمن سوَّى بين هذا وهذا كان ضالاً .

وقد قال الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ وغيره : لم يزل الله متكلماً إذا شاء ، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته ، يتكلم بشيء بعد شيء ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) ﴾ [طه ١١] فناداه حين أتاها ولم يناده قبل ذلك ، وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) ﴾ [الأعراف ٢٢] فهو سبحانه ناداهما حين أكلا منها ولم ينادهما قبل ذلك ، وكذلك قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ [الأعراف ١١] بعد أن خلق آدم وصوَّره ولم يأمرهم قبل ذلك ، وكذا قوله : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) ﴾ [آل عمران ٥٩] فأخبر أنه قال له : كن فيكون

بعد أن خلقه من تراب ، ومثل هذا الخبر في القرآن كثير يخبر أنه تكلم في وقت معين ، ونادى في وقت معين ؛ وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه لما خرج إلى الصفا قرأ قوله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة ١٥٨] وقال : «نبدأ بما بدأ الله به» فأخبر أن الله بدأ بالصفا قبل المروة .

والسلف اتفقوا على: أن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود؛ فظن بعض الناس أن مرادهم أنه قديم العين ، ثم قالت طائفة : هو معنى واحد وهو الأمر بكل مأمور ، والنهي عن كل منهي ، والخبر بكل مخبر ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة ، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً ، وهذا القول مخالف للشرع والعقل .

وقالت طائفة : هو حروف وأصوات قديمة الأعيان لازمة لذات الله لم تزل لازمة لذاته ، وأن الباء والسين والميم موجودة مقترنة بعضها ببعض معاً أزلاً وأبداً ، لم تزل ولا تزال لم يسبق منها شيء شيئاً ؛ وهذا أيضاً مخالف للشرع والعقل .

وقالت طائفة : إن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته : وإنه في الأزل كان متكلماً بالنداء الذي سمعه موسى ، وإنما تجدد استماع موسى لا أنه ناداه حين أتى الوادي المقدس ، بل ناداه قبل ذلك بما لا يتناهى ولكن تلك الساعة سمع النداء ؛ وهؤلاء وافقوا الذين قالوا: إن القرآن مخلوق في أصل قولهم ؛ فإن أصل قولهم أن الرب لا تقوم به الأمور الاختيارية فلا يقوم به كلامه ولا فعل باختياره ومشيئته ، وقالوا : هذه حوادث والرب لا تقوم به الحوادث ؛ فخالفوا صحيح المنقول وصريح المعقول ، واعتقدوا أنهم بهذا يردُّون على

الفلاسفة ويثبتون حدوث العالم ، وأخطأوا في ذلك ، فلا للإسلام نصروا ، ولا للفلاسفة كسروا ، وادعوا أن الرب لم يكن قادراً في الأزل على كلام يتكلم به ولا فعل يفعله ، وأنه صار قادراً بعد أن لم يكن قادراً بغير أمر حدث ، أو يغيِّرون العبارة فيقولون : لم يزل قادراً ، لكن يقولون : إن المقدور كان ممتنعاً ، وإن الفعل صار ممكنا له بعد أن صار ممتنعاً عليه من غير تجدد شيء ، وقد يعبرون عن ذلك بأن يقولوا : كان قادراً في الأزل على ما يمكن فيما لا يزال ، لا على ما لا يمكن في الأزل ، فيجمعون بين النقيضين ، حيث يثبتونه قادراً في حال كون المقدور عليه ممتنعاً عندهم ؛ ولم يفرقوا بين نوع الكلام والفعل وبين عينه كما لم يفرق الفلاسفة بين هذا وهذا ، بل الفلاسفة ادعوا أن مفعوله المعين قديم بقدمه ، فضلوا في ذلك وخالفوا صريح المعقول وصحيح المنقول ؛ فإن الأدلة لا تدل على قدم شيء بعينه من العالم ، بل تدل على أن ما سوى الله مخلوق حادث بعد أن لم يكن ، إذ هو فاعل بقدرته ومشيئته كما تدل على ذلك الدلائل القطعية ، والفاعل بمشيئته لا يكون شيء من مفعوله لازماً بصريح العقل واتفاق عامة العقلاء ، بل وكل فاعل لا يكون شيء من مفعوله لازماً لذاته ، ولا يتصور مقارنة مفعوله المعين له ، ولو قدر أنه فاعل بغير إرادة فكيف الفاعل بالإرادة !

وما يذكر بأن المعلول يقارن علته إنما يصح فيما كان من العلل يجري مجرى الشروط ؛ فإن الشرط لا يجب أن يتقدم على المشروط ، بل قد يقارنه كما تقارن الحياة العلم ، وأما ما كان فاعلاً سواء سمي علة أو لم يسمَّ علة فلا بد أن يتقدم على الفعل المعين ، والفعل المعين لا يجوز أن يقارنه شيء من

مفعولاته ، ولا يعرف العقلاء فاعلاً قط يلتزمه مفعول معين ، وقول القائل : حركت يدي فتحرك الخاتم هو من باب الشروط لا من باب الفاعلين(١) ولأنه لو كان العالم قديماً لكان فاعله موجباً بذاته في الأزل ، ولم يتأخر عنه موجبه ومقتضاه، ولو كان كذلك لم يحدث شيء من الحوادث، وهذا خلاف المشاهدة، وإن كان هو سبحانه لم يزل قادراً على الكلام والفعل(١) بل لم يزل متكلماً إذا شاء فاعلاً لما يشاء ، ولم يزل موصوفاً بصفات الكمال ، منعوتاً بنعوت الجلال والإكرام ، والعالم فيه من الإحكام والإتقان ما دل على علم الرب ، وفيه من الاختصاص ما دل على مشيئته ، وفيه من الإحسان ما دل على رحمته ، وفيه من العواقب الحميدة ما دل على حكمته ، وفيه من الحوادث ما دل على قدرة الرب تعالى ؛ مع أن الرب مستحق لصفات الكمال لذاته ، فإنه مستحق لكل كمال ممكن للوجود لا نقص فيه منزه عن كل نقص ، وهو سبحانه ليس له كفؤ في شيء من أموره ، فهو موصوف بصفات الكمال على وجه التفصيل منزه فيها عن التشبيه والتمثيل ، ومنزه عن النقائص مطلقاً ، فإن وصفه بها من أعظم الأباطيل ، وكماله من لوازم ذاته المقدسة لا يستفيده من غيره ، بل هو المنعم على خلقه بالخلق والإنشاء وما جعله فيهم من صفات الأحياء ، وخالق صفات الكمال أحق بها ، ولا كفؤ له فيها .

وأصل اضطراب الناس في مسألة كلام الله أن الجهمية والمعتزلة لما ناظرت الفلاسفة في مسألة حدوث العالم اعتقدوا أن ما يقوم به من الصفات

---

(١) لينظر العطف في هذه الجملة الشرطية على أي شيء يقابله ، ولينظَر جواب شرطها أين هو ؟

والأفعال المتعاقبة لا يكون إلا حادثاً بناءً على أنَّ ما لا يتناهى لا يمكن وجوده(١) والتزموا أن الرب كان في الأزل غير قادر على الفعل والكلام بل كان ذلك ممتنعاً عليه وكان معطلاً عن ذلك ، وقد يعبرون عن ذلك بأنه كان قادراً في الأزل على الفعل فيما لا يزال مع امتناع الفعل عليه في الأزل ؛ فيجمعون بين النقيضين حيث يصفونه بالقدرة في حال امتناع المقدور لذاته؛ إذ كان الفعل يستلزم أن يكون له أول ، والأزل لا أول له ، والجمع بين إثبات الأولية ونفيها جمع بين النقيضين .

ولم يهتدوا إلى الفرق بين ما يستلزم الأولية والحدوث ، وهو الفعل المعين والمفعول المعين ، وبين ما لا يستلزم ذلك وهو نوع الفعل والكلام ؛ بل هذا يكون دائماً ، وإن كان كل من آحاده حادثاً كما يكون دائماً في المستقبل وإن كان كل من آحاده فانيا ، بخلاف خالق يلزمه مخلوقه المعين دائماً ؛ فإن هذا هو الباطل في صريح العقل وصحيح النقل ؛ ولهذا اتفقت فطر العقلاء على إنكار ذلك ؛ لم ينازع فيه إلا شرذمة من المتفلسفة كابن سينا وأمثاله الذين زعموا أن الممكن المفعول قد يكون قديماً واجب الوجود بغيره ، فخالفوا في ذلك جماهير العقلاء مع مخالفتهم لسلفهم ؛ أرسطو وأتباعه فإنه لم يكونوا يقولون ذلك وإن قالوا بقدم الأفلاك ، وأرسطو أول من قال بقدمها من الفلاسفة المشائين بناءً على إثبات علة غائية لحركة الفلك يتحرك الفلك للتشبه بها ، لم يثبتوا له فاعلاً مبدعاً ، ولم يثبتوا ممكنا قديماً واجباً بغيره ،

(١) يعني في الأزل ، تركه للعلم به أو سقط من الناسخ.

وهم وإن كانوا أجهل بالله وأكفر من متأخريهم ، فهم يسلمون لجمهور العقلاء أن ما كان ممكنا بذاته فلا يكون إلا محدثاً مسبوقاً بالعدم؛ فاحتاجوا أن يقولوا: كلامه مخلوق منفصل عنه .

وطائفة وافقتهم على امتناع وجود ما لا نهاية له لكن قالوا : تقوم به الأمور الاختيارية . فقالوا : إنه في الأزل لم يكن متكلماً ، بل ولا كان الكلام مقدوراً له ثم صار متكلماً بلا حدوث حادث بكلام يقوم به ، وهو قول الهاشمية والكرامية وغيرهم .

وطائفة قالت : إذا كان القرآن غير مخلوق فلا يكون إلا قديم العين لازماً لذات الرب ؛ فلا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ثم منهم من قال : هو معنى واحد قديم ، فجعل آية الكرسي وآية الدين وسائر آيات القرآن التوراة والإنجيل وكل كلام يتكلم الله به معنى واحداً لا يتعدد ولا يتبعض ، ومنهم من قال : إنه حروف وأصوات مقترنة لازمة للذات ، وهؤلاء أيضاً وافقوا الجهمية والمعتزلة في أصل قولهم : إنه متكلم بكلام لا يقوم بنفسه ومشيئته وقدرته وإنه لا تقوم به الأمور الاختيارية ، وإنه لم يستو على عرشه بعد أن خلق السموات والأرض ، ولا يأتي يوم القيامة ، ولم يناد موسى حين ناداه ، ولا تغضبه المعاصي ، ولا ترضيه الطاعات ، ولا تفرحه توبة التائبين ، وقالوا في قوله : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة ١٠٥] ونحو ذلك : إنه لا يراها إذا وجدت ، بل إما أنه لم يزل رائياً لها ، وإما أنه لم يتجدد شيء موجود بل تعلق معدوم ، إلى أمثال هذه المقالات التي خالفوا فيها نصوص الكتاب والسنة مع مخالفة صريح العقل .

والذي ألجأهم لذلك موافقتهم للجهمية على أصل قولهم في أنه سبحانه لا يقدر في الأزل على الفعل والكلام ، وخالفوا السلف والأئمة في قولهم : لم يزل الله متكلماً إذا شاء ثم افترقوا أحزاباً أربعة كما تقدم : الخلقية ، والحدوثية ، والاتحادية ، والاقترانية .

وشر من هؤلاء الصابئة والفلاسفة الذين يقولون : إن الله لم يتكلم لا بكلام قائم بذاته ، ولا بكلام يتكلم به بمشيئته وقدرته لا قديم النوع ولا قديم العين ولا حادث ولا مخلوق ، بل كلامه عندهم ما يفيض على نفوس الأنبياء ويقولون : إنه كلم موسى من سماء عقله ، وقد يقولون : إنه تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات ، فإنه إنما يعلمها على وجه كلي ، ويقولون مع ذلك : إنه يعلم نفسه ويعلم ما يفعله .

وقولهم بعلم نفسه ومفعولاته حق ، كما قال تعالى : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك ١٤] لكن قولهم مع ذلك : إنه لا يعلم الأعيان المعينة جهل وتناقض ؛ فإن نفسه المقدسة معينة ، والأفلاك معينة ، وكل موجود معين، فإن لم يعلم المعينات لم يعلم شيئاً من الموجودات ؛ إذ الكليات إنما تكون كليات في الأذهان لا في الأعيان ، فمن لم يعلم إلا الكليات لم يعلم شيئاً من الموجودات ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وهم إنما ألجأهم إلى هذا الإلحاد فرارهم من تجدد الأحوال للبارئ تعالى ، مع أن هؤلاء يقولون : إن الحوادث تقوم بالقديم ، وإن الحوادث لا أول لها ، لكن نفوا ذلك عن البارئ ؛ لاعتقادهم أنه لا صفة له ، بل هو وجود مطلق ، وقالوا : إن العلم نفس عين العالم ، والقدرة نفس عين القادر ،

والعلم والعالم شيء واحد ، والمريد والإرادة شيء واحد ؛ فجعلوا هذه الصفة هي الأخرى ، وجعلوا الصفات هي الموصوفة .

ومنهم من يقول : بل العلم كل المعلوم ؛ كما يقوله الطوسي صاحب شرح الإشارات فإنه أنكر على ابن سينا إثباته لعلمه بنفسه وما يصدر عن نفسه ، وابن سينا أقرب إلى الصواب لكنه تناقض مع ذلك ، حيث نفى قيام الصفات به ، وجعل الصفة عين الموصوف وكل صفة هي الأخرى .

ولهذا كان هؤلاء هم أوغل في الاتحاد والإلحاد ممن يقول : معاني الكلام شيء واحد ، لكنهم ألزموا قولهم لأولئك ، فقالوا : إذا جاز أن تكون المعاني المتعددة شيئاً واحداً ، جاز أن يكون العلم هو القدرة ، والقدرة هي الإرادة ؛ فاعترف حذاق أولئك بأن هذا الإلزام لا جواب عنه .

ثم قالوا : وإذا جاز أن تكون هذه الصفة هي الأخرى ، والصفة هي الموصوف جاز أن يكون الموجود الواجب القديم الخالق هو الموجود الممكن المحدث المخلوق ، فقالوا : إن وجود كل مخلوق هو عين وجود الخالق ، وقالوا : الوجود واحد ، ولم يفرقوا بين الواحد بالنوع والواحد بالعين ، كما لم يفرق أولئك بين الكلام الواحد بالعين ، والكلام الواحد بالنوع .

وكان منتهى أمر أهل الإلحاد في الكلام إلى هذا التعطيل والكفر والاتحاد الذي قاله أهل الوحدة والحلول والاتحاد في الخالق والمخلوقات ، كما أن الذين لم يفرقوا بين نوع الكلام وعينه وقالوا : هو يتكلم بحرف وصوت قديم ، قالوا : أولاً أنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ولا تسبق الباء السين ، بل لما

نادى موسى فقال : ﴿ إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني - إلى[1] - أنا الله رب العالمين ﴾ كانت الهمزة والنون وما بينهما موجودات في الأزل يقارن بعضها بعضاً ، لم تزل ولا تزال لازمة لذات الله .

ثم قال فريق منهم : إن ذلك القديم هو نفس الأصوات المسموعة من القراء . وقال بعضهم : بل المسموع صوتان قديم ومحدث . وقال بعضهم : أشكال المداد قديمة أزلية . وقال بعضهم محل المداد قديم أزلي . وحكي عن بعضهم أنه قال : المداد قديم أزلي . وأكثرهم يتكلمون بلفظ القديم ولا يفهمون معناه بل منهم من يظن أنه قديم في علمه ، ومنهم من يظن أن معناه متقدم على غيره ، ومنهم من يظن أن معنى اللفظ أنه غير مخلوق ، ومنهم من لا يميز بين ما يقول ، فصار هؤلاء حلولية اتحادية في الصفات ، ومنهم من يقول بالحلول والاتحاد في الذات والصفات ، وكان منتهى أمر هؤلاء وهؤلاء إلى التعطيل .

والصواب في هذا الباب وغيره مذهب سلف الأمة وأئمتها أنه سبحانه لم يزل متكلماً إذا شاء ، وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وأن كلماته لا نهاية لها ، وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى ، وإنما ناداه حين أتى لم يناده قبل ذلك ، وأن صوت الرب لا يماثل أصوات العباد ، كما أن علمه لا يماثل علمهم ، وقدرته لا تماثل قدرتهم ، وأنه سبحانه بائن عن مخلوقاته بذاته

---

(١) كذا في الأصل ، والآية الأولى من سورة طه ، والتي بعد إلى من سورة القصص فهي ليست غاية لما قبلها ؛ فيظهر أن في الكلام تحريفاً أو سقطاً من النساخ ، والمراد مفهوم على كل حال.

وصفاته ليس في مخلوقاته شيء من ذاته وصفاته القائمة بذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، وأن أقوال أهل التعطيل والاتحاد ، الذين عطلوا الذات أو الصفات أو الكلام أو الأفعال باطلة ، وأقوال أهل الحلول الذين يقولون بالحلول في الذات أو الصفات باطلة ، وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع ، وقد بسطناها في الواجب الكبير . والله أعلم بالصواب .

فتوى أخرى لشيخ الإسلام

((في إثبات أن الكلام صفة المتكلم لا عينه ولا غيره))

(سئل أيضاً رضي الله عنه) : ما تقول السادة العلماء الجهابذة أئمة الدين ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ فيمن يقول الكلام غير المتكلم ، والقول غير القائل ، والقرآن والمقروء والقارئ كل واحد منها له معنى ؟ بيِّنوا لنا ذلك بياناً شافياً ؛ ليصل إلى ذهن الحاذق والبليد أثابكم الله بمنِّه .

(فأجاب رضي الله عنه) :

الحمد لله ، من قال : إن الكلام غير المتكلم ، والقول غير القائل ، وأراد أنه مباين له ، ومنفصل عنه فهذا خطأ وضلال ؛ وهو قول من يقول : إن القرآن مخلوق فإنهم يزعمون أن الله لا يقوم به صفة من الصفات لا القرآن ولا غيره ، ويوهمون الناس بقولهم : العلم غير العالم ، والقدرة غير القادر، والكلام غير المتكلم ؛ ثم يقولون : وما كان غير الله فهو مخلوق ، وهذا تلبيس منهم .

فإن لفظ الغير يراد به ما يجوز مباينته للآخر ومفارقته له ، وعلى هذا فلا يجوز أن يقال : علّم الله غيره ، ولا يقال : إن الواحد من العشرة غيرها، وأمثال ذلك ، وقد يراد بلفظ الغير ما ليس هو الآخر ، وعلى هذا فتكون الصفة غير الموصوف ؛ لكنْ على هذا المعنى لا يكون ما هو غير ذات الله الموصوفة بصفاته مخلوقاً ؛ لأن صفاته ليست هي الذات لكن قائمة بالذات ، والله سبحانه وتعالى : هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات كماله ، وليس الاسم اسماً لذات لا صفات لها بل يمتنع وجود ذات لا صفات لها .

والصواب في مثل هذا أن يقال : الكلام صفة المتكلم ، والقول صفة القائل ، وكلام الله ليس مبايناً منه ؛ بل أسمعه لجبريل ، ونزل به على محمد ﷺ كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام ١١٤] ولا يجوز أن يقال : إن كلام الله فارق ذاته وانتقل إلى غيره ؛ بل يقال كما قال السلف : إنه كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ؛ فقولهم : منه بدأ رد على من قال : إنه مخلوق في بعض الأجسام ، ومن ذلك المخلوق ابتدأ ؛ فبينوا أن الله هو المتكلم به « ومنه بدأ » لا من بعض المخلوقات « وإليه يعود » أي فلا يبقى في الصدور منه آية ولا في المصاحف حرف ، وأما القرآن فهو كلام الله .

فمن قال : إن القرآن الذي هو كلام الله غير الله ؛ فخطؤه وتلبيسه كخطأ من قال : إن الكلام غير المتكلم ، وكذلك من قال : إن كلام الله له مقروء غير القرآن الذي تكلم به فخطؤه ظاهر ، وكذلك من قال : إن القرآن الذي يقرؤه المسلمون غير المقروء الذي يقرؤه المسلمون فقد أخطأ .

وإن أراد بالقرآن مصدر : قرأ يقرأ قراءة وقرآنا ، وقال : أردت أن القراءة غير المقروء فلفظ القراءة مجمل ، قد يراد بالقراءة القرآن ، وقد يراد بالقراءة المصدر ؛ فمن جعل القراءة التي هي المصدر غير المقروء كما يجعل التكلم الذي فعله غير الكلام الذي هو يقوله ، وأراد بالغير أنه ليس هو إياه فقد صدق ؛ فإن الكلام الذي يتكلم به الإنسان يتضمن فعلاً كالحركة ، ويتضمن ما يقترن بالفعل من الحروف والمعاني ؛ ولهذا يجعل القول قسيما للفعل تارة وقسماً منه أخرى ؛ فالأول كما يقول : الإيمان قول وعمل ؛ ومنه قوله ﷺ : « إن الله تجاوز لأمّتي ما حدّثتْ به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به » ومنه قوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر ١٠] ومنه قوله تعالى : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ [يونس ٦١] وأمثال ذلك فيما يفرق بين القول والعمل ، وأما دخول القول في العمل ففي مثل قوله تعالى : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر ٩٢، ٩٣] وقد فسروه بقول « لا إله إلا الله » ، ولما سئل ﷺ أيّ الأعمال أفضل ؟ قال : «الإيمان بالله» مع قوله : «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» ونظائر ذلك متعددة .

وقد تنوزع فيمن حلف لا يعمل عملاً إذا قال قولا كالقراءة ونحوها هل يحنث ؟ على قولين في مذهب أحمد وغيره بناءً على هذا .

فهذه الألفاظ التي فيها إجمال واشتباه إذا فصلت معانيها ؛ وإلا وقع فيها نزاع واضطراب ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

((تم الكتاب المجموع ، ولله الحمد .))

{ كلمة المطبعة في هذا المجموع }

يقول محمد رشيد آل رضا : قد جمع هذه المباحث والفتاوي عالم الشام السلفي الأثري ؛ الأستاذ الشيخ : جمال الدين القاسمي الشهير (ر ح) من كتاب الكواكب وغيره من كتب شيخ الإسلام وفتاويه ، وأرسله إلى صديقنا السلفي الأثري السري ؛ صاحب الفضيلة الشيخ محمد نصيف الحجازي ؛ وقد رفعه هذا إلى الإمام الهمام ، ومحيي مذهب السلف وسنة خير الأنام ، عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها ؛ فبادر إلى إصدار أمره إلينا بطبعه مع رسائل أخرى لشيخ الإسلام لنشره في مملكته وغيرها كسائر مطبوعاته النافعة ؛ (وهي ما حواه هذا المجموع) وكنا نظن أن المرحوم القاسمي عُنِي بقراءته وتصحيحه بنفسه ، فأراحنا من التعب في طبعه ، ولكننا وجدنا فيه من الغلط والتحريف ما استبعدنا معه أن يكون عني بتصحيحه ، وقد هوَّن علينا تصحيحه ما فيه من تكرار المسائل فاستفدنا من مقابلة بعضها ببعض .

وأما قيمة هذا المجموع الدينية العلمية فهي لا تقدر، والتكرار فيه مفيد ؛ فإن هذه التحقيقات الواسعة قلما يعيها أحد إلا إذا تكررت على ذهنه مراراً كثيرة .

ومن الغريب أن هذه المسائل كان يكتبها شيخ الإسلام أو يمليها من غير مراجعة كتاب من الكتب، وهي من الآيات البينات ، والبراهين

الواضحات على أن هذا الرجل من أكبر آيات الله في خلقه ، أيَّد بها كتابه الذي قال فيه : إنه ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء ٩] وسنة رسوله ﷺ ، وما كان عليه السلف الصالح من فهمها ، والاعتصام بها .

ويُعلم من كل فتوى منها ـ بله جملتها ومجموعه ـ أنه ـ رحمه الله تعالى ـ قد جمع من العلوم النقلية والعقلية الشرعية والتاريخية والفلسفية ، ومن الإحاطة بمذاهب الملل والنحل وآراء المذاهب ومقالات الفرق حفظاً وفهما ما لا نعلم مثله عن أحد من علماء الأرض قبله ولا بعده ، وأغرب من حفظه لها استحضارها إياها عند التكلم والإملاء أو الكتابة ، وأعظم من ذلك ما آتاه الله من قوة الحكم في إبطال الباطل ، وإحقاق الحق في كل منها بالبراهين النقلية والعقلية ، ونصر مذهب السلف في فهم الكتاب والسنة على كل ما خالفه من مذاهب المتكلمين والفلاسفة وغيرهم .

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة ٤]

فهرس عناوين كتاب

(مذهب السلف القويم ، في تحقيق مسألة كلام الله الكريم)

الصفحة

الصفحة

القسم الثاني من مجموعة الرسائل

(وفيه رسالتان)

الرسالة الأولى

الحجج النقلية والعقلية

فيما ينافي الإسلام من بدع الجهمية والصوفية كالحلول والاتحاد، ووحدة الوجود، ونفي القدر أو الاحتجاج به على الرضا بالمعاصي والمصائب

تأليف

شيخ الإسلام ابن تيمية

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وعليه نتوكل

سئل شيخنا الإمام الربَّاني شيخ الإسلام ، بحر العلوم ، إمام الأئمة ، ناصر السنة ، علَّامة الورى، وارث الأنبياء ، أبو العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية ، عن كلمات وُجدَت بخط من يوثق به، ذكرها عنه جماعة من الناس، فيهم من انتسب إلى الدين .

فمن ذلك : قال بعض السلف : إن الله لطَّف ذاته فسمَّاها حقًا ، وكثَّفها فسمَّاها خلقاً .

وقال الشيخ نجم الدين بن إسرائيل : إن الله ظهر في الأشياء حقيقة ، واحتجب بها مجازاً ، فمن كان من أهل الحق والجمع شهدها مظاهر ومجالي ، ومن كان من أهل المجاز والفرق شهدها ستوراً وحجباً . وقال في قصيدة له :

لقد حقّ لي رفض الوجود وأهله   وقد علقت كفَّاي حقًا بموجدي

ثم بعد مدّة قال:

* لقد حقّ لي عشق الوجود وأهله *

فسألته عن ذلك فقال: مقام البداية أن يرى الأكوان حجبا فيرفضها، ثم يراها مظاهر ومجالي فيحقّ له العشق لها، كما قال بعضهم:

أقبِّل أرضاً سار فيها جمالها   فكيف بدار دار فيها جمالها ؟!

قال : وقال ابن عربي عقيب إنشاد بيتي أبي نواس :

رقّ الزجـاج وراقت الخـمـر ... وتشـاكـلا فـتـشـابه الأمـر

فكأنما خـمـر ولا قـدح ... وكـأنما قـدح ولا خـمـر

لبس صورة العالم فظاهره خلقه، وباطنه حقه

وقال بعض السلف: عين ما ترى ذات لا ترى، وذات لا ترى عين ما ترى، الله فقط، والكثرة وهم .

وقال الشيخ قطب الدين بن سبعين: رب مالك، وعبد هالك، وأنتم ذلك. الله فقط، والكثرة وهم .

وقال الشيخ محيي الدين بن عربي :

يا صـورة إنس سرها معنائي ... مـا خلقك للأمـر يرى لولائي

شئناك فأنشأناك خلقاً بشرا ... لتشـهدنا في أكمل الاشـيـاء

وفيه: طلب بعض أولاد المشايخ من والده الحج، فقال له الشيخ: يابني طف ببيت ما فارقه الله طرفة عين .

قيل وقيل عن رابعة العدوية: إنها حجّت فقالت: هذا الصنم المعبود في الأرض، والله ما ولجه الله ولا خلا منه .

وفيه للحلاج :

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لا هوته الثاقب

ثم بدا مستتراً ظاهراً في صورة الآكل والشارب

قال وله :

عقد الخلائق في الإله عقائدا وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

وله أيضاً :

بيني وبينك إنيٌ تزاحمني فارفع بحقك إنيِّي من البين

قال وقال الشيخ شهاب الدين السهروردي الحلبي: وبهذه الإنية التي طلب الحلاج رفعها تصرفت الأغيار في دمه، ولذلك قال السلف: الحلاج نصف رجل ، وذلك أنه لم يرفع له الإنية بالمعنى فرفعت له صورة .

وفيه لمحيي الدين بن عربي :

والله ما هي إلا حيرةٌ ظهرت وبي حلفت وإنّ المقسم الله

وفيه : المنقول عن عيسى عليه السلام أنه قال : «إن الله اشتاق أن يرى ذاته المقدسة ، فخلق من نوره آدم عليه السلام ، وجعله كالمرآة ينظر إلى ذاته المقدسة فيها ، وإني أنا ذلك النور وآدم المرآة . قال ابن الفارض :

وشاهد إذا استجليت نفسك من ترى بغير مراء في المراة الصقيلة

أغيرك فيها لاح أم أنت ناظر إليك بها عند انعكاس الأشعة ؟

قال وقال ابن إسرائيل، الأمر أمران : أمر بواسطة، وأمر بغير واسطة.

فالأمر الذي بالوسائط ردّه من شاء الله ، وقبله من شاء الله. والأمر الذي بغير واسطة لا يمكن ردّه ، وهو قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل ٤٠] .

فقال له فقير: إن الله قال لآدم بلا واسطة : لا تقرب الشجرة. فقرب وأكل. فقال صدقت ، وذلك أن آدم إنسان كامل ، ولذلك قال شيخنا علي الحريري آدم صفيّ الله تعالى ، كان توحيده ظاهراً وباطنا ، فكان قوله لآدم « لا تقرب الشجرة » ظاهراً ، وكان أمره « كل » باطنا، وإبليس كان توحيده ظاهراً ، فأُمر بالسجود لآدم فرآه غيراً فلم يسجد فغير الله عليه وقال : ﴿اخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الأعراف ١٨] .

وقال شخص : ياسيدي حسن ، إذا كان الله يقول لنبيه ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران ١٢٨] أيش نكون نحن ؟ فقال له ليس الأمر كما تقول أو تظن ، فقوله له : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران ١٢٨] عين الإثبات للنبي ﷺ كقوله تعالى : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال ١٧] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح ١٠]

وفيه لأوحد الدين الكرماني

ما غبتَ عن القلب ولا عن عيني ... مـا بينكم وبيننا من بين

وقال غيره :

لا تحسب بالصلاة والصوم تنال ... قربا ودنواً من جمال وجلال

فارق ظلم الطبع وكن متحداً ... بالله وإلا كلُّ دعواك محال

وغيره للحلاج :

إذا بلغ الصب الكمال من الهوى   وغاب عن المذكور في سطوة الذكر
يشاهد حقا حين يشهده الهوى   بأن صلاة العارفين من الكفر

ولابن إسرائيل :

الكون يناديك ألا تسمعني   من ألَّف أشتاتي ومن فرقني
انظر لتراني منظراً معتبرا   ما فيَّ سوى وجود من أوجدني

وله أيضاً :

ذرات وجود الكون للحق شهود   أن ليس لموجود سوى الحق وجود
والكون وإن تكثرت عدته   منه وإلى علاه يبدو ويعود

وله أيضاً :

برئت إليك من قولي وفعلي   ومن ذاتي براءة مستقيل
وما أنا في طراز الكون شيء   لأني مثل ظل مستحيل

وللعفيف التلمساني :

أحن إليه وهو قلبي وهل يرى   سواي أخو وجد يحن لقلبه ؟
ويحجب طرفي عنه إذ هو ناظري   وما بعده إلا لإفراط قربه

وقال بعض السلف : التوحيد لا لسان له ، والألسنة كلها لسانه .

ومن ذلك أيضاً : التوحيد لا يعرفه إلا الواحد ، ولا تصح العبارة عن الواحد ، وذلك أنه لا يعبر عنه إلا بغيره ومن أثبت الغير فلا توحيد له .

قال : وسمعت الشيخ محمد بن بشر النواوي يقول : وردَ سيدنا الشيخ علي الحريري إلى جامع نوى، قال الشيخ محمد: فجئت اليه فقبَّلت الأرض بين يديه وجلست، فقال: يابني وقفت مع المحبة مدة فوجدتها غير المقصود ؛ لأن المحبة لا تكون إلا من غير لغير ، وغير ما تم ، ثم وقفت مع التوحيد مدة فوجدته كذلك ؛ لأن التوحيد لا يكون إلا من عبد لرب ، ولو أنصف الناس ما رأوا عبداً ولا معبوداً .

وفيه : سمعت من الشيخ نجم الدين بن إسرائيل ما أسر إلي أنه سمعه من شيخنا الشيخ علي الحريري في العام الذي توفي فيه، قال يا نجم، رأيت لهاتي الفوقانية فوق السموات وحنكي تحت الأرضين ، ونطق لساني بلفظة لو سمعت مني ما وصل إلى الأرض من دمي قطرة . فلما كان بعد ذلك بمدة قال شخص في حضرة الشيخ حسن بن علي الحريري : يا سيدي حسن، ما خلق الله أقل عقلاً ممن ادعى أنه إله مثل فرعون ونمروذ وأمثالهما ، فقال: إن هذه المقالة لا يقولها إلا أجهل خلق الله أو أعرف خلق الله، فقلت له صدقت وذلك أنه قد سمعت جدك يقول : رأيت كذا وكذا – فذكر ما ذكره الشيخ نجم الدين عن الشيخ – ، وفيه قال بعض السلف : من كان عين الحجاب على نفسه فلا حاجب ولا محجوب.

* * *

فالمطلوب من السادة العلماء أن يبينوا هذه الأقوال، وهل هي حق أو باطل ؟ وما يعرف به معناها ؟ وما يبين أنها حق أو باطل ؟ وهل الواجب إنكارها ، أو إقرارها ، أو التسليم لمن قالها ؟ وهل لها وجه سائغ ؟ وما الحكم فيمن اعتقد معناها ، إما مع المعرفة بحقيقتها ؟ وإما مع التسليم المجمل لمن قالها ؟

والمتكلمون بها ، هل أرادوا معنى صحيحاً يوافق العقل والنقل ؟، وهل يمكن تأويل ما يشكل منها ويحمل على ذلك المعنى ؟ وهل الواجب بيان معناها وكشف مغزاها ، إذا كان هناك قوم يؤمنون بها ولا يعرفون حقيقتها؟ أم ينبغي السكوت عن ذلك وترك الناس يعظمونها ويؤمنون بها مع عدم العلم بمعناها ؟ بيِّنوا ذلك مأجورين ، فأجاب رضي الله عنه :

الحمد لله رب العالمين . هذه الأقوال المذكورة تشتمل على أصلين باطلين مخالفين لدين المسلمين واليهود والنصارى مخالفتهما للمنقول والمعقول.

الأصل الأول لضلال المتصوفة

الحلول والاتحاد

الحلول والاتحاد وما يقارب ذلك، كالقول بوحدة الوجود، وكالذين يقولون: إن الوجود واحد، فالوجود الواجب للخالق هو الوجود الممكن للمخلوق، كما يقول ذلك أهل الوحدة، كابن عربي وصاحبه القونوي وابن سبعين وابن الفارض صاحب القصيدة التائية (نظم السلوك) وعامر البصري السيواسي الذي له قصيدة تناظر قصيدة ابن الفارض ،

والتلمساني الذي شرح مواقف النفري(١) وله شرح الأسماء الحسنى على طريقة هؤلاء، وسعيد الفرغاني الذي شرح قصيدة ابن الفارض، والششتري صاحب الأزجال الذي هو تلميذ ابن سبعين، وعبدالله البلباني، وابن أبي المنصور المتصوف المصري صاحب (فك الأزرار عن أعناق الأسرار) وأمثالهم.

ثم من هؤلاء من يفرق بين الوجود والثبوت كما يقوله ابن عربي ، ويزعم أن الأعيان ثابتة في العدم غنية عن الله في أنفسها، ووجود الحق هو وجودها، والخالق مفتقر إلى الأعيان في ظهور وجوده بها، وهي مفتقرة إليه في حصول وجودها الذي هو نفس وجوده. وقوله مركب من قول من قال : المعدوم شيء ، وقول من يقول : وجود الخالق هو وجود المخلوق، ويقول : فالوجود المخلوق هو الوجود الخالق، والوجود الخالق هو الوجود المخلوق، كما هو مبسوط في موضع آخر.

ومنهم من يفرق بين الإطلاق والتعيين كما يقول القونوي ونحوه فيقولون: إن الواجب هو الوجود المطلق لا بشرط، وهذا لا يوجد مطلقاً إلا في الأذهان لا في الأعيان، فما هو كلي في الأذهان لا يكون في الأعيان إلا معيناً وإن قيل: إن المطلق جزء من المعين لزم أن يكون وجود الخالق جزءاً من وجود المخلوق، والجزء لا يبدع الجميع ويخلقه فلا يكون الخالق موجوداً.

---

(١) هو : الشيخ محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفري الصوفي توفي سنة ٣٥٤ ، والتلمساني شارح مواقفه هو : عفيف الدين سليمان بن علي الصوفي الشاعر صاحب الديوان المشهور توفي سنة ٦٩٠.

ومنهم من قال : إن الباري هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق كما يقول ابن سينا وأتباعه ؛ فقوله أشد فساداً ؛ فإن المطلق بشرط الإطلاق لا يكون إلا في الأذهان لا في الأعيان ؛ فقول هؤلاء بموافقة من هؤلاء الذين يلزمهم التعطيل شر من قول الذين يشبهون أهل الحلول والاتحاد.

وآخرون يجعلون الوجود الواجب والوجود الممكن بمنزلة المادة والصورة التي تقولها المتفلسفة أو قريب من ذلك كما يقوله ابن سبعين وأمثاله.

وهؤلاء أقوالهم فيها تناقض وفساد، وهي لا تخرج عن وحدة الوجود والحلول أو الاتحاد، وهم يقولون بالحلول المطلق والوحدة المطلقة والاتحاد المطلق ؛ بخلاف من يقول بالمعين كالنصارى والغالية من الشيعة الذين يقولون بإلهية علي أو الحاكم أو الحلاج أو يونس القنيني أو غير هؤلاء ممن ادعيت فيه الإلهية. فإن هؤلاء قد يقولون بالحلول المقيد الخاص وأولئك يقولون بالإطلاق والتعميم ؛ ولهذا يقولون : إن النصارى إنما كان خطؤهم في التخصيص(١) وكذلك يقولون في المشركين عباد الأصنام إنما كان خطؤهم لأنهم اقتصروا على بعض المظاهر دون بعض، وهم يجوزون الشرك وعبادة الأصنام مطلقاً على وجه الإطلاق والعموم.

ولا ريب أن في قول هؤلاء من الكفر والضلال ما هو أعظم من كفر اليهود والنصارى ، وهذا المذهب شائع في كثير من المتأخرين ، وكان طوائف من الجهمية يقولون به ، وكلام ابن عربي في فصوص الحكم وغيره ،

---

(١) أي تخصيص المسيح بالربوبية لا في جعله ربا وإلهاً.

وكلام ابن سبعين وصاحبه الششتري ، وقصيدة ابن الفارض (نظم السلوك)، وقصيدة عامر البصري ، وكلام العفيف التلمساني وعبد الله البلباني والصدر القونوي ، وكثير من شعر ابن اسرائيل ، وما ينقل من ذلك عن شيخه الحريري ، وكذلك نحو منه يوجد في كلام كثير من الناس غير هؤلاء -هو مبني على هذا المذهب مذهب الحلول والاتحاد ووحدة الوجود.

وكثير من أهل السلوك الذين لا يعتقدون هذا المذهب يسمعون شعر ابن الفارض وغيره فلا يعرفون أن مقصوده هذا المذهب، فإن هذا الباب وقع فيه من الاشتباه والضلال ما حير كثيراً من الرجال.

وأصل ضلال هؤلاء أنهم لم يعرفوا مباينة الله لمخلوقاته وعلوه عليها، وعلموا أنه موجود فظنوا أن وجوده لا يخرج عن وجودها، بمنزلة من رأى شعاع الشمس فظن أنه الشمس نفسها.

(الأقوال الأربعة للناس في الخالق تعالى)

ولما ظهرت الجهمية المنكرة لمباينة الله وعلُّوه على خلقه افترق الناس في هذا الباب على أربعة أقوال : فالسلف والأئمة يقولون : إن الله فوق سمواته مستو على عرشه بائن من خلقه كما دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، وكما علم المباينه والعلو بالمعقول الصريح الموافق للمنقول الصحيح، وكما فطر الله على ذلك خلقه من إقرارهم به وقصدهم إياه سبحانه وتعالى .

(والقول الثاني) قول معطلة الجهمية ونفاتهم ، وهم الذين يقولون : لا هو داخل العالم ولا خارجه ولا مباين له ولا محايث له، فينفون الوصفين المتقابلين اللذين لا يخلو موجود عن أحدهما، كما يقول ذلك أكثر المعتزلة ومن وافقهم من غيرهم.

(والقول الثالث) قول حلولية الجهمية الذين يقولون: إنه بذاته في كل مكان كما يقول ذلك النجارية أتباع حسين النجار وغيرهم من الجهمية، وهؤلاء القائلون بالحلول والاتحاد من جنس هؤلاء، فإن الحلول أغلب على عباد الجهمية وصوفيتهم وعامتهم. والنفي والتعطيل أغلب على نظارهم ومتكلميهم، كما قيل: متكلمة الجهمية لا يعبدون شيئاً، ومتصوفة الجهمية يعبدون كل شيء. وذلك أن العبادة تتضمن الطلب والقصد والإرادة والمحبة وهذا لا يتعلق بمعدوم، فإن القلب يطلب موجوداً فإذا لم يطلب ما فوق العالم طلب ما هو فيه.

وأما الكلام والعلم والنظر فيتعلق بموجود ومعدوم، فإذا كان أهل الكلام والنظر يصفون الرب بصفات السلب والنفي التي لا يوصف بها إلا المعدوم لم يكن مجرد العلم والكلام ينافي عدم المعدوم المذكور، بخلاف القصد والإرادة والعبادة فإنه ينافي عدم المعبود، ولهذا تجد الواحد من هؤلاء عند نظره وبحثه يميل إلى النفي، وعند عبادته وتصوفه يميل إلى الحلول. وإذا قيل له : هذا ينافي ذلك قال: هذا مقتضى عقلي ونظري ، وذاك مقتضى ذوقي ومعرفتي، ومعلوم أن الذوق والوجد إن لم يكن يوافق العقل والنظر وإلا لزم فسادهما أو فساد أحدهما.

والقول الرابع : قول من يقول إن الله بذاته فوق العالم ، وهو بذاته في كل مكان ، وهذا قول طوائف من أهل الكلام والتصوف كأبي معاذ وأمثاله ، وقد ذكر الأشعري في المقالات هذا عن طوائف ، ويوجد في كلام السالمية كأبي طالب المكي وأتباعه كأبي الحكم بن برجان وأمثاله ما يشير إلى نحو من هذا كما يوجد في كلامهم ما يناقض هذا .

وفي الجملة فالقول بالحلول أو ما يناسبه وقع فيه كثير من متأخري الصوفية ؛ ولهذا كان أئمة القوم يحذرون منه : فمما في قول الجنيد -لما سئل عن التوحيد- فقال : التوحيد إفراد الحدوث عن القدم ، فبين أن التوحيد أن يميز بين القديم والمحدث ، وقد أنكر ذلك عليه ابن عربي صاحب الفصوص ، وادعى أن الجنيد وأمثاله ماتوا وما عرفوا التوحيد لما أثبتوا الفرق بين العبد والرب ، بناءً على دعواه أن التوحيد ليس فيه فرق بين الرب والعبد ، وزعم أنه لا يميز بين القديم والمحدث ، إلا من ليس بقديم ولا محدث وهذا جهل ، فإن المعرفة بأن هذا ليس ذاك ، والتمييز بين هذا وذاك لا يفتقر إلى أن يكون العارف المميز بين الشيئين ليس هو أحد الشيئين ، بل الإنسان يعلم أنه ليس هو ذلك الإنسان الآخر مع أنه أحدهما ، فكيف لا يعلم أنه غير ربه وإن كان هو أحدهما ؟

الأصل الثاني لضلال المتصوفة

الاحتجاج بالقدر، والمكذبون به من المتكلمة

والأصل الثاني الاحتجاج بالقدر على المعاصي وعلى ترك المأمور وفعل المحظور، وإن القدر يجب الإيمان به ولا يجوز الاحتجاج به على مخالفة أمر الله ونهيه ووعده ووعيده.

والناس الذين ضلوا في القدر على ثلاثة أصناف: قوم آمنوا بالأمر والنهي والوعد والوعيد وكذبوا بالقدر، وزعموا أن من الحوادث ما لا يخلقه الله كالمعتزلة ونحوهم، وقوم آمنوا بالقضاء والقدر ووافقوا أهل السنة والجماعة على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه خالق كل شيء وربه ومليكه، لكن عارضوا هذا بالأمر والنهي ، وسموا هذا حقيقة وجعلوا ذلك معارضاً للشريعة ، وفيهم من يقول : إن مشاهدة القدر تنفي الملام والعقاب ، وإن العارف ليستوي عنده هذا وهذا.

وهم في ذلك متناقضون مخالفون للشرع والعقل والذوق والوجد ، فإنهم لا يسوون بين من أحسن إليهم وبين من ظلمهم ، ولا يسوون بين العالم والجاهل والقادر والفاجر. ولا بين الطيب والخبيث. ولا بين العادل والظالم، بل يفرقون بينهما، ويفرقون بموجب أهوائهم وأغراضهم لا بموجب الأمر والنهي، ولا يقفون لا مع القدر ولا مع الأمر، كما قال بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدري، وعند المعصية جبري، أي مذهب يوافق هواك تمذهبت به. ولا يوجد أحد يحتج بالقدر في ترك الواجب وفعل المحرم إلا وهو متناقض لا

يجعله حجة في مخالفة هواه، بل يعادي من آذاه وإن كان محقاً، ويحب من وافقه على غرضه وإن كان عدواً لله، فيكون حبه ويغضه وموالاته ومعاداته بحسب هواه وذوق نفسه ووجدها لا بحسب أمر الله ونهيه، ومحبته وبغضه، وولايته وعداوته، إذ لا يمكنه أن يجعل القدر حجة لكل أحد ؛ فإن هذا مستلزم للفساد الذي لا صلاح معه، والشر الذي لا خير فيه ؛ إذ لو جاز أن يحتج كل أحد بالقدر لما عوقب معتد، ولا اقتص من ظالم باغ ؛ ولا أخذ لمظلوم حقه من ظالمه، ولفعل كل أحد ما يشتهيه، من غير معارض يعارضه فيه، وهذا فيه من الفساد ما لا يعلمه إلا رب العالمين.

فمن المعلوم بالضرورة أن الأفعال تنقسم إلى ما ينفع العباد وإلى ما يضرهم ، والله بعث رسوله يأمر المؤمنين بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، فمن لم يتبع شرع الله ودينه تبع ضده من الأهواء والبدع، وكان احتجاجه بالقدر من الجدل بالباطل ليدحض به الحق لا من باب الاعتماد عليه ، ولزمه أن يجعل كل من جرت عليه المقادير من أهل المعاذير.

وإن قال : أنا أعذر بالقدر من شهده، وعلم أن الله خالق فعله ومحركه، لا من غاب عن هذا الشهود ، أو كان من أهل الجحود. قيل له: فيقال لك : وشهود هذا وجحود هذا من القدر؟ فالقدر متناول لشهود هذا وجحود هذا؟ فإن كان هذا موجباً للفرق مع شمول القدر لهما فقد جعلت بعض الناس محموداً وبعضهم مذموماً مع شمول القدر لهما؟ وهذا رجوع إلى الفرق

واعتصام بالأمر والنهي. وحينئذ فقد نقضت أصلك وتناقضت فيه، وهذا لازم لكل من دخل معك فيه.

ثم مع فساد هذا الأصل وتناقضه فهو قول باطل وبدعة مضلة.

فمن جعل الإيمان بالقدر وشهوده عذراً في ترك الواجبات وفعل المحظورات [كان الإيمان بالقدر على قوله من أكبر المعاصي والسيئات وليس الأمر كذلك]؛ بل الإيمان بالقدر حسنة من الحسنات ، وهذه لا تنهض بدفع جميع السيئات، فلو أشرك مشرك بالله وكذب رسوله ناظراً إلى أن ذلك مقدر عليه لم يكن ذلك غافراً لتكذيبه ولا مانعاً من تعذيبه، فإن الله لا يغفر أن يشرك به سواء كان المشرك مقراً بالقدر وناظراً إليه، أو مكذباً به وغافلاً عنه، فقد قال إبليس : ﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الحجر ٣٩] فأصر واحتج بالقدر ، وكان ذلك زيادة في كفره وسبباً لمزيد عذابه. وأما آدم - عليه السلام - فإنه قال: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف ٢٣] قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة ٣٧] .

فمن استغفر وتاب كان آدمياً سعيداً ، ومن أصر واحتج بالقدر كان إبليسياً شقياً. وقد قال تعالى لإبليس : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [ص ٨٥].

وهذا الموضع ضل فيه كثير من الخائضين في الحقائق، فإنهم يسلكون أنواعاً من الحقائق التي يجدونها ويذوقونها ، ويحتجون بالقدر فيما خالفوا

فيه الأمر، فيضاهئون المشركين الذين كانوا يبتدعون دينا لم يشرعه الله ويحتجون بالقدر على مخالفة أمر الله.

(والصنف الثالث) من الضالين في القدر من خاصم الرب في جمعه بين القضاء والقدر والأمر والنهي كما يذكرون ذلك على لسان إبليس، وهؤلاء خصماء الله وأعداؤه. وأما أهل الإيمان فيؤمنون بالقضاء والقدر والأمر والنهي، ويفعلون المأمور، ويتركون المحظور، ويصبرون على المقدور، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف ٩٠].

فالتقوى تتناول فعل المأمور وترك المحظور، والصبر يتضمن الصبر على المقدور. وهؤلاء إذا أصابتهم مصيبة في الأرض أو في أنفسهم علموا أن ذلك في كتاب، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، فسلّموا الأمر لله، وصبروا على ما ابتلاهم به. وأما إذا جاء أمر الله فإنهم يسارعون في الخيرات، ويسابقون إلى الطاعات، ويدعون ربهم رغباً ورهباً، ويجتنبون محارمه ويحفظون حدوده، ويستغفرون الله ويتوبون إليه من تقصيرهم فيما أمر وتعدّيهم لحدوده؛ علماً منهم بأن التوبة فرض على العباد دائماً، واقتداء بنبيهم حيث يقول في الحديث الصحيح: « أيها الناس، توبوا إلى ربكم، فوالذي نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة » وفي رواية: «أكثر من سبعين مرة» وآخر سورة نزلت عليه:

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ [النصر ١ – ٣].

الجواب عن الكلمات المسؤول عنها

وإذا عرف هذان الأصلان فعليهما ينبني جواب ما في هذا السؤال من الكلمات ، ويعرف ما دخل في هذه الأمور من الضلالات .

كلماتهم في الحق والخلق :

فقول القائل : إن الله لطف ذاته فسماها حقا، وكثفها فسماها خلقاً هو من أقوال أهل الوحدة والحلول والاتحاد، وهو باطل فإن اللطيف إن كان هو الكثيف فالحق هو الخلق ولا تلطيف ولا تكثيف، وإن كان اللطيف غير الكثيف فقد أثبت الفرق بين الحق والخلق، وهذا هو الحق، وحينئذ فالحق لا يكون خلقاً، فلا يتصور أن ذات الحق تكون خلقاً بوجه من الوجوه، كما أن ذات المخلوق لا تكون ذات الخالق بوجه من الوجوه .

وكذلك قول الآخر : « ظهر فيها حقيقة واحتجب عنها مجازاً » فإنه إن كان الظاهر غير المظاهر فقد ثبت الفرق بين الرب والعبد، وإن لم يكن أحدهما غير الآخر فلا يتصور ظهور ولا احتجاب .

ثم قوله : « فمن كان من أهل الحق شهدها مظاهر ومجالي ، ومن كان من أهل الفرق شهدها ستوراً وحجباً» كلام ينقض بعضه بعضاً، فإنه إن كان الوجود واحداً لم يكن أحد الشاهدين غير الآخر، ولم يكن الشاهد غير المشهود ؛ ولهذا قال بعض شيوخ هؤلاء : من قال في الكون سوى الله فقد كذب. فقال له آخر: فمن الذي كذب ؟ فأفحمه ، وهذا لأنه إذا لم يكن موجود

سوى الواجب بنفسه كان هو الذي يكذب ويظلم ويأكل ويشرب ، وهذا يصرح به أئمة هؤلاء(1) . كما يقول صاحب الفصوص وغيره : إنه موصوف بجميع صفات الذم ، وإنه هو الذي يمرض ويضرب وتصيبه الآفات ويوصف بالمعايب والنقائض ، كما أنه هو الذي يوصف بنعوت المدح والذم .

قال : فالعلي بنفسه هو الذي يكون له جميع الصفات الثبوتية والسلبية سواء كانت محمودة عقلاً وشرعاً وعرفاً، أو مذمومة عقلاً وشرعاً وعرفاً، وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة.

وقال: ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات وأخبر بذلك عن نفسه، وبصفات النقص وبصفات الذم ؟ ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الخالق وكلها حق له كما أن صفات المخلوق حق للخالق.

وقول القائل * لقد حق لي عشق الوجود وأهله * يقتضي أنه يعشق إبليس وفرعون وهامان وكل كافر، ويعشق الكلاب والخنازير والبول والعذرة وكل خبيث، مع أنه باطل عقلاً وشرعاً(2) فهو كاذب في ذلك متناقض فيه، فإنه لو آذاه مؤذ وآلمه ألماً شديداً لأبغضه وعاداه، بل اعتدى في أذاه، فعشق الرجل لكل موجود محال عقلاً، محرم شرعاً(3).

---

(1) ويلتزمون الشق من كل ما أورده على كلماتهم فيقولون : الحق عين الخلق ، وإنما التلطيف والتكثيف تعليل للتسمية ؛ فالظاهر عين الباطن والشاهد عين المشهود. وسيأتي تصريحهم بهذا كله.

(2) أي وحسا وطبعا، فمذهبهم خيالي ناقض لكل حقائق الإدراك وأنواع العلم.

(3) أي وباطل وجداناً وطبعاً، أعني أنه غير واقع، فهو غير حق، وإنما هو خيال شعري محض .

وما ذكر عن بعضهم من قوله: عين ما ترى ذات لا ترى، وذات لا ترى عين ما ترى. هو من كلام ابن سبعين، وهو من أكابر أهل الشرك والإلحاد، والسحر والاتحاد، وكان من أفاضلهم وأذكيائهم وأخبرهم بالفلسفة وتصوف المتفلسفة.

وقول ابن عربي: ظاهره خلقه، وباطنه حقه. هو قول أهل الحلول، وهو متناقض في ذلك، فإنه يقول بالوحدة فلا يكون هناك موجودان أحدهما باطن والآخر ظاهر، والتفريق بين الوجود والعين، تفريق لا حقيقة له ، بل هو من أقوال أهل الكذب والمين.

وقول ابن سبعين : «رب مالك، وعبد هالك، وأنتم ذلك، الله فقط. والكثرة وهم» هو موافق لأصله الفاسد، وإن وجود المخلوق وجود الخالق ؛ ولهذا قال وأنتم ذلك. فإنه جعل العبد هالكاً أي لا وجود له فلم يبق إلا وجود الرب، فقال: وأنتم ذلك، وكذلك قال: الله فقط، والكثرة وهم فإنه على قوله لا موجود إلا الله. ولهذا كان يقول هو وأصحابه في ذكرهم: ليس إلا الله بدل قول المسلمين لا إله إلا الله.

وكان الشيخ قطب الدين بن القسطلاني يسميهم الليسية ويقول: احذروا هؤلاء الليسية ؛ ولهذا قال : « والكثرة وهم» وهذا تناقض، فإن قوله « وهم » يقتضي متوهماً، فإن كان المتوهم هو الوهم فيكون الله هو الوهم، وإن كان المتوهم هو غير الوهم فقد تعدد الوجود، وكذلك إن كان المتوهم هو الله فقد وصف الله بالوهم الباطل ، وهذا مع أنه كفر فهو يناقض قوله: الوجود واحد،

وإن كان المتوهم غيره، فقد أثبت غير الله، وهذا يناقض أصله، ثم متى ما أثبت غيراً لزمت الكثرة فلا تكون الكثرة وهما، بل تكون حقاً.

والبيتان المذكوران عن ابن عربي مع تناقضهما مبنيان على هذا الأصل، فإن قوله، ياصورة إنس سرها معنائي، خطاب على لسان الحق، يقول لصورة الإنسان، ياصورة إنس سرها معنائي، أي هي الصورة وأنا معناها، وهذا يقتضي أن المعنى غير الصورة، وهو يقتضي التعدد والتفريق بين المعنى والصورة، فإن كان وجود المعنى هو وجود الصورة، كما يصرح به، فلا تعدد. وإن كان وجود هذا غير وجود هذا، فهو متناقض في قوله.

وقوله * ما خلقك للأمر ترى لولائي * كلام مجمل يمكن أن يريد به معنى صحيحاً، أي لولا الخالق لما وجد المكلفون ولا خلق لأمر الله ، لكن قد عرف أنه لا يقول بهذا ، وأن مراده الوحدة والحلول والاتحاد ، ولهذا قال :

شئناك فأنشأناك خلقاً بشراً كي تشهدنا في أكمل الأشياء

فبين أن العبيد يشهدونه في أكمل الأشياء وهي الصورة الإنسانية ، وهذا يشير إلى الحلول ، وهو حلول الحق في الخلق ، لكنه متناقض في كلامه. فإنه لا يرضى بالحلول ، ولا يثبت موجودين حل أحدهما في الآخر ، بل عنده وجود الحال هو عين وجود المحل ، لكنه يقول بالحلول بين الثبوت والوجود ، فوجود الحق حل في ثبوت الممكنات ، وثبوتها حل في وجوده. وهذا الكلام لا حقيقة له في نفس الأمر ، فإنه لا فرق بين هذا وهذا ، لكنه هو مذهبه المتناقض في نفسه .

وأمـا الرجل الذي طلب من والده الحج فـأمـره أن يطوف بنفس الأب وقال: طف ببيت ما فارقه الله طرفة عين قط. فهذا كفر بإجماع المسلمين ، فإن الطواف بالبيت العتيق مما أمر الله به ورسوله ، وأما الطواف بالأنبياء والصالحين فحرام بإجماع المسلمين. ومن اعتقد ذلك دينا فهو كافر سواء طاف ببدنه أو بقبره.

وقوله «ما فارقه الله طرفة عين » إن أراد به الحلول المطلق العام فهو مع بطلانه متناقض فإنه لا فرق حينئذ بين الطائف والمطوف به ، فلم يكن طواف هذا بهذا أولى من العكس بل هذا مستلزم أن يطاف بالكلاب والخنازير والكفار ، والنجاسات والأقذار ، وكل خبيث وكل ملعون ؛ لأن الحلول والاتحاد العام يتناول هذا كله .

وقد قال مرة شيخهم الشيرازي ، لشيخه التلمساني ، وقد مر بكلب أجرب ميت: هذا أيضاً من ذات الله ؟ فقال: وثم خارج عنه ؟ ومر التلمساني ومعه شخص بكلب ، فركضه الآخر برجله ، فقال: لا تركضه فإنه منه ، وهذا مع أنه من أعظم الكفر والكذب الباطل في العقل والدين فإنه متناقض ، فإن الراكض والمركوض واحد وكذلك الناهي والمنهي ، فليس شيء من ذلك بأولى بالأمر والنهي من شيء ، ولا يعقل مع هذا تعدداً ، وإذا قيل مظاهر ومجالي. قيل : إن كان لها وجود غير وجود الظاهر والمتجلي ، فقد ثبت التعدد وبطلت الوحدة ، وإن كان وجود هذا هو وجود هذا لم يبق بين الظاهر والمظهر والمتجلى فيه فرق .

وإن أراد بقوله : ما فارقه الله طرفة عين -الحلول الخاص- كما تقوله النصارى في المسيح ، لزم أن يكون هذا الحلول ثابتاً له من حين خلق كما تقوله النصارى في المسيح ، فلا يكون ذلك حاصلاً له بمعرفته وعبادته وتحقيقه وعرفانه ، وحينئذ فلا يكون فرق بينه وبين غيره من الآدميين ، فلماذا يكون الحلول ثابتاً له دون غيره ؟ وهذا شر من قول النصارى ، فإن النصارى ادعوا ذلك في المسيح لكونه خلق من غير أب ، وهؤلاء الشيوخ لم يفضلوا في نفس التخليق ، وإنما فضلوا بالعبادة والمعرفة والتحقيق والتوحيد. وهذا أمر حصل لهم بعد أن لم يكن ، فإذا كان هذا هو سبب الحلول وجب أن يكون الحلول فيهم حادثاً لا مقارناً لخلقهم ، وحينئذ فقولهم : إن الرب ما فارق أبدانهم أو قلوبهم طرفة عين قط ، كلام باطل كيفما قدر.

* * *

وأما ما ذكر عن رابعة العدوية من قولها عن البيت: إنه الصنم المعبود في الأرض ؛ فهو كذب على رابعة ، ولو قال هذا من قاله لكان كافراً يستتاب فإن تاب وإلا قتل ، وهو كذب ، فإن البيت لا يعبده المسلمون ولكن يعبدون رب البيت بالطواف به والصلاة إليه ، وكذلك ما نقل من قولها: والله ما ولجه الله ولا خلا منه ، كلام باطل عليها. وعلى مذهب الحلولية لا فرق بين ذاك البيت وغيره في هذا المعنى فلأي مزية يطاف به ويصلى إليه ويحج دون غيره من البيوت ؟

وقول القائل : ما ولج الله فيه . كلام صحيح .

وأما قوله : ما خلا منه . فإن أراد أن ذاته حالة فيه أو ما يشبه هذا المعنى ، فهو باطل وهو مناقض لقوله ما ولج فيه ، وإن أراد به أن الاتحاد ملازم له لم يتجدد له ولوج ولم يزل غير حال فيه ، فهذا مع أنه كفر وباطل يوجب أن لا يكون للبيت ميزة على غيره من البيوت إذ الموجودات كلها عندهم كذلك .

* * *

وأما البيتان المنسوبان إلى الحلاج

سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لاهوته الثاقب

حتى بدا في خلقه ظاهرا ... في صورة الآكل والشارب

فهذه قد يعني بها الحلول الخاص كما تقوله النصارى في المسيح ، وكان أبو عبدالله بن خفيف الشيرازي قبل أن يطَّلع على حقيقة أمر الحلاج يذبّ عنه ، فلما أنشد هذين البيتين قال : لعن الله من قال هذا . وقوله :

عقد الخلائق في الإله عقائداً ... وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

فهذا البيت يعرف لابن عربي ؛ فإن كان قد سبقه إليه الحلاج وقد تمثل هو به فإضافته إلى الحلاج صحيحة ، وهو كلام متناقض باطل ، فإن الجمع بين النقيضين في الاعتقاد في غاية الفساد. والقضيتان المتناقضتان بالسلب والإيجاب على وجه يلزم من صدق إحداهما كذب الأخرى لا يمكن الجمع بينهما ، وهؤلاء يزعمون أنه يثبت عندهم في الكشف ما يناقض صريح العقل وأنهم يقولون بالجمع بين النقيضين وبين الضدين ، وأن من سلك

طريقهم يقول بمخالفة المعقول والمنقول. ولا ريب أن هذا من أفسد ما ذهب إليه أهل السفسطة.

ومعلومٌ أن الأنبياء عليهم السلام أعظم من الأولياء ، والأنبياء جاؤوا بما تعجز العقول عن معرفته ولم يجيئوا بما تعلم العقول بطلانه ، فهم يخبرون بمحارات العقول ، لا بمحالات العقول ، وهؤلاء الملاحدة يدّعون أنّ محالات العقول صحيحة ، وأنّ الجمع بين النقيضين صحيح ، وأن ما خالف صريح المعقول وصحيح المنقول صحيح. ولا ريب أنهم أصحاب خيال وأوهام يتخيلون في نفوسهم أموراً يتخيلونها ويتوهمونها فيظنونها ثابتة في الخارج وإنما هي من خيالاتهم. والخيال الباطل يتصور فيه ما لا حقيقة له . ولهذا يقولون: أرض الحقيقة هي أرض الخيال كما يقول ذلك ابن عربي وغيره ؛ ولهذا يحكون حكاية ذكرها سعيد الفرغاني - شارح قصيدة ابن الفارض - ، وكان من شيوخهم.

وأما قوله:

بيني وبينك إنيٌّ تزاحمني ... فارفع بحقك إنيِّي من البين

فإن هذا الكلام يفسر بمعانٍ ثلاثة ، يقوله الملحد ، ويقوله الزنديق ، ويقوله الصديق ، فالأول مراده به رفع ثبوت إنيته حتى يقال : إن وجوده هو وجود الحق وإنيته هي إنية الحق ، فلا يقال : إنه غير الله ولا سواه ؛ ولهذا قال سلف هؤلاء الملاحدة : إن الحلاج نصف رجل وذلك أنه لم ترفع له الإنيّة بالمعنى فرفعت له صورة يقولون : إنه لما لم ترفع إنيته في الثبوت في حقيقة

شهوده رفعت صورة . فقيل : وهذا القول مع ما فيه من الكفر والإلحاد فهو متناقض ينقض بعضه بعضا فإن قوله ، بيني وبينك إنيٌ تزاحمني ، خطاب لغيره. وإثبات إنية بينه وبين ربه وهذا إثبات أمور ثلاثة ؛ ولذلك يقول ، فارفع بحقك إنيي من البين ، طلب من غيره أن يرفع إنيته ، وهذا إثبات لأمور ثلاثة.

وهذا المعنى الباطل هو الفناء الفاسد وهو الفناء عن وجود السوى ، فإن هذا فيه طلب رفع الإنية وهو طلب الفناء ، والفناء ثلاثة أقسام : فناء عن وجود السوى ، وفناء عن شهود السوى ، وفناء عن عبادة السوى ؛ فالأول هو فناء أهل الوحدة الملاحدة كما فسروا به كلام الحلاج وهو أن يجعل الوجود وجوداً واحداً.

وأما الثاني وهو الفناء عن شهود السوى فهذا هو الذي يعرض لكثير من السالكين كما يحكى عن أبي يزيد وأمثاله وهو مقام الاصطلام ، وهو أن يغيب بموجوده عن وجوده ، وبمعبوده عن عبادته ، وبمشهوده عن شهادته ، وبمذكوره عن ذكره ، فيفنى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل ، وهذا كما يحكى أن رجلا كان يحب آخر فألقى المحبوب نفسه في الماء فألقى المحب نفسه خلفه فقال : أنا وقعت فلمَ وقعت أنت ؟ فقال: غبت بك عني ، فظننت أنك أني. فهذا حال من عجز عن شهود شيء من المخلوقات إذا شهد قلبه وجود الخالق ، وهو أمر يعرض لطائفة من السالكين .

ومن الناس من يجعل هذا من السلوك ، ومنهم من يجعله غاية السلوك ، حتى يجعلوا الغاية هو الفناء في توحيد الربوبية ، فلا يفرقون بين المأمور

والمحظور ، والمحبوب والمكروه. وهذا غلط عظيم غلطوا فيه بشهود القدر وأحكام الربوبية عن شهود الشرع والأمر والنهي وعبادة الله وحده وطاعة رسوله ، فمن طلب رفع إنيته بهذا الاعتبار لم يكن محموداً على هذا ولكن قد يكون معذوراً.

وأما النوع الثالث وهو الفناء عن عبادة السوى فهذا حال النبيين وأتباعهم وهو أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، وبحبه عن حب ما سواه ، وبخشيته عن خشية ما سواه ، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه ؛ فهذا تحقيق توحيد الله وحده لا شريك له ، وهو الحنيفية ملة إبراهيم. ويدخل في هذا أن يفنى عن اتباع هواه بطاعة الله فلا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله ولا يعطي إلا لله ولا يمنع إلا لله ؛ فهذا هو الفناء الديني الشرعي الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه .

ومن قال : * فارفع بحقك إنيي من البين * بمعنى أن يرفع هوى نفسه فلا يتبع هواه ولا يتوكل على نفسه وحوله وقوته ، بل يكون عمله لله لا لهواه، وعمله بالله وبقوته لا بحوله وقوته ، كما قال تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة ٥] .

فهذا حق محمود ، وهذا كما يحكى عن أبي يزيد أنه قال: رأيت رب العزة في المنام فقلت: خُداي[1] ، كيف الطريق إليك ؟ قال: اترك نفسك وتعال

(١) خدا ـ بضم الخاء ـ اسم الله بالفارسية ، وأضافه إلى ياء المتكلم . أي يا إلهي .

- أي اترك اتباع هواك والاعتماد على نفسك ، فيكون عملك لله واستعانتك بالله كما قال تعالى: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود ١٢٣] .

* * *

والقول المحكي عن ابن عربي * وبي حلفت وإن المقسم الله * هو أيضاً من إلحادهم وإفكهم : جعل نفسه حالفة بنفسه وجعل الحالف هو الله فهو الحالف والمحلوف به كما يقولون: أرسل من نفسه إلى نفسه رسولاً بنفسه فهو المرسل والمرسل إليه والرسول. وكما قال ابن الفارض في قصيدته نظم السلوك :

لها صلواتي بالمقام أقيمها ... وأشهد فيما أنها لي صلت
كلانا مصل واحد ساجد إلى ... حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان بي صلى سواي ولم تكن ... صلاتي لغيري في أدا كل ركعة

إلى أن قال :

ومــا زلت إياها وإياي لم تزل ... ولا فوق بل ذاتي لذاتي أحبت
وقد رفعت تاء المخاطب بيننا ... وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي
فإن دعيت كنت المجيب وإن أكن ... منادى أجابت من دعائي ولبت
إليّ رسولاً كنت مني مرسلاً ... وذاتي بآياتي عليّ استدلت

وأما المنقول عن عيسى ابن مريم ـ صلوات الله عليه ـ فهو كذب عليه ، وهو كلام ملحد كاذب وضعه على المسيح، وهذا لم ينقله عنه مسلم ولا نصراني، فإنه لا يوافق قول النصارى ، فإن قوله: إن الله اشتاق أن يرى ذاته المقدسة فخلق من نوره آدم وجعله كالمرآة ينظر إلى ذاته المقدسة فيها وإني أنا ذلك النور وآدم المرآة. فهذا الكلام مع ما فيه من الكفر والإلحاد متناقض ؛ وذلك أن الله سبحانه يرى نفسه كما يسمع كلام نفسه ، وهذا رسول الله ﷺ وهو عبد مخلوق لله قال لأصحابه : «إني أراكم من وراء ظهري كما أراكم من بين يدي » فإذا كان المخلوق قد يرى ما خلفه وهو أبلغ من رؤية نفسه فالخالق تعالى كيف لا يرى نفسه ؟ ، وأيضاً فإن شوقه إلى رؤية نفسه حتى خلق آدم يقتضي أنه لم يكن في الأزل يرى نفسه حتى خلق آدم.

ثم ذلك الشوق إن كان قديماً كان ينبغي أن يفعل ذلك في الأزل ، وإن كان محدثاً فلا بد من سبب يقتضي حدوثه ، مع أنه قد يقال : الشوق أيضاً صفة نقص ؛ ولهذا لم يثبت ذلك في حق الله تعالى وقد روي «طال شوق الأبرار إلى لقائي ، وأنا إلى لقائهم أشوق » وهو حديث ضعيف.

وقوله: فخلق من نوره آدم وجعله كالمرآة وأنا ذلك النور وآدم هو المرآة – يقتضي أن يكون آدم مخلوقاً من المسيح وهذا نقيض الواقع ، فإن آدم خلق قبل المسيح ، والمسيح خلق من مريم ومريم من ذرية آدم ، فكيف يكون آدم مخلوقاً من ذريته ؟ وإن قيل : المسيح هو نور الله . فهذا القول وإن كان من جنس قول النصارى فهو شر من قول النصارى ، فإن النصارى يقولون: إن

المسـيح هو الناسـوت واللاهوت الذي هـو الكلمـة هـي جـوهر الابن ، وهم يقولون: الاتحاد اتحاد اللاهوت والناسوت متجدد حين خلق بدن المسيح لا يقولون : إن آدم خلق من المسيح . إذ المسيح عندهم اسم اللاهوت والناسوت جميعاً وذلك يمتنع أن يخلق منه آدم وأيضاً فهم لا يقولون : إن آدم خلق من لاهوت المسيح(١) .

وأيضـاً فقول القائل : إن آدم خلق من نور الله الذي هو المسيح إن أراد به نوره الذي هـو صفة لله فذاك ليس هو المسيح الذي هو قائم بنفسـه إذ يمتنع أن يكون القائم بنفسـه صفـة لغـيره ، وإن أراد بنوره ما هـو نور منفصل عنه فمعلوم أن المسيح لم يكن شيئاً موجوداً منفصلاً قبل خلق آدم ، فامتنع على كل تقدير أن يكون آدم مخلوقاً من نور الله الذي هو المسيح .

وأيضـاً فـإذا كان آدم كالمرآة وهو ينظر إلى ذاته المقدسة فيها لزم أن يكون الظاهر في آدم هو مـثـال ذاته لا أن آدم هـو ذاته ولا مـثـال ذاته ولا كذاته ، وحينئذ فإن كان المراد بذلك أن آدم يعرف الله تعالى فيرى مثال ذاته العلمي في آدم فالرب تعالى يعرف نفسه فكان المثال العلمي إذا أمكن رؤيته كانت رؤيتـه للعلم المطابق له القائم بذاته أولى من رؤيته للعلم القائم بآدم ، وإن كان المراد أن آدم نفسـه مـثال لله فـلا يكون آدم هو المرآة بل يكون هو كالمثال الذي في المرآة .

---

(١) في نسخة : (وأيضاً فهم يقولون : إن آدم لاهوت المسيح) .

وأيضاً فتخصيص المسيح بكونه ذلك النور هو قول النصارى الذين يخصونه بأنه الله أو ابن الله ، وهؤلاء الاتحادية ضموا إلى قول النصارى قولهم بعموم الاتحاد حيث جعلوا في غير المسيح من جنس ما تقوله النصارى في المسيح.

* * *

وأما قول ابن الفارض:

وشاهد إذا استجليت ذاتك من ترى ... بغير مراء في المراة الصقيلة
أغيرك فيها لاح أم أنت ناظر ... إليك بها عند انعكاس الأشعة ؟

فهذا تمثيل فاسد ، وذلك أن الناظر في المرآة يرى مثال نفسه فيرى نفسه بواسطة المرآة لا يرى نفسه بلا واسطة ، فقولهم بوحدة الوجود باطل وبتقدير صحته ليس هذا مطابقاً له.

وأيضاً فهؤلاء يقولون بعموم الوحدة والاتحاد والحلول في كل شيء ، فتخصيصهم بعد هذا آدم أو المسيح يناقض قولهم بالعموم ، وإنما يخص المسيح ونحوه من يقول بالاتحاد الخاص كالنصارى والغالية من الشيعة وجهال النساك ونحوهم.

وأيضاً فلو قدر أن الإنسان يرى نفسه في المرآة فالمرآة خارجة عن نفسه فيرى نفسه أو مثال نفسه في غيره ، والكون عندهم ليس فيه غير ولا سوى ، فليس هناك مظهر مغاير للظاهر ولا مرآة مغايرة للرائي.

وهم يقولون : إن الكون مظاهر الحق ، فإن قالوا: المظاهر غير الظاهر لزم التعدد وبطلت الوحدة ، وإن قالوا المظاهر هي الظاهر لم يكن قد ظهر شيء في شيء ولا تجلي شيء في شيء ولا ظهر شيء لشيء ولا تجلى شيء لشيء وكان قوله : * وشاهد إذا استجليت نفسك من ترى * ... كلاما متناقضاً لأن هناك مخاطباً ومخاطباً ومرآة تستجلي فيها الذات ، فهذه ثلاثة أعيان ، فإن كان الوجود واحداً بالعين بطل هذا الكلام ، وكل كلمة يقولونها تنقض أصلهم.

فصل

وأما ما ذكره من قول ابن إسرائيل : الأمر أمران ، أمر بواسطة ، وأمر بغير واسطة ، إلى آخره -فمضمونه أن الأمر الذي بواسطة هو الأمر الشرعي الديني ، والذي بلا واسطة هو الأمر القدري الكوني. وجعله أحد الأمرين بواسطة والآخر بغير واسطة كلام باطل ، فإن الأمر الديني يكون بواسطة وبغير واسطة فإن الله كلم موسى وأمره بلا واسطة وكذلك كلم محمداً ﷺ وأمره ليلة المعراج ، وكذلك كلم آدم وأمره بلا واسطة ، وهي أوامر دينيه شرعية.

وأما الأمر الكوني فقول القائل إنه بلا واسطة خطأ ، بل الله تعالى خلق الأشياء بعضها ببعض، وأمر التكوين ليس هو خطاباً يسمعه المكون المخلوق فإن هذا ممتنع ، ولهذا قيل : إن كان هذا خطاباً له بعد وجوده لم يكن قد كون بكن بل كان قد تكون قبل الخطاب ، وإن كان خطاباً له قبل وجوده فخطاب

المعدوم ممتنع. وقد قيل في جواب هذا : إنه خطاب لمعلوم لحضوره في العلم وإن كان معدوماً في العين[1] وأما ما ذكره الفقير فهو سؤال وارد بلا ريب .

وأما ما ذكره عن شيخه من أن آدم كان توحيده ظاهراً وباطناً فكان قوله «لا تقرب » ظاهراً وكان أمره «بكل » باطناً (فيقال) إن أريد بكونه قال «كل» باطناً أنه أمره بذلك الباطن أمر تشريع ودين فهذا كذب وكفر ، وإن كان أراد أنه خلق ذلك وقدره وكونه فهذا قدر مشترك بين آدم وبين سائر المخلوقات فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، وإن قيل: إن آدم شهد الأمر الكوني القدري وكان مطيعاً بامتثاله له . كما يقول هؤلاء : إن العارف الشاهد للقدر لا يسقط عنه الملام ؛ فهذا مع أنه معلوم بطلانه بالضرورة من دين الإسلام فهو كفر باتفاق المسلمين ؛ فيقال : الأمر الكوني يكون موجوداً قبل وجود المكون ، لا يسمعه العبد وليس امتثاله مقدوراً له ، بل الرب يخلق ما كونه بمشيئته وقدرته ، والله تعالى ليس له شريك في الخلق والتكوين. والعبد وإن كان بمشيئته وقدرته والله خالق كل ذلك ، فتكوين الله للعبد ليس هو أمراً لعبد موجود في الخارج يمكنه الامتثال ، وكذلك ما خلقه من أحواله وأعماله خلقه بمشيئته وقدرته و ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس ٨٢] فكل ما كان من المكونات فهو داخل في هذا الأمر.

---

(١) لا يقال : إن المعدوم المعلوم لا يسمع الخطاب أيضاً ؛ لأن هذا الخطاب (كن) تكويني لا تكليفي فهو عبارة عن إرادة الخالق وقدرته بكونه ووجوده ، وعبر عن أثر هذا التعلق بقوله: (فيكون) ، والجملة تمثيل للأمرين بمن يأمر بشيء فينفذ أمره عقبه بغير مهلة كما سيأتي .

وأكل آدم من الشجرة ، وغير ذلك من الحوادث داخل تحت هذا كدخول آدم فنفس أكل آدم هو الداخل تحت هذا الأمر كما دخل آدم. فقول القائل: إنه قال لآدم في الباطن : « كل » مثل قوله إنه قال للكافر اكفر وللفاسق افسق ، والله لا يأمر بالفحشاء ، ولا يحب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يوجد منه خطاب باطن ولا ظاهر للكفار والفساق والعصاة بفعل الكفر والفسوق والعصيان ، وإن كان ذلك واقعاً بمشيئته وقدرته وخلقه وأمره الكوني ، فالأمر الكوني ليس هو أمراً للعبد أن يفعل ذلك الأمر بل هو أمر تكوين لذلك الفعل في العبد ، أو أمر تكوين لكون العبد على ذلك الحال(١).

فهو سبحانه الذي خلق الإنسان هلوعاً ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ [المعارج ٢٠، ٢١] وهو الذي جعل المسلمين مسلمين كما قال الخليل : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة ١٢٨] فهو سبحانه جعل العباد على الأحوال التي خلقهم عليها وأمره لهم بذلك أمر تكوين بمعنى أنه قال لهم: كونوا كذلك فيكونون كذلك كما لو قال للجماد : كن فيكون(١).

فأمر التكوين لا فرق فيه بين الجماد والحيوان ، وهو لا يفتقر إلى علم المأمور ولا إرادته ولا قدرته ، لكن العبد قد يعلم ما جرى به القدر في أحواله كما يعلم ما جرى به القدر في أحوال غيره ، وليس في ذلك علم منه بأن الله أمره في الباطن بخلاف ما أمره به في الظاهر ، بل أمره بالطاعة باطناً

---

(١) بينّا آنفاً أنه تمثيل للخلق والتكوين ، مباين لأمر التكليف .

وظاهراً ، ونهاه عن المعصية باطناً وظاهراً ، وقدر ما يكون فيه من طاعة ومعصية باطناً وظاهراً ، وخلق العبد وجميع أعماله باطناً وظاهراً ، وكون ذلك بقوله : « كن » باطناً وظاهراً .

وليس في القدر حجة لابن آدم ولا عذر، بل القدر يؤمن به ولا يحتج به ، والمحتج بالقدر فاسد العقل والدين متناقض ، فإن القدر إن كان حجة وعذراً لزم أن لا يلام أحد ولا يعاقب ولا يقتص منه ، وحينئذ فهذا المحتج بالقدر يلزمه إذا ظلم في نفسه وماله وعرضه وحرمته أن لا ينتصر من الظالم ولا يغضب عليه ولا يذمه. وهذا أمر ممتنع في الطبيعة لا يمكن أحد أن يفعله فهو ممتنع طبعاً محرم شرعاً.

ولو كان القدر حجة وعذراً لم يكن إبليس ملوماً ولا معاقباً ولا فرعون وقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الكفار ، ولا كان جهاد الكفار جائزاً ولا إقامة الحدود جائزاً ، ولا قطع السارق ولا جلد الزاني ولا رجمه ولا قتل القاتل ولا عقوبة معتد بوجه من الوجوه.

ولما كان الاحتجاج بالقدر باطلاً في فطر الخلق وعقولهم لم تذهب إليه أمة من الأمم ، ولا هو مذهب أحد من العقلاء الذين يطردون قولهم فإنه لا يستقيم عليه مصلحة أحد ، لا في دنياه ولا آخرته ، ولا يمكن اثنان أن يتعاشرا ساعة واحدة إن لم يكن أحدهما ملتزماً مع الآخر نوعاً من الشرع ، والشرع نور الله في أرضه ، وعدله بين عباده ، لكن الشرائع تتنوع فتارة تكون منزلة من عند الله كما جاءت به الرسل وتارة لا تكون كذلك ، ثم المنزلة

تارة تبدل وتغير كما غير أهل الكتاب شرائعهم ، وتارة لا تغير ولا تبدل ، وتارة يدخل النسخ في بعضها ، وتارة لا يدخل .

وأما القدر فإنه لا يحتج به أحد إلا عند اتباع هواه ، فإذا فعل فعلاً محرماً بمجرد هواه وذوقه ووجده من غير أن يكون له علم بحسن الفعل ومصلحته استند إلى القدر كما قال المشركون : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام ١٤٨] قال الله تعالى : ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام ١٤٨، ١٤٩] .

فبين أنهم ليس عندهم علم بما كانوا عليه من الدين ، وإنما يتبعون الظن. والقوم[(١)] لم يكونوا ممن يسوغ لكل أحد الاحتجاج بالقدر ، فإنه لو خرب أحد الكعبة أو شتم إبراهيم الخليل أو طعن في دينهم لعادوه وآذوه ، كيف وقد عادوا النبي ﷺ على ما جاء به من الدين ؟! وما فعله هو أيضاً من المقدور، فلو كان الاحتجاج بالقدر حجة لكان للنبي ﷺ وأصحابه. فإن كان كل ما يحدث في الوجود فهو مقدر ، فالمحق والمبطل يشتركان في الاحتجاج بالقدر إن كان الاحتجاج به صحيحاً ، ولكن كانوا يعتمدون على ما يعتقدونه من جنس دينهم وهم في ذلك يتبعون الظن ليس لهم به علم بل هم يخرصون.

---

(١) أي الذين قالوا : لو شاء الله ما أشركنا .. إلخ .

وموسى لما قال لآدم : «لماذا أخرجتنا وتفسك من الجنة ؟ » فقال آدم عليه السلام فيما قال لموسى: لم تلومني على أمر قدَّره الله علي قبل أن أخلق بأربعين عاماً ؟ فحج آدم موسى ، ولم يكن آدم عليه السلام محتجاً على فعل ما نهي عنه بالقدر ، ولا كان موسى ممن يحتج عليه بذلك فيقبله ، بل آحاد المؤمنين لا يفعلون مثل هذا ، فكيف آدم وموسى ؟ وآدم قد تاب عما فعل واجتباه ربه وهدى ، وموسى أعلم بالله من أن يلوم من هو دون نبي على فعل تاب منه ، فكيف بنبي من الأنبياء ؟ وآدم يعلم أنه لو كان القدر حجة لم يحتج إلى التوبة ولم يجر ما جرى من خروجه من الجنة وغير ذلك ، ولو كان القدر حجة لكان لإبليس وغيره ، وكذلك موسى يعلم أنه لو كان القدر حجة لم يعاقب فرعون بالغرق ولا بنو إسرائيل بالصعقة وغيرها ، كيف وقد قال موسى : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص ١٦] وقال : ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف ١٥٥] وهذا باب واسع .

وإنما كان لوم موسى لآدم من أجل المصيبة التي لحقتهم بآدم من أكل الشجرة ؛ ولهذا قال: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ واللوم لأجل المصيبة التي لحقت الإنسان نوع ، واللوم لأجل الذنب الذي هو حق الله نوع آخر ، فإن الأب لو فعل فعلاً افتقر به حتى تضرر بنوه فأخذوا يلومونه لأجل ما لحقهم من الفقر لم يكن هذا كلومه لأجل كونه أذنب. والعبد مأمور أن يصبر على المقدور ، ويطيع المأمور ، وإذا أذنب استغفر ، كما قال تعالى : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [غافر ٥٥] .

وقال تعالى : ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن ١١] .

قال طائفة من السلف: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم(١) .

فمن احتج بالقدر على ترك المأمور، وجزع من حصول ما يكرهه من المقدور فقد عكس الإيمان والدين ، وصار من حزب الملحدين المنافقين ، وهذا حال المحتجين بالقدر فإن أحدهم إذا أصابته مصيبة عظم جزعه وقل صبره، فلا ينظر إلى القدر ولا يسلم له ، وإذا أذنب ذنباً أخذ يحتج بالقدر ، فلا يفعل المأمور، ولا يترك المحظور ، ولا يصبر على المقدور ، ويدعي مع هذا أنه من كبار أولياء الله المتقين ، وأئمة المحققين الموحدين ، وإنما هو من أعداء الله الملحدين ، وحزب الشيطان اللعين .

وهذا الطريق إنما يسلكه أبعد الناس عن الخير والدين والإيمان ، تجد أحدهم أجبر الناس إذا قدر ، وأعظمهم ظلماً وعدواناً ، وأذل الناس إذا قهر، وأعظمهم جزعاً ووهنا ، كما جربه الناس من الأحزاب البعيدين عن الإيمان بالكتاب من أصناف الناس. والمؤمن إن قدر عدل وأحسن ، وإن قهر

---

(١) أي يرضى من الله فلا يعترض ولا يسخط ، ولا يلزم من رضاه بالقدر أن يرضى بالمقدور ولا يقاومه ، بل يجب عليه مقاومة المرض بالتداوي وتخريب الصواعق أو الظالمين بالتعمير ومقاومة المعتدين بإزالة عدوانهم ولو بالقتال ؛ خلافاً لما يقوله جهلة المتصوفة .

وغلب صبر واحتسب ، كما قال كعب بن زهير في قصيدته التي أنشدها للنبي ﷺ التي أولها بانت سعاد إلخ - في صفة المؤمنين.

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم يوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

وسئل بعض العرب عن شيء من أمر النبي ﷺ فقال : رأيته يَغلب فلا يبطر ، ويُغلب فلا يضجر ، وقد قال تعالى: ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف ٩٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران ١٢٠] وقال تعالى : ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران ١٢٥] وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران ١٨٦]

فذُكِرَ الصبر والتقوى في هذه المواضع الأربعة ؛ فالصبر يدخل فيه الصبر على المقدور ، والتقوى يدخل فيها فعل المأمور وترك المحظور؛ فمن رزق هذا وهذا فقد جمع له الخير ؛ بخلاف من عكس فلا يتقي الله بل يترك طاعته متبعاً لهواه ويحتج بالقدر ، ولا يصبر إذا ابتلي ولا ينظر حينئذ إلى القدر ، فإن هذا حال الاشقياء كما قال بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدري ، وعند المعصية جبري ، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به. يقول : أنت إذا أطعت جعلت نفسك خالقاً لطاعتك فتنسى نعمة الله عليك أن جعلك مطيعاً له ، وإذا عصيت لم تعترف بأنك فعلت الذنب بل تجعل نفسك بمنزلة المجبور عليه بخلاف مراده أو المحرك الذي لا إرادة له ولا قدرة ولا علم ، وكلاهما خطأ.

وقد ذكر أبو طالب المكي عن سهل بن عبدالله التستري أنه قال: إذا عمل العبد حسنة فقال : أيْ ربي ، أنا فعلت هذه الحسنة ، قال له ربه : أنا يسرتك لها ، وأنا أعنتك عليها. فإن قال : أي ربي ، أنت أعنتني عليها ويسرتني لها ، قال له ربه: أنت عملتها وأجرها لك. وإذا فعل سيئة فقال : أي ربي ، أنت قدرت علي هذه السيئة. قال له ربه : أنت اكتسبتها وعليك وزرها، فإن قال : أي ربي، إني أذنبت هذا الذنب وأنا أتوب منه، قال له ربه: أنا قدرته عليك ، وأنا أغفره لك . وهذا باب مبسوط في غير هذا الموضع .

وقد كثر في كثير من المنتسبين إلى المشيخة والتصوف شهود القدر فقط من غير شهود الأمر والنهي والاستناد إليه في ترك المأمور وفعل المحظور ، وهذا أعظم الضلال. ومن طرد هذا القول والتزم لوازمه كان أكفر من اليهود والنصارى والمشركين ، لكن أكثر من يدخل في ذلك يتناقض ولا يطرد قوله .

وقول هذا القائل هو من هذا الباب فقوله : آدم كان أمره بكل باطنا فأكل ، وإبليس كان توحيده ظاهراً فأمر بالسجود لآدم فرآه غيراً فلم يسجد فغير الله عليه وقال: ﴿ اخْرُجْ مِنْهَا ﴾ الآية . [الأعراف ١٨] .

فإن هذا مع ما فيه من الإلحاد كذب على آدم وإبليس ، فآدم اعترف بأنه هو الفاعل للخطيئة وأنه هو الظالم لنفسه ، وتاب من ذلك ولم يقل : إن الله ظلمني ، ولا إن الله أمرني في الباطن بالأكل ، قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة ٣٧] وقال تعالى: ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف ٢٣] .

وإبليس أصر واحتج بالقدر فقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر ٣٩] .

وأما قوله : رآه غيراً لم يسجد . فهذا شر من الاحتجاج بالقدر ، فإن هذا قول أهل الوحدة الملحدين ؛ وهو كذب على إبليس ؛ فإن إبليس لم يمتنع من السجود لكونه غيراً بل قال : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص ٧٦] .

ولم تؤمر الملائكة بالسجود لكون آدم ليس غيراً ، بل المغايرة بين الملائكة وآدم ثابتة معروفة ، والله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة ٣١، ٣٢] .

وكانت الملائكة وآدم معترفين بأن الله مباين لهم وهم مغايرون له ؛ ولهذا دعوه دعاء العبد ربه ، فآدم يقول : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف ٢٣] والملائكة تقول : ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة ٣٢] وتقول :﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ الآية . [غافر ٧] وقد قال تعالى : ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر ٦٤] . وقال تعالى : ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام ١٤] . وقال: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام ١١٤] .

فلو لم يكن هناك غير لم يكن المشركون أمروه بعبادة غير الله ، ولا اتخاذ غير الله ولياً ولا حكماً ، فلم يكونوا يستحقون الإنكار ، فلما أنكر

عليهم ذلك دل على ثبوت غير يمكن عبادته واتخاذه ولياً وحكماً ، وإنه من فعل ذلك فهو مشرك بالله كما قال تعالى : ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء ٢١٣] وقال : ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء ٢٢] وأمثال ذلك .

وأما قول القائل : إن قوله : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران ١٢٨]. عين الإثبات للنبي ﷺ كقوله : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال ١٧] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح ١٠] . فهذا بناء على قول أهل الوحدة والاتحاد ، وجعل معنى قوله : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران ١٢٨] أن فعلك هو فعل الله لعدم المغايرة ، وهذا ضلال عظيم من وجوه :

(أحدها) أن قوله : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران ١٢٨]. نزل في سياق قوله : ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران ١٢٧، ١٢٨] .

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ كان يدعو على قوم من الكفار أو يلعنهم في القنوت ، فلما أنزل الله هذه الآية ترك ذلك. فعلم أن معناها إفراد الرب تعالى بالأمر وأنه ليس لغيره أمر بل إن شاء الله تعالى قطع طرفاً من الكفار ، وإن شاء كبتهم فانقلبوا بالخسارة ، وإن شاء تاب عليهم ، وإن شاء عذبهم . وهذا كما قال في الآية الأخرى : ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف ١٨٨] . ونحو ذلك قوله

تعـالى: ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا ﴾ [آل عمران ١٥٤] ﴿ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّه ﴾ [آل عمران ١٥٤] .

(الوجه الثاني) أن قوله : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال ١٧]. لم يرد به أن فعل العبد هو فعل الله تعالى كما تظنه طائفة من الغالطين ، فإن ذلك لو كان صحيحاً لكان ينبغي أن يقال لكل أحد ، حتى يقال للماشي: ما مشيت إذ مشيت ولكن الله مشى. ويقال للراكب: ما ركبت إذ ركبت ولكن الله ركب. ويقال للمتكلم : ما تكلمت إذ تكلمت ولكن الله تكلم: ويقال مثل ذلك للآكل والشارب والصائم والمصلي ونحو ذلك. وطرد ذلك يستلزم أن يقال للكافر : ما كفرت إذ كفرت ولكن الله كفر. ويقال للكاذب : ما كذبت إذ كذبت ولكن الله كذب. ومن قال مثل هذا فهو ملحد خارج عن العقل والدين. ولكن معنى الآية أن النبي ﷺ يوم بدر رماهم ولم يكن في قدرته أن يوصل الرمي إلى جميعهم فإنه إذ رماهم بالتراب وقال : « شاهت الوجوه » لم يكن في قدرته أن يوصل ذلك إليهم كلهم ، فالله تعالى أوصل ذلك الرمي إليهم كلهم بقدرته. يقول : وما أوصلت إذ حذفت ولكن الله أوصل ، فالرمي الذي أثبته له ليس هو الرمي الذي نفاه عنه فإن هذا مستلزم للجمع بين النقيضين بل نفى عنه الإيصال والتبليغ ، وأثبت له الحذف والإلقاء ، وكذلك إذا رمى سهماً فأوصله الله إلى العدو إيصالاً خارقاً للعادة كان الله هو الذي أوصلها بقدرته .

(الوجة الثالث) أنه لو فرض أن المراد بهذه الآية أن الله خالق أفعال العباد فهذا المعنى حق ، وقد قال الخليل : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ [البقرة ١٢٨] فالله هو الذي جعل المسلم مسلماً ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾

إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج ١٩ – ٢١] .
فالله هو الذي خلقه هلوعاً ، لكن ليس في هذا أن الله هو العبد ، ولا أن وجود الخالق هو وجود المخلوق ، ولا أن الله حالّ في العبد ، فالقول بأن الله خالق أفعال العباد حق ، والقول بأن الخالق حالّ في المخلوق أو وجوده وجود المخلوق باطل ، وهؤلاء ينتقلون من القول بتوحيد الربوبية إلى القول بالحلول والاتحاد ، وهذا عين الضلال والإلحاد.

(الوجه الرابع) أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح ١٠] . لم يرد به أنك أنت الله ، وإنما أراد أنك أنت رسول الله ومبلغ أمره ونهيه ، فمن بايعك فقد بايع الله ، كما أن من أطاعك فقد أطاع الله ، ولم يرد بذلك أن الرسول هو الله ؛ ولكن الرسول أمر بما أمر الله به ؛ فمن أطاعه فقد أطاع الله ، كما قال النبي ﷺ : « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن عصى أميري فقد عصاني » ومعلوم أن أميره ليس هو إياه.

ومن ظن في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح ١٠] . أن المراد به أن فعلك هو فعل الله ، أو المراد أن الله حال فيك ونحو ذلك ؛ فهو مع جهله وضلاله بل كفره وإلحاده ، قد سلب لرسول خاصيته وجعله مثل غيره ، وذلك أنه لو كان المراد به كون الله فاعلاً لفعلك لكان هذا قدراً مشتركاً بينه وبين سائر الخلق ، وكان من بايع أبا جهل فقد بايع الله ، ومن بايع مسيلمة فقد بايع الله ، ومن بايع قادة الأحزاب فقد بايع الله ، وعلى هذا التقدير فالمبايع هو الله أيضاً ، فيكون الله قد بايع الله ، إذ الله خالق لهذا

ولهذا ، وكذلك إذا قيل بمذهب أهل الحلول والوحدة والاتحاد فإنه عام عندهم في هذا وهذا فيكون الله قد بايع الله.

وهذا يقوله كثير من شيوخ هؤلاء الحلولية الاتحادية ، حتى إن أحدهم إذا أمر بقتال العدو يقول : أقاتل الله ؟ ما أقدر أن أقاتل الله ، ونحو هذا الكلام الذي سمعناه من شيوخهم ، وبيَّنا فساده لهم وضلالهم فيه غير مرة.

وأما الحلول الخاص فليس هو قول هؤلاء بل هو قول النصارى ومن وافقهم من الغالية(١) وهو باطل أيضاً ، فإن الله سبحانه قال له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران ١٢٨] . وقال : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن ١٩] وقال : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ [الإسراء ١] وقال : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة ٢٣] وقال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح ١٨ - ١٩] .

فقوله : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح ١٨] . بين قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح ١٠] . ولهذا قال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح ١٠] . ، ومعلوم أن يد النبي ﷺ كانت مع أيديهم ، كانوا يصافحونه ويصفقون على يده في البيعة ، فعلم أن يد الله فوق أيديهم ليست هي يد النبي ﷺ ولكن الرسول عبدالله ورسوله فبايعهم عن الله وعاهدهم وعاقدهم عن الله ، فالذين بايعوه بايعوا الله الذي أرسله وأمره ببيعتهم ، ألا

---

(١) أي غالية الرافضة ، وهم الباطنية.

ترى أن كل من وكل شخصاً بعقد مع الوكيل كان ذلك عقداً مع الموكل ، ومن وكل نائباً له في معاهدة قوم فعاهدهم عن مستنيبه كانوا معاهدين لمستنيبه ، ومن وكل رجلاً في نكاح أو تزويج كان الموكل هو الزوج الذي وقع له العقد . وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ الآية . [التوبة ١١١] ولهذا قال في تمام الآية : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح ١٠] .

فتبين أن قول ذلك الفقير هو القول الصحيح وأن الله إذا كان قد قال لنبيه : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران ١٢٨] . فأي شيء نكون نحن ؟ وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال : « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم فإنما أنا عبد ؛ فقولوا : عبد الله ورسوله » .

وأما قول القائل :

ما غبت عن القلب ولا عن عيني ... مـــا بينكم وبيننا من بين

فهذا القول مبني على قول هؤلاء ، وهو باطل متناقض فإن مبناه على أنه يرى الله بعينه ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: « واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتي يموت » ، وقد اتفق أئمة المسلمين على أن أحداً من المؤمنين لا يرى الله بعينه في الدنيا ، ولم يتنازعوا إلا في النبي ﷺ مع أن جماهير الأئمة على أنه لم يره بعينه في الدنيا ، وعلى هذا دلت الآثار الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ والصحابة وأئمة المسلمين .

ولم يثبت عن ابن عباس ولا عن الإمام أحمد وأمثالهما أنهم قالوا : إن محمداً رأى ربه بعينه ؛ بل الثابت عنهم إما إطلاق الرؤية وإما تقييدها بالفؤاد وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة أنه رآه بعينه ، وقوله : « أتاني البارحة ربي في أحسن صورة » الحديث الذي رواه الترمذي وغيره إنما كان بالمدينة في المنام ، هكذا جاء مفسراً وكذلك حديث أم الطفيل وحديث ابن عباس وغيرهما مما فيه رؤية ربه إنما كان بالمدينة كما جاء مفسرا في الأحاديث ، والمعراج كان بمكة كما قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ﴾ [الإسراء ١] . وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع.

وقد ثبت بنص القرآن أن موسى قيل له : ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ [الأعراف ١٤٣] ، وأن رؤية الله أعظم من إنزال كتاب من السماء ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء ١٥٣] . فمن قال : إن أحداً من الناس يراه فقد زعم أنه أعظم من موسى بن عمران ، ودعواه أعظم من دعوى من ادعى أن الله أنزل عليه كتاباً من السماء .

والناس في رؤية الله على ثلاثة أقوال : فالصحابة والتابعون وأئمة المسلمين على أن الله يُرى في الآخرة بالأبصار عياناً ، وأن أحداً لا يراه في الدنيا بعينه لكن يرى في المنام ويحصل للقلوب من المكاشفات والمشاهدات ما يناسب حالها. ومن الناس من تقوى مشاهدةُ قلبه حتى يظن أنه رأى ذلك

بعينه وهو غالط ، ومشاهدات القلوب تحصل بحسب إيمان العبد ومعرفته في صورة مثالية كما قد بسط في غير هذا الموضع.

(والقول الثاني) قول نفاة الجهمية أنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة.

(والثالث) قول من يزعم أنه يرى في الدنيا والآخرة.

وحلولية الجهمية يجمعون بين النفي والإثبات فيقولون : إنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة ، وإنه يرى في الدنيا والآخرة ، وهذا قول ابن عربي صاحب الفصوص وأمثاله ؛ لأن الوجود المطلق الساري في الكائنات لا يرى وهو وجود الحق عندهم .

ثم من أثبت الذوات قال : يرى متجلياً فيها ، ومن فرق بين المطلق والمعين قال : لا يرى إلا مقيداً بصورة.

وهؤلاء قولهم دائر بين أمرين : إنكار رؤية الله وإثبات رؤية المخلوقات ، ويجعلون المخلوق هو الخالق ، أو يجعلون الخالق حالاً في المخلوق ، وإلا فتفريقهم بين الأعيان الثابتة في الخارج وبين وجودها هو قول من يقول بأن المعدوم شيء في الخارج ، وهو قول باطل ، وقد ضموا إليه أنهم جعلوا نفس وجود المخلوق هو وجود الخالق ، وأما التفريق بين المطلق والمعين مع أن المطلق لا يكون هو في الخارج مطلقاً فيقتضي أن يكون الرب معدوماً ، وهذا هو جحود الرب وتعطيله ، وإن جعلوه ثابتاً في الخارج جعلوه جزءاً من الموجودات فيكون الخالق جزءاً من المخلوق أو عرضاً قائماً بالمخلوق ، وكل هذا مما يعلم فساده بالضرورة ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع.

وأما تناقضه فقوله :

ما غبت عن القلب ولا عن عيني   مـــــا بينكم وبيننا من بين

يقتضي المغايرة ، وأن المخاطب غير المخاطب ، وأن المخاطب له عين وقلب لا يغيب عنهما المخاطب بل يشهده القلب والعين ، والشاهد غير المشهود.

وقوله : * ما بينكم وبيننا من بين * فيه إثبات ضمير المتكلم وضمير المخاطب ، وهذا إثبات لاثنين ، وإن قالوا : هذه مظاهر ومجالي ، قيل : فإن كانت المظاهر والمجالي غير الظاهر والمتجلي فقد ثبتت التثنية وبطلت الوحدة ، وإن كان هو إياها فقد بطل التعدد ؛ فالجمع بينهما تناقض.

وقول القائل :

فارق ظلم الطبع وكن متحدا   بالله وإلا فكل دعواك محال

إن أراد الاتحاد المطلق فالمفارق هو المفارق وهو الطبع وظلم الطبع وهو المخاطب بقوله : « وكن متحداً بالله » وهو المخاطب بقوله : « كل دعواك محال » وهو القائل هذا القول ، وفي ذلك من التناقض ما لا يخفى ، وإن أراد الاتحاد المقيد فهو ممتنع لأن الخالق والمخلوق إذا اتحدا فإن كانا بعد الاتحاد اثنين كما كانا قبل الاتحاد فذلك تعدد وليس باتحاد ، وإن كانا استحالا إلى شيء ثالث كما يتحد الماء واللبن والنار والحديد ، ونحو ذلك مما يثبته النصارى بقولهم في الاتحاد لزم من ذلك أن يكون الخالق قد استحال وتبدلت حقيقته كسائر ما يتحد مع غيره فإنه لا بد أن يستحيل ، وهذا ممتنع

على الله تعالى ينزه عنه ؛ لأن الاستحالة تقتضي عدم ما كان موجوداً ، والرب تعالى واجب الوجود بذاته وصفاته اللازمة له ، يمتنع العدم على شيء من ذلك ، ولأن صفات الرب اللازمة له صفات كمال ، فعدم شيء منها نقص يتعالى الله عنه ، ولأن اتحاد المخلوق بالخالق يقتضي أن العبد متصف بالصفات القديمة اللازمة لذات الرب ، وذلك ممتنع على العبد المحدث المخلوق، فإن العبد يلزمه الحدوث والافتقار والذل ، والرب تعالى يلازمه القدم والغنى والعزة ، وهو سبحانه قديم غني عزيز بنفسه يستحيل عليه نقيض ذلك ؛ فاتحاد أحدهما بالآخر يقتضي أن يكون الرب متصفاً بنقيض صفاته من الحدوث والفقر والذل ، والعبد متصفاً بنقيض صفاته من القدم والغنى الذاتي والعز الذاتي. وكل ذلك ممتنع. وبسط هذا يطول .

ولهذا سئل الجنيد عن التوحيد فقال : التوحيد إفراد الحدوث عن القدم. فبين أنه لا بد من تمييز المحدث عن القديم.

ولهذا اتفق أئمة المسلمين على أن الخالق بائن عن مخلوقاته ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، بل الرب رب والعبد عبد ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَداً ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً ﴿٩٥﴾﴾ [مريم ٩٣ - ٩٥].

فإن كان المتكلم بهذا البيت أراد الاتحاد الوصفي وهو أن يحب العبد ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله، ويرضى بما يرضى الله، ويغضب لما يغضب الله، ويأمر بما يأمر الله، وينهى عما ينهى الله عنه ، ويوالي من يواليه

الله، ويعادي من يعاديه الله، ويحب لله ، ويبغض لله ، ويعطي لله ، ويمنع لله ، بحيث يكون موافقاً لربه تعالى، فهذا المعنى حق وهو حقيقة الإيمان وكماله، كما في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش وبي يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ، ولا بد له منه ».

وهذا الحديث يحتج به أهل الوحدة وهو حجة عليهم من وجوه كثيرة ؛ (منها) أنه قال : «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة » فأثبت نفسه ووليه ومعادي وليه ؛ وهؤلاء ثلاثة ، ثم قال : « وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه » فأثبت عبداً يقرب إليه بالفرائض ثم بالنوافل ، وإنه لا يزال يتقرب بالنوافل حتى يحبه ؛ فإذا أحبه كان العبد يسمع به ، ويبصر به ، ويبطش به ، ويمشي به.

وهؤلاء عندهم قبل أن يتقرب بالنوافل وبعده هو عين العبد وعين غيره من المخلوقات فهو بطنه وفخذه ، لا يخصون ذلك بالأعضاء الأربعة المذكورة في الحديث ؛ فالحديث مخصوص بحال مقيد ، وهم يقولون بالإطلاق والتعميم ، فأين هذا من هذا ؟

وكذلك قد يحتجون بما في الحديث الصحيح : «إن الله يتجلى لهم يوم القيامة ثم يأتيهم في صورة غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة فيقول: أنا ربكم ، فيقولون: نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، ثم يأتيهم في الصورة التي رأوه فيها في أول مرة فيقول: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا » ؛ فيجعلون هذا حجة لقولهم : إنه يرى في الدنيا في كل صورة بل هو كل صورة ، وهذا الحديث حجة عليهم في هذا أيضاً ، فإنه لا فرق عندهم بين الدنيا والآخرة وهو عندهم في الآخرة المنكرون(١) الذين قالوا : نعوذ بالله منك هذا ، مكاننا حتى يأتينا ربنا . وهؤلاء الملاحدة يقولون : إن العارف يعرفه في كل صورة ، فإن الذين أنكروه يوم القيامة في بعض الصور كان لقصور معرفتهم. وهذا جهل منهم فإن الذين أنكروه يوم القيامة ثم عرفوه لما تجلى لهم في الصورة التي رأوه فيها أول مرة هم الأنبياء والمؤمنون ، وكان إنكارهم مما حمدهم سبحانه وتعالى عليه ، فإنه امتحنهم بذلك حتى لا يتبعوا غير الرب الذي عبدوه ، فلهذا قال في الحديث : «وهو يسألهم ويثبتهم ، وقد نادى المنادي : ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون ».

ثم يقال لهؤلاء الملاحدة : إذا كان عندكم هو الظاهر في كل صورة ، فهو المنكر وهو المنكر ، كما قال بعض هؤلاء لآخر: من قال لك : إن في الكون سوى الله فقد كذب ، وقال له الآخر : فمن هو الذي كذب ؟ وذكر ابن عربي أنه دخل على مريد له في الخلوة وقد جاءه الغائط فقال : ما أبصر غيره أبول

(١) أي هو تعالى عين الذين ذكر في الحديث أنهم ينكرونه حين يجيئهم على غير الصورة التي رأوه عليها في أول مرة .

عليه ، فقال له شيخه : فالذي يخرج من بطنك من أين هو ؟ قال : فرجت عني ، ومر شيخان منهم التلمساني هذا والشيرازي على كلب أجرب ميت فقال الشيرازي للتلمساني: هذا أيضاً من ذاته ؟ فقال التلمساني : هل ثم شيء خارج عنها ؟ وكان التلمساني قد أضل شيخاً زاهداً عابداً ببيت المقدس يقال له أبو يعقوب المغربي المبتلى ، حتى كان يقول: الوجود واحد ، وهو الله ، ولا أرى الواحد ، ولا أرى الله. ويقول : نطق الكتاب والسنة بثنوية الوجود ، والوجود واحد لا ثنوية فيه. ويجعل هذا الكلام له تسبيحاً يتلوه كما يتلو التسبيح .

* * *

وأما قول الشاعر :

إذا بلغ الصب الكمال من الهوى   وغاب عن المذكور في سطوة الذكر

فشاهد حقاً حين يشهده الهوى   بأن صلاة العارفين من الكفر

فهذا الكلام مع أنه كفر هو كلام جاهل لا يتصور ما يقول ، فإن الفناء والغيب هو أن يغيب بالمذكور عن الذكر ، وبالمعروف عن المعرفة ، وبالمعبود عن العبادة حتى يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل ، وهذا مقام الفناء الذي يعرض الكثير من السالكين لعجزهم عن كمال الشهود المطابق للحقيقة ، بخلاف الفناء الشرعي فمضمونه الفناء بعبادته عن عبادة ما سواه وبحبه عن حب ما سواه ، وبخشيته عن خشية ما سواه ، وبطاعته عن طاعة ما سواه ، فإن هذا تحقيق التوحيد والإيمان .

(وأما النوع الثالث) من الفناء وهو الفناء عن وجود السوى بحيث يرى أن وجود الخالق هو وجود المخلوق – فهذا هو قول هؤلاء الملاحدة أهل الوحدة.

والمقصود هنا أن قوله: يغيب عن المذكور ، كلام جاهل ، فإن هذا لا يحمد أصلا ، بل المحمود أن يغيب بالمذكور عن الذكر لا يغيب عن المذكور في سطوات الذكر ، اللَّهم إلا أن يريد أنه غاب عن المذكور فشهد المخلوق وشهد أنه الخالق ولم يشهد الوجود إلا واحداً ونحو ذلك من المشاهد الفاسدة ؛ فهذا شهود أهل الإلحاد لا شهود الموحدين ، ولعمري أن من شهد هذا الشهود الإلحادي فإنه يرى صلاة العارفين من الكفر.

* * *

وأما قول القائل :

الكون يناديك ، أمَا تسمعني ... من ألّف أشتاتي ومن فرّقني

انظر لتراني منظراً معتبراً ... ما فيَّ سوى وجود من أوجدني

فهو من أقوال هؤلاء الملاحدة وأقوالهم كفر متناقض باطل في العقل والدين فإنه إذا لم يكن فيه إلا وجود من أوجده كان ذلك الوجود هو الكون المنادى وهو المخاطب المنادى ، وهو الأشتات المؤلفة المفرقة ، وهو المخاطب الذي قيل له: انظر وحينئذ يكون الوجود الواجب القديم الأزلي قد أوجب نفسه وفرقها وألفها ؛ فهذا جمع بين النقيضين فإن الواجب بنفسه لا يكون مفعولاً مصنوعاً ، والشيء الواحد لا يكون خالقاً مخلوقاً ، قديماً محدثاً ، واجباً بنفسه واجباً بغيره ، فإن هذا جمع بين النقيضين .

فالواجب هو الذي لا تقبل ذاته العدم ، والممكن هو الذي تقبل ذاته العدم ، فيمتنع أن يكون الشيء الواحد قابلاً للعدم غير قابل للعدم ، والقديم هو الذي لا أول لوجوده والمحدث هو الذي له أول ، فيمتنع كون الشيء الواحد قديماً محدثاً.

ولولا أن قد علم مرادهم بهذا القول لأمكن أن يراد بذلك: ما في سوى الوجود وجود الذي أوجدني ، وتكون إضافة الوجود إلى الله إضافة الملك ، لكن قد علم أنه لم يرد هذا ؛ ولأن هذه العبارة لا تستعمل في هذه المعنى ، وإنما يراد بوجود الله وجود ذاته لا وجود مخلوقاته ، وهكذا قول القائل :

ذات وجـــود الـــكون للخلق شـــهـــود
أن لـيــس لـموجــــو د ســـوى الحق وجـــود

مراده أن وجود الكون هو نفس وجود الحق ، وهذا هو قول أهل الوحدة، وإلا فلو أراد أن وجود كل موجود من المخلوقات هو من الحق تعالى فليس لشيء وجود من نفسه ، وإنما وجوده من ربه والأشياء باعتبار أنفسها لا تستحق سوى العدم ، وإنما حصل لها الوجود من خالقها وبارئها ، فهي دائمة الافتقار إليه لا تستغنى عنه لحظة لا في الدنيا ولا في الآخرة لكان قد أراد معنى صحيحاً، وهو الذي عليه أهل العقل والدين من الأولين والآخرين.

وهؤلاء القائلون بالوحدة قولهم متناقض ؛ ولهذا يقولون الشيء ونقيضه وإلا فقوله : منه وإلى علاه يبدي ويعيد. يناقض الوحدة ، فمن هو البادي والعائد منه وإليه إذا لم يكن إلا واحداً ؟ وقوله:

وما أنا في طراز الكون شيء لأني مثل ظل مستحيل

يناقض الوحدة ؛ لأن الظل مغاير لصاحب الظل ، فإذا شبه المخلوق بالظل لزم اثنين ، كما إذا شبهه بالشعاع ، فإن شعاع الشمس ليس هو نفس قرص الشمس ، وكذلك إذا شبهه بضوء السراج وغيره.

والنصارى تشبه الحلول والاتحاد بهذا.

(وقلت) لمن حضرني منهم وتكلم بشيء من هذا: فإذا كنتم تشبهون المخلوق بالشعاع الذي للشمس والنار والخالق بالنار والشمس ، فلا فرق في هذا بين المسيح وغيره فإن كل ما سوى الله على هذا هو بمنزلة الشعاع والضوء ، فما الفرق بين المسيح وبين إبراهيم وموسى ؟ بل ما الفرق بينه وبين المخلوقات على هذا ؟ وجعلت أردد عليه هذا الكلام. وكان في المجلس جماعة حتى فهمه فهما جيداً وتبين له وللحاضرين أن قولهم باطل لا حقيقة له ، وإن ما أثبتوه للمسيح إما ممتنع في حق كل أحد وإما مشترك بين المسيح وغيره. وعلى التقديرين فتخصيص المسيح بذلك باطل.

(وذكرت له) أنه ما من آية جاء بها المسيح إلا وقد جاء موسى بأعظم منها ، فإن المسيح - عليه السلام - وإن كان جاء بإحياء الموتى فالموتى الذين أحياهم الله على يد موسى أكثر كالذين قالوا : ﴿نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة ٥٥] . فأخذتهم الصاعقة ثم بعثهم الله بعد موتهم كما قال : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة ٥٦] . وكالذي ضرب ببعض البقرة ، وغير ذلك ، وقد جاء بإحياء الموتى غير واحد من الأنبياء والنصارى يصدقون بذلك .

وأما جعل العصا حية فهي أعظم من إحياء الميت فإن الميت كانت فيه حياة فردت الحياة إلى محل كانت فيه الحياة ؛ وأما جعل خشبة يابسة حيواناً تبتلع العصي والحبال فهذا أبلغ في القدرة وأندر ؛ فإن الله يحيي الموتى ولا يجعل الخشب حياة .

وأما إنزال المائدة من السماء فقد كان ينزل على قوم موسى كل يوم من المن والسلوى ، وينبع لهم من الحجر من الماء ما هو أعظم من ذلك ، فإن الحلوى أو اللحم دائماً هو أجل في نوعه وأعظم في قدره مما كان على المائدة من الزيتون والسمك وغيرهما(١) .

وذكرت له نحوا من ذلك مما يبين أن تخصيص المسيح بالاتحاد ودعوى الإلهية ليس له وجه ، وأن سائر ما يذكر فيه إما أن يكون مشتركاً بينه وبين غيره من المخلوقات ، وإما أن يكون مشتركاً بينه وبين غيره من الأنبياء والرسل ، مع أن بعض الرسل كإبراهيم وموسى قد يكون أكمل في ذلك منه ، وأما خلقه من امرأة بلا رجل فخلق حواء من رجل بلا امرأة أعجب من ذلك ، فإنه خلق من بطن امرأة ، وهذا معتاد ، بخلاف الخلق من ضلع رجل فإن هذا ليس بمعتاد. فما من أمر يذكر في المسيح - عليه السلام - إلا وقد

---

(١) لا يوجد في الأناجيل ولا غيرها من كتب النصارى ذكر لإنزال مائدة من السماء ، وإنما فيها أن المسيح أطعم العدد الكثير في عيد الفصح من خبز وسمك قليل ؛ كما حصل من نبينا ﷺ يوم الخندق وغيره ، فإما يراد هذا بنزول المائدة عليهم من السماء بمعنى أنها بقدرة الله ، وإما أن المائدة لم تنزل لعدم قبولهم بالشرط الذي قيد الله نزولها به ؛ كما قال بعض المفسرين من السلف . (راجع تفسير آخر سورة المائدة من تفسير المنار) .

شركه فيه أو فيما هو أعظم منه غيره من بني آدم ، فعلم قطعاً أن تخصيص المسيح باطل ، وأن ما يدعونه له إن كان ممكنا فلا اختصاص له به ، وإن كان ممتنعاً فلا وجود له فيه ولا في غيره ؛ ولهذا قال هؤلاء الاتحادية: إن النصارى إنما كفروا بالتخصيص ، وهذا أيضاً باطل. فإن في الاتحاد عموماً وخصوصاً.

والمقصود هنا أن تشبيه الاتحادية أحدهم بالظل المستحيل يناقض قولهم بالوحدة ، وكذلك قول الآخر:

أحن إليـــه وهو قلبي وهل يرى   سـواي أخـو وجـد يحن لقلبـه ؟
ويحـجب طرفي عنه إذ هو ناظري   ومـا بعـده إلا لإفـراط قـربه

هو مع ما قصده به من الكفر والاتحاد كلام متناقض ؛ فإن حنين الشيء إلى ذاته متناقض؛ ولهذا قال: وهل يرى سواي أخو وجد يحن لقلبه؟ وقوله: * وما بعده إلا لإفراط قربه * متناقض ، فإنه لا قرب ولا بعد عند أهل الوحدة ، فإنها تقتضي اثنين يقرب أحدهما من الآخر ، والواحد لا يقرب من ذاته ولا يبعد من ذاته.

* * *

وأما قول القائل : التوحيد لا لسان له والألسنة كلها لسانه ؛ فهذا أيضاً من قول أهل الوحدة ، وهو مع كفره قول متناقض ، فإنه قد يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أن لسان الشرك لا يكون له لسان التوحيد ، وأن أقوال

المشركين الذين قالوا: ﴿ لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [نوح ٢٣] والذين قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر ٣] والذين قالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ [هود ٥٣، ٥٤] والذين قالوا: ﴿ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء ٦٨] ونحو هؤلاء ليس هذا هو لسان التوحيد.

وأما تناقض هذا القول على أصلهم ، فإن الوجود إن كان واحداً كان إثبات التعدد تناقضاً ، فإذا قال القائل: الوجود واحد ، وقال الآخر: ليس بواحد بل متعدد ، كان هذان القولان متناقضين فيمتنع أن يكون أحدهما هو الآخر. وإذا قال قائل: الألسنة كلها لسانه فقد صرح بالتعدد ، في قوله: الألسنة كلها ، وذلك يقتضي أن لا يكون هذا اللسان هو هذا اللسان ، فثبت التعدد وبطلت الوحدة ، وكل كلام لهؤلاء ولغيرهم فإنه ينقض أصلهم فإنهم مضطرون إلى إثبات التعدد.

فإن قالوا : الوجود واحد بمعنى أن الموجودات اشتركت في مسمى الوجود فهذا صحيح ، لكن الموجودات المشتركات في مسمى الواحد لا يكون وجود هذا عين وجود هذا ، بل هذا اشتراك في الاسم العام الكلي ، كالاشتراك في الأسماء التي يسميها النحاة اسم الجنس ، ويقسمها المنطقيون إلى جنس ونوع وفصل وخاصة وعرض عام ، فالاشتراك في هذه الأسماء هو مستلزم لتباين الأعيان وكون أحد المشتركين ليس هو الآخر. وهذا مما يعلم به أن وجود الحق مباين لوجود المخلوقات ، فإنه أعظم من

مباينة هذا الموجود لهذا الموجود ، فإذا كان وجود الفلك مباينا مخالفاً لوجود الذرة والبعوضة فوجود الحق تعالى أعظم مباينة لوجود كل مخلوق من مباينة وجود ذلك المخلوق لوجود مخلوق آخر.

وهذا وغيره مما يبين بطلان قول ذلك الشيخ حيث قال: لا يعرف التوحيد إلا الواحد ، ولا تصح العبارة عن التوحيد ، وذلك أنه لا يعبر عنه إلا بغير ، ومن أثبت غيراً فلا توحيد له -فإن هذا الكلام مع كفره متناقض ، فإن قوله: لا يعرف التوحيد إلا واحد ، يقتضي أن هناك واحداً يعرفه وأن غيره لا يعرفه ، هذا تفريق بين من يعرفه ومن لا يعرفه ، وإثبات اثنين أحدهما يعرفه والآخر لا يعرفه وإثبات للمغايرة بين من يعرفه ومن لا يعرفه ، فقوله بعد هذا: ومن أثبت غيرا فلا توحيد له ـ كلام متناقض يناقض هذا.

وقوله: إنه لا تصح العبارة عن التوحيد ، كفر بإجماع المسلمين ، فإن الله قد عبر عن توحيده ورسوله عبر عن توحيده ، والقرآن مملوء من ذكر التوحيد ، بل إنما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب بالتوحيد ، وقد قال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف ٤٥] وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء ٢٥] ولو لم يكن يصح عنه عبارة لما نطق به أحد. وأفضل ما نطق به الناطقون هو التوحيد كما قال النبي ﷺ : « أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله » وقال : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » .

لكن التوحيد الذي يشير إليه هؤلاء الملاحدة وهو وحدة الوجود أمر ممتنع في نفسه لا يتصور تحققه في الخارج ، فإن الوحدة العينية الشخصية تمتنع في الشيئين المتعددين ، ولكن الوجود واحد في نوع الوجود بمعنى أن اسم الموجود اسم عام يتناول كل أحد ، كما أن اسم الجسم والإنسان ونحوهما يتناول كل جسم وكل إنسان ، وهذا الجسم ليس هو ذاك ، وهذا الإنسان ليس هو ذاك ، وكذلك هذا الوجود ليس هو ذاك.

وقوله: لا يعبر عنه إلا بغير ، يقال له : (أولا) التعبير عن التوحيد يكون بالكلام ، والله يعبر عن توحيده بكلامه ، فكلام الله وعلمه وقدرته وغير ذلك من صفاته لا يطلق عليه عند السلف والأئمة القول بأنه الله ولا يطلق عليه بأنه غير الله ؛ لأن لفظ الغير قد يراد به ما يباين غيره وصفات الله لا تباينه ، ويراد به ما لم يكن إياه ، وصفة الله ليست إياه ، ففي أحد الاصطلاحين يقال : إنه غيره ، وفي الاصطلاح الآخر لا يقال : إنه غير فلهذا لا يطلق أحدهما إلا مقروناً ببيان المراد ، لئلا يقول المبتدع : إذا كانت صفة الله غيره فكل ما كان غير الله فهو مخلوق ، فيتوسل بذلك إلى أن يجعل علم الله وقدرته وكلامه ليس هو صفة قائمة به بل مخلوقة في غيره ، فإن هذا فيه من تعطيل صفات الخالق وجحد كماله ما هو من أعظم الإلحاد ، وهو قول الجهمية الذين كفرهم السلف والأئمة تكفيراً مطلقاً. وإن كان الواحد المعين لا يكفر إلا بعد قيام الحجة التي يكفر تاركها.

وأيضاً فيقال لهؤلاء الملاحدة: إن لم يكن في الوجود غير بوجه من الوجود لزم أن يكون كلام الخلق وأكلهم وشربهم ونكاحهم وزناهم وكفرهم

وشركهم وكل ما يفعلونه من القبائح هو نفس وجود الله. ومعلوم أن من جعل هذا صفة لله كان من أعظم الناس كفراً وضلالاً فمن قال : إنه عين وجود الله كان أكفر وأضل ؛ فإن الصفات والأعراض لا تكون عين الموجود القائم بنفسه وأئمة هؤلاء الملاحدة كابن عربي يقول :

وكل كلام في الوجود كلامه   سواء علينا نثره ونظامه

فيجعلون كلام المخلوقين من الكفر والكذب وغير ذلك -كلاماً لله ، وأما هذا الملحد فزاد على هؤلاء فجعل كلام الخلق وعبادتهم نفس وجوده لم يجعل ذلك كلاماً له بل نفي أن يكون هذا كلاما له لئلا يثبت غيراً له.

وقد علم بالكتاب والسنة والإجماع وبالعلوم العقلية الضرورية إثبات غير الله تعالى ، وإن كل ما سواه من المخلوقات فإنه غير الله تعالى ، ليس هو الله ولا صفة من صفات الله ؛ ولهذا أنكر الله على من عبد غيره ، ولو لم يكن هناك غير لما صح الإنكار. قال تعالى : ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر ٦٤] . وقال تعالى : ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأنعام ١٤] . وقال تعالى : ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [فاطر ٣] . وقال تعالى : ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [الأنعام ١١٤] .

وكذلك قول القائل : وجدت المحبة غير المقصود ؛ لأنها لا تكون إلا من غير لغير ، وغير ماتم ، ووجدت التوحيد غير المقصود ؛ لأن التوحيد ما يكون إلا من عبد لرب ، ولو أنصف الناس ما رأوا عابداً ولا معبوداً - هو كلام فيه

من الكفر والإلحاد والتناقض ما لا يخفى ، فإن الكتاب والسنة وإجماع المسلمين أثبتت محبة الله لعباده المؤمنين ومحبتهم له كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة ١٦٥] وقوله : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة ٥٤] وقوله : ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة ٢٤] وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [التوبة ٤] ﴿ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة ١٩٥] ﴿ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة ٢٢٢] ﴿ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [المائدة ٤٢] وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار ».

وقد أجمع سلف الأمة وأئمتها على إثبات محبة الله تعالى لعباده المؤمنين ومحبتهم له ، وهذا أصل دين الخليل إمام الحنفاء ـ عليه السلام ـ .

وأول من أظهر ذلك في الإسلام الجعد بن درهم فضحى به خالد بن عبدالله القسري يوم الأضحى بواسط وقال : أيها الناس ، ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً. ثم نزل فذبحه.

وقوله : المحبة ما تكون إلا من غير لغير ، وغير ما تم كلام باطل من كل وجه ؛ فإن قوله لا يكون إلا من غير ، ليس بصحيح ؛ فإن الإنسان يحب نفسه وليس غيراً لنفسه ، والله يحب نفسه ، وقوله : ما تم غير – باطل ، فإن

المخلوق غير الخالق والمؤمنون غير الله وهم يحبونه ، فالدعوى باطلة ، فكل واحدة من مقدمتي الحجة باطلة – قوله : لا تكون إلا من غير لغير ، وقوله : غير ما تم – فإن الغير موجود ، والمحبة تكون من المحب لنفسه ؛ ولهذا كثير من الاتحادية يناقضة في هذا القول ويقول كما قال ابن الفارض.

وكذلك قوله: التوحيد لا يكون إلا من عبد لرب ، ولو أنصف الناس ما رأوا عابداً ولا معبوداً ـ كلا المقدمتين باطل ، فإن التوحيد يكون من الله لنفسه فإنه يوحد نفسه بنفسه كما قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [آل عمران ١٨] . والقرآن مملوء من توحيد الله لنفسه فقد وحّد نفسه بنفسه كقوله : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة ١٦٣] . وقوله: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [النحل ٥١] . وقوله : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [محمد ١٩] وأمثال ذلك . وأما المقدمة الثانية فقوله : إن الناس لو أنصفوا ما رأوا عابداً ولا معبوداً ـ مع أنه غاية في الكفر والإلحاد كلام متناقض فإنه إذا لم يكن ثم عابد ولا معبود بل الكل واحد فمن هم الذين لا ينصفون ؟ إن كانوا هم الله ؟ فيكون الله هو الذي لا ينصف ، وهو الذي يأكل ويشرب ويكفر ، كما يقول ذلك كثير منهم مثل ما قال بعضهم لشيخه : الفقير إذا صح أكل بالله ، فقال له الآخر: الفقير إذا صح أكل الله . وقد صرح ابن عربي وغيره من شيوخهم بأنه هو الذي يجوع ويعطش ويمرض ويبول ويَنكح ويُنكح ، وأنه موصوف بكل نقص وعيب ؛ لأن ذلك هو الكمال عندهم. كما قال في الفصوص: فالعلي بنفسه هو الذي يكون له الكمال الذي يستقصي به جميع الأمور الوجودية والنسب العدمية سواء

كانت محمودة عرفاً وعقلاً وشرعاً أو مذمومة عرفاً وعقلاً وشرعاً ، وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة (وقال) ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات وأخبر بذلك عن نفسه وبصفات النقص والذم ؟ ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الخالق ؟ فهي كلها من أولها إلى آخرها صفات للعبد كما أن صفات العبد من أولها إلى آخرها صفات الله تعالى .

وهذا المتكلم بمثل هذا الكلام يتناقض فيه فإنه يقال له: فأنت الكامل في نفسك الذي لا ترى عابداً ولا معبوداً نعاملك بموجب مذهبك فتضرب وتوجع ، وتهان وتصفع ، وإذا تظلّم ممن فعل به ذلك واشتكى أو صاح منه وبكى قيل له : ما ثم غير ، ولا عابد ولا معبود ، فلم يفعل بك هذا غيرك ، بل الضارب هو المضروب ، والشاتم هو المشتوم ، والعابد هو المعبود ، فإن قال: تظلّم من نفسه واشتكى من نفسه قيل له أيضاً: فقل عبد نفسه ، فإذا أثبت ظالماً ومظلوماً وهما واحد قيل له: فأثبت عابداً ومعبوداً وهما واحد.

ثم يقال له: هذا الذي يضحك ويضرب هو نفس الذي يبكي ويصيح ؟ وهذا الذي شبع وروي هو نفس هذا الذي جاع وعطش ، فإن اعترف بأنه غيره أثبت المغايره ، وإذا أثبت المغايرة بين هذا وهذا ، فبين العابد والمعبود أولى وأحرى ، وإن قال : بل هو هو عومل معاملة السوفسطائية ، فإن هذا القول من أقبح السفسطة ، فيقال : فإذا كان هو هو فنحن نضربك ونقتلك ، والشيء قتل نفسه وأهلك نفسه.

والإنسان قد يظلم نفسه بالذنوب فيقول : (ربنا ظلمنا أنفسنا) لكون

نفسه أمرته بالسوء ، والنفس أمارة بالسوء ، لكن جهة أمرها ليست جهة فعلها ، بل لا بد من نوع تعدد ، إما في الذات وإما في الصفات ، وكل أحد يعلم بالحس والاضطرار أن هذا الرجل الذي ظل ذاك ليس هو إياه وليس هو بمنزلة الرجل الذي ظلم نفسه. وإذا كان هذا في المخلوقين فالخالق أعظم مباينة للمخلوقين من هذا لهذا. سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيراً.

ولولا أن أصحاب هذا القول كثروا وظهروا وانتشروا ، وهم عند كثير من الناس سادات الأنام ، ومشايخ الإسلام ، وأهل التوحيد والتحقيق ، وأفضل أهل الطريق ، حتى فضلوهم على الأنبياء والمرسلين ، وأكابر مشايخ الدين ، لم يكن بنا حاجة إلى بيان فساد هذه الأقوال وإيضاح هذا الضلال. ولكن تعلم أن الضلال لاحد له ، وأن العقول إذا فسدت ، لم يبق لضلالها حد معقول ، فسبحان من فرق بين نوع الإنسان فجعل منه من هو أفضل العالمين ، وجعل منه من هو شر من الشياطين ، ولكن تشبيه هؤلاء بالأنبياء والأولياء كتشبيه مسيلمة الكذاب بسيد أولي الألباب هو الذي يوجب جهاد هؤلاء الملحدين الذين يفسدون الدنيا والدين، والمقصود هنا رد هذه الأقوال، وبيان الهدى من الضلال.

وأما توبة من قالها وموته على الإسلام ، فهذا يرجع إلى الملك العلّام ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، ومن الممكنات أنه قد تاب على أصحاب هذه المقالات ، والله تعالى غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب

، والذنب وإن عظم ، والكفر وإن غلظ وجسم ، فإن التوبة تمحو ذلك كله ، والله سبحانه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب ، بل يغفر الشرك وغيره للتائبين ، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر ٥٣] . وهذه الآية عامة مطلقة لأنها للتائبين . وأما قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء ١١٦] . فإنها مقيدة خاصة لأنها في حق غير التائبين ؛ لا يغفر لهم الشرك وما دون الشرك معلَّق بمشيئة الله تعالى .

* * *

وأما الحكاية المذكورة عن الذي قال : إنه التقم العالم كله ، وأراد أن يقول: أنا الحق وأختها التي قيل فيها : إن الإلهيه لا يدعيها إلا أجهل خلق الله وأعرف خلق الله ـ هو من هذا الباب .

والفقير الذي قال : ما خلق الله أقل عقلاً ممن ادعى أنه إله مثل فرعون ونمرود وأمثالهما – هو الذي أصاب ونطق بالصواب ، وسدد في الخطاب ، ولكن هؤلاء الملاحدة يعظمون فرعون وأمثاله ، ويدعون أنهم خير من موسى وأمثاله ، حتى إنه حدّثني بهاء الدين عبدالسيد الذي كان قاضي اليهود وأسلم ، وحسن إسلامه ـ رحمه الله ـ ، وكان قد اجتمع بالشيرازي أحد شيوخ هؤلاء ، ودعاه إلى هذا القول ، وزينه له فحدثني بذلك ، فبينت له ضلال هؤلاء وكفرهم ، وأن قولهم من جنس قول فرعون . فقال لي : إنه لما دعاه حسن الشيرازي إلى هذا القول قال له: قولكم هذا يشبه قول فرعون ، فقال: نعم ، ونحن على قول فرعون ، وكان عبدالسيد إذ ذاك لم يسلم بعد ،

فقال : أنا لا أدع موسى وأذهب إلى فرعون ، قال له ولمَ ؟ قال : لأن موسى أغرق فرعون ، فانقطع ؛ فاحتج عليه بالنصر القدري الذي نصر الله به موسى لا بكونه كان رسولاً صادقاً. قلت لعبدالسيد: وأقر لك أنه على قول فرعون ؟ قال : نعم ، قلت فمع إقرار الخصم لا يحتاج إلى بينة. أنا كنت أريد أن أبين لك أن قولهم هو قول فرعون ؛ فإذا كان قد أقر بهذا فقد حصل المقصود.

فهذه المقالات وأمثالها من أعظم الباطل ، وقد نبهنا على بعض ما به يعرف معناها وأنه باطل ، والواجب إنكارها ، فإن إنكار هذه المنكر الساري في كثير من المسلمين أولى من إنكار دين اليهود والنصارى الذي لا يضل به المسلمون ؛ لا سيما وأقوال هؤلاء شر من أقوال اليهود والنصارى ، وفرعون ومن عرف معناها واعتقدها كان من المنافقين الذين أمر الله بجهادهم بقوله تعالى : ﴿ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة ٧٣] ، والنفاق إذا عظم كان صاحبه شراً من الكفار وأهل الكتاب ، وكان في الدرك الأسفل من النار.

وليس لهذه المقالات وجه سائغ ، ولو قدر أن بعضها يحتمل في اللغة معنى صحيحاً فإنما يحمل عليها إذا لم يعرف مقصود صاحبها ، وهؤلاء قد عرف مقصودهم كما عرف دين اليهود والنصارى والرافضة ، ولهم في ذلك كتب مصنفة ، وأشعار مؤلفة ، وكلام يفسر بعضه بعضاً ، وقد علم مقصودهم بالضرورة ، فلا ينازع في ذلك إلا جاهل لا يلتفت إليه ، ويجب بيان معناها وكشف مغزاها لمن أحسن الظن بها وخيف عليه أن يحسن الظن بها وأن يضل ، فإن ضررها على المسلمين أعظم من ضرر السموم

التي يأكلونها ولا يعرفون أنها سموم ، وأعظم من ضرر السراق والخونة الذين لا يعرفون أنهم سراق وخونة ، فإن هؤلاء غاية ضررهم موت الإنسان أو ذهاب ماله ، وهذه مصيبة في دنياه قد تكون سبباً لرحمته في الآخرة ، وأما هؤلاء فيسقون الناس شراب الكفر والإلحاد في آنية أنبياء الله وأوليائه ، ويلبسون ثياب المجاهدين في سبيل الله وهم في الباطن من المحاربين لله ورسوله، ويظهرون كلام الكفار والمنافقين في قوالب ألفاظ أولياء الله المحققين، فيدخل الرجل معهم على أن يصير مؤمناً ولياً لله ؛ فيصير منافقاً عدواً لله، ولقد ضربت لهم مرة مثلاً بقوم أخذوا طائفة من الحاج ليحجوا بهم فذهبوا بهم إلى قبرص لينصروهم ، فقال لي بعض من كان قد انكشف له ضلالهم من أتباعهم : لو كانوا يذهبون بنا إلى قبرص لكانوا يجعلوننا نصارى ، وهؤلاء كانوا يجعلوننا شراً من النصارى ، والأمر كما قاله هذا القائل.

وقد رأيت وسمعت عمن ظن هؤلاء من أولياء الله وأن كلامهم كلام العارفين المحققين من هو من أهل الخير والدين مالا أحصيهم ؛ فمنهم من دخل في إلحادهم وفهمه وصار منهم ، ومنهم من كان يؤمن بما لا يعلم ، ويعظم ما لا يفهم ، ويصدق بالمجهولات ، وهؤلاء هم أصلح الطوائف الضالين ، وهم بمنزلة من يعظم أعداء الله ورسوله ولا يعلم أنهم أعداء الله ورسوله ، ويوالي المشركين وأهل الكتاب ؛ ظاناً أنهم من أهل الإيمان وأولي الألباب ، وقد دخل بسبب هؤلاء الجهال المعظمين لهم من الشر على المسلمين ، ما لا يحصيه إلا رب العالمين.

وهذا الجواب ، لم يتسع لأكثر من هذا الخطاب ، والله أعلم بالصواب.

القسم الثاني من مجموعة الرسائل

الرسالة الثانية

حقيقة مذهب الاتحاديين

أو

وحدة الوجود

﴿ وبيان بطلانه بالبراهين النقلية والعقلية ﴾

من تحقيقات

شيخ الإسلام ابن تيمية

(رسالة شيخ الإسلام إلى من سأله عن حقيقة مذهب الاتحاديين أي القائلين بوحدة الوجود) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وأشهد أن لا إله إلا الله الأحد الحق المبين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين ﷺ تسليماً كثيراً ، وعلى سائر إخوانه المرسلين.

(أما بعد) فقد وصل كتابك تلتمس فيه بيان حقيقة مذهب هؤلاء الاتحادية وبيان بطلانه، وإنك كنت قد سمعت مني بعض البيان لفساد قولهم، وضاق الوقت بك عن استتمام بقية البيان، وأعجلك السفر، حتى رأيت عندكم بعض من ينصر قولهم ممن ينتسب إلى الطريقة والحقيقة، وصادف مني كتابك موقعاً، ووجد محلاً قابلاً، وقد كتبت إليك بما أرجو من الله أن ينفع به المؤمنين، ويدفع به بأس هؤلاء الملاحدة المنافقين، الذين يلحدون في أسماء الله وآياته المخلوقات والمنزلات في كتابه المبين، ويبين الفرق بين ما عليه أهل التحقيق واليقين، من أهل العلم والمعرفة المهتدين، وبين ما عليه هؤلاء الزنادقة المتشبهين بالعارفين، كما تشبه بالأنبياء من تشبه من المتنبئين، وكما شبهوا بكلام الله ما شبهوه به من الشعر المفتعل وأحاديث المفترين؛ لتبيين أن هؤلاء من جنس الكفار المنافقين المرتدين، أتباع فرعون والقرامطة الباطنيين، وأصحاب مسيلمة والعنسي ونحوهما من المفترين، وأن أهل العلم والإيمان من الصديقين والشهداء والصالحين ؛ سواء كانوا من المقربين

السابقين، أو من المقتصدين أصحاب اليمين، هم من أتباع إبراهيم الخليل، وموسى الكليم، ومحمد المبعوث إلى الناس أجمعين، وقد فرق الله في كتابه المبين الذي جعله حاكماً بين الناس فيما اختلفوا فيه من الحق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والمؤمنين والكافرين، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية ٢١]. وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص ٢٨] وقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم ٣٥، ٣٦].

وقد بين حال من تشبه بالأنبياء وبأهل العلم والإيمان من أهل الكذب والفجور الملبوس عليهم اللابسين، وأخبر أن لهم تنزلاً ووحياً؛ ولكن من الشياطين، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام ١٢١]. وقال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء ٢٢١، ٢٢٢]. وأخبر أن كل من ارتد عن دين الله فلا بد أن يأتي الله بدله بمن يقيم دينه المبين؛ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة ٥٤].

وذلك أن مذهب هؤلاء الملاحدة فيما يقولونه من الكلام وينظمونه من الشعر بين حديث مفترى وشعر مفتعل. وإليهما أشار أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - لما قال له عمر بن الخطاب في بعض ما يخاطبه به: يا خليفة

رسول الله ، تألف الناس . فأخذ بلحيته وقال: يابن الخطاب ، أجباراً في الجاهلية خواراً في الإسلام ؟ علام أتألفهم ؟ أعلى حديث مفترى ؟ أم شعر مفتعل ؟ يقول : إني لست أدعوهم إلى حديث مفترى كقرآن مسيلمة ، ولا شعر مفتعل كشعر طليحة الأسدي .

وهذان النوعان هما اللذان يعارض بهما القرآن أهل الفجور والإفك المبين، قال تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ إلى آخر الآية. [الحاقة ٣٨ - ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ الآيات . إلى قوله : ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ [الشعراء ١٩٢ - ٢١٠] إلى آخر السورة . فذكر في هذه السورة علامة الكهان الكاذبين، والشعراء الغاوين، ونزهه عن هذين الصنفين كما في سورة الحاقة ، وقال تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير ١٩، ٢٠] إلى آخر السورة ؛ فالرسول هنا جبريل ، وفي الآية الأولى محمد ﷺ : ولهذا نزه محمداً هناك أن يكون شاعراً أو كاهنا ، ونزه هنا الرسول إليه أن يكون من الشياطين .

فصـــل

اعلم - هداك الله وأرشدك - أن تصور مذهب هؤلاء كاف في بيان فساده ؛ ولا يحتاج مع حسن التصور إلى دليل آخر، وإنما تقع الشبهة لأن أكثر الناس لا يفهمون حقيقة قولهم وقصدهم ؛ لما فيه من الألفاظ المجملة والمشتركة، بل وهم أيضاً لا يفهمون حقيقة ما يقصدونه ويقولونه ؛ ولهذا يتناقضون كثيراً في قولهم، وإنما يتخيلون شيئاً ويقولونه أو يتبعونه ؛ ولهذا

قد افترقوا بينهم على فرق، ولا يهتدون إلى التمييز بين فرقهم، مع استشعارهم أنهم مفترقون ؛ ولهذا لما بينت لطوائف من أتباعهم ورؤسائهم حقيقة قولهم، وسر مذهبهم، صاروا يعظمون ذلك، ولولا ما أقرنه بذلك من الذم والرد لجعلوني من أئمتهم، وبذلوا لي من طاعة نفوسهم وأموالهم ما يجل عن الوصف ، كما تبذله النصارى لرؤسائهم ، والإسماعيلية لكبرائهم ، وكما بذل آل فرعون لفرعون .

وكل من يقبل قول هؤلاء فهو أحد رجلين ؛ إما جاهل بحقيقة أمرهم ، وإما ظالم يريد علواً في الأرض وفساداً ، أو جامع بين الوصفين وهذه حال أتباع فرعون الذين قال الله فيهم : ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف ٥٤] ، وحال القرامطة مع رؤسائهم، وحال الكفار والمنافقين في أئمتهم الذين يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً ﴿٦٤﴾﴾ [الأحزاب ٦٤] إلى آخر الآية ، وقوله : ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيراً ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب ٦٨] وقال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً﴾ إلى قوله : ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة ١٦٥ - ١٦٧] .

فصل

اعلم أن حقيقة قول هؤلاء أن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى ليس وجودها غيره ولا شيء سواه ألبتة ؛ ولهذا من سماهم حلولية أو قال : هم قائلون بالحلول رأوه محجوباً عن معرفة قولهم خارجاً عن الدخول إلى باطن أمرهم ؛ لأن من قال : إنَّ الله يحل في المخلوقات فقد قال بأن المحل غير

الحال ، وهذا تثنية عندهم وإثبات لموجودين : (أحدهما) وجود الحق الحال ، (والثاني) وجود المخلوق المحل ، وهم لا يقرون بإثبات وجودين ألبتة، ولا ريب أن هذا القول أقل كفراً من قولهم، وهو قول كثير من الجهمية الذين كان السلف يردون قولهم، وهم الذين يزعمون أن الله بذاته في كل مكان ، وقد ذكره جماعات من الأئمة والسلف عن الجهمية وكفروهم به، بل جعلهم خلق من الأئمة -كابن المبارك، ويوسف بن أسباط، وطائفة من أهل العلم والحديث من أصحاب أحمد وغيره- خارجين بذلك عن الثنتين والسبعين فرقة ؛ وهو قول بعض متكلمة الجهمية وكثير من متعبديهم ، ولا ريب أن إلحاد هؤلاء المتأخرين وتجهمهم وزندقتهم تفريع وتكميل لإلحاد هذه الجهمية الأولى وتجهمها وزندقتها.

وأما وجه تسميتهم اتحادية ففية طريقان : (أحدهما) لا يرضونه ؛ لأن الاتحاد على وزن الاقتران ، والاقتران يقتضي شيئين اتحد أحدهما بالآخر وهم لا يقرون بوجودين أبدا ، (والطريق الثاني) صحة ذلك بناءً على أن الكثرة صارت وحدة كما سأبينه من اضطرابهم.

وهذه الطريقة إما على مذهب ابن عربي فإنه يجعل الوجود غير الثبوت ، ويقول : إن وجود الحق قاض على ثبوت الممكنات ، فيصح الاتحاد بين الوجود والثبوت وإما على قول من لا يفرق فيقول : إن الكثرة الخيالية صارت وحدة بعد الكشف أو الكثرة العينية صارت وحدة إطلاقية

فصـــل

ولما كان أصلهم الذي بنوا عليه أن وجود المخلوقات والمصنوعات حتى وجود الجن والشياطين والكافرين والفاسقين والكلاب والخنازير والنجاسات والكفر والفسوق والعصيان عين وجود الرب، لا أنه متميز عنه منفصل عن ذاته، وإن كان مخلوقاً له مربوباً مصنوعاً له قائماً به، وهم يشهدون أن في الكائنات تفرقاً وكثرة ظاهرة بالحس والعقل، فاحتاجوا إلى جمع يزيل الكثرة، ووحدة ترفع التفرق مع ثبوتها، فاضطربوا على ثلاث مقالات، أنا أبينها لك ؛ وإن كانوا هم لا يبين بعضهم مقالة نفسه ومقالة غيره ؛ لعدم كمال شهود الحق وتصوره.

المقالة الأولى

{ مقالة ابن عربي صاحب فصوص الحكم }

وهي مع كونها كفراً فهو أقربهم إلى الإسلام لما يوجد في كلامه من الكلام الجيد كثيراً، ولأنه لا يثبت على الاتحاد ثبات غيره، بل هو كثير الاضطراب فيه، وإنما هو قائم مع خياله الواسع الذي يتخيل فيه الحق تارة والباطل أخرى. والله أعلم بما مات عليه. فإن مقالته مبنية على أصلين :

الأصل الأول لمذهب ابن عربي

(أحدهما) أن المعدوم شيء ثابت في العدم ؛ موافقة لمن قال ذلك من المعتزلة والرافضة ، وأول من ابتدع هذه المقالة في الإسلام أبو عثمان

الشحام شيخ أبي علي الجبائي ، وتبعه عليها طوائف من القدرية المبتدعة من المعتزلة والرافضة، وهؤلاء يقولون : إنَّ كل معدوم يمكن وجوده فإن حقيقته وماهيته وعينه ثابتة في العدم ؛ لأنه لولا ثبوتها لما تميز المعلوم المخبر عنه من غير المعلوم المخبر عنه، ولما صح قصد ما يراد إيجاده ؛ لأن القصد يستدعي التمييز، والتمييز لا يكون إلا في شيء ثابت، لكن هؤلاء وإن ابتدعوا هذه المقالة التي هي باطلة في نفسها وقد كفرهم بها طوائف من متكلمة السنة ؛ فهم يعترفون بأن الله خلق وجودها، ولا يقولون : إن عين وجودها عين وجود الحق ، وأما صاحب الفصوص وأتباعه فيقولون : عين وجودها عين وجود الحق ؛ فهي متميزة بذواتها الثابتة في العدم متحدة بوجود الحق العالم بها ، وعامة كلامه ينبني على هذا لمن تدبره وفهمه.

وهؤلاء القائلون بأن المعدوم شيء ثابت في العدم سواء قالوا بأن وجودها خلق الله أو هو الله ؛ يقولون : إن الماهيات والأعيان غير مجعولة ولا مخلوقة وإن وجود كل شيء قدر زائد على ماهيته، وقد يقولون: الوجود صفة للموجود.

وهذا القول وإن كان فيه شبه لقول القائلين بقدم العالم أو القائلين بقدم مادة العالم وهيولاه المتميزة عن صورته فليس هو إياه، وإن كان بينهما قدر مشترك، فإن هذه الصورة المحدثة من الحيوان والنبات والمعادن ليست قديمة باتفاق جميع العقلاء، بل هي كائنة بعد إن لم تكن، وكذلك الصفات والأعراض القائمة بأجسام السموات والاستحالات القائمة بالعناصر من حركات الكواكب والشمس والقمر والسحاب والمطر والرعد والبرق وغير ذلك،

كل هذا حادث غير قديم عند كل ذي حس سليم ؛ فإنه يرى ذلك بعينه ، والذين يقولون بأن عين المعدوم ثابتة في القدم أو بأن مادته قديمة يقولون بأن أعيان جميع هذه الأشياء ثابتة في القدم، ويقولون : إن مراد جميع العالم قديمة دون صوره .

واعلم أن المذهب إذا كان باطلاً في نفسه لم يمكن الناقد له أن ينقله على وجه يتصور تصوراً حقيقياً فإن هذا لا يكون إلا للحق. فأما القول الباطل فإذا بين فبيانه يظهر فساده ، حتى يقال : كيف اشتبه هذا على أحد ؟ ويتعجب من اعتقادهم إياه ، ولا ينبغي للإنسان أن يعجب ، فما من شيء يتخيل من أنواع الباطل إلا وقد ذهب إليه فريق من الناس ؛ ولهذا وصف الله أهل الباطل بأنهم أموات ، وأنهم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة ١٨] وأنهم ﴿لا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة ٨٧] و ﴿لا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة ١٧١] وأنهم ﴿لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ [الذاريات ٨، ٩] وأنهم ﴿فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة ٤٥] وأنهم ﴿يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة ١٥] .

وإنما نشأ - والله أعلم - الاشتباه على هؤلاء من حيث رأوا أن الله سبحانه يعلم ما لم يكن قبل كونه ؛ أو ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس ٨٢] فرأوا أن المعدوم الذي يخلقه يتميز في علمه وإرادته وقدرته، فظنوا ذلك لتميّز ذات له ثابتة ، وليس الأمر كذلك ، وإنما هو متميز في علم الله وكتابه، والواحد منا يعلم الموجود والمعدوم الممكن والمعدوم المستحيل، ويعلم ما كان كآدم والأنبياء، ويعلم ما يكون كالقيامة والحساب، ويعلم ما لم يكن وكان كيف كان يكون ؟، كما يعلم ما أخبر الله به عن أهل النار ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام ٢٨] وأنهم ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال ٢٣]

وأنه ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء ٢٢] وأنه ﴿ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء ٤٢] وأنهم ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ [التوبة ٤٧] وأنه ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور ٢١] ونحو ذلك من الجمل الشرطية التي يعلم فيها انتفاء الشرط أو ثبوته.

فهذه الأمور التي نعلمها نحن ونتصورها ؛ إما نافين لها أو مثبتين لها في الخارج ، أو مترددين ؛ ليس بمجرد تصورنا يكون لأعيانها ثبوت في الخارج عن علمنا وأذهاننا، كما نتصور جبل ياقوت وبحر زئبق وإنسانا من ذهب وفرساً من حجر؛ فثبوت الشيء في العلم والتقدير ليس هو ثبوت عينه في الخارج ، بل العالم يعلم الشيء ويتكلم به ويكتبه وليس لذاته في الخارج ثبوت ولا وجود أصلاً ، وهذا هو تقدير الله السابق لخلقه كما في صحيح مسلم ؛ عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة».

وفي سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال : «أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب ، قال: رب ، وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة». وقال ابن عباس : «إن الله خلق الخلق وعلم ما هم عاملون، ثم قال لعلمه : «كن كتاباً» فكان كتاباً، ثم أنزل تصديق ذلك في كتابه فقال: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ﴾ [الحج ٧٠] .

وهذا هو معنى الحديث الذي رواه أحمد في مسنده عن ميسرة الفجر قال: قلت يا رسول الله : متى كنت نبياً ؟، وفي رواية متى كتبت نبياً؟ ـ قال :

«وآدم بين الروح والجسد» هكذا لفظ الحديث الصحيح ، وأما ما يرويه هؤلاء الجهال[1] ؛ كابن عربي في الفصوص ، وغيره من جهّال العامة «كنت نبياً ، وآدم بين الماء والطين» «كنت نبياً وآدم لا ماء ولا طين» فهذا لا أصل له ولم يروه أحد من أهل العلم الصادقين، ولا هو في شيء من كتب العلم المعتمدة بهذا اللفظ بل هو باطل ؛ فإن آدم لم يكن بين الماء والطين قط ؛ فإن الله خلقه من تراب، وخلط التراب بالماء حتى صار طيناً ، ويبس الطين حتى صار صلصالاً كالفخار، فلم يكن له حال بين الماء والطين مركب من الماء والتراب، ولو قيل بين الماء والتراب لكان أبعد عن المحال، مع أن هذه الحال لا اختصاص لها، وإنما قال : «بين الروح والجسد» وقال : «وإن آدم لمنجدل في طينته» ؛ لأن آدم بقي أربعين سنة قبل نفخ الروح فيه ، كما قال تعالى : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ الآية [الإنسان ١] ، وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ﴾ الآيتين [الحجر ٢٨] ، وقال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ الآيتين [السجدة ٧] وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١﴾ الآية . [ص ٧١] والأحاديث في خلق آدم ونفخ الروح فيه مشهورة في كتب الحديث والتفسير وغيرهما.

فأخبر ﷺ أنه كان نبياً ؛ أي كتب نبياً وآدم بين الروح والجسد، وهذا والله أعلم ؛ لأن هذه الحالة فيها يقدر التقدير الذي يكون بأيدي ملائكة

---

(١) أي الجهال بعلم الرواية والأسانيد ونقد الحديث.

الخلق ؛ فيقدر لهم ويظهر لهم ويكتب ما يكون من المخلوق قبل نفخ الروح فيه، كما أخرج الشيخان في الصحيحين وفي سائر الكتب الأمهات حديث الصادق المصدوق ، وهو من الأحاديث المستفيضة التي تلقاها أهل العلم بالقبول ، وأجمعوا على تصديقها ؛ وهو حديث الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح ، - وقال - : فوالذي نفسي بيده ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة» فلما أخبر الصادق المصدوق أن الملك يكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد بعد خلق الجسد وقبل نفخ الروح، وآدم هو أبو البشر كان أيضاً من المناسب لهذا أن يكتب بعد خلق جسده وقبل نفخ الروح فيه ما يكون منه، ومحمد ﷺ سيد ولد آدم فهو أعظم الذرية قدراً وأرفعهم ذكراً، فأخبر ﷺ أنه كتب نبياً حينئذ، وكتابة نبوته هو معنى كون نبوته فإنه كونٌ في التقدير الكتابي، ليس كوناً في الوجود العيني ؛ إذ نبوته لم يكن وجودها حتى نبأه الله تعالى على رأس أربعين من عمره ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ الآية . [الشورى ٥٢] وقال : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ الآية ، [الضحى ٦] وقال : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ الآية. [يوسف ٣] ولذلك جاء هذا

المعنى مفسراً في حديث العرباض بن سارية عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إني عبدالله مكتوب خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم بأول أمري: دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني ؛ وقد خرج لها نور أضاءت لها منه قصور الشام» هذا لفظ الحديث من رواية ابن وهب.

حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد عن عبد الأعلى بن هلال السلمي عن العرباض رواه البغوي في شرح السنة هكذا، ورواه الليث بن سعد عنه نحوه، ورواه الإمام أحمد في المسند عن ابن مهدي: حدثنا معاوية ابن صالح بالإسناد عن العرباض قال ، قال رسول الله ﷺ : «إني عبدالله خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم» الحديث. وفيه «كذلك أمهات النبيين يرين» وقوله : «لمنجدل في طينته» أي ملتف ومطروح على وجه الأرض صورة من طين لم تجر فيه الروح بعد.

وقد روي أن الله كتب اسمه على العرش وعلى ما في الجنة من الأبواب والقباب والأوراق ، وروي في ذلك عدة آثار توافق هذه الأحاديث الثابتة التي تبين التنويه باسمه وإعلاء ذكره حينئذ.

وقد تقدم لفظ الحديث الذي في المسند عن ميسرة الفجر لما قيل له : متى كنت نبياً ؟ قال : «وآدم بين الروح والجسد» ، وقد رواه أبو الحسن بن بشران من طريق الشيخ أبي الفرج بن الجوزي في (الوفاء بفضائل المصطفى) ﷺ: حدثنا أبو جعفر محمد بن عمرو ، حدثنا أحمد بن إسحاق ابن صالح (ثنا) محمد بن صالح (ثنا) محمد بن سنان العوفي (ثنا) إبراهيم بن طهمان عن يزيد بن ميسرة عن عبد الله بن سفيان عن ميسرة

قال قلت : يا رسول الله، متى كنت نبياً ؟ قال : « لما خلق الله الأرض ، واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ، وخلق العرش كتب على ساق العرش محمد رسول الله خاتم الأنبياء ، وخلق الله الجنة التي أسكنها آدم وحواء فكتب اسمي على الأبواب والأوراق والقباب والخيام وآدم بين الروح والجسد، فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأى اسمي فأخبره الله أنه سيد ولدك ، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمي إليه » .

وروى أبو نعيم الحافظ في كتاب دلائل النبوة : ومن طريق الشيخ أبي الفرج حدثنا سليمان بن أحمد (ثنا) أحمد بن رشدين (ثنا) أحمد بن سعيد الفهري (ثنا) عبد الله بن إسماعيل المدني عن عبدالرحمن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : «لما أصاب آدم الخطيئة رفع رأسه فقال : يارب ، بحق محمد إلا غفرت لي، فأوحى إليه : وما محمد؟ ومن محمد؟ فقال : يارب ، إنك لما أتممت خلقي رفعت رأسي إلى عرشك فإذا عليه مكتوب : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنه أكرم خلقك عليك ؛ إذ قرنت اسمه مع اسمك . فقال : نعم ، قد غفرت لك ، وهو آخر الأنبياء من ذريتك ، ولولاه ما خلقتك » . فهذا الحديث يؤيد الذي قبله ؛ وهما كالتفسير للأحاديث الصحيحة[1].

---

(١) يشير بقوله كالتفسير للأحاديث الصحيحة إلى عدم صحتهما وكونهما ليس بمعنى الأحاديث الصحيحة السابقة ، وإنما يوافقانها من وجه واحد ؛ وهو كتابة المقادير قال : خلق ما جرت فيه من الخلق ؛ وغرضه منها تقوية الشواهد على علم الله بالأشياء وكتابته إياها قبل خلقها، وأن ثبوتها في العلم غير ثبوتها في الوجود.

وفي الصحيحين عن عائشة قالت : «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء ؛ فكان يأتي غار حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق، وهو بحراء، فأتاه الملك فقال له: اقرأ. قال : لست بقارئ. قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت : لست بقارئ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال : اقرأ. فقلت : لست بقارئ، ثم أخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال : (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق) ، فرجع لها رسول الله ﷺ ترجف بوادره» ، الحديث بطوله، فقد أخبر في هذا الحديث الصحيح أنه لم يكن قارئاً، وهذه السورة أول ما أنزل الله عليه ، وبها صار نبياً، ثم أنزل عليه سورة المدثر، وبها صار رسولاً لقوله : (قم فأنذر) ؛ ولهذا ذكر سبحانه في هذه السورة الوجود العيني والوجود العلمي ، وهذا أمرٌ بيِّن يعقله الإنسان بقلبه لا يحتاج فيه إلى سمع، فإن الشيء لا يكون قبل كونه. وأما كون الأشياء معلومة لله قبل كونها فهذا حق لا ريب فيه ، وكذلك كونها مكتوبة عنده أو عند ملائكته ؛ كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وجاءت به الآثار.

وهذا العلم والكتاب هو القدر الذي ينكره غالية القدرية ، ويزعمون أن الله لا يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها ، وهم كفار، كفّرهم الأئمة ؛ كالشافعي وأحمد وغيرهما.

وقد بين الكتاب والسنة هذا القدر، وأجاب النبي ﷺ عن السؤال الوارد عليه، وهو ترك العمل لأجله، فأجاب ﷺ عن ذلك، ففي الصحيحين عن علي ابن أبي طالب قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة(١) ؛ فجعل ينكت بمخصرته ، ثم قال : «ما منكم من أحد - أو قال - : ما نفس منفوسة إلا قد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة» قال فقال رجل : يا رسول الله ، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل، فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ؟ فقال : «اعملوا ؛ فكل ميسر : أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة – ثم قرأ : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝﴾ [الليل ٥] إلى آخر الآيات . وفي رواية : كان رسول الله ﷺ ذات يوم جالساً ، وفي يده عود ينكت به الأرض ؛ فرفع رأسه فقال : «ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار» قالوا : يا رسول الله ، فلم نعمل ؟ أفلا نتكل ؟ قال : «لا . اعملوا فكل ميسر لما خلق له – ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ الآية » [الليل ٥] .

وفي الصحيحين أيضاً عن عمران بن حصين قال: قيل يا رسول الله، أَعُلِمَ أهل الجنة من أهل النار؟ قال : «نعم» قال فقيل : ففيم يعمل العاملون ؟ فقال : «كل ميسر لما خلق له» ، وفي رواية: أن رجلين من مزينة أتيا رسول

---

(١) كمكنسة : ما يتوكأ عليه كالعصا ونحوه ، وما يأخذه الملك يشير به إذا خاطب ، والخطيب إذا خطب .

الله ﷺ فقالا : يارسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدَر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وتثبت الحجة عليهم ؟ فقال : «لا. بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس ٧، ٨] » .

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله قال : جاء سراقة بن مالك بن جعشم قال: يا رسول الله، بيِّن لنا ديننا كأنا خُلِقْنا الآن ، فيمَ العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير؟ أم فيما يُستقبل ؟ قال «لا. بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير» قال : ففيم العمل ؟ قال : «اعملوا فكل ميسر».

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة – قال: وعرشه على الماء».

وفي سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: يابني، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب ، قال : رب ، ما أكتب ؟ قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة» . يابني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من مات على غير هذا فليس مني» ورواه الترمذي من وجه آخر عن الوليد بن عبادة أنه قال : دعاني - يعني إياه - عند الموت فقال : يابني ، اتق الله ، واعلم أنك إن تتق

الله تؤمن بالله وتؤمن بالقدر كله، خيره وشره، وإن مت على غير هذا دخلت النار، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب، قال : ما أكتب ؟ قال : اكتب القدر، ما كان، وما هو كائن إلى الأبد».

وفي الترمذي أيضاً عن أبي حراثة عن أبيه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : أرأيت رقىً نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها، هل ترد من قضاء الله تعالى شيئاً ؟ قال : «هي من قدر الله».

لكن ؛ إنما ثبتت في التقدير المعدوم الممكن الذي سيكون، فأما المعدوم الممكن الذي لا يكون فمثل إدخال المؤمنين النار وإقامة القيامة قبل وقتها، وقلب الجبال يواقيت ونحو ذلك، فهذا المعدوم ممكن وهو شيء ثابت في العدم عند من يقول : المعدوم شيء، ومع هذا فليس بمقدر كونه، والله يعلمه على ما هو عليه ، يعلم أنه ممكن وأنه لا يكون ، وكذلك الممتنعات مثل شريك الباري وولده، فإن الله يعلم أنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ويعلم أنه ليس له شريك في الملك ولا ولي من الذل، ويعلم أنه حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، ويعلم أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض. وهذه المعدومات الممتنعة ليست شيئاً باتفاق العقلاء مع ثبوتها في العلم ؛ فظهر أنه قد ثبت في العلم ما لا يوجد وما يمتنع أن يوجد ؛ إذ العلم واسع، فإذا توسع المتوسع وقال : المعدوم شيء في العلم أو موجود في العلم أو ثابت في العلم فهذا صحيح، أما أنه في نفسه شيء فهذا باطل، وبهذا تزول الشبهة الحاصلة في هذه المسألة.

والذي عليه أهل السنة والجماعة وعامة عقلاء بني آدم من جميع الأصناف : أن المعدوم ليس في نفسه شيء ، وأن ثبوته ووجوده وحصوله شيء واحد، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع القديم، قال الله تعالى لزكريا : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴾ [مريم ٩] فأخبر أنه لم يك شيئا، وقال تعالى: ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [مريم ٦٧] وقال تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطور ٣٥] فأنكر عليهم اعتقاد أن يكونوا خلقوا من غير شيء خلقهم ، أم خلقوا هم أنفسهم ؛ ولهذا قال جبير بن مطعم : لما سمعت رسول الله ﷺ قرأ هذه السورة أحسست بفؤادي قد انصدع. ولو كان المعدوم شيئاً لم يتم الإنكار، إذا جاز أن يقال : ما خلقوا إلا من شيء ؛ لكن هو معدوم فيكون الخالق لهم شيئاً معدوماً. وقال تعالى : ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [مريم ٦٠] ولو كان المعدوم شيئاً لكان التقدير: لا يظلمون موجوداً ولا معدوماً، والمعدوم لا يتصور أن يظلموه فإنه ليس لهم .

وأما قوله : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [الحج ١] فهو إخبار عن الزلزلة الواقعة أنها شيء عظيم ليس إخباراً عن الزلزلة في هذه الحال ؛ ولهذا قال : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ [الحج ٢] ولو أريد به الساعة لكان المراد بها شيئاً عظيماً في العلم والتقدير .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النحل ٤٠] قد استدل به من قال : المعدوم شيء ، وهو حجة عليه ؛ لأنه أخبر أنه

يريد الشيء وأنه يكونه ، وعندهم أنه ثابت في العدم ، وإنما يراد وجوده لا عينه ونفسه. والقرآن قد أخبر أن نفسه تراد وتكوّن ، وهذا من فروع هذه المسألة.

فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة وعامة العقلاء أن الماهيات مجعولة ، وأن ماهية كل شيء عين وجوده، وأنه ليس وجود الشيء قدراً زائداً على ماهيته، بل ليس في الخارج إلا الشيء الذي هو الشيء ؛ وهو عينه ونفسه وماهيته وحقيقته، وليس وجوده وثبوته في الخارج زائداً على ذلك.

وأولئك يقولون : الوجود قدر زائد على الماهية ، ويقولون : الماهيات غير مجعولة ، ويقولون : وجود كل شيء زائد على ماهيته، ومن المتفلسفة من يفرق بين الوجود والواجب والممكن فيقول : الوجود الواجب عين الماهية. وأما الوجود الممكن فهو زائد على الماهية ، وشبهة هؤلاء ما تقدم من أن الإنسان قد يعلم ماهية الشيء ولا يعلم وجوده، وأن الوجود مشترك بين الموجودات ، وماهية كل شيء مختصة به .

ومن تدبر تبين له حقيقة الأمر فإنّا قد قدمنا الفرق بين الوجود العلمي والعيني، وهذا الفرق ثابت في الوجود والعين والثبوت والماهية وغير ذلك ؛ فثبوت هذه الأمور في العلم والكتاب والكلام ليس هو ثبوتها في الخارج عن ذلك[1] وهو ثبوت حقيقتها وماهيتها التي هي هي، والإنسان إذا تصور ماهية فقد علم وجودها الذهني، ولا يلزم من ذلك الوجود الحقيقي الخارجي،

---

(١) أي الخارج عن الأمور الثلاثة المذكورة .

فقول القائل : قد تصورت حقيقة الشيء وعينه ونفسه وماهيته ، وما علمت وجوده حصل وجوده العلمي، وما حصل وجوده العيني الحقيقي ولم يعلم ماهيته الحقيقية ولا عينه الحقيقية ولا نفسه الحقيقية الخارجية فلا فرق بين لفظ وجوده ولفظ ماهيته؛ إلا أن أحد اللفظين قد يعبر به عن الذهني، والآخر عن الخارجي ؛ فجاء الفرق من جهة المحل لا من جهة الماهية والوجود.

وأما قولهم : إن الوجود مشترك والحقيقة لا اشتراك فيها ؛ فالقول فيه كذلك ؛ فإن الوجود المعين الموجود في الخارج لا اشتراك فيه، كما أن الحقيقة المعينة الموجودة في الخارج لا اشتراك فيها ، وإنما العلم يدرك الوجود المشترك كما يدرك الماهية المشتركة، فالمشترك ثبوته في الذهن لا في الخارج، وما في الخارج ليس فيه اشتراك ألبتة، والذهن إن أدرك الماهية المعينة الموجودة في الخارج لم يكن فيها اشتراك ، وإنما الاشتراك فيما يدركه من الأمور المطلقة العامة ، وليس في الخارج شيء مطلق عام يوصف بالإطلاق والعموم ! وإنما فيه المطلق لا بشرط الإطلاق ، وذلك لا يوجد في الخارج إلا معينا ؛ فينبغي للعاقل أن يفرق بين ثبوت الشيء ووجوده في نفسه، وبين ثبوته ووجوده في العلم، فإن ذاك هو الوجود العيني الخارجي الحقيقي ، وأما هذا فيقال له : الوجود الذهني والعلمي ، وما من شيء إلا له هذان الثبوتان ، والعلم يعبر عنه باللفظ ويكتب اللفظ بالخط ؛ فيصير لكل شيء أربعة مراتب : وجود في الأعيان، ووجود في الأذهان ، ووجود في اللسان، ووجود في البنان ؛ وجود عيني ، وعلمي ، ولفظي ، ورسمي.

ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه سورة ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) ﴾ [العلق ١] ذكر فيها النوعين فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) ﴾ [العلق ١، ٢] فذكر جميع المخلوقات بوجودها العيني عموماً ثم خصوصاً ؛ فخص الإنسان بالخلق بعد ما عم غيره، ثم قال : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق ٣ - ٥] فخص التعليم للإنسان بعد تعميم التعليم بالقلم، وذكر القلم ؛ لأن التعليم بالقلم هو الخط ، وهو مستلزم لتعليم اللفظ، فإن الخط يطابقه، وتعليم اللفظ هو البيان ، وهو مستلزم لتعليم ؛ العلم ؛ لأن العبارة تطابق المعنى، فصار تعليمه بالقلم مستلزماً للمراتب الثلاث: اللفظي، والعلمي، والرسمي ؛ بخلاف ما لو أطلق التعليم أو ذكر تعليم العلم فقط لم يكن ذلك مستوعباً للمراتب.

فذكر في هذه السورة الوجود العيني والعلمي ، وأن الله سبحانه هو معطيها فهو خالق الخلق وخالق الإنسان، وهو المعلم بالقلم ومعلم الإنسان .

فأما إثبات وجود الشيء في الخارج قبل وجوده فهذا أمر معلوم الفساد بالعقل والسمع ، وهو مخالف للكتاب والسنة والإجماع .

فصل

الأصل الثاني لمذهب ابن عربي

هذا أحد أصلي ابن عربي. وأما الأصل الآخر فقولهم : إن وجود الأعيان نفس وجود الحق وعينه ، وهذا انفردوا به عن جميع مثبتة الصانع

من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس والمشركين ، وإنما هو حقيقة قول فرعون والقرامطة المنكرين لوجود الصانع - كما سنبينه إن شاء الله -

فمن فهم هذا فهم جميع كلام ابن عربي نظمه ونثره(١) وما يدعيه من أن الحق يغتذي بالخلق ؛ لأن وجود الأعيان معتمد بالأعيان الثابتة في العدم ؛ ولهذا يقول بالجمع من حيث الوجود، وبالفرق من حيث الماهية والأعيان، ويزعم أن هذا هو سر القدر ؛ لأن الماهيات لا تقبل إلا ما هو ثابت لها في العدم في أنفسها، فهي التي أحسنت وأساءت ، وحمدت وذمت، والحق لم يعطها شيئاً إلا ما كانت عليه في حال العدم ؛ فتدبر كلامه ؛ كيف انتظم شيئين: إنكار وجود الحق ، وإنكار خلقه لمخلوقاته ؟ فهو منكر للرب الذي خلق فلا يقر برب ولا بخلق، ومنكر لرب العالمين، فلا رب ولا عالمون مربوبون؛ إذ ليس إلا أعيان ثابتة ووجود قائم بها، فلا الأعيان مربوبة ، ولا الوجود مربوب، ولا الأعيان مخلوقة ، ولا الوجود مخلوق. وهذا يفرق بين المظاهر ، والظاهر والمجلي والمتجلي ؛ لأن المظاهر عنده هي الأعيان الثابتة في العدم ، وأما الظاهر فهو وجود الخلق .

---

(١) هذا بمعنى قول شيخنا : إن لكلام ابن عربي مفتاحاً ؛ من عرفه فهم جميع كلامه ؛ فأنا أقرأ الفتوحات كما أقرأ تاريخ ابن الأثير . وقال أيضاً : إنما أبهم هؤلاء الصوفية مذهبهم بالاصطلاحات التي تشبه الألغاز ؛ تقيةً وهربا من تكفير الجمهور لهم.

فصـــل

وأما صاحبه الصدر الفخر الرومي فإنه لا يقول : إن الوجود زائد على الماهية، فإنه كان أدخل في النظر والكلام من شيخه، لكنه أكفر وأقل علماً وإيماناً، وأقل معرفة بالإسلام وكلام المشايخ . ولما كان مذهبهم كفرا كان كل من حذق فيه كان أكفر، فلما رأى أن التفريق بين وجود الأشياء وأعيانها لا يستقيم ، وعنده أن الله هو الوجود ولا بد من فرق بين هذا وهذا ؛ فرق بين المطلق والمعين، فعنده أن الله هو الوجود المطلق الذي لا يتعين ولا يتميز، وأنه إذا تعين وتميز فهو الحق سواء تعين في مرتبة الإلهية أو غيرها ، وهذا القول قد صرح فيه بالكفر أكثر من الأول، وهو حقيقة مذهب فرعون والقرامطة، وإن كان الأول أفسد من جهة تفرقته بين وجود الأشياء وثبوتها، وذلك أنه على القول الأول يمكن أن يجعل للحق وجوداً خارجاً عن أعيان الممكنات ، وأنه فاض عليها فيكون فيه اعتراف بوجود الرب القائم بنفسه الغني عن خلقه، وإن كان فيه كفر من جهة أنه جعل المخلوق هو الخالق، والمربوب هو الرب، بل لم يثبت خلقاً أصلاً ؛ ومع هذا فما رأيته صرح بوجود الرب متميزاً عن الوجود القائم بأعيان الممكنات.

وأما هذا فقد صرح بأنه ما ثم سوى الوجود المطلق الساري في الموجودات المعينة ، والمطلق ليس له وجود مطلق ، فما في الخارج جسم مطلق بشرط الإطلاق، ولا إنسان مطلق ولا حيوان مطلق بشرط الإطلاق، بل لا يوجد إلا في شيء معين ، والحقائق لها ثلاثة اعتبارات : اعتبار العموم ،

والخصوص ، والإطلاق، فإذا قلنا: حيوان عام أو إنسان عام، أو جسم عام، ووجود عام، فهذا لا يكون إلا في العلم واللسان، وأما الخارج عن ذلك فما تم شيء موجود في الخارج يعمم شيئين ؛ ولهذا كان العموم من عوارض صفات الحي فيقال: علم عام، وإرادة عامة، وغضب عام، وخبر عام، وأمر عام، ويوصف صاحب الصفة بالعموم أيضاً كما في الحديث الذي في سنن أبي داود أن النبي ﷺ مر بعلي ؛ وهو يدعو ؛ فقال : «يا علي عُمَّ، فإن فضل العموم على الخصوص كفضل السماء على الأرض» وفي الحديث أنه لما نزل قوله: ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ عم وخص، رواه مسلم من حديث موسى بن طلحة عن أبي هريرة، وتوصف الصفة بالعموم كما في حديث التشهد : «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فإذا قلتم ذلك فقد أصابت كل عبد صالح لله في السماء والأرض» .

وأما إطلاق من أطلق أن العموم من عوارض الألفاظ فقط، فليس كذلك ؛ إذ معاني الألفاظ القائمة بالقلب أحق بالعموم من الألفاظ. وسائر الصفات : الإرادة والحب والبغض والغضب والرضاء يعرض لها من العموم والخصوص ما يعرض للقول ، وإنما المعاني الخارجة عن الذهن هي الموجودة في الخارج؛ كقولهم : مطر عام وخصب عام. هذه التي تنازع الناس: هل وصفها بالعموم حقيقة أو مجاز ؟ على قولين (أحدهما) مجاز ؛ لأن كل جزء من أجزاء المطر والخصب لا يقع إلا حيث يقع الآخر، فليس هناك عموم، وقيل بل حقيقة ؛ لأن المطر المطلق قد عم .

وأما الخصوص فيعرض لها إذا كانت موجودة في الخارج، فإن كل شيء له ذات وعين تختص به ويمتاز بها عن غيره، أعني الحقيقة العينية الشخصية التي لا اشتراك فيها، مثل: هذا الرجل وهذه الحبة وهذا الدرهم، وما عرض لها في الخارج فإنه يعرض لها في الذهن، فإن تصور الذهنية أوسع من الحقائق الخارجية ؛ فإنها تشمل الموجود والمعدوم والممتنع والمقدرات.

وأما الإطلاق فيعرض لها إذا كانت في الذهن بلا ريب ؛ فإن العقل يتصور إنساناً مطلقاً ووجوداً مطلقاً. وأما في الخارج، فهل يتصور شيء مطلق؟ هذا فيه قولان ؛ قيل : المطلق له وجود في الخارج ؛ فإنه جزء من المعين، وقيل : لا وجود له في الخارج ؛ إذ ليس في الخارج إلا معين مقيد، والمطلق الذي يشترك فيه العدد لا يكون جزءاً من المعين الذي لا يشركه فيه.

والتحقيق أن المطلق بلا شرط أصلاً يدخل فيه المقيد المعين، وأما المطلق بشرط الإطلاق فلا يدخل فيه المعين المقيد، وهذا كما يقول الفقهاء: الماء المطلق، فإنه بشرط الإطلاق فلا يدخل فيه المضاف. فإذا قلنا: الماء ينقسم إلى ثلاثة أقسام: طهور، وطاهر ، ونجس، فالثلاثة أقسام الماء. الطهور هو الماء المطلق الذي لا يدخل ما ليس بطهور كالعصارات والمياه النجسة. فالماء المقسوم هو المطلق لا بشرط، والماء الذي هو قسيم للماءين هو المطلق بشرط الإطلاق.

لكن هذا الإطلاق والتقييد الذي قاله الفقهاء في اسم الماء إنما هو في الإطلاق والتقييد اللفظي ، وهو ما دخل في اللفظ المطلق كلفظ ماء، أو في اللفظ المقيد كلفظ ماء نجس ، أو ماء ورد.

وأما ما كان كلامنا فيه أولاً فإنه الإطلاق والتقييد في معاني اللفظ، ففرق بين النوعين ؛ فإن الناس يغلطون لعدم التفريق بين هذين غلطاً كثيراً جداً، وذلك أن كل اسم فإمَّا أن يكون مسماه معيناً لا يقبل الشركة كأنا وهذا وزيد، ويقال له : المعين والجزء، وإمَّا أن يقبل الشركة فهذا الذي يقبل الشركة هو المعنى الكلي المطلق ، وله ثلاثة اعتبارات كما تقدم .

وأما اللفظ المطلق والمقيد فمثال تحرير رقبة، ولم تجدوا ماء، وذلك أن المعنى قد يدخل في مطلق اللفظ، ولا يدخل في اللفظ المطلق، أي يدخل في اللفظ لا بشرط الإطلاق، ولا يدخل في اللفظ بشرط الإطلاق، كما قلنا في لفظ الماء، وأن الماء يقال على المني وغيره ؛ كما قال: ﴿مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ [الطارق ٦] ويقال : ماء الورد، لكن هذا لا يدخل في الماء عند الإطلاق لكن عند التقييد ؛ فإذا أخذ القدر المشترك بين لفظ الماء المطلق ولفظ الماء المقيد فهو المطلق بلا شرط الإطلاق، فيقال: الماء ينقسم إلى مطلق ومضاف، ومورد التقسيم ليس له اسم مطلق لكن بالقرينة يقتضي الشمول والعموم، وهو قولنا : الماء ثلاثة أقسام. فهنا أيضاً ثلاثة أشياء: مورد التقسيم وهو الماء العام وهو المطلق بلا شرط، لكن ليس له لفظ مفرد إلا لفظ مؤلف، والقسم المطلق وهو اللفظ بشرط إطلاقه، والثاني المقيد وهو اللفظ بشرط تقييده .

وإنما كان كذلك ؛ لأن المتكلم باللفظ إما أن يطلقه أو يقيده، ليس له حال ثالثة، فإذا أطلقه كان له مفهوم ، وإذا قيده كان له مفهوم، ثم إذا قيده إما أن يقيده بقيد العموم أو بقيد الخصوص ؛ فقيد العموم كقوله: الماء ثلاثة أقسام ، وقيد الخصوص كقوله : ماء الورد .

وإذا عرف الفرق بين تقييد اللفظ وإطلاقه وبين تقييد المعنى وإطلاقه عرف أن المعنى له ثلاث أحوال: إما أن يكون أيضاً مطلقاً، أو مقيداً بقيد العموم، أو مقيداً بقيد الخصوص، والمطلق من المعاني نوعان: مطلق بشرط الإطلاق ؛ كقولنا الماء المطلق والرقبة المطلقة، وقد يكون مطلقاً لا بشرط الإطلاق ؛ كقولنا إنسان، فالمطلق المقيد بالإطلاق لا يدخل فيه المقيد بما ينافي الإطلاق، فلا يدخل ماء الورد في الماء المطلق. وأما المطلق لا يقيد فيدخل فيه المقيد كما يدخل الإنسان الناقص في اسم الإنسان.

فقد تبين أن المطلق بشرط الإطلاق من المعاني ليس له وجود في الخارج، فليس في الخارج إنسان مطلق، بل لا بد أن يتعين بهذا أو ذاك، وليس فيه حيوان مطلق، وليس فيه مطر مطلق بشرط الإطلاق.

وأما المطلق بشرط الإطلاق من الألفاظ كالماء المطلق فمسماه موجود في الخارج ؛ لأن شرط الإطلاق هنا في اللفظ فلا يمنع أن يكون معناه معينا، وبشرط الإطلاق هناك في المعنى، والمسمى المطلق بشرط الإطلاق لا يتصور؛ إذ لكل موجود حقيقة يتميز بها، وما لا حقيقة له يتميز بها ليس بشيء، وإذا كان له حقيقة يتميز بها فتمييزه يمنع أن يكون مطلقاً من كل وجه، فإن المطلق من كل وجه لا تمييز له، فليس لنا موجود هو مطلق بشرط الإطلاق ؛ ولكن العدم المحض قد يقال هو مطلق بشرط الإطلاق ؛ إذ ليس هناك حقيقة تتميز ولا ذات تتحقق حتى يقال تلك الحقيقة تمنع غيرها بحدها أن تكون إياها، وأما المطلق من المعاني لا بشرط فهذا إذا قيل موجود في الخارج ، فإنما يوجد معيناً متميزاً مخصوصاً، والمعين المخصوص يدخل في المطلق لا

بشرط ، ولا يدخل في المطلق بشرط الإطلاق ؛ إذ المطلق لا بشرط أعم، ولا يلزم إذا كان المطلق بلا شرط موجوداً في الخارج أن يكون المطلق المشروط بالإطلاق موجوداً في الخارج لأن هذا أخص منه، فإذا قلنا: حيوان، أو إنسان، أو جسم، أو وجود مطلق، فإن عنينا به المطلق بشرط الإطلاق فلا وجود له في الخارج، وإن عنينا المطلق لا بشرط فلا يوجد إلا معيناً مخصوصاً ؛ فليس في الخارج شيء إلا معين متميز منفصل عما سواه بحده وحقيقته .

فمن قال : إن وجود الحق هو الوجود المطلق دون المعين فحقيقة قوله أنه ليس للحق وجود أصلاً ولا ثبوت إلا نفس الأشياء المعينة المتميزة، والأشياء المعينة ليست إياه فليس شيئاً أصلاً .

وتلخيص النكتة أنه لو عني به المطلق بشرط الإطلاق فلا وجود له في الخارج فلا يكون للحق وجود أصلاً، وإن عني به المطلق بلا شرط، فإن قيل بعدم وجوده في الخارج فلا كلام، وإن قيل بوجوده فلا وجود إلا معيناً فلا يكون للحق وجود إلا وجود الأعيان ؛ فيلزم محذوران : (أحدهما) أنه ليس للحق وجود سوى وجود المخلوقات ، (والثاني) التناقض ؛ وهو قوله : إنه الوجود المطلق دون المعين .

فتدبر قول هذا ؛ فإنه يجعل الحق في الكائنات بمنزلة الكلِّي في جزئياته وبمنزلة الجنس والنوع والخاصة والفصل في سائر أعيانه الموجودة الثابتة في العدم. وصاحب هذا القول يجعل المظاهر والمراتب في المتعينات كما جعله الأول في الأعيان .

فصل

وأما التلمساني ونحوه فلا يفرق بين ماهية ووجود ، ولا بين مطلق ومعين، بل عنده ماثم سوى، ولا غير بوجه من الوجوه، وإنما الكائنات أجزاء منه وأبعاض له بمنزلة أمواج البحر في البحر، وآخر البيت من البيت، فمن شعرهم :

البحر لا شك عندي في توحده ... وإن تعدد بالأمواج والزبد
فلا يغرنك ما شاهدت من صور ... فالواحد الرب ساري العين في العدد

ومنه :

فما البحر إلا الموج لا شيء غيره ... وإن فرقته كثرة المتعدد

ولا ريب أن هذا القول هو أحذق في الكفر والزندقة، فإن التمييز بين الوجود والماهية، وجعل المعدوم شيئاً، أو التمييز في الخارج بين المطلق والمعين وجعل المطلق شيئاً وراء المعينات في الذهن قولان ضعيفان باطلان، وقد عرف من حدد النظر أن من جعل في هذه الأمور الموجودة في الخارج شيئين : (أحدهما) وجودها ؛ (والثاني) ذواتها، أو جعل لها حقيقة مطلقة موجودة زائدة على عينها الموجودة فقد غلط غلطاً قوياً ، واشتبه عليه ما يأخذه من العقل من المعاني المجردة المطلقة عن التعيين ، ومن الماهيات المجردة عن الوجود الخارجي بما هو موجود في الخارج من ذلك ، ولم يدر

أن متصورات العقل ومقدراته أوسع مما هو موجود حاصل بذاته ، كما يتصور المعدومات والممتنعات والمشروطات ، ويقدر ما لا وجود له ألبتة مما يمكن أو لا يمكن ، ويأخذ من المعينات صفات مطلقة فيه ؛ فإن الموجودات ذوات متصورة فيه، لكن هذا القول أشد جهلاً وكفراً بالله تعالى، فإن صاحبه لا يفرق بين المظاهر والظاهر، ولا يجعل الكثرة والتفرقة إلا في ذهن الإنسان لما كان محجوباً عن شهود الحقيقة، فلما انكشف غطاؤه عاين أنه لم يكن غير، وأن الرائي عين المرئي ، والشاهد عين المشهود.

فصل

واعلم أن هذه المقالات لا أعرفها لأحد من أمة قبل هؤلاء على هذا الوجه، ولكن رأيت في بعض كتب الفلسفة المنقولة عن أرسطو أنه حكى عن بعض الفلاسفة قوله: إن الوجود واحد ورد ذلك، وحسبك بمذهب لا يرضاه متكلمة الصابئين.

وإنما حدثت هذه المقالات بحدوث دولة التتار، وإنما كان الكفر الحلول العام أو الاتحاد أو الحلول الخاص ؛ وذلك أن القسمة رباعية ؛ لأن من جعل الرب هو العبد حقيقة ، فإمّا أن يقول بحلوله فيه أو اتحاده به، وعلى التقديرين فإمّا أن يجعل ذلك مختصاً ببعض الخلق كالمسيح أو يجعله عاماً لجميع الخلق ؛ فهذه أربعة أقسام :

(الأول) هو الحلول الخاص ، وهو قول النسطورية من النصارى ونحوهم ممن يقول: إن اللاهوت حل في الناسوت وتدرع به كحلول الماء في الإناء،

وهؤلاء حققوا كفر النصارى بسبب مخالطتهم للمسلمين، وكان أولهم في زمن المأمون. وهذا قول من وافق هؤلاء النصارى من غالية هذه الأمة ؛ كغالية الرافضة الذين يقولون : إنه حل بعلي بن أبي طالب وأئمة أهل بيته، وغالية النساك الذين يقولون بالحلول في الأولياء ومن يعتقدون فيه الولاية، أو في بعضهم ؛ كالحلاج ويونس والحاكم ونحو هؤلاء .

(والثاني) هو الاتحاد الخاص ؛ وهو قول يعقوبية النصارى ، وهم أخبث قولاً ، وهم السودان والقبط ؛ يقولون : إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط اللبن بالماء ، وهو قول من وافق هؤلاء من غالية المنتسبين إلى الإسلام .

(والثالث) هو الحلول العام ؛ وهو القول الذي ذكره أئمة أهل السنة والحديث عن طائفة من الجهمية المتقدمين، وهو قول غالب متعبدة الجهمية الذين يقولون : إن الله بذاته في كل مكان ، ويتمسكون بمتشابه القرآن كقوله : ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾ [الأنعام ٣] وقوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد ٤] والرد على هؤلاء كثير مشهور في كلام أئمة السنة وأهل المعرفة وعلماء الحديث.

(الرابع) الاتحاد العام ؛ وهو قول هؤلاء الملاحدة الذين يزعمون أنه عين وجود الكائنات ، وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى من وجهين: (الأول) من جهة أن أولئك قالوا : إن الرب يتحد بعبده الذي قرّبه واصطفاه بعد أن لم يكونا متحدين ، وهؤلاء يقولون : ما زال الرب هو العبد وغيره من

المخلوقات ليس هو غيره (والثاني) من جهة أن أولئك خصوا ذلك بمن عظموه كالمسيح ، وهؤلاء جعلوا ذلك سارياً في الكلاب والخنازير والقذر والأوساخ ، وإذا كان الله تعالى قال : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الآية . [المائدة ١٧] فكيف بمن قال : إن الله هو الكفار والمنافقون والصبيان والمجانين والأنجاس والأنتان وكل شيء ؟ وإذا كان الله قد رد قول اليهود والنصارى لما قالوا : ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة ١٨] وقال لهم : ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ الآية . [المائدة ١٨] .

فكيف بمن يزعم أن اليهود والنصارى هم أعيان وجود الرب الخالق ليسوا غيره ولا سواه ؟ ولا يتصور أن يعذب إلا نفسه ؟ وأن كل ناطق في الكون فهو عين السامع؟ كما في قوله ﷺ : «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت بها أنفسها» وإن الناكح عين المنكوح ، حتى قال شاعرهم (١) .

واعلم أن هؤلاء لما كان كفرهم في قولهم : إن الله هو مخلوقاته كلها أعظم من كفر النصارى بقولهم : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة ١٧] فكان النصارى ضلال أكثرهم لا يعقلون مذهبهم في التوحيد ؛ إذ هو شيء متخيل لا يعلم ولا يعقل، حيث يجعلون الرب جوهراً واحداً ثم يجعلونه ثلاثة جواهر، ويتأولون ذلك بتعدد الخواص والأشخاص التي هي الأقانيم ، والخواص عندهم ليست جواهر، فيتناقضون مع كفرهم، كذلك هؤلاء الملاحدة الاتحادية ضلال أكثرهم لا يعقلون قول رءوسهم ولا يفقهونه، وهم في ذلك كالنصارى ،

---

(١) سقط من الأصل هذا الشعر ، وقد يعرف مما سبق من أشعارهم .

كلما كان الشيخ أحمق وأجهل ، كان بالله أعرف ، وعندهم أعظم ، ولهم حظ من عبادة الرب الذي كفروا به كما للنصارى . هذا ما دام أحدهم في الحجاب، فإذا ارتفع عن قلبه وعرف أنه هو فهو بالخيار بين أن يسقط عن نفسه الأمر والنهي ويبقى سدى يفعل ما أحب ، وبين أن يقوم بمرتبة الأمر والنهي لحفظ المراتب ، وليقتدي به الناس المحجوبون ، وهم غالب الخلق . ويزعمون أن الأنبياء كانوا كذلك ؛ إذ عدوهم كاملين .

فصـــــل

مذهب هؤلاء الاتحادية كابن عربي وابن سبعين والقونوي والتلمساني مركب من ثلاثة مواد: سلب الجهمية وتعطيلهم، ومجملات الصوفية، وهو ما يوجد في كلام بعضهم من الكلمات المجملة المتشابهة، كما ضلت النصارى بمثل ذلك فيما يروونه عن المسيح فيتبعون المتشابه ويتركون المحكم، وأيضاً كلمات المغلوبين على عقلهم الذين تكلموا في حال سكر، ومن الزندقة الفلسفة التي هي أصل التجهم، وكلامهم في الوجود المطلق والعقول والنفوس والوحي والنبوة والوجوب والإمكان، وما في ذلك من حق وباطل، فهذه المادة أغلب على ابن سبعين والقونوي، والثانية أغلب على ابن عربي، ولهذا هو أقربهم إلى الإسلام، والكل مشتركون في التجهم ، والتلمساني أعظمهم تحقيقاً لهذه الزندقة والاتحاد التي انفردوا بها ، وأكفرهم بالله وكتبه ورسله وشرائعه واليوم الآخر.

وبيان ذلك أنه قال : هو في كان متجل بوحدته الذاتية ، عالما بنفسه وبما يصدر عنه ، وأن المعلومات بأسرها كانت منكشفة في حقيقة العلم شاهداً لها .

فيقال له : قد أثبت علمه بما يصدر منه وبمعلومات يشهدها غير نفسه، ثم ذكرت أنه عرض نفسه على هذه الحقائق الكونية المشهودة المعدومة، فعند ذلك عبر بـ « أنا » ، وظهرت حقيقة النبوة التي ظهر فيها الحق واضحاً ، وانعكس فيها الوجود المطلق، وأنه هو المسمى باسم الرحمن كما أن الأول هو المسمى باسم الله، وسقت الكلام إلى أن قلت : وهو الآن على ما عليه كان فهذا الذي علم أنه يصدر عنه وكان مشهوداً له معدوماً في نفسه هو الحق أو غيره ؟ فإن كان الحق فقد لزم أن يكون الرب كان معدوماً وأن يكون صادراً عن نفسه، ثم إنه تناقض ، وإن كان غيره ، فقد جعلت ذلك الغير هو مرآة لانعكاس الوجود المطلق ، وهو الرحمن، فيكون الخالق هو الرحمن، فأنت حائر بين أن تجعله قد علم معدوماً صدر عنه، فيكون له غير وليس هو الرحمن، وبين أن تجعل هذا الظاهر الواصف هو إياه وهو الرحمن، فلا يكون معدوماً ولا صادراً عنه، وأما أن تصف الشيء بخصائص الحق الخالق تارة وبخصائص العبد المخلوق تارة ، فهذا مع تناقضه كفر من أغلظ الكفر، وهو نظير قول النصارى : اللاهوت الناسوت ؛ لكن هذا أكفر من وجوه متعددة :

فصـــــل

(الوجه الأول) أن هذه الحقائق الكونية التي ذكرت أنها كانت معدومة في نفسها مشهودة أعيانها في علمه في تجليه المطلق الذي كان فيه متحداً بنفسه بوحدته الذاتية، هل خلقها وبرأها وجعلها موجودة بعد عدمها أم لم تزل معدومة؟ فإن كانت لم تزل معدومة فيجب أن لا يكون شيء من الكونيات موجوداً، وهذا مكابرة للحس والعقل والشرع، ولا يقوله عاقل، ولم يقله عاقل. وإن كانت صادرة موجودة بعد عدمها امتنع أن تكون هي إياه ؛ لأن الله لم يكن معدوماً فيوجد ، وهذا يبطل الاتحاد، ووجب حينئذ أن يكون[1] به موجوداً ليس هو الله، بل هو خلقه ومماليكه وعبيده ، وهذا يبطل قولك : وهو الآن لا شيء معه ، على ما عليه كان .

(الثاني) أن قولك تركبت الخلقة الإلهية من كان إلى سر شأنه[2] ، أو قولك : ظهر الحق فيه، أو نحو ذلك من الألفاظ التي يطلقها هؤلاء الاتحادية في هذا الموضع مثل قولهم: ظهر الحق، وتجلى، وهذه مظاهر الحق ومجاليه، وهذا مظهر إلهي ومجلى إلهي ، ونحو ذلك – أتعني به أن عين ذاته حصلت هناك؟ أو تعني به أنه صار ظاهراً متجلياً لها بحيث تعلمه؟ أو تعني به أن ظهر لخلقه بها ، وتجلى بها ، وأنه ماثم قسم رابع ؟

فإن عنيت الأول – وهو قول الاتحادية – فقد صرحت بأن عين المخلوقات

---

(١) كذا في الأصل ولعله : أن يكون ما صار به المعدوم موجوداً .. إلخ.

(٢) كذا في الأصل.

حتى الكلاب والخنازير والنجاسات والشياطين والكفار هي ذات الله، أو هي وذات الله متحدتان ، أو ذات الله حالة فيها، وهذا الكفر أعظم من كفر الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة ١٧] و ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة ٧٣] وإن الله يلد ويولد . وإن له بنين وبنات ، وإذا صرحت بهذا عرف المسلمون قولك فألحقوك ببني جنسك(١) فلا حاجة إلى ألفاظ مجملة يحسبها الظمآن ماء ، ويااليته إذا جاءها لم يجدها شيئاً، بل يجدها سماً ناقعاً.

وإن عنيت أنه صار ظاهراً متجلياً لها ، فهذا حقيقة أمر صار معلوما لها ، ولا ريب أن الله يصير معروفاً لعبده ؛ لكن كلامك في هذا باطل من وجهين: من جهة أنك جعلته معلوماً للمعلومات التي لا وجود لها لكونه قد علمها ، واعتقدت أنها إذا كانت معلومة يجوز أن تصير عالمة ، وهذا عين الباطل ؛ من جهة أنه إذا علم أن الشيء سيكون لم يجز أن يكون هذا قبل وجوده عالماً قادراً فاعلاً ، ومن جهة أن هذا ليس حكم جميع الكائنات المعلومة ، بل بعضها هو الذي يصح منه العلم .

وأما إن قلت : إن الله يعلم بها لكونها آيات دالة عليه ، فهذا حق ، وهو دين المسلمين وشهود العارفين ، لكنك لم تقل هذا لوجهين : (أحدهما) أنها لا تصير آيات إلا بعد أن يخلقها ويجعلها موجودة ، لا في حال كونها

---

(١) بهذا صرح شيخ الإسلام ؛ إن غرضه من هذه الإلزامات الباطلة بيان خروجهم بها عن دائرة الإسلام الذي يلبسون بادعائهم إياه على المسلمين بأنهم من أوليائه العارفين ، وليس غرضه أنه ألزمهم ما يلتزمونه ولا يعتقدونه .

معدومة معلومة ، وأنت لم تثبت أنه خلقها ولا جعلها موجودة ، ولا أنه أعطى شيئاً خلقه ، بل جعلت نفسه هو هي المتجلية له .

(الوجه الثاني) أنك قد صرحت بأنه تجلى لها وظهر لها ، لا أنه دل بها خلقه وجعلها آيات تكون تبصرة وذكرى لكل عبد منيب. والله قد أخبر في كتابه أنه يجعل في هذه المصنوعات آيات ، والآية مثل العلامة والدلالة كما قال : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة ١٦٣، ١٦٤] . وتارة يسميها نفسها آية كما قال تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ [يس ٣٣] . وهذا الذي ذكره الله في كتابه هو الحق .

فإذا قيل في نظير ذلك: تجلى بها وظهر بها كما يقال علم وعرف بها، كان المعنى صحيحاً لكن لفظ التجلي والظهور في مثل هذا الموضع غير مأثور. وفيه إيهام وإجمال ؛ فإن الظهور والتجلي يفهم منه الظهور والتجلي للعين ؛ لا سيما لفظ المتجلي وأن استعماله في التجلي للعين هو الغالب ، وهذا مذهب الاتحادية، صرح به ابن عربي وقال: فلا تقع العين إلا عليه.(١)

وإذا كان عندهم أن المرئي بالعين هو الله فهذا كفر صريح باتفاق المسلمين ، بل قد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال : « واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت » ؛ ولا سيما إذا قيل: ظهر فيها وتجلى ، فإن اللفظ يصير مشتركاً بين أن تكون ذاته فيها أو تكون قد صارت بمنزلة المرآة التي يظهر فيها مثال المرئي ، وكلاهما باطل . فإن ذات الله ليست في

(١) بياض في الأصل .

المخلوقات ، ولا في نفس ذاته ترى المخلوقات كما يرى المرئي في المرآة ، ولكن ظهورها دلالتها عليه وشهادتها له، وإنها آيات له على نفسه وصفاته سبحانه وبحمده، كما نطق بذلك كتاب الله .

(الوجه الثالث) أن مقارنة الألف والنون المعبر عنها بـ « أنا » ، واللفظة التي هي «حقيقة النبوة» و«الروح الإضافي» : هذه الأشياء داخلة في مسمى أسمائه الظاهرة والمضمرة أم ليست داخلة في مسمى أسمائه؟ فإن كان الأول فتكون جميع المخلوقات داخلة في مسمى أسماء الله، وتكون المخلوقات جزءاً من الله وصفة له، وإن كان الثاني فهذه الأشياء معدومة ليس لها وجود في أنفسها، فكيف يتصور أن تكون موجودة لا موجودة، ثابتة لا ثابتة، منتفية لا منتفية ؟ وهذا القسم بيِّن ، وهو أحد ما يكشف حقيقة هذا التلبيس .

فإن هذه الأمور التي كانت معلومة له معدومة عند نزول الخلية ظهرت هذه الأمور التي ذكرها، فهذه الأمور الظاهرة المعلومة بعد هذا النزول قد صارت «أنا » وحقيقة نبوة، وروحاً إضافياً، وفعل ذات، ومفعول ذات، ومعنى وسائط، فإن كان جميع ذلك في الله، ففيه كفران عظيمان : كون جميع المخلوقات جزءاً من الله، وكونه متغيراً هذه التغيرات التي هي من نقص إلى كمال ومن كمال إلى نقص ، وإن كانت خارجة من ذاته فهذه الأشياء كانت معدومة، ولم يخلقها عندهم خارجه عنه، فكيف يكون الحال ؟ .

(الوجه الرابع) أن عنده حقيقة النبوة وما معها إما أن يكون شيئاً قائماً بنفسه، أو صفة له أو لغيره، فإن كان قائماً بنفسه فإما أن يكون هو الله أو

غيره، فإن كان ذلك هو الله فيكون الله هو النقطة الظاهرة، وهو حقيقة النبوة، وهو الروح الإضافي، وقد قال بعد هذا: إنه جعل الروح الإضافي في صورة فعل ذاته، وإنه أعطى محمداً عقدة نبوته، فيكون قد جعل نفسه صورة فعله، وأعطى محمداً ذاته، وهذا مع أنه من أبين الكفر وأقبحه فهو متناقض، فمن المعطي ومن المعطى؟ إذا كان أعطى ذاته لغيره، وإن كانت هذه الأشياء أعياناً قائمة بنفسها وهي غير الله فسواء كانت ملائكة أو غيرها من كل ما سوى الله من الأعيان فهو خلق من خلق الله مصنوع مربوب، والله خالق كل شيء، فهو قد جعل ظهور الحق وصفاً، وأنه المسمى باسم الرحمن، فيكون المسمى باسم الرحمن الواصف لنفسه مخلوقاً، وهذا كفر صريح وهو أعظم من إلحاد الذين: ﴿قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان ٦٠] ومن إلحاد الذين قيل فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد ٣٠] فإن أولئك كفروا باسمه وصفته مع إقرارهم برب العالمين، وهؤلاء أقروا بالاسم، وجعلوا المسمى مخلوقاً من مخلوقاته.

وأما إن كان المراد بهذه الحقيقة وما معها صفة فإما أن تكون صفة لله أو لغيره، فإن كانت صفة لله لم يجز أن تكون هي المسمى باسم الرحمن، فإن ذلك اسم لنفس الله لا لصفاته، والسجود لله لا لصفاته، والدعاء لله لا لصفاته، وإن كانت صفة لغيره فهذا الإلزام أعظم وأعظم.

وهذا تقسيم لا محيص عنه، فإن هذا الملحد في أسماء الله جعل هذه العقدة التي سماها (عقدة حقيقة النبوة)، وجعلها صورة علم الحق بنفسه،

وجعلها مرآة لانعكاس الوجود المطلق محلا لتميز صفاته القديمة [1] وإن الحق ظهر فيه بصورته وصفته واصفاً يصف نفسه ويحيط به، وهو المسمى باسم الرحمن، ثم ذكر أنه أعطى محمداً هذه العقدة، ومعلوم أن المسمى باسم الرحمن هو المسمى باسم الله كما قال تعالى: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء ١١٠] فيكون هو سبحانه هذه العقدة التي أعطاها لمحمد، وإن كانت صفة له أو غيره فتكون هي الرحمن، فهذا الملحد دائر بين أن يكون الرحمن هو خلق من خلق الله أو صفة من صفاته ، وبين أن يكون الرحمن قد وهبه الله لمحمد، وكل من القسمين من أسمج الكفر وأشنعه .

(الوجه الخامس) أن قوله: لهذه الحقيقة طرفان: طرف إلى الحق المواجه إليها، الذي ظهر فيه الوجود الأعلى واصفا، وطرف إلى ظهور العالم منه وهو المسمى بالروح الإضافي، فذكر في هذا الكلام ظهور الوجود وظهور العالم ، وقد تقدم أن الحق كان ولم يكن معه شيء وهو متجلٍ بنفسه بوحدته الذاتية، وأنه لما نزلت الخلية ظهرت عقدة حقيقة النبوة، فصارت مرآة لانعكاس الوجود، فظهر الحق فيه بصورة وصفة واصفاً .

وقد ذكر في هذا الكلام الحق المواجه إليها والوجود الأعلى الذي ظهر، فهذا الحق والطرف الذي لها إلى الحق، فقد ذكر هنا ثلاثة أشياء: الحق، والوجود، والطرف، وقد جعل فيما تقدم الحق هو الوجود المطلق الذي

---

(١) قوله : محلا لتميز صفاته القديمة هو المفعول الثاني لـ (جعل) .

انعكس ، وهو الحق الذي ظهر فيه واصفاً ، فتارة يجعل الحق هو الوجود المطلق، وتارة يجعل الوجود المطلق قد ظهر في هذا الحق، وهذا تناقض .

ثم يقال له : هذان عندك عبارة عن الرب تعالى فقد جعلته ظاهراً وجعلته مظهراً ، فإن عنيت بالظهور الوجود فيكون الرب قد وجد مرة بعد مرة، وهذا كفر شنيع، فكيف يتصور تكرر وجوده ؟ وكيف يتصور أن يكون قد وجد في نفسه بعد أن لم يكن موجوداً في نفسه ؟ وإن عنيت الوضوح والتجلي ؛ وليس[1] هناك مخلوق يظهر له ويتجلى ؛ إذ العالم بعد لم يخلق، وأنت قلت : ظهر الحق فيه واصفاً، وسميته الرحمن، ولم تجعل ظهوره معلوماً ولا مشهوراً، فكيف يتصور أن يكون متجلياً لنفسه بعد أن لم يكن متجلياً ؟ فإن هذا وصف له بأنه لم يكن يعلم نفسه حتى علمها. وأيضاً فقد قلت: إنه كان متجلياً لنفسه بوحدته، فهذا كفر وتناقض.

(الوجه السادس) أن هذا التحير والتناقض مثل تحير النصارى وتناقضهم في الأقانيم، فإنهم يقولون: الأب والابن وروح القدس ثلاثة آلهة، وهي إله واحد، والمتدرع بناسوت المسيح هو الابن، ويقولون: هي الوجود، والعلم، والحياة، والقدرة .

فيقال لهم : إن كانت هذه صفات فليست آلهة ، ولا يتصور أن يكون المتدرع بالمسيح إلهاً إلا أن يكون هو الأب ، وإن كانت جواهر وجب أن لا تكون إلهاً واحداً ؛ لأن الجواهر الثلاثة لا تكون جوهراً واحداً . وقد يمثلون

---

(١) لعله : « فليس » .

ذلك بقولنا : زيد العالم القادر الحي، فهو بكونه عالماً ليس هو بكونه قادراً ؛ فإذا قيل لهم : هذا كله لا يمنع أن يكون ذاتاً واحدة لها صفات متعددة وأنهم لا يقولون ذلك(1).

وأيضاً فالمتحد بالمسيح إذا كان إلَها امتنع أن يكون صفة، وإنما يكون هو الموصوف ، وأنتم لا تقولون بذاك، فما هو الحق لا تقولونه وما تقولونه ليس بحق، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾ [النساء ١٧١] فالنصارى حيارى متناقضون ، إن جعلوا الأقنوم صفة امتنع أن يكون المسيح إلها، وإن جعلوه جوهراً امتنع أن يكون الإله واحداً ، وهم يريدون أن يجعلوا المسيح الله ويجعلوه ابن الله ، ويجعلوا الأب والابن وروح القدس إلها واحداً ؛ ولهذا وصفهم الله في القرآن بالشرك تارة، وجعلهم قسما غير المشركين تارة ؛ لأنهم يقولون الأمرين ؛ وإن كانوا متناقضين .

وهكذا حال هؤلاء فإنهم يريدون أن يقولوا بالاتحاد وإنه ماثم غيره، ويريدون أن يثبتوا وجود العالم، فجعلوا ثبوت العالم في علمه، وهو شاهد له، وجعلوه متجلياً لذلك المشهود له، فإذا تجلى فيه كان هو المتجلي لا غيره ، وكانت تلك الأعيان المشهودة هي العالم .

وهذا الرجل وابن عربي يشتركان في هذا ولكن يفترقان من وجه آخر ؛ فإن ابن عربي يقول: وجود الحق ظهر في الأعيان الثابتة في نفسها ؛ فإن

---

(1) سقط جواب إذا أو تركه للعلم به ، وتقديره : انقطعوا.

شئت قلت : هو الحق ، وإن شئت قلت : هو الخلق ، وإن شئت قلت : هو الحق والخلق ، وإن شئت قلت : لا حق من كل وجه ولا خلق من كل وجه ، وإن شئت قلت بالحيرة في ذلك ، وأما هذا فإنه يقول : تجلى الأعيان المشهودة له، فقد قالا في جميع الخلق ما يشبه قول ملكية [1] النصارى في المسيح ، حيث قالوا : بأن اللاهوت والناسوت صاروا جوهرا واحدا له أقنومان .

وأما التلمساني فإنه لا يثبت بعد ذلك بحال فهو مثل يعاقبة النصارى، وهم أكفرهم، والنصارى قالوا بذلك في شخص واحد، وقالوا : إن اللاهوت به يتدرع الناسوت بعد أن لم يكن متدرعا به ، وهؤلاء قالوا : إنه في جميع العالم، وإنه لم يزل، فقالوا بعموم ذلك ولزومه، والنصارى قالوا بخصوصه وحدوثه ، حتى قال قائلهم: النصارى إنما كفروا لأنهم خصصوا، وهذا المعنى قد ذكره ابن عربي في غير موضع من الفصوص، وذكر أن إنكار الأنبياء على عباد الأصنام إنما كان لأجل التخصيص ، وإلا فالعارف المكمل من عبده في كل مظهر ، وهو العابد والمعبود، وأن عباد الأصنام لو تركوا عبادتهم لتركوا من الحق بقدر ما تركوا منها، وأن موسى إنما أنكر على هارون لكون هارون نهاهم عن عبادة العجل لضيق هارون ، وعلم موسى بأنهم ما عبدوا إلا الله، وأن هارون إنما لم يسلط على العجل ليعبدوا الله في كل صورة، وأن أعظم مظهر عبد فيه هو الهوى فما عبد أعظم من الهوى. لكن ابن عربي يثبت أعيانا ثابتة في العدم .

---

(١) طائفة من النصارى كاليعاقبة والنسطورية وغيرها.

وهذا ابن حمويه إنما أثبتها مشهودة في العلم فقط، وهذا القول هو الصحيح لكن لا يتم له معه ما طلبه من الاتحاد ؛ ولهذا كان هو أبعدهم عن تحقيق الاتحاد والقرب إلى الإسلام، وإن كان أكثرهم تناقضا وهذيانا، فكثرة الهذيان خير من كثرة الكفر ، ومقتضى كلامه هذا أنه جعل وجوده مشروطا بوجود العالم ، وإن كان له وجود ما غير العالم ، كما أن نور العين مشروط بوجود الأجفان وإن كان قائما بالحدقة، فعلى هذا يكون الله مفتقراً إلى العالم محتاجا إليه كاحتياج نور العين إلى الجفنين. وقد قال الله تعالى : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ إلى آخر الآية . [آل عمران ١٨١] فإذا كان هذا قوله فيمن وصفه بأنه فقير إلى أموالهم ليعطيها الفقراء ، فكيف قوله فيمن جعل ذاته مفتقرة إلى مخلوقاته، بحيث لولا مخلوقاته لانتشرت ذاته وتفرقت وعدمت، كما ينتشر نور العين ويتفوق ويعدم إذا عدم الجفن ؟ وقد قال في كتابه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا﴾ الآية [فاطر ٤١] . فمن يمسك السموات ؟ وقال في كتابه : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ الآية [الروم ٢٥] . وقال : ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد ٢] . وقال : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة ٢٥٥] . لا يؤوده : لا يثقله ولا يكرثه ، وقد جاء في الحديث حديث أبي داود : « ما السموات والأرض وما بينهما في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش كتلك الحلقة في الفلاة » وقد قال في كتابه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية [الزمر ٦٧] وقد ثبت في الصحاح من

حديث أبي هريرة وابن عمر وابن مسعود : « إنّ الله يمسك السموات والأرض بيده » فمن يكون في قبضته السموات والأرض، وكرسيه قد وسع السموات والأرض، ولا يؤوده حفظهما، وبأمره تقوم السماء والأرض، وهو الذي يمسكهما أن تزولا، أيكون محتاجا إليهما مفتقراً إليهما، إذا زالا تفرق وانتشر؟ وإذا كان المسلمون يكفِّرون من يقول : إن السموات تقله أو تظله لما في ذلك من احتياجه إلى مخلوقاته، فمن قال : إنه في استوائه على العرش محتاج إلي العرش كاحتياج المحمول إلى حامله فإنه كافر !؛ لأن الله غني عن العالمين، حي قيوم، هو الغني المطلق وما سواه فقير إليه، مع أن أصل الاستواء على العرش ثابت بالكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة وأئمة السنة، بل هو ثابت في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل، فكيف بمن يقول : إنه مفتقر إلى السموات والأرض ، وإنه إذا ارتفعت السموات والأرض تفرق وانتشر وعدم ؟ فإن حاجته في الحمل إلى العرش أبعد من حاجة ذاته إلى ماهو دون العرش .

ثم يقال لهؤلاء : إن كنتم تقولون بقدم العالم وإنكار انفطار السموات والأرض وانشقاقهما ، وإن كنتم تقولون بحدوثهما فكيف كان قبل خلقهما ؟ هل كان منتشراً متفرقاً معدوما، ثم لما خلقهما صار موجوداً مجتمعاً؟ هل يقول هذا عاقل ؟ فأنتم دائرون بين نوعين من الكفر ، مع غاية الجهل والضلال ، فاختاروا أيهما شئتم : إن صور العالم لا تزال تفنى ويحدث في العالم بدلها مثل الحيوان والنبات والمعادن، ومثل ما يحدثه الله في الجو من السحاب والرعد والبرق والمطر وغير ذلك ، فكلما عدم شيء من ذلك انتقص

من نور الحق ويتفرق ويعدم بقدر ما عدم من ذلك، وكلما زاد شيء من ذلك زاد نوره واجتمع ووجد .

وأما إن عني أن نور الله باق بعد زوال السموات والأرض لكن لا يظهر فيه شيء - فما الشيء الذي يظهر بعد عدم هذه الأشياء ؟ وأي تأثير للسموات والأرض في حفظ نور الله ، وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه » ، وقال عبد الله بن مسعود : « إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور السموات من نور وجهه » ؛ فقد أخبر الصادق المصدوق أن الله لو كشف حجابه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من السموات والأرض وغيرهما، فمن يكون سبحات وجهه تحرق السموات والأرض وإنما حجابه هو الذي يمنع هذا الإحراق، أيكون نوره إنما يحفظ بالسموات والأرض ؟

(الوجه السابع) قوله : فالعلويات جفنها الفوقاني ، والسفليات جفنها التحتاني ، والتفرقة البشرية في السفليات ، أهداب الجفن الفوقاني، والنفس الكلية سوادها، والروح الأعظم بياضها. يقال له: فإذا كان العالم هو هذه العين فالعين الأخرى أي شيء هي ؟ وبقية الأعضاء أين هي ؟ هذا على قولك إن عنيت بالعين المتعين ، وإن عنيت الذات والنفس وهو ما تعين فيه ، فقد

جعلت نفس السموات والأرض والحيوان والملائكة أبعاضاً من الله وأجزاءً منه، وهذا قول هؤلاء الزنادقة والفرعونية الاتحادية الذين أتبعهم الله في الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين .

فيقال له : فعلى هذا لم يخلق الله شيئاً ولا هو رب العالمين ؛ لأنه إما أن يخلق نفسه أو غيره، فخلقه لنفسه محال وهذا معلوم بالبديهة أن الشيء لا يخلق نفسه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور ٣٥]. يقول أخلقوا من غير خالق أم هم خلقوا أنفسهم ؟ ولهذا قال جبير بن مطعم : لما سمعت النبي ﷺ يقرأ هذه الآية أحسست بفؤادي قد انصدع. فقد علموا أن الخالق لا يكون هو المخلوق بالبديهة وخلقه لغيره ممتنع على أصلهم ؛ لأن هذه الأشياء هي أجزاء منه ليست غيراً له .

(الوجه الثامن) أنه جعل البشر أهداب جفن حقيقة الله وهم دائما يزيدون وينقصون ويموتون ويحيون، وفيهم الكافر والمؤمن والفاجر والبر، فتكون أهداب جفن حقيقة الله لا تزال متنوعة كاشرة فاسدة، ويكون المشركون واليهود والنصارى أجفان حقيقته، وقد لعن من جعلهم أبناءه على سبيل الاصطفاء فكيف بمن جعلهم من نفسه !

(الوجه التاسع) أنه متناقض من حيث جعل الروح بياضها ، والنفس الكلية سوادها ، والسموات الجفن الأعلى ، والأرضون الجفن الأسفل . ومعلوم أن جفنيْ عين الإنسان محيطان بالسواد والبياض، والروح والنفس عنده هي فوق السموات والأرض ليست بين السماء والأرض، كما أن سواد

العين وبياضها بين الجفنين ، فهذا التمثيل مع أنه من أقبح الكفر ففيه من الجهالة والتناقض ما تراه .

(الوجه العاشر) أن النفس الكلية اسم تلقاه عن الصابئة الفلاسفة. وأما الروح فإن مقصوده بها هو الذي يسمونه العقل وهو أول الصادرات. وسماه هو روحا ، وهذا بناه على مذهب الصابئة ، وليس هذا من دين الحنفاء ، وقد بينا فساد ذلك في غير هذا الموضع ؛ لكن الصابئة الفلاسفة خير من هؤلاء فإنهم يقرون بواجب الوجود الذي صدرت عنه العقول والنفوس والأفلاك والأرض لا يجعلونها إياه ، وهؤلاء يجعلونها إياه ؛ فقولهم : إنما ينطبق على المعطلة مثل فرعون وحزبه الذي قال : ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء ٢٣] وقال : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص ٣٨] ، وقال : ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ الآية [غافر ٣٦، ٣٧] فإن فرعون يقر بوجود هذا العالم ، ويقول : ما فوقه رب ولا له خالق غيره ، فهؤلاء إذا قالوا : إنه عين السموات والأرض، فقد جحدوا ما جحده فرعون ، وأقروا بما أقر به فرعون ؛ إلا أن فرعون لم يسمه آلها ولم يقل : هو الله ، وهؤلاء قالوا : هذا هو الله؛ فهم مقرُّون بالصانع لكن جعلوه هو الصنعة. فهم في الحقيقة معطلون، وفي اعتقادهم مقرُّون ، وفرعون بالعكس كان منكراً للصانع في الظاهر وكان في الباطن مقراً به. فهو أكفر منهم، وهم أضل منه وأجهل؛ ولهذا يعظمونه جدا.

(الوجه الحادي عشر) قول القائل : بل هذا هو الحق الصريح المتبع ، لا ما يرى المنحرف عن مناهج الإسلام ودينه ، المتحير في بيداء ضلالته

وجهله ؛ فيقال : من الذي قال هذا الحق من الأولين والآخرين ؟ وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره الذي هو كلام الله ووحيه وتنزيله ليس فيه شيء من هذا ، ولا في حديث واحد عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أئمة الإسلام ومشايخه ؛ إلا عن هؤلاء المفترين على الله الذين هم في مشايخ الدين نظير جنكسخان في أمر الحرب ، فديانتهم تشبه دولته ، ولعل إقراره بالصانع خير من إقرارهم ، لكن بعضهم قد يوجب الإسلام فيكون خيراً من التتار من هذا الوجه .

وأما محققوهم وجمهورهم فيجوز عندهم التهود والتنصر والإسلام والإشراك، لا يحرمون شيئا من ذلك ؛ بل المحقق عندهم لا يحرم عليه شيء ولا يجب عليه شيء، ومعلوم أن التتار الكفار خير من هؤلاء ؛ فإن هؤلاء مرتدون عن الإسلام من أقبح أهل الردة، والمرتد شر من الكافر الأصلي في وجوه كثيرة، وإذا كان أبوبكر الصديق (١).

وأما ما حكاه عن الذي سماه الشيخ المحقق العالم الرباني الغوث السابع في الشمعة من أنه قال: اعلم أن العالم بمجموعه حدقة عين الله التي لا تنام ...... إلخ ، فالكلام عليه من وجوه .

(أحدها) أن تسمية قائل مثل هذا المقال محققا وعالما وربانيا عين الضلالة والغواية، بل هذا كلام لا تقوله لا اليهود ولا النصارى ولا عباد

---

(١) بياض في الأصل قدر سطرين ؛ لعله ذكر فيه أمثاله للمرتدين ومانعي الزكاة من العرب ، وكون هؤلاء شر منهم ؛ لإباحتهم ترك جميع شرائع الإسلام .

الأوثان ، فإن كان الذي قاله مسلوب العقل كان حكمه حكم غيره في أن الله رفع عنه القلم، وإن كان عاقلا فجرأة على الله الذي يقول : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ إلى آخر الآيات [مريم ٨٨ - ٩٠] وقال : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ إلى قوله : ﴿ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنبياء ٢٦ - ٢٩] .

وقال : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة ١٧، ١٨] . فإذا كان هذا قوله فيمن يقول : إنهم أبناؤه وأحباؤه ، فكيف قوله فيمن يقول : إنهم أهداب جفنه ؟ تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيراً.

(الوجه الثاني) أن هذا الشيخ الضال الذي قال هذا الكفر والضلال قد نقض آخر كلامه بأوله، فإن لفظ العين مشترك بين الشيء وبين العضو المبصر وبين مسميات أخر، وإذا قال بين الشيء، فهو من العين التي بمعنى النفس أي تميز بنفسه عن غيره، فإذا قال : إن العالم بمجموعه حدقة عين الله التي لا تنام فالعين هنا بمعنى البصر.

ثم قال في آخر كلامه: ونعني بعين الله ما يتعين الله فيه ؛ فهذا من العين بمعنى النفس، وهذه العين ليس لها حدقة ولا أجفان، وإنما هذا بمنزلة من قال : نبعت العين وفاضت وشربنا منها واغتسلنا، ووزنتها في الميزان فوجدتها عشرة مثاقيل وذهبها خالص، وسبب هذا أنه كثيرا ما كان يتصرف في حروف بلا معان .

(الوجه الثالث) أنه تناقض من وجه آخر فإنه إذا كان العالم هو حدقة العين فينبغي أن يكون قد بقي من الله بقية الأعضاء غير العين، فإذا قال في آخر كلامه: والله هو نور العين، كان الله جزءا من العين أو صفة له، فقد جعل في أول كلامه العالم جزءا من الله، وفي آخر كلامه جعل الله جزءاً من العالم، وكل من القولين كفر، بل هذا أعظم من كفر الذين ذكرهم الله بقوله : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الزخرف ١٥، ١٦] فإذا كان الله كفر من جعل له من عباده جزءاً فكيف من جعل عباده تارة جزءاً منه وتارة جعله هو جزءاً منهم؟ فلعن الله أرباب هذه المقالات وانتصر لنفسه ولكتابه ولرسوله ولعباده المؤمنين منهم.

(الوجه الرابع) أنه تناقض من جهة أخرى ، فإنه إذا قال : العين مايتعين الله فيه ، والعالم كله حدقة عينه التي لاتنام ، فقد جعله متعينا في جميع العالم ، فإذا قال بعدها : وهو نور العين ، بقيت سائر أجزاء العين من الأجفان والأهداب والسواد والبياض لم يتعين فيها، فقد جعله متعينا فيها غير متعين فيها.

(الوجه الخامس) أن نور العين مفتقر إلي العين محتاج إليها لقيامه بها، فإذا كان الله في العالم كالنور في العين وجب أن يكون محتاجا إلى العالم.

واعلم أن هذا القول يشبه قول الحلولية الذين يقولون : هو في العالم كالماء في الصوفة : وكالحياة في الجسم : ونحو ذلك ، ويقولون : هو بذاته في كل مكان ، وهذا قول قدماء الجهمية الذين كفرهم أئمة الإسلام ، وحكي عن الجهم أنه كان يقول : هو مثل هذا الهواء ، أو قال : هو هذا الهواء .

وقوله أولا : هـو حدقة عين الله، يشبه قول الاتحادية ؛ فإن الاتحادية يقولون : هو مثل الشمعة التي تتصور في صور مختلفة ، وهي واحدة، فهو عندهم الوجود، واختلاف أحواله كاختلاف أحوال الشمعة ؛ ولهذا كان صاحب هذه المقالات متخبطا لايستقر عند المسلمين الموحدين المخلصين، ولا هو عند هؤلاء الملاحدة الاتحادية من محققيهم العارفين. فإن هؤلاء كلهم من جنس النصيرية والإسماعيلية ، مقالات هؤلاء في الرب من جنس مقالات أولئك، وأولئك فيهم المتمسك بالشريعة وفيهم المتخلي عنها، وهؤلاء كذلك، لكن أولئك أحذق في الزندقة، وهم يعلمون أنهم معطلون مثل فرعون، وهؤلاء جهال يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

(الوجه السادس) قوله : من العلويات والسفليات لو ارتفعت لانبسط نور الله تعالى بحيث لا يظهر فيه شيء أصلا. وهذا كلام مجمل ، ولا ريب أن قائل هذه المقالة من المذبذبين بين الكافرين والمؤمنين، لا هو من المؤمنين ولا من الاتحادية المحضة، لكنه قد لبس الحق بالباطل، وذلك أن الاتحادية يقولون : إن عين السموات والأرض لو زالت لعدم الله. واللفظ يصرح به بعضهم، وأما غالبهم فيشيرون إليه إشارة ، وعوامهم لا يفهمون هذا من مذهب الباقين ؛ فإن هؤلاء من جنس القرامطة والباطنية، وأولئك إنما يصل إلى البلاغ الأكبر الذي هو آخر المراتب خواصهم ؛ ولهذا حثني بعض أكابر هؤلاء الاتحادية عن صاحب هذه المقالة أنه كان يقول : ليس بين التوحيد والإلحاد إلا فرق لطيف. فقلت له: هذا من أبطل الباطل، بل ليس بين مذهبين من الفرق أعظم مما بين التوحيد والإلحاد ، وهذا قاله بناء على هذا الخلط

واللبس الذي خلطه، مثل قوله : إن العلويات والسفليات لو ارتفعت لانبسط نور الله بحيث لا يظهر فيه شيء .

فيقال له : إذا ارتفعت العلويات والسفليات فما تعني بانبساطه ؟ أتعني تفرقه وعدمه كما يتفرق نور العين عند عدم الأجفان ؟ أم تعني أنه ينبسط شيء موجود ؟ وما الذي ينبسط حينئذ ؟ أهو نفس الله أم صفة من صفاته ؟ وعلى أي شيء ينبسط ؟ وما الذي يظهر فيه أو لا يظهر ؟

فإن عنيت الأول وهو مقتضى أول كلامك ؛ لأنك قلت: وإنما قلنا : إن العلويات والسفليات أجفان عين الله ؛ لأنهما يحافظان على ظهور النور، فلو قطعت أجفان عين الإنسان لتفرق نور عينه وانتشر بحيث لا يرى شيئا أصلا، فكذلك العلويات والسفليات لو ارتفعت لانبسط نور الله بحيث لا يظهر فيه شيء أصلا.

وقد قلت : إن الله هو نور العين والروح الأعظم بياضها والنفس الكلية سوادها. ومعلوم أن نور العين على ما ذكرته بشرط وجوده هو الأجفان، فإذا ارتفع الشرط ارتفع المشروط، فيكون العالم عندك شرطاً في وجود الله، فإذا ارتفع العالم ارتفعت حقيقة الله لانتفاء شرطه، وإن أثبت له ذاتا غير العالم فهذا أحد قولي الاتحادية، فإنهم تارة يجعلون وجود الحق هو عين وجود المخلوقات ليس غيرها، وعلى هذا فلا يتصور وجوده مع عدم المخلوقات، وهذا تعطيل محض للصانع، وهو قول القونوي والتلمساني، وهو قول صاحب الفصوص في كثير من كلامه، وتارة يجعلونه وجودا قائما بنفسه، ثم يجعلونه

نفس ذلك الوجود هو أيضا وجود المخلوقات بمعنى أنه فاض عليها. وهذا أقل كفراً من الأول، وإن كان كلاهما من أغلظ الكفر وأقبحه.

وفي كلام صاحب الفصوص وغيره في بعض المواضيع ما يوافق هذا القول ، وكذلك كلام هذا فإنه يشير إلى هذا المعنى.

ثم مع ذلك هل يجعلون وجوده مشروطا بوجود العالم فيكون محتاجا إلى العالم أولا يجعلون ؟ قد يقولون هذا ، وقد يقولون هذا.

(السابع) أنهم يمدحون الضلال والحيرة والظلم والخطأ والعذاب الذي عذب الله به الأمم، ويقلبون كلام الله وكلام رسوله قلبا يعلم فساده بضرورات العقول ؛ مثل قول صاحب الفصوص: لو أن نوحا ماجمع لقومه بين الدعوتين لأجابوه، فدعاهم جهاراً، ثم دعاهم إسراراً - إلى أن قال: وذكر عن قومه أنهم تصاموا عن دعوته ؛ لعلمهم بما يجب عليهم من إجابة دعوته، فعلم العلماء بالله ما أشار إليه نوح في حق قومه من الثناء عليهم بلسان الذم، وعلم أنهم إنما لم يجيبوا دعوته لما فيها من الفرقان، والأمر قرآن لا فرقان ، ومن أقيم في القرآن لا يصغي إلى الفرقان وإن كان فيه.

فيمدحون ويحمدون ما ذمه الله ولعنه ونهى عنه، ويأتون من الإفك والفرية على الله والإلحاد في أسماء الله وآياته بما تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ؛ كقول صاحب الفصوص في فص نوح :

﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا ﴾ [نوح ٢٥] فهي التي خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله وهو الحيرة ﴿ فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ [نوح ٢٥] في عين الماء في المحمدتين ،

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ ﴾ [التكوير ٦] سجرت التنور إذا أوقدته ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [نوح ٢٥] فكان الله عين أنصارهم، فهلكوا فيه إلى الأبد، فلو أخرجتهم إلى السيف سيف الطبيعة لنزلوا عن هذه الدرجة الرفيعة، وإن كان الكل لله وبالله بل هو الله ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ الذين استغشوا ثيابهم وجعلوا أصابعهم في آذانهم ؛ طلبا للستر ؛ لأنه دعاهم ليغفر لهم، والغفر السترالله ﴿ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [نوح ٢٦] أحداً حتى تعم المنفعة كما عمت الدعوة ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ ﴾ أي تدعهم وتتركهم ﴿ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ أي يحيروهم ويخرجوهم من العبودية ، إلى ما فيهم من أسرار الربوبية، فينظروا أنفسهم أربابا ، بعد ما كانوا عند أنفسهم عبيداً، فهم العبيد الأرباب ﴿ وَلا يَلِدُوا ﴾ أي ما ينتجون ولا يظهرون ﴿ إِلاَّ فَاجِرًا ﴾ أي مظهر ما ستر ﴿ كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح ٢٧] أي ساترا ما ظهر بعد ظهوره، فينظرون ما سترهم ثم يسترون بعد ظهوره. فيحار الناظر، ولا يعرف قصد الفاجر في فجوره ولا الكافر في كفره، والشخص واحد ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾ أي استرني واستر مراحلي، فيجهل مقامي وقدري كما جهل قدرك في قولك : « وما قدروا الله حق قدره » ﴿ وَلِوَالِدَيَّ ﴾ أي من كنت تنتجه عنهما ، وهما العقل والطبيعة ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ ﴾ أي قلبي ﴿ مُؤْمِنًا ﴾ مصدقاً بما يكون فيه الأخبار الإلهية وهو ما حدثت به أنفسها ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ من العقول ﴿ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ من النفوس ﴿ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ ﴾ من الظلمات أهل العنت المكتنفين داخل الحجب الظلمانية ﴿ إِلاَّ تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [نوح ٢٨] أي هلاكاً، فلا يعرفون نفوسهم ؛ لشهودهم وجه الحق دونهم إ هـ .

وهذا كله من أقبح تبديل كلام الله وتحريفه، ولقد ذم الله أهل الكتاب في القرآن على ماهو دون هذا، فإنه ذمهم على أنهم حرّفوا الكلم عن مواضعه وأنهم ﴿ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة ٧٩] ثمّ ﴿ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [آل عمران ٧٨] وهؤلاء قد حرفوا كلام الله عن مواضعه أقبح تحريف، وكتبوا كتب النفاق والإلحاد بأيديهم وزعموا أنها من عند الله، تارة يزعمون أنهم يأخذون من حيث يأخذ الملك الذي يوحي به إلى النبي ؛ فيكون فوق النبي بدرجة، وتارة يزعمون أنهم يأخذون من حيث يأخذ الله، فيكون فوق أحدهم في عمله بنفسه بمنزلة علم الله به ؛ لأن الأخذ من معدن واحد، وتارة يزعم أحدهم أن النبي ﷺأعطاه في منامه هذا النفاق العظيم، والإلحاد البليغ، وأمره أن يخرج به إلى أمته وأنه أبرزه كما حدّ له رسول الله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان، وكان جماعة من الفضلاء – حتى بعض من خاطبني فيه وانتصر له – يرى أنه كان يستحل الكذب، ويختارون أن يقال : كان يتعمد الكذب، وأن ذلك هو أهون من الكفر، ثم صرحوا بأن مقالته كفر ، وكان ممن يشهد عليه بتعمد الكذب غير واحد من عقلاء الناس وفضلائهم من المشايخ والعلماء.

ومعلوم أن هذا من أبلغ الكذب على الله ورسوله ، وأنه من أحق الناس بقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ [الانعام ٩٣] .

وكثير من المتنبئين الكذابين كالمختار بن أبي عبيد وأمثاله لم يبلغ كذبهم وافتراؤهم إلى هذا الحد، بل مسيلمة الكذاب لم يبلغ كذبه وافتراؤه إلى هذا

الحد، وهؤلاء كلهم كان يعظّم النبي ﷺ ويقر له بالرسالة، لكن كان يدعي أنه رسول آخر، ولا ينكر وجود الرب ولا ينكر القرآن في الظاهر، وهؤلاء جحدوا الرب وأشركوا به كل شيء وافتروا هذه الكتب التي قد يزعمون أنها أعظم من القرآن، ويفضلون نفوسهم على النبي ﷺ من بعض الوجوه ؛ كما قد صرح به صاحب الفصوص عن خاتم الأولياء .

وحدثني الثقة عن الفاجر التلمساني أنه كان يقول: القرآن كله شرك ليس فيه توحيد ، وإنما التوحيد في كلامنا .

وأما الضلال والحيرة فما مدح الله ذلك قط ولا قال النبي ﷺ : «زدني فيك تحيراً» ، ولم يرو هذا الحديث أحد من أهل العلم بالحديث، ولا هو في شيء من كتب الحديث، ولا في شيء من كتب من يعلم الحديث، بل ولا من يعرف الله ورسوله ، وكذلك احتجاجه بقوله : ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة ٢٠] .

وإنما هذا حال المنافقين المرتدين ؛ فإن الضلال والحيرة مما ذمه الله في القرآن، قال الله تعالى في القرآن : ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ الآية [الأنعام ٧١] .

وهكذا يريد هؤلاء الضالون المتحيرون أن يفعلوا بالمؤمنين، يريدون أن يدعوا من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم، وهي المخلوقات والأوثان والأصنام وكل ماعبد من دون الله، ويريدون أن يردوا المؤمنين على أعقابهم ، يردونهم عن

الإيمـان بالله وملائكتـه وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، ويصيروا حائرين ضالين كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران ؛ له أصحاب يدعونه إلى الهدى : ائتنا . وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ إلي قوله : ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام ١١٠]. أي يحارون ويترددون ، وقال تعالى : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة ٦، ٧] فأمر بأن نسأله هداية الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم المغايرين للمغضوب عليهم وللضالين، وهؤلاء يذمون الصراط المستقيم ، ويمدحون طريق أهل الضلال والحيرة ؛ مخالفة لكتب الله ورسله ، ولما فطر الله عليه عباده من العقول والألباب .

فصل

(في ذكر بعض ألفاظ ابن عربي التي تبين ما ذكرنا من مذهبه، فإن أكثر الناس قد لا يفهمونه)

قال في فص يوسف – بعد أن جعل العالم بالنسبة إلى الله كظل الشخص ، وتناقض في التشبيه : فكل ما تدركه فهو وجود الحق في أعيان الممكنات ، فمن حيث هوية الحق هو وجوده ، ومن حيث اختلاف الصور فيه هو أعيان الممكنات ، فكما لا يزول عنه باختلاف الصور اسم الظل ، كذلك لا يزول عنه باختلاف الصور اسم العالم أو اسم سوى الحق ، فمن حيث أحدية كونه ظلا هو الحق ؛ لأنه الواحد الأحد ، ومن حيث كثرة الصور هو العالم ، فتفطن وتحقق ما أوضحناه لك . وإذا كان الأمر على ما ذكرته

لك فالعالم متوهم ماله وجود حقيقي ، وهذا معنى الخيال ، أي خيل لك أنه أمر زائد قائم بنفسه خارج عن الوجود الحق ، وليس كذلك في نفس الأمر. ألا تراه في الحس متصلا بالشخص الذي امتد عنه يستحيل عليه الانفكاك عن ذلك الاتصال ؛ لأنه يستحيل على الشيء الانفكاك عن ذاته، فاعرف عينك ومن أنت ؟ وما هويتك ؟ وما نسبتك إلى الحق وبما أنت حق وبما أنت عالم وسوى وغير؟ وما شاكل هذه الألفاظ .

وقال في أول الفصوص بعد ﴿ فص حكمة إلهية في كلمة آدمية ﴾ وهو (فص حكمة نفثية، في كلمة شيثية) ، وقد قسم العطاء بأمر الله ، وإنما يكون عن سؤال وعن غير سؤال ، وذكر القسم الذي لإنسان(١) لأن شيثاً هو هبة الله – إلى أن قال :

«ومن هؤلاء من يعلم أن علم الله به في جميع أحواله هو ما كان عليه في حال ثبوت عينه قبل وجودها ، ويعلم أن الحق لا يعطيه إلا ما أعطاه عينه من العلم به، وهو ما كان عليه في حال ثبوته، فيعلم علم الله به من أين حصل، وماثم صنف من أهل الله أعلى وأكشف من هذا الصنف ؛ فهم الواقفون على سر القدر، وهم على قسمين: منهم من يعلم ذلك مجملا، ومنهم من يعلم ذلك مفصلا، والذي يعلمه مفصلا أعلى وأتم من الذي يعلمه مجملا، فإنه يعلم ما تعين في علم الله فيه، إمّا بإعلام الله إياه بما أعطاه عينه من العلم به، وإما

---

(١) كذا في الأصل، وهو محرف أو سقط منه شيء، والكلام في فص شيث هذا يقتضي أن المراد أول إنسان حصل له العلم بالنفث الملكي في الروع هو شيث وهو علة تسميته. والشيخ أشار إلى مقدمة هذا الفص إشارة مجملة ؛ لأن غرضه ما بعدها.

بأن يكشف له عن عينه الثابتة وعن انتقالات الأحوال عليها إلى مالا يتناهى، وهو أعلى ؛ فإنه يكون في علمه بنفسه بمنزلة علم الله به ؛ لأن الأخذ من معدن واحد، إلا أنه من جهة العبد عناية من الله سبقت له هي من جملة أحوال عينه يعرفها صاحب هذا الكشف إذا أطلعه الله على ذلك (أي على أحوال عينه) ؛ فإنه ليس في وسع المخلوق إذا أطلعه الله على أحوال عينه الثابتة التي تقع صورة الوجود عليها أن يطلع في هذه الحال على إطلاع الحق على هذه الأعيان الثابتة في حال عدمها ؛ لأنها نسب ذاتية لا صورة لها، فبهذا القدر نقول: إن العناية الإلهية سبقت لهذا العبد بهذه المساواة في إفادتها العلم، ومن هنا يقول : (الله حتى نعلم) ، وهي كلمة محققة المعنى، ماهي كما يتوهم من ليس له هذا المشرب، وغاية المنزه أن يجعل ذلك الحدوث في العلم للتعلق، وهو أعلى وجه يكون للمتكلم يعقله في هذه المسألة، لولا أنه أثبت العلم زائداً على الذات فجعل التعلق له للذات، وبهذا انفصل عن المحقق من أهل الله صاحب الكشف والوجود .

ثم نرجع إلى الأعطيات فنقول: إن الأعطيات إما ذاتية أو أسمائية، فأما المنهج والهبات والعطايا الذاتية فلا تكون أبداً إلا عن تجلي إلهي، والتجلي من الذات لا يكون أبداً إلا لصورة استعداد العبد المتجلى له، وغير ذلك لا يكون، فإذن المتجلي له مارأى سوى صورته في مرآة الحق وما رأى الحق ولا يمكن أن يراه مع علمه أنه ما رأى صورته إلا فيه، كالمرآة في الشاهد إذا رأيت الصور فيها لا تراها مع علمك أنك ما رأيت الصور أو صورتك إلا فيها، فأبرز الله ذلك مثالاً نصبه لتجليه الذاتي ؛ ليعلم المتجلى له أنه ماراه،

وما ثم مثال أقرب ولا أشبه بالرؤية والتجلي من هذا، وأجهد في نفسك عندما ترى الصورة في المرآة أن ترى جرم المرآة لا تراه أبداً ألبتة، حتى إن بعض من أدرك مثل هذا في صور المرئي ذهب إلى أن الصورة المرئية بين بصر الرائي وبين المرآة، هذا أعظم ما قدر عليه من العلم، والأمر كما قلناه وذهبنا إليه ، وقد بينا هذا في الفتوحات المكية، وإذا ذقت هذا ذقت الغاية التي ليس فوقها غاية في حق المخلوق، فلا تطمع ولا تتعب نفسك في أن ترقى أعلى من هذا الدرج فما هو ثم أصلا وما بعده إلا العدم المحض، فهومرآتك في رؤيتك نفسك، وأنت مرآته في رؤيته أسماءه وظهور أحكامها، وليست سوى عينه فاختلط الأمر وانبهم، فمنا من جهل في علمه فقال : * والعجز عن درك الإدراك إدراك(١) * ومنا من علم فلم يقل مثل هذا القول وهو أعلى القول، بل أعطاه العلم السكوت ما أعطاه العجز، وهذا هو أعلى عالم بالله .

وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء، وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الخاتم، حتى إن الرسل لا يرونه متى رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء ؛ فإن الرسالة والنبوة – أعني نبوة التشريع ورسالته – ينقطعان، والولاية لا تنقطع أبداً ، والمرسلون من حيث كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فكيف من دونهم من الأولياء ؟ ، وإن

---

(١) هذا القول منسوب إلى الصديق الأكبر أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ، وابن عربي يفضل نفسه عليه في العلم بالله كما ترى بعده ، ويدعي أنه مساو لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، بل يفضّل نفسه عليه من بعض الجهات.

كان خاتم الأولياء تابعاً في الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع، فذلك لا يقدح في مقامه ولا يناقض ما ذهبنا إليه، فإنه من وجه يكون أنزل ؛ كما أنه من وجه يكون أعلى. وقد ظهر في ظاهر شرعنا ما يؤيد ما ذهبنا إليه في فضل عمر في أسارى بدر بالحكم فيهم، وفي تأبير النخل ، فما يلزم الكامل أن يكون له التقدم في كل شيء وفي كل مرتبة ، وإنما نظر الرجال إلى التقدم في مرتبة العلم بالله ، هنالك مطلبهم، وأما حوادث الأكوان فلا تعلق لخواطرهم بها، فتحقق ما ذكرناه.

«ولما مثل النبي ﷺ النبوة بالحائط من اللبن، وقد كمل سوى موضع لبنة؛ فكان النبي ﷺ تلك اللبنة، غير أنه ﷺ لا يراها إلا كما قال لبنة واحدة. وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤية ما مثل به رسول الله ﷺ فيرى في الحائط موضع لبنتين ، واللبن من ذهب وفضة ؛ فيرى اللبنتين اللتين ينقص الحائط عنهما ويكمل بهما لبنة ذهب ولبنة فضة ، فلا بد من أن يرى نفسه ينطبع في موضع تينك اللبنتين فيكون خاتم الأولياء تينك اللبنتين؛ ليكمل الحائط.

«والسبب الموجب لكونه رآها لبنتين أنه تابع لشرع خاتم الرسل في الظاهر، وهو موضع اللبنة الفضة وهو ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام ، كما هو آخذ عن الله تعالى في السر ما هو بالصورة الظاهرة متبع فيه ؛ لأنه رأى الأمر على ما هو عليه، فلا بد أن يراه هكذا وهو موضع اللبنة الذهبية في الباطن، فإنه آخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول.

« فإن فهمت ما أشرت به فقد حصل لك العلم النافع ، فكل من لدن آدم إلى آخر نبي ما منهم أحد يأخذ إلا من مشكاة خاتم النبيين وإن تأخر وجود طينته ، فإنه بحقيقته موجود، وهو قوله ﷺ : « كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» وغيره من الأنبياء ما كان نبيا إلا حين بعث ، وكذلك خاتم الأولياء كان وليا وآدم بين الماء والطين، وغيره من الأولياء ما كان وليا إلا بعد تحصيله شرائط الولاية من الأخلاق الإلهية والاتصاف بها من أجل كون الله يسمى بالولي الحميد .

«فخاتم الرسل من حيث ولايته نسبته مع الختم للولاية مثل نسبة الأنبياء والرسل معه، وأنه الولي الرسول النبي ، وخاتم الأولياء الولي الوارث الآخذ عن الأصل المشاهد المراتب ، وهو حسنة من حسنات خاتم الرسل محمد ﷺ ، مقدم الجماعة وسيد ولد آدم في فتح باب الشفاعة. فعين بشفاعته حالا خاصا ما عمم. وفي هذه الحال الخاص تقدم على الأسماء الآلهية. فإن الرحمن ما شفع عند المنتقم في أهل البلاء إلا بعد شفاعة الشافعين، ففاز محمد بالسيادة في هذا المقام الخاص.

«فمن فهم المراتب والمقامات لم يعسر عليه قبول مثل هذا الكلام» ا هـ

* * *

فهذا الفص قد ذكر فيه حقيقة مذهبه التي يبني عليها سائر كلامه فتدبر ما فيه من الكفر الذي ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ [مريم ٩٠] وما فيه من جحد خلق الله وأمره، وجحود ربوبيته وألوهيته وشتمه وسبه، وما فيه من الإزراء برسله وصديقيه والتقدم عليهم

بالدعاوى الكاذبة، التي ليس عليها حجة، بل هي معلومة الفساد بأدنى عقل وإيمان، وأيسر ما يسمع من كتاب وقرآن، وجعل الكفار والمنافقين والفراعنة هم أهل الله وخاصته أهل الكشوف ، وذلك باطل من وجوه :

(أحدها) أنه أثبت له عينا ثابتة قبل وجوده ولسائر الموجودات ، وإنَّ ذلك ثابت له ولسائر أحواله، وكل ما كان موجودا من الأعيان والصفات والجواهر والأعراض فعينه ثابتة قبل وجوده ، وهذا ضلال قد سبق إليه كما تقدم .

(الثاني) أنه جعل علم الله بالعبد إنما حصل له من علمه بتلك العين الثابتة في العدم التي هي حقيقة العبد، لا من نفسه المقدسة، وأن علمه بالأعيان الثابتة في العدم وأحوالها تمنعه أن يفعل غير ذلك، وأن هذا هو سر القدر ؛ فتضمن هذا وصف الله تعالى بالفقر إلى الأعيان وغناها عنه، ونفى ما استحقه بنفسه من كمال علمه وقدرته، ولزوم التجهيل والتعجيز، وبعض ما في هذا الكلام المضاهاة لما ذكره الله عمن قال : ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران ١٨١] الآية ، فإنه جعل حقائق الأعيان الثابتة في العدم غنية عن الله في حقائقها وأعيانها، وجعل الرب مفتقرا إليه في علمه بها، فما استفاد علمه بها إلا منها، كما يستفيد العبد العلم بالمحسوسات من إدراكه لها، مع غنى تلك المدركات عن المدرك ، والمسلمون يعلمون أن الله عالم بالأشياء قبل كونها بعلمه القديم الأزلي الذي هو من لوازم نفسه المقدسه لم يستفد علمه بها منها ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك ١٤] فقد دلت هذه الآية على وجوب علمه بالأشياء من وجوه انتظمت البراهين المذكورة لأهل النظر والاستدلال القياسي العقلي من أهل الكلام والفلسفة وغيرهم :

(أحدها) أنه خالق لها ، والخلق هو الإبداع بتقدير، وذلك يتضمن تقديرها في العلم قبل كونها في الخارج.

(الثاني) أن ذلك مستلزم للإرادة والمشيئة ، والإرادة مستلزمة لتصور المراد والشعور به ، وهذه الطريقة المشهورة عند أكثر أهل الكلام.

(الثالث) أنها صادرة عنه ، وهو سببها التام ، والعلم بأصل الأمر وسببه يوجب العلم بالفرع المسبب ؛ فعلمه بنفسه مستلزم العلم بكل ما يصدر عنه.

(الرابع) أنه في نفسه لطيف يدرك الدقيق ، خبير يدرك الخفي ، وهذا هو مقتضى العلم بالأشياء ، فيجب وجود المقتضي لوجود السبب التام ، فهو في علمه بالأشياء مستغن بنفسه عنها كما هو غني بنفسه في جميع صفاته. ثم إذا رأى الأشياء بعد وجودها وسمع كلام عباده ونحو ذلك فإنما يدرك ما أبدع وما خلق وما هو مفتقر إليه ومحتاج من جميع وجوهه، لم يحتج في علمه وإدراكه إلى غيره ألبتة. فلا يجوز القول بأن علمه بالأشياء استفاده من نفس الأشياء الثابتة الغنية في ثبوتها عنه.

وأما جحود قدرته فلأنه جعل الرب لا يقدر إلا على تجليه في تلك الأعيان الثابتة في العدم الغنية عنه ؛ فقدرته محدودة بها مقصورة عليها مع غناها عنه وثبوت حقائقها بدونه ، وهذا عنده هو السر الذي أعجز الله أن يقدر على غير ما خلق، فلا يقدر عنده على أن يزيد في العالم ذرة، ولا ينقص منه ذرة، ولا يزيد في المطر قطرة، ولا ينقص منه قطرة، ولا يزيد في الإنسان

ولا ينقص منه، ولا يغيِّر شيئاً من صفاته ولا حركاته ولا سكناته، ولا ينقل حجرا عن مقره، ولا يحول ماء عن ممره، ولا يهدي ضالا ولا يضل مهتديا، ولا يحرك ساكنا ولا يسكِّن متحركا. ففي الجملة لا يقدر إلا على ما وجد ؛ لأن ما وجد فعينه ثابتة في العدم ، ولا يقدر على أكثر من ظهوره في تلك الأعيان.

وهذا التجلِّي والتعجيز الذي ذكره وزعم أنه هو سر القدر وإن كان قد تضمن بعض ما قاله غيره من الضلال ففيه من الكفر مالا يرضاه غيره من الضالين ؛ فإن القائلين بأن المعدوم شيء يقولون ذلك في كل ممكن كان أو لم يكن، ولا يجعلون علمه بالأشياء مستفاداً من الأشياء قبل أن يكون وجودها، ولا خلقه وقدرته مقصورة على ما علمه منها، فإنه يعلم أنواعا من الممكنات لم يخلقها؛ فمعلومه من الممكنات أوسع مما خلقه، ولا يجعلون المانع من أن يخلق غير ماخلق هو كون الأعيان الثابتة في العدم لا تقبل سوى هذا الوجود، بل يمكن عندهم وجودها على صفة أخرى، هي أيضا من الممكن الثابت في العدم ؛ فلا يفضي قولهم لا إلى تجهيل ولا إلى تعجيز من هذا الوجه. وإنما قد يقولون المانع من ذلك أن هذا هو أكمل الوجوه وأصلحها، فعلمه بأنه لا أكمل من هذا يمنعه أن يريد ما ليس أكمل بحكمته فيجعلون المانع أمراً يعود إلى نفسه المقدسة حتى لا يجعلونه ممنوعا من غيره، فأين من لا يجعل له مانعا من غيره ولا رادّ لقضائه ممن يجعله ممنوعا مصدوداً؟ وأين من يجعله عالما بنفسه ممن يجعله مستفيداً للعلم من غيره ؟ وممن هو

عني عنه ؟ هذا مع أن أكثر الناس أنكروا على من قال : ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم .

(الثالث) أنه زعم أن من الصنف الذي جعله أعلى أهل الله من يكون في علمه بمنزلة علم الله ؛ لأن الأخذ من معدن واحد إذا كشف له عن أحوال الأعيان الثابتة في العدم فيعلمها من حيث علمها الله ؛ إلا أنه من جهة العبد عناية من الله سبقت له هي من جملة أحوال عينه يعرفها صاحب هذا الكشف إذا أطلعه الله على ذلك فجعل علمه وعلم الله من معدن واحد.

(الرابع) أنه جعل الله عالما بها بعد أن لم يكن عالما ، واتبع المتشابه الذي هو قوله: (حتى يعلم) وزعم أنها كلمة محققة المعنى بناء على أصله الفاسد أن وجود العبد هو عين وجود الرب، فكل مخلوق علم مالم يكن علمه. وهذا الكفر ما سبقه إليه كافر، فإن غاية المكذب بقدر الله أن يقول : إن الله علم مالم يكن عالما، أما أنه يجعل كل ما تجدد لمخلوق من العلم فإنما تجدد لله، وأن الله لم يكن عالما بما علمه كل مخلوق حتى علمه ذلك المخلوق.

(الخامس) أنه زعم أن التجلي الذاتي بصورة استعداد المتجلي والمتجلى له ما رأى سوى صورته في مرآة الحق، وأنه لا يمكن أن يرى الحق مع علمه بأنه ما رأى صورته إلا فيه، وضرب المثل بالمرآة فجعل الحق هو المرآة والصورة في المرآة هي صورته.

وهذا تحقيق ما ذكرته من مذهبه : أن وجود الأعيان عنده وجود الحق ، والأعيان كانت ثابتة في العدم، فظهر فيها وجود الحق بالمتجلى له،

والعبد لا يرى الوجود مجرداً عن الذوات، ما يرى إلا الذوات التي ظهر فيها الوجود، فلا سبيل له إلى رؤية الوجود أبداً. وهذا عنده هو الغاية التي ليس فوقها غاية في حق المخلوق وما بعده إلا العدم المحض، فهو مرآتك في رؤيتك نفسك وأنت مرآته في رؤيته أسماءه وظهور أحكامها ؛ وذلك لأن العبد لا يرى نفسه التي هي عينه إلا في وجود الحق الذي هو وجوده، والعبد مرآته في رؤيته أسماءه وظهور أحكامها ؛ لأن أسماء الحق عنده هي النسب والإضافات التي بين الأعيان وبين وجود الحق، وأحكام الأسماء هي الأعيان الثابتة في العدم، وظهور هذه الأحكام بتجلي الحق في الأعيان، والأعيان التي هي حقيقة العيان هي مرآة الحق التي بها يرى أسماءه وظهور أحكامها، فإنه إذا ظهر في الأعيان حصلت النسبة التي بين الوجود والأعيان وهي الأسماء، وظهرت أحكامها وهي الأعيان، ووجود هذه الأعيان هو الحق ؛ فلهذا قال : وليست سوى عينه ؛ فاختلط الأمر وانبهم .

فتدبر هذا من كلامه وما يناسبه لتعلَم ما يعتقده من ذات الحق وأسمائه، وأن ذات الحق عنده هي نفس وجود المخلوقات، وأسماءه هي النسب التي بين الوجود والأعيان، وأحكامها هي الأعيان ؛ لتعلم كيف اشتمل كلامه على الجحود لله ولأسمائه ولصفاته وخلقه وأمره، وعلى الإلحاد في أسماء الله وآياته ، فإنه لم يثبت له اسما ولا آية ؛ إذ ليس إلا وجوداً واحداً وذاك ليس هو اسما ولا آية ، والأعيان الثابتة ليست هي أسماءه ولا آياته ، ولما أثبت شيئين فرق بينها الوجود والثبوت وليس بينهما فرق ؛ اختلط الأمر عليه وانبهم.

وهذا حقيقة قوله وسر مذهبه الذي يدعي أنه به أعلم العالم بالله ، وأنه تقدم بذلك على الصديق الذي جهل فقال: العجز عن الإدراك إدراك، وتقدم به على المرسلين الذين علموا ذلك من مشكاته[1] وفيه من أنواع الكفر والضلال ما يطول عدّها (منها) الكفر بذات الله ؛ إذ ليس عنده إلا أمور عدمية فإذا قلنا : الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ؛ فليس الرب عنده إلا نسبة إلى[2]

(السادس) أنه قال : واختلط الأمر وانبهم، أو هو على أصله الفاسد مختلط منبهم وعلى أصل أهل الهدى والإيمان متميز متبين، قد بين الله بكتابه الحق من الباطل والهدى من الضلال.

قال : فمنا من جهل علمه فقال : العجز عن درك الإدراك إدراك .

وهذا الكلام مشهور عندهم لنسبته إلى أبي بكر الصديق، فجعله جاهلاً وإن كان هذا اللفظ لم ينقل عن أبي بكر ولا هو مأثور عنه في شيء من النقول المعتمدة، وإنما ذكر ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر نحوا من ذلك عن بعض

---

(١) لأنه يدعي أنه هو ختم الولاية، وأن خاتم الولاية أعلى من خاتم النبوة في الباطن، وان كان يتبعه في الظاهر، إلخ ما تقدم، وغايته أنه بلغ من غروره بما حذقه من الثرثرة يخلط النظريات الفلسفية بالخيالات الصوفية أن حاول إقناع قراء فصوصه بأنه رب العالمين من حيث إنه أكمل مظهر للخلق الذي هو عين الحق، وما الرب عنده إلا نسبة إضافية بين ما يسمى حقاً وما يسمى خلقا ، وهما في نفس الأمر بشيء واحد .

(٢) بياض في الأصل ، يعلم ما سقط منه مما تقدم .

التابعين غير مسمى ، وإنما يرسل إرسالاً من جهة من يكثر الخطأ في مراسليهم، كما يحكون عن عمر أنه قال : « كان النبي ﷺ وأبو بكر إذا تخاطبا كنت كالزنجي بينهما». وهذا أيضاً كذب باتفاق أهل المعرفة، وإنما الذي في الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال : خطبنا رسول الله ﷺ على المنبر فقال : « إن عبداً خيّره الله بين الدنيا والآخرة فاختار ذلك العبد ما عند الله » فبكى أبو بكر، فقال: بل نفديك بأنفسنا وأموالنا، أو كما قال ، فجعل الناس يقولون: عجباً لهذا الشيخ يبكي أن ذكر رسول الله ﷺ عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة. فكان رسول الله ﷺ هو المخير ، وكان أبو بكر هو أعلمنا به ، وكان أبو بكر هو أعلمهم بمراد رسول الله ﷺ ومقاصده في كلامه ، وإن كانوا كلهم مشتركين في فهمه .

وهذا كما في الصحيح أنه قيل لعلي عليه السلام: هل ترك عندكم رسول الله ﷺ شيئاً ؟ وفي لفظ: هل عهد إليكم رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس؟ فقال : «لا ، والذي فلق الحبة وبرا النسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه، وما في هذه الصحيفة[1] وبهذا ونحوه من الأحاديث الصحيحة استدل العلماء على أن ما يذكر عن علي وأهل البيت من أنهم اختصوا بعلم خصهم به النبي ﷺ دون غيرهم كذب عليهم، مثل ما يذكر من الجفر والبطاقة والجدول ، وغير ذلك وما يأثره القرامطة الباطنية عنهم ،

---

(١) هي صحيفة علقها في سيفه ؛ كتب فيها عن النبي ﷺ أحكام الدية وفكاك الأسير وتحريم المدينة.

فإنه قد كذب على جعفر الصادق ـ رضي الله عنه ـ ما لم يكذب على غيره ، وكذلك كذب على علي ـ عليه السلام ـ وغيره من أئمة أهل البيت ـ رضي الله عنهم ـ ، كما قد بين هذا وبسط في غير هذا الموضع.

وهكذا يكذب قوم من النساك ومدعي الحقائق على أبي بكر وغيره وأن النبي ﷺ كان يخاطبه بحقائق لا يفهمها عمر مع حضوره. ثم قد يدعون أنهم عرفوها وتكون حقيقتها زندقة وإلحادا ، وكثير من هؤلاء الزنادقة والجهال قد يحتج على ذلك بحديث أبي هريرة : «حفظت عن رسول الله ﷺ جرابين أما أحدهما فبثثته فيكم ، وأما الآخر فلو بثثته لقطعتم هذا الحلقوم» وهذا الحديث صحيح ، لكن الجراب الآخر لم يكن فيه شيء من علم الدين ومعرفة الله وتوحيده الذي يختص به أولياؤه، ولم يكن أبو هريرة من أكابر الصحابة الذين يخصون بمثل ذلك لو كان هذا مما يخص به، بل كان في ذلك الجراب أحاديث الفتن التي تكون بين المسلمين، فإن النبي ﷺ أخبرهم بما سيكون من الفتن بين المسلمين، ومن الملاحم التي تكون بينهم وبين الكفار ؛ ولهذا لما كان مقتل عثمان وفتنة ابن الزبير ونحو ذلك قال ابن عمر: لو أخبركم أبو هريرة أنكم تقتلون خليفتكم وتهدمون البيت[1] وغير ذلك لقلتم : كذب أبو هريرة، فكان أبو هريرة يمتنع من التحديث بأحاديث الفتن قبل وقوعها ؛ لأن ذلك مما لا يحتمله رؤوس الناس وعوامهم ، وكذلك يحتجون

---

(١) بل قال أبو هريرة نفسه : لو قلت لكم : إنكم ستحرقون بيت ربكم ، وتقتلون ابن نبيكم لقلتم لا أكذب من أبي هريرة . وقد كان قتل الحسين ـ عليه السلام ـ بعد موت أبي هريرة ، وإنما كان يخاف قطع حلقومه من بني أمية .

بحديث حذيفة ابن اليمان ، وأنه صاحب السر الذي لا يعلمه غيره ، وحديث حذيفة معروف ، لكن السر الذي لا يعلمه غيره هو معرفته بأعيان المنافقين الذين كانوا في غزوة تبوك. ويقال : إنهم كانوا هموا بالفتك بالنبي ﷺ فأوحي إلى النبي ﷺ أمرهم ، فأخبر حذيفة بأعيانهم. ولهذا كان عمر لا يصلي إلا على من صلى عليه حذيفة ؛ لأن الصلاة على المنافقين منهي عنها.

وقد ثبت في الصحيح عن حذيفة أنه لما ذكر الفتن ، وأنه أعلم الناس بها بيّن أن النبي ﷺ لم يخصه بحديثها ولكن حدث الناس كلهم، قال : « وكان أعلمنا أحفظنا » .

ومما يبين هذا أن في السنن أن النبي ﷺ كان عام الفتح قد أهدر دم جماعة: منهم عبدالله بن أبي سرح، فجاء به عثمان إلى النبي ﷺ ليبايعه، فتوقف عنه النبي ﷺ ساعة، ثم بايعه وقال : «أما كان فيكم رجل رشيد ينظر إلي وقد أمسكت عن هذا فيضرب عنقه» فقال رجل من الأنصار: يارسول الله، هلا أومأت إلي ؟ فقال : «ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين» فهذا ونحوه مما يبين أن النبي ﷺ يستوي ظاهره وباطنه، لا يظهر للناس خلاف ما يبطنه، كما تدعيه الزنادقة من المتفلسفة والقرامطة وضلال المتنسكة ونحوهم.

(السابع) أنه « قال ومنا من علم فلم يقل مثل هذا ، وهو أعلى القول، بل أعطاه العلم والسكوت ما أعطاه العجز ، وهذا هو أعلى عالم بالله ، وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء، وما يراه أحد من الأولياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم ، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من

مشكاة الولي الخاتم ؛ حتى إن الرسل لا يرونه متى رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فإن الرسالة والنبوة أعني نبوة التشريع ورسالته ينقطعان، والولاية لا تنقطع أبداً. فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء ؛ فكيف من دونهم من الأولياء ؟ وإن كان خاتم الأولياء تابعاً في الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع فذلك لا يقدح في مقامه ولا يناقض ما ذهبنا إليه، فإنه من وجه يكون أنزل ، كما أنه من وجه يكون أعلى – إلى قوله – : ولما مثل النبي ﷺ النبوة بالحائط من اللبن » .

ففي هذا الكلام من أنواع الإلحاد والكفر وتنقيص الأنبياء والرسل ما لا تقوله لا اليهود ولا النصارى ، وما أشبهه في هذا الكلام بما ذكر في قول القائل: فخر عليهم السقف من تحتهم إن هذا لا عقل ولا قرآن ، وكذلك ما ذكره هنا من أن الأنبياء والرسل تستفيد من خاتم الأولياء الذي بعدهم هو مخالف للعقل ؛ فإن المتقدم لا يستفيد من المتأخر. ومخالف للشرع ؛ فإنه معلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن الأنبياء والرسل أفضل من الأولياء الذين ليسوا أنبياء ولا رسلاً. وقد يزعم أن هذا العلم الذي هو عنده أعلى العلم وهو القول بوحدة الوجود، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق ، وهو تعطيل الصانع حقيقة وجحده، وهو القول الذي يظهره فرعون ؛ فلم يكفه زعمه أن هذا حق ، حتى زعم أنه أعلا العلم ، ولم يكفه ذلك حتى زعم أن الرسل إنما يرونه من مشكاة خاتم الأولياء. فجعل خاتم الأولياء أعلم بالله من جميع الأنبياء والرسل، وجعلهم يرون العلم بالله من مشكاته.

ثم أخذ يبين ذلك فقال : فإن الرسالة والنبوة أعني نبوة التشريع

ورسالته ينقطعان ، والولاية لا تنقطع أبداً ، فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، وذلك أنه لم يمكنهم أن يجعلوا بعد النبي ﷺ نبياً ورسولاً فإن هذا كفر ظاهر، فزعموا أنه إنما تنقطع نبوة التشريع ورسالته، يعني وأما نبوة التحقيق ورسالة التحقيق وهي الولاية عندهم فلم تنقطع ، وهذه الولاية عندهم هي أفضل من النبوة والرسالة ؛ ولهذا قال ابن عربي في بعض كلامه :

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

وقال في الفصوص في (كلمة عزيرية) : «فإذا سمعت أحداً من أهل الله تعالى يقول أو ينقل إليك عنه أنه قال : الولاية أعلى من النبوة فليس يريد ذلك القائل إلا ما ذكرناه، أو يقول: إن الولي فوق النبي والرسول فإنه يعني بذلك في شخص واحد، وهو أن الرسول عليه السلام من حيث هو ولي أتم منه من حيث هو نبي ورسول ؛ لا أن الولي التابع له أعلى منه، فإن التابع لا يدرك المتبوع أبداً فيما هو تابع له فيه(١) إذ لو أدركه لم يكن تابعاً له». وإذا حوققوا على ذلك قالوا : إن ولاية النبي فوق نبوته ، وإن نبوته فوق رسالته ؛ لأنه يأخذ بولايته عن الله، ثم يجعلون مثل ولايته ثابتة لهم ، ويجعلون ولاية خاتم الأولياء أعظم من ولايته ، وأن ولاية الرسول تابعة لولاية خاتم الأولياء الذي ادعوه » .

---

(١) بهامش الأصل ما نصه : قوله فيما هو تابع له فيه ، كأنه يريد ما يزعم من أنه تابع للنبي ﷺ في الشرع الظاهر، وأما الباطن فلا؛ لأنه يزعم أن خاتم الأنبياء وجميع الأنبياء والرسل يأخذون من مشكاته ، فهو عند نفسه أعلى منهم في ذلك - قبحه الله - انتهى من خط الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى - رحمه الله - .

وفي هذا الكلام أنواع قد بيناها في غير هذا الموضع ، (منها) أن دعوى المدعي وجود خاتم الأولياء على ما ادعوه باطل لا أصل له، ولم يذكر هذا أحد من المعروفين قبل هؤلاء إلا أبو عبدالله محمد بن علي الترمذي الحكيم في كتاب (ختم الولاية) ، وقد ذكر في هذا الكتاب ما هو خطأ وغلط مخالف للكتاب والسنة والإجماع ، وهو - رحمه الله تعالى - وإن كان فيه فضل ومعرفة ومن الكلام الحسن المقبول والحقائق النافعة أشياء محمودة ؛ ففي كلامه من الخطأ ما يجب رده ، ومن أشنعها ما ذكره في ختم الولاية، مثل دعواه فيه أنه يكون في المتأخرين من درجته عند الله أعظم من درجة أبي بكر وعمر وغيرهما. ثم إنه تناقض في موضع آخر لما حكى عن بعض الناس أن الولي يكون منفرداً عن الناس ؛ فأبطل ذلك واحتج بأبي بكر وعمر، وقال: يلزم هذا أن يكون أفضل من أبي بكر وعمر، وأبطل ذلك ، (ومنها) أنه ذكر في كتابه ما يشعرأنّ ترك الأعمال الظاهرة ولو أنها التطوعات المشروعة أفضل في حق الكامل ذي الأعمال القلبية ، وهذا أيضاً خطأ عند أئمة الطريق ؛ فإن أكمل الخلق رسول الله ﷺ وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وما زال محافظاً على ما يمكنه من الأوراد والتطوعات البدنيه إلى مماته ، (ومنها) ما ادعاه من خاتم الأولياء الذي يكون في آخر الزمان ، وتفضيله وتقديمه على من تقدم من الأولياء ، وأنه يكون معهم كخاتم الأنبياء مع الأنبياء ، وهذا ضلال واضح ؛ فإن أفضل أولياء الله من هذه الأمة أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وأمثالهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ؛ كما ثبت ذلك بالنصوص المشهورة ، وخير القرون قرنه ﷺ كما في الحديث

الصحيح : « خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » وفي الترمذي وغيره أنه قال في أبي بكر وعمر : « هذان سيّدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين » قال الترمذي : حديث حسن ، وفي صحيح البخاري عن عليّ - عليه السلام - أنه قال له ابنه : يا أبتِ ، من خير الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال : « يا بني ، أبو بكر» قال : ثم من ؟ قال : « ثم عمر » ، وروى بضع وثمانون نفساً عنه أنه قال : « خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر » .

وهذا باب واسع ، وقد قال تعالى : ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء ٦٩] ، وهذه الأربعة هي مراتب العباد : أفضلهم الأنبياء ، ثم الصديقون ، ثم الشهداء ، ثم الصالحون ، وقد نهى النبي ﷺ أن يفضل أحد منا نفسه على يونس بن متى مع قوله : ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ [القلم ٤٨] ، وقوله : ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الصافات ١٤٢] تنبيها على أن غيره أولى أن لا يفضل أحد نفسه عليه ؛ ففي صحيح البخاري عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « لا يقولن أحدكم إني خير من يونس بن متى » ، وفي صحيح البخاري أيضاً عنه قال قال رسول الله ﷺ : « ما ينبغي لعبد أن يكون خيراً من يونس بن متى » وفي لفظ « أن يقول : أنا خير من يونس بن متى» وفي البخاري أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « من قال : أنا خير من يونس بن متى فقد كذب » ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال – يعني رسول الله – : « لا ينبغي لعبد أن يقول : أنا

خير من يونس بن متى » ، وفي الصحيحين عن ابن عباس عن النبي ﷺ - وفي لفظ : فيما يرويه عن ربه - : « لا ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس ابن متى » . وهذا فيه نهي عام .

وأما ما يرويه بعض الناس : « لا تفضلوني على يونس بن متى » ، ويفسره باستواء حال صاحب المعراج وصاحب الحوت فنقل باطل وتفسير باطل . وقد قال النبي ﷺ : « اثبت حراء فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد » . وأبو بكر أفضل الصديقين .

ولفظ خاتم الأولياء لا يوجد في كلام أحد من سلف الأمة ولا أئمتها ، ولا له ذكر في كتاب الله ولا سنة رسوله ، وموجب هذا اللفظ أنه آخر مؤمن تقي ؛ فإن الله يقول : ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس ٦٢] الآية (١) . فكل من كان مؤمنا «تقياً» كان لله ولياً، وهم على درجتين: السابقون المقربون وأصحاب اليمين المقتصدون، كما قسمهم الله تعالى في سورة فاطر، وسورة الواقعة، والإنسان، والمطففين .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي

(١) يعني الآية التي بعد هذه المفسرة للأولياء بالمؤمنين المتقين .

في قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ، ولا بدله منه » ، فالمتقربون إلى الله بالفرائض هم الأبرار المقتصدون أصحاب اليمين، والمتقربون إليه بالنوافل التي يحبها بعد الفرائض هم السابقون المقربون ، وإنما تكون النوافل بعد الفرائض ، وقد قال أبو بكر الصديق في وصيته لعمر بن الخطاب : « اعلم أن لله عليك حقاً بالليل لا يقبله بالنهار، وحقاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وأنها لا تقبل النافلة حتى تؤدي الفريضة » .

والاتحادية يزعمون أن قرب النوافل يوجب أن يكون عين الحق عين أعضائه، وأن قرب الفرائض يوجب أن يكون الحق عين وجوده كله ، وهذا فاسد من وجوه كثيرة ، بل كفر صريح ، كما بيناه في غير هذا الموضع ، وإذا كان خاتم الأولياء آخر مؤمن تقي في الدنيا فليس ذلك الرجل أفضل الأولياء ولا أكملهم بل أفضلهم وأكملهم سابقوهم الذين هم أخص بأفضل الرسل من غيرهم، فإنه كلما كان الولي أعظم اختصاصاً بالرسول وأخذاً عنه وموافقة له كان أفضل ؛ إذ الولي لا يكون ولياً لله إلا بمتابعة الرسول باطناً وظاهراً. فعلى قدر المتابعة للرسول يكون قدر الولاية لله.

والأولياء وإن كان فيهم محدّث كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : «إنه كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي فعمر» ، فهذا الحديث يدل على أن أول المحدثين من هذه الأمة عمر وأبو بكر أفضل منه ؛ إذ هو الصديق والمحدث ، وإن كان يلهم ويحدث من جهة الله تعالى فعليه أن يعرض ذلك على الكتاب والسنة ؛ فإنه ليس بمعصوم كما قال أبو الحسن الشاذلي: قد ضمنت لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسنة ، ولم تضمن لنا

العصمة في الكشوف والإلهام ؛ ولهذا كان عمر بن الخطاب وقّافا عند كتاب الله ، وكان أبو بكر الصديق يبين أشياء تخالف ما يقع له ؛ كما بين له يوم الحديبية ويوم موت النبي ﷺ ويوم قتال مانعي الزكاة وغير ذلك، وكان عمر ابن الخطاب يشاور الصحابة فتارة يرجع إليهم وتارة يرجعون إليه ، وربما قال القول ، وتردّ عليه امرأة من المسلمين قوله وتبين له الحق ؛ فيرجع إليها ويدع قوله كما قدر الصداق، وربما يرى رأياً فيذكر له حديث عن النبي ﷺ فيعمل به ويدع رأيه ، وكان يأخذ بعض السنة عمن هو دونه في قضايا متعددة، وكان يقول القول فيقال له: أصبت فيقول: ما يدري عمر أصاب الحق أم أخطاه ؟ ؛ فإذا كان هذا إمام المحدثين، فكل ذي قلب يحدثه قلبه عن ربه إلى يوم القيامة هو دون عمر ؛ فليس فيهم معصوم ، بل الخطأ يجوز عليهم كلهم ، وإن كان طائفة تدعي أن الولي محفوظ ، وهو نظير ما يثبت للأنبياء من العصمة، والحكيم الترمذي قد أشار إلى هذا ؛ فهذا باطل مخالف للسنة والإجماع ؛ ولهذا اتفق المسلمون على أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ ، وإن كانوا متفاضلين في الهدى والنور والإصابة ؛ ولهذا كان الصديق أفضل من المحدث ؛ لأن الصديق يأخذ من مشكاة النبوة فلا يأخذ إلا شيئاً معصوماً محفوظاً، وأما المحدث فيقع له صواب وخطأ، والكتاب والسنة تميز صوابه من خطئه ، وبهذا صار جميع الأولياء مفتقرين إلى الكتاب والسنة، لا بد لهم أن يزنوا جميع أمورهم بآثار الرسول، فما وافق آثار الرسول فهو الحق ، وما خالف ذلك فهو باطل، وإن كانوا مجتهدين فيه ، والله تعالى يثيبهم على اجتهادهم ويغفر لهم خطأهم.

ومعلوم أن السابقين الأولين أعظم اهتداءً واتباعاً للآثار النبوية ؛ فهم أعظم إيماناً وتقوى ، وأما آخر الأولياء ؛ فلا يحصل له مثل ما حصل لهم .

والحديث الذي يروى : «مثل أمتي كمثل الغيث لا يدرى أوله خير أو آخره» قد تكلم في إسناده، وبتقدير صحته إنما معناه بما في آخر الأمة من يقارب أولها(١) حتى يشتبه على بعض الناس أيهما خير كما يشتبه على بعض الناس طرفا الثوب، مع القطع بأن الأول خير من الآخر ؛ ولهذا قال : « لا يدرى » ومعلوم أن هذا السلب ليس عاماً لها فإنه لا بد أن يكون معلوماً أيهما أفضل.

ثم إن هذا خاتم الأولياء صار مرتبة موهومة لا حقيقة له ، وصار يدعيها لنفسه أو لشيخه طوائف، وقد ادعاها غير واحد ولم يدعها إلا من في كلامه من الباطل ما لم تقله اليهود ولا النصارى، كما ادعاها صاحب الفصوص، وتابعه صاحب الكلام في الحروف، وشيخ من أتباعهم كان بدمشق، وآخر كان يزعم أنه المهدي الذي يزوج بنته بعيسى بن مريم، وأنه خاتم الأولياء. ويدعي هؤلاء وأمثالهم من الأمور ما لا يصلح إلا لله وحده، كما قد يدعي المدعي منهم لنفسه أو لشيخه ما ادعته النصارى في المسيح.

ثم صاحب الفصوص وأمثاله بنوا الأمر على أن الولي يأخذ عن الله بلا واسطة، والنبي يأخذ بواسطة الملك ؛ فلهذا صار خاتم الأولياء أفضل عندهم

---

(١) فيه معنى آخر، وهو أن هذا الخير في المتأخر نسبي ، وهو أن القليل منه يعد كثيراً بالنسبة إلى فساد زمنه ، ويدل عليه أحاديث: منها أنه عندما يجاهر الناس بالزنا في الطريق يقول قائلهم: ما ضر هذين لو استترا وراء هذا الجدار . وهو يعد كأبي بكر وعمر فيكم.

من هذه الجهة، وهذا باطل وكذب، فإن الولي لا يأخذ عن الله إلا بواسطة الرسول إليه، وإذا كان محدثاً قد ألقى إليه شيء وجب عليه أن يزنه بما جاء به الرسول من الكتاب والسنة.

وتكليم الله لعباده على ثلاثة أوجه: من وراء حجاب كما كلم موسى، وبإرسال رسول كما أرسل الملائكة إلى الأنبياء، وبالإيحاء، وهذا فيه للولي نصيب، وأما المرتبتان الأوليان فإنهما للأنبياء خاصة، والأولياء الذين قامت عليهم الحجة بالرسل لا يأخذون علم الدين إلا بتوسط رسل الله إليهم، ولو لم يكن إلا عرضه على ما جاء به الرسول(١) ولن يصلوا في أخذهم عن الله إلى مرتبة نبي أو رسول ، فكيف يكونون آخذين عن الله بلا واسطة ، ويكون هذا الأخذ أعلى ، وهم لا يصلون إلى مقام تكليم موسى ولا إلى مقام نزول الملائكة عليهم كما نزلت على الأنبياء، وهذا دين المسلمين واليهود والنصارى.

وأما هؤلاء الجهمية الاتحادية فبنوا على أصلهم الفاسد: أن الله هو الوجود المطلق الثابت لكل موجود، وصار ما يقع في قلوبهم من الخواطر - وإن كانت من وساوس الشيطان - يزعمون أنهم أخذوا ذلك عن الله بلا واسطة، وأنهم يكلَّمون كما كلم موسى بن عمران ؛ وفيهم من يزعمون أن حالهم أفضل من حال موسى بن عمران ؛ لأن موسى سمع الخطاب من الشجرة ، وهم على زعمهم يسمعون الخطاب من حي ناطق ؛ كما يذكر عن صاحب الفصوص أنه قال:

---

(١) كذا ، ولعل جواب « لو » سقط من الناسخ أو حذف للعلم به. وفيه أنهم يعترفون بهذا الأخذ لأحكام التشريع الظاهرة دون الحقائق الباطنة التي يدعونها ، ويطلقونها على فلسفتهم وخيالاتهم الباطلة.

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وأعانهم على ذلك ما اعتقدوه من مذاهب الجهمية وأتباعهم الذين يزعمون أن تكليم الله لموسى إنما كان من جنس الإلهام، وأن العبد قد يرى الله في الدنيا إذا زال عن عينه المانع ؛ إذ لا حجاب عندهم للرؤية منفصل عن العبد، وإنما الحجاب متصل به، فإذا ارتفع شاهد الحق، وهم لا يشاهدون إلا ما يتمثلونه من الوجود المطلق الذي لا حقيقة له إلا في أذهانهم، ومن الوجود المخلوق، فيكون الرب المشهود عندهم الذي يخاطبهم في زعمهم لا وجود له إلا في أذهانهم أو لا وجود له إلا وجود المخلوقات. هذا هو التعطيل للرب تعالى ولكتبه ولرسله، والبدع دهليز الكفر والنفاق، كما أن التشيع دهليز الرفض، والرفض دهليز القرامطة والتعطيل، فالكلام الذي فيه تجهم دهليز الزندقة والتعطيل، وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال : «واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت» ؛ ولهذا اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن الله يرى في الآخرة، وأنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه.

وفي رؤية النبي ﷺ ربه كلام معروف لعائشة وابن عباس، فعائشة أنكرت الرؤية، وابن عباس ثبت عنه في صحيح مسلم أنه قال: رأى محمد ربه بفؤاده مرتين. وكذلك ذكر أحمد عن أبي ذر وغيره أنه أثبت رؤيته بفؤاده، وهذا المنصوص عن ابن عباس وأبي ذر وغيرهما هو المنصوص عن أحمد وغيره من أئمة السنة، ولم يثبت عن أحد منهم إثبات الرؤية بالعين في الدنيا، كما لم يثبت عن أحد منهم إنكار الرؤية في الآخرة، ولكن كلا القولين

تقول به طوائف من الجهمية ؛ فالنفي يقول به متكلمة الجهمية، والإثبات يقول به بعض متصوفة الجهمية كالاتحادية وطائفة من غيرهم، وهؤلاء الاتحادية يجمعون بين النفي والإثبات، كما يقول ابن سبعين: عين ما ترى ذات لا ترى، وذات لا ترى عين ما ترى . ونحو ذلك ؛ لأن مذهبهم مستلزم الجمع بين النقيضين، فهم يقولون في عموم الكائنات ما قالته النصارى في المسيح ؛ ولهذا تنوعوا في ذلك تنوع النصارى في المسيح .

ومن الأنواع التي في دعواهم أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من بعض الوجوه، فإن هذا لم يقله أبو عبدالله الحكيم الترمذي ولا غيره من المشايخ المعروفين، بل الرجل أجل قدراً وأعظم إيماناً من أن يفتري هذا الكفر الصريح، ولكن أخطأ شبراً ؛ ففرّعوا على خطئه ما صار كفراً.

وأعظم من ذلك زعمه أن الأولياء والرسل من حيث ولايتُهم تابعون لخاتم الأولياء وأخذوا من مشكاته ؛ فهذا باطل بالعقل والدين، فإن المتقدم لا يأخذ من المتأخر، والرسل لا يأخذون من غيرهم ، وأعظم من ذلك أنه جعلهم تابعين له في العلم بالله الذي هو أشرف علومهم، وأظهر من ذلك أنه جعل العلم بالله هو مذهب أهل وحدة الوجود القائلين بأن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق.

فليتدبر المؤمن هذا الكفر القبيح درجة بعد درجة. واستشهاده على تفضيل غير النبي عليه بقصة عمر وتأبير النخل، فهل يقول مسلم : إن عمر كان أفضل من النبي ﷺ برأيه في الأسرى ؟ وإن الفلاحين الذين يحسنون صناعة التأبير أفضل من الأنبياء في ذلك ؟ ثم ما قنع بذلك حتى قال : فما

يلزم الكامل أن يكون له التقديم في كل علم وكل مرتبة، وإنما نظر الرجال إلى التقدم في مرتبة العلم بالله ، هنالك مطلبهم .

فقد زعم أنه أعلم بالله من خاتم الأنبياء، وأنّ تقدُّمه عليه بالعلم بالله ، وتقدم خاتم الأنبياء عليه بالتشريع فقط ، وهذا من أعظم الكفر الذي يقع فيه غالية المتفلسفة ، وغالية المتصوفة ، وغالية المتكلمة ؛ الذين يزعمون أنهم في الأمور العلمية أكمل من الرسل ؛ كالعلم بالله ونحو ذلك، وأن الرسل إنما تقدموا عليهم بالتشريع العام الذي جعل لصلاح الناس في دنياهم. وقد يقولون : إن الشرائع قوانين عدلية وضعت لمصلحة الدنيا، فأما المعارف والحقائق والدرجات العالية في الدنيا والآخرة فيفضلون فيها أنفسهم وطرقهم على الأنبياء وطرق الأنبياء.

وقد علم بالاضطرار من دين المسلمين أن هذا من أعظم الكفر والضلال، وكان من سبب جحد حقائق ما أخبرت به الرسل من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر وزعمهم أن ما يقوله هؤلاء في هذا الباب هو الحق، وصاروا في أخبار الرسل، تارة يكذبونها، وتارة يحرفونها، وتارة يفوضونها، وتارة يزعمون أن الرسل كذبوا لمصلحة العموم .

ثم عامة الذين يقولون هذه المقالات يفضلون الأنبياء والرسل على أنفسهم إلا الغالية منهم كما تقدم، فهؤلاء من شر الناس قولاً واعتقاداً.

وقد كان عندهم شيخ من أجهل الناس كان يعظمه طائفة من الأعاجم ، ويقال : إنه خاتم الأولياء، يزعم أنه يفسر العلم بوجهين، وأن النبي ﷺ إنما

فسره بوجه واحد ، وأنه هو أكمل من النبي ﷺ ، وهذا تلقاه من صاحب الفصوص ، وأمثال هذا في هذه الأوقات كثير، وسبب ضلال المتفلسفة وأهل التصوف والكلام ، الموافقة لضلالهم، وليس هذا موضع الإطناب في بيان ضلال هذا ، وإنما الغرض التنبيه على أن صاحب الفصوص وأمثاله قالوا قول هؤلاء.

فأما كفر من يفضل نفسه على النبي ﷺ كما ذكر صاحب الفصوص فظاهر، ولكن من هؤلاء من لا يرى ذلك، ولكن يرى أن له طريقاً إلى الله غير اتباع الرسول، ويسوغ لنفسه اتباع تلك الطريق، وإن خالف شرع الرسول، ويحتجون بقصة موسى والخضر.

ولا حجة فيها لوجهين : (أحدهما) أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ولا كان يجب على الخضر اتباع موسى ، فإن موسى كان مبعوثاً إلى بني إسرائيل ؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح : «أن موسى لما سلم على الخضر قال : وأنى بأرضك السلام ؟ قال : أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم ، قال : إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه . وأنا على علم من الله علمنيه لا تعلمه» ولهذا قال نبينا ﷺ : « فضلنا على الناس بخمس : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأي رجل أدركته الصلاة فعنده مسجده وطهوره ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة »[1] وقد قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً

(١) لم يذكر الخامسة، وفي بعض الأحاديث هي: « ونصرت بالرعب مسيرة شهر ».

لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ ٢٨] وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ الآية [الأعراف ١٥٨] .

فمحمد ﷺ رسول الله إلى جميع الثقلين: إنسهم وجنهم، عربهم وعجمهم، ملوكهم وزهادهم، الأولياء منهم وغير الأولياء. فليس لأحد الخروج عن مبايعته باطناً وظاهراً، ولا عن متابعة ما جاء به من الكتاب والسنة في دقيق ولا جليل، لا في العلوم ولا الأعمال، وليس لأحد أن يقول له كما قال الخضر لموسى، وأما موسى فلم يكن مبعوثاً إلى الخضر.

(الثاني) أن قصة الخضر ليس فيها مخالفة للشريعة بل الأمور التي فعلها تباح في الشريعة، إذا علم العبد أسبابها كما علمها الخضر؛ ولهذا لما بين أسبابها لموسى وافقه على ذلك، ولو كان مخالفاً لشريعته لم يوافقه بحال.

وقد بسطنا هذا في غير هذا الموضع، فإن خرق السفينة مضمونه أن المال المعصوم يجوز للإنسان أن يحفظه لصاحبه بإتلاف بعضه ، فإن ذلك خير من ذهابه بالكلية كما جاز للراعي على عهد النبي ﷺأن يذبح الشاة التي خاف عليها الموت ، وقصة الغلام مضمونها جواز قتل الصبي الصائل ؛ ولهذا قال ابن عباس : وأما الغلمان فإن كنت تعلم منهم ما علمه الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم، وإلا فلا تقتلهم . وأما إقامة الجدار ففيها فعل المعروف بلا أجرة مع الحاجة إذا كان لذرية قوم صالحين .

* * *

(الوجـه الثـامن) أنه قـال: ولما مـثل النبي ﷺ النبـوة بالحـائط إلى آخـر كلامه ، وهو متضمن أن العلم نوعان : (أحدهما) علم الشريعة وهو يأخذه عن الله كما يأخذ النبي فإنه قال : والسبب الموجب لكونه رآها لبنتين أنه تابع لشرع خاتم الرسل في الظاهر ، وهو موضع اللبنة الفضية ، وهو ظاهره ، وما يتبعه فيه من الأحكام كما هو آخذ عن الله في السر ما هو بالصورة الظاهرة متبع فيه ؛ لأنه يرى الأمر على ما هو عليه ، فلا بد أن يراه هكذا.

وهذا الذي زعمه من أن الولي يأخذ عن الله في السر ما يتبع فيه الرسل كأئمة العلماء مع أتباعهم ؛ فيه من الاتحاد ما لا يخفى على من يؤمن بالله ورسله، فإن هذا يدعي أنه أوتي مثل ما أوتي رسل الله ، ويقول : إنه أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ، ويجعل الرسل بمنزلة معلمي الطب والحساب والنحو وغير ذلك ، إذا عرف المتعلم الدليل الذي قال به معلمه فينبغي موافقته لمشاركته له في العلم ، لا لأنه رسول وواسطة من الله إليه في تبليغ الأمر والنهي . وهذا الكفر يشبه كفر مسيلمة الكذاب ونحوه ممن يدعي أنه مشارك للرسول في الرسالة ، وكان يقول مؤذنه : أشهد أن محمداً ومسيلمة رسولا الله .

(والنوع الثاني) علم الحقيقة ؛ وهو فيه فوق الرسول كما قال هو موضع اللبنة الذهبية في الباطن، فإنه أخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول، فقد ادعى أن هذا العلم الذي هو موضع اللبنة الذهبية وهو علم الباطن والحقيقة هو فيه فوق الرسول ؛ لأنه يأخذه من حيث

يأخذ الملك العلم الذي يوحي به إلى الرسول، والرسول يأخذه من الملك، وهو أخذه من فوق الملك، من حيث يأخذه الملك، وهذا فوق دعوى مسيلمة الكذاب، فإن مسيلمة لم يدّع أنه أعلى من الرسول في علم من العلوم الإلهية، وهذا ادعى أنه فوقه في العلم بالله .

ثم قال : فإن فهمت ما أشرت به فقد حصل لك العلم النافع. ومعلوم أن هذا الكفر فوق كفر اليهود والنصارى فإن اليهود والنصارى لا ترضى أن تجعل أحداً من المؤمنين فوق موسى وعيسى، وهذا يزعم هو وأمثاله ممن يدَّعي أنه خاتم الأولياء أنه فوق جميع الرسل ، وأعلم بالله من جميع الرسل، وعقلاء الفلاسفة لا يرضون بهذا ، وإنما يقول مثل هذا غلاتهم وأهل الحق منهم الذين هم من أبعد الناس عن العقل والدين.

* * *

(التاسع) قوله : فكل نبي من لدن آدم – إلى آخر الفصل – تضمن أن جميع الأنبياء والرسل لا يأخذون إلا من مشكاة خاتم النبيين ؛ ليوطن نفسه بذلك أن جميع الأنبياء لا يأخذون إلا من مشكاة خاتم الأولياء ، وكلاهما ضلال، فإن الرسل ليس منهم من يأخذ من آخر إلا من كان مأموراً باتباع شريعته كأنبياء بني إسرائيل والرسل الذين فيهم الذين أمروا باتباع التوراة كما قال تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ الآية [المائدة ٤٤] .

وأما إبراهيم فلم يأخذ عن موسى وعيسى، ونوح لم يأخذ عن إبراهيم، ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى لم يأخذوا عن محمد وإنْ بشروا به وآمنوا به

كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ الآية [آل عمران ٨١] . قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد في أمر محمد ، وأخذ العهد على قومه ليؤمنن به، ولئن بعث وهم أحياء لينصرنه.

* * *

(العاشر) قوله : فإن تحقيقه موجود، وهو قوله : «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» بخلاف غيره من الأنبياء ، وكذلك خاتم الأولياء كان ولياً وآدم بين الماء والطين ؛ كذب واضح مخالف لإجماع أئمة الدين، وإن كان هذا يقوله طائفة من أهل الضلال والإلحاد ؛ فإن الله علم الأشياء وقدرها قبل أن يكونها، ولا تكون موجودة بحقائقها إلا حين توجد ، ولا فرق في ذلك بين الأنبياء وغيرهم، ولم تكن حقيقته ﷺ موجودة قبل أن يخلق إلا كما كانت حقيقة غيره بمعنى أن الله علمها وقدرها، لكن كان ظهور خبره واسمه مشهوراً أعظم من غيره ، فإنه كان مكتوباً في التوراة والإنجيل وقبل ذلك ، كما روى الإمام أحمد في مسنده عن العرباض بن سارية، عن النبي ﷺ قال : «إني لعبد الله مكتوب خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ؛ ورؤيا أمي ؛ رأت حين ولدتني كأنها خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» وحديث ميسرة الفجر: قلت يارسول الله، متى كنت نبياً ؟ وفي لفظ متى كتبت نبياً ؟ قال : «وآدم بين الروح والجسد» . وهذا لفظ الحديث .

وأما قوله : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » فلا أصل له ، لم يروه أحد من أهل العلم بالحديث بهذا اللفظ ، وهو باطل ، فإنه لم يكن بين الماء

والطين إذ الطين ماء وتراب، ولكن لما خلق الله جسد آدم قبل نفخ الروح فيه كتب نبوة محمد ﷺ وقدرها، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود ، قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق ، «إن خلق أحدكم يجعل في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات، فيقال: اكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح» وروي أنه كتب اسمه على ساق العرش ومصاريع الجنة[١]. فأين الكتاب والتقدير من وجود الحقيقة ؟ وما يروى في هذا الباب من الأحاديث هو من هذا الجنس مثل كونه كان نوراً يسبح حول العرش أو كوكباً يطلع في السماء ونحو ذلك ؛ كما ذكره ابن حمويه صاحب ابن عربي، وذكر بعضه عمر الملا في وسيلة المتعبدين، وابن سبعين وأمثالهم ممن يروي الموضوعات المكذوبات باتفاق أهل المعرفة بالحديث ؛ فإن هذا المعنى رووا فيه أحاديث كلها كذب حتى إنه اجتمع بي قديماً شيخ معظم من أصحاب ابن حمويه يسميه أصحابه سلطان الأقطاب ، وتفاوضنا في كتاب الفصوص ، وكان معظما له ولصاحبه حتى أبديت له بعض ما فيه ؛ فهاله ذلك ، وأخذ يذكر مثل هذه الأحاديث ، فبينت له أن هذا كله كذب.

*　*　*

(الحادي عشر) قوله : وخاتم الولاية كان ولياً وآدم بين الماء والطين – إلى قوله – : فخاتم الرسل من حيث ولايته نسبته مع الختم للولاية كنسبة

(١) أشار بقوله : « وروي » إلى أن هذا ضعيف غير صحيح كالذي قبله ، وأما « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » فإنه باطل رواية ومعنى.

الأولياء والرسل معه - إلى آخر الكلام - ذكر فيه ما تقدم من كون رسول الله ﷺ مع هذا الختم المدعى كسائر الأنبياء، والرسل معه يأخذ من مشكاته العلم بالله الذي هو أعلى العلم، وهو وحدة الوجود أنه مقدم الجماعة وسيد ولد آدم في فتح باب الشفاعة. فعين حالا خاصاً ما عمم - إلى قوله - : ففاز محمد بالسيادة في هذا المقام الخاص اهـ . فكذب على رسول الله ﷺ في قوله : إنه قال : سيد ولد آدم في الشفاعة فقط لا في بقية المراتب » ؛ بخلاف الختم المفترى فإنه سيد في العلم بالله ، وغير ذلك من المقامات .

ولقد كنت أقول : لو كان المخاطب لنا ممن يفضل إبراهيم أو موسى أو عيسى على محمد ﷺ لكانت مصيبة عظيمة لا يحملها المسلمون فكيف بمن يفضل رجلاً من أمة محمد على محمد وعلى جميع الأنبياء والرسل في أفضل العلوم ويدعي أنهم يأخذون ذلك من مشكاته؟ وهذا العلم هو غاية الإلحاد والزندقة ، وهذا المفضل من أضلّ بني آدم وأبعدهم عن الصراط المستقيم، وإن كان له كلام كثير ومصنفات متعددة، وله معرفة بأشياء كثيرة، وله استحواذ على قلوب طوائف من أصناف المتفلسفة والمتصوفة والمتكلمة والمتفقهة والعامة، فإن هذا الكلام من أعظم الكلام ضلالا عند أهل الكلام والإيمان . والله أعلم.

* * *

وقد تبين أن في هذا الكلام من الكفر والتنقيص بالرسل والاستخفاف بهم والغض منهم والكفر بهم وبما جاؤوا به ما لا يخفى على مؤمن، وقد

حدثني أحد أعيان الفضلاء أنه سمع الشيخ إبراهيم الجعبري - رحمة الله عليه - يقول : رأيت ابن عربي ، وهو شيخ نجس يكذِّب بكل كتاب أنزله الله ، وبكل نبي أرسله الله. ولقد صدق فيما قال، ولكن هذا بعض الأنواع التي ذكرها من الكفر، وكذلك قول أبي محمد بن عبدالسلام: هو شيخ سوء مقبوح كذاب يقول بقدم العالم ولا يحرم فرجا . هو حق عنه لكنه بعض أنواع ما ذكره من الكفر، فإن قوله لم يكن قد تبين له حاله وتحقق، وإلا فليس عنده رب وعالم كما تقوله الفلاسفة الإلهيون الذين يقولون بواجب الوجود، وبالعالم الممكن الوجود بل عنده وجود العالم هو وجود الله، وهذا يطابق قول الدهرية الطبائعية الذين ينكرون وجود الصانع مطلقاً ، ولا يقرون بوجود واجب غير العالم كما ذكر الله عن فرعون وذويه، وقوله مطابق لقول فرعون، لكن فرعون لم يكن مقراً بالله ، وهؤلاء يقرون بالله ، ولكن يفسرونه بالوجود الذي أقر به فرعون، فهم أجهل من فرعون وأضل، وفرعون أكفر منهم، في كفره من العناد والاستكبار ما ليس في كفرهم ، كما قال تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل ١٤] وقال له موسى : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء ١٠٢] وجماع أمر صاحب الفصوص وذويه هدم أصول الإيمان الثلاثة ؛ فإن أصول الإيمان : الإيمان بالله ، والإيمان برسله ، والإيمان باليوم الآخر.

فأما الإيمان بالله فزعموا أن وجوده وجود العالم ليس للعالم صانع غير العالم ، وأما الرسول فزعموا أنهم أعلم بالله منه ومن جميع الرسل ، ومنهم

من يأخذ العلم بالله الذي هو التعطيل ووحدة الوجود: من مشكاته، وأنهم يساوونه في أخذ العلم بالشريعة عن الله. وأما الإيمان باليوم الآخر فقد قال:

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده ... وبالوعيد الحق عين تعاين

وإن دخلوا دار الشقاء فإنهم ... على لذة فيها نعيم يباين

وهذا يذكر عن بعض أهل الضلال قبله أنه قال: إن النار تصير لأهلها طبيعة نارية يتمتعون بها، وحينئذ فلا خوف ولا محذور ولا عذاب ؛ لأنه أمر مستعذب ، ثم إنه في الأمر والنهي عنده الآمر والناهي والمأمور والمنهي واحد؛ ولهذا كان أول ما قاله في الفتوحات المكية التي هي أكبر كتبه :

الرب حق والعبد حق ... ياليت شعري من المكلّف

إن قلت عبد فذاك رب ... أو قلت رب أنى يكلّف ؟

وفي موضع آخر فذاك ميت، رأيته بخطه.

وهذا مبني على أصله فإن عنده ما ثم عبد ولا وجود إلا وجود الرب فمن المكلف؟ وعلى أصله هو المكلف كما يقولون : أرسل من نفسه إلى نفسه رسولاً، وكما قال ابن الفارض في قصيدته التي نظمها على مذهبهم ، وسماها نظم السلوك :

إليَّ رسولاً كنت مني مرسلاً ... وذاتي بآياتي علي استدلت

ومضمونها هو القول بوحدة الوجود ومذهب ابن عربي وابن سبعين وأمثالهم كما قال :

لها صلاتي بالمقام أقيمها وأشهد فيها أنها لي صلّت
كلانا مصل عابد ساجد إلى حقيقة الجمع في كل سجدة(١)
وما كان لي صلى سواي فلم تكن صلاتي لغيري في أدا كل ركعة

إلى قوله :

ومـــا زلت إياها وإياي لم تزل ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحبت

ومثل هذا كثير ، والله أعلم .

وحدثني صاحبنا الفقيه الصوفي أبو الحسن علي بن قرباص أنه دخل على الشيخ قطب الدين بن القسطلاني فوجده يصنف كتاباً فقال: ما هذا؟ فقال : هذا في الرد على ابن سبعين وابن الفارض وأبي الحسن الجربي والعفيف التلمساني، وحدثني عن جمال الدين بن واصل وشمس الدين الأصبهاني أنهما كانا ينكران كلام ابن عربي ويبطلانه ويردان عليه ، وأن الأصبهاني رأى معه كتاباً من كتبه فقال: إن اقتنيت شيئاً من كتبه فلا تجيء إلي، أو ما هذا معناه. وإن ابن واصل لما ذكر كلامه في التفاحة التي انقلبت عن جوار معلم معها فقال: والله الذي لا إله إلا هو يكذب. ولقد بر في يمينه.

وحدثني صاحبنا الفاضل أبو بكر بن سالار عن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد شيخ وقته عن الإمام أبي محمد بن عبدالسلام أنهم سألوه عن

---

(١) البيت في ديوانه الذي بين الأيدي هكذا :

كـــلانا مـــصل واحـــد ناظر إلى حـقـيـقـتـه بالجمع في كل سجدة

ابن عربي، لما دخل مصر، فقال: شيخ سوء مقبوح يقول بقدم العالم ولا يحرم فرْجا، وكان تقي الدين يقول : هو صاحب خيال واسع ؛ حدثني بذلك غير واحد من الفقهاء ممن سمع كلام ابن دقيق العيد، وحدثني ابن بحير عن رشيد الدين سعيد وغيره أنه قال: كان يستحل الكذب، هذا أحسن أحواله، وحدثني الشيخ العالم العارف كمال الدين المراغي شيخ زمانه أنه لما قدم وبلغه كلام هؤلاء في التوحيد قال: قرأت على العفيف التلمساني من كلامهم شيئاً فرأيته مخالفاً للكتاب والسنة، فلما ذكرت ذلك له قال : القرآن ليس فيه توحيد بل القرآن كله شرك، ومن اتبع القرآن لم يصل إلى التوحيد، قال : فقلت له : ما الفرق عندكم بين الزوجة والأجنبية والأخت ، والكل واحد ؟ قال لا فرق بين ذلك عندنا ، وإنما هؤلاء المحجوبون اعتقدوه حراماً فقلنا : هو حرام عليهم عندهم، وأما عندنا فما ثم حرام.

وحدثني كمال الدين بن المراغي أنه لما تحدث مع التلمساني في هذا المذهب قال: وكنت أقرأ عليه في ذلك فإنهم كانوا قد عظموه عندنا ، ونحن مشتاقون إلى معرفة فصوص الحكم ، فلما صار يشرحه لي أقول هذا خلاف القرآن والأحاديث ، فقال : ارم هذا كله خلف الباب ، واحضر بقلب صاف حتى تتلقى هذا التوحيد -أو كما قال- ثم خاف أن أشيع ذلك عنه فجاء إلي باكياً وقال : استر عني ما سمعته مني.

وحدثني أيضاً كمال الدين أنه اجتمع بالشيخ أبي العباس الشاذلي تلميذ الشيخ أبي الحسن فقال عن التلمساني: هؤلاء كفار هؤلاء يعتقدون أن الصنعة هي الصانع ، قال : وكنت قد عزمت على أن أدخل الخلوة على يده

فقلت : أنا لا آخذ عنه هذا ، وإنما أتعلم منه أدب الخلوة، فقال لي: مثلك مثل من يريد أن يتقرب إلى السلطان على يد صاحب الأتون والزبال، فإذا كان الزبال هو الذي يقربه إلى السلطان كيف يكون حاله عند السلطان ؟

وحدثنا أيضاً قال قال لي قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد : إنما استولت التتار على بلاد المشرق لظهور الفلسفة فيهم وضعف الشريعة، فقلت له : ففي بلادكم مذهب هؤلاء الذين يقولون بالاتحاد ، وهو شر من مذهب الفلاسفة ؟ فقال : قول هؤلاء لا يقوله عاقل ؛ بل كل عاقل يعلم فساد قول هؤلاء – يعني أن فساده ظاهر فلا يذكر هذا فيما يشتبه على العقلاء ، بخلاف مقالة الفلاسفة فإن فيها شيئاً من المعقول وإن كانت فاسدة.

وحدثني تاج الدين الأنباري الفقيه المصري الفاضل أنه سمع الشيخ إبراهيم الجعبري يقول : رأيت ابن عربي شيخاً مخضوب اللحية ، وهو شيخ نجس يكفر بكل كتاب أنزله الله، وكل نبي أرسله الله. وحدثني الشيخ رشيد الدين بن المعلم أنه قال : كنت وأنا شاب بدمشق أسمع الناس يقولون عن ابن عربي والخسر وشاهي : إن كليهما زنديق – أو كلاما هذا معناه – ، وحدثني عن الشيخ إبراهيم الجعبري أنه حضر ابن الفارض عند الموت وهو ينشد:

إن كان منزلتي في الحب عندكم ... ما قد لقيت فقد ضيعت أيامي
أمنية ظفرت نفسي بها زمنا ... واليوم أحسبها أضغاث أحلام

وحدثني الفقيه الفاضل تاج الدين الزنباري أنه سمع الشيخ إبراهيم الجعبري يقول : رأيت في منامي ابن عربي وابن الفارض وهما شيخان أعميان يمشيان ويتعثران ويقولان كيف الطريق ؟ أين الطريق ؟ وحدثني شهاب الدين المزي عن شرف الدين بن الشيخ نجم الدين بن الحكيم عن أبيه أنه قال : قدمت دمشق فصادفت موت ابن عربي فرأيت جنازته كأنما ذر عليها الرماد فرأيتها لا تشبه جنائز الأولياء - أو قال - فعلمت أن هذا، وعن أبيه عن الشيخ إسماعيل الكوراني أنه كان يقول : ابن عربي شيطان ، وعنه أنه كان يقول عن الحريري أنه شيطان، وحدثني شهاب الدين عن القاضي شرف الدين الباربلي أن أباه كان ينهاه عن كلام ابن عربي وابن الفارض وابن سبعين .

فصــــل

في بعض ما يظهر به كفرهم، وفساد قولهم. وذلك من وجوه : (أحدها) أن حقيقة قولهم: إن الله لم يخلق شيئاً ولا ابتدعه ولا برأه ولا صوره ؛ لأنه إذا لم يكن وجود إلا وجوده فمن الممتنع أن يكون خالقاً لوجود نفسه، أو بارئاً لذاته، فإن العلم بذلك من أبين العلوم وأبدهها للعقول أن الشيء لا يخلق نفسه ؛ ولهذا قال سبحانه : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور ٣٥] ، فإنهم يعلمون أنهم لم يكونوا مخلوقين من غير خالق، ويعلمون أن الشيء لا يخلق نفسه ؛ فتعين أن لهم خالقاً، وعند هؤلاء الكفار الملاحدة الفرعونية أنه ما تم شيء يكون الرب قد خلقه وبرأه أو أبدعه إلا نفسه المقدسة ، ونفسه المقدسة لا تكون مخلوقة مربوبة مصنوعة مبروءة

لامتناع ذلك في بدائه العقول، وذلك من أظهر الكفر عند جميع أهل الملل، وأما على رأي صاحب الفصوص فما ثم إلا وجوده والذوات الثابتة في العدم الغنية عنه، ووجوده لا يكون مخلوقاً والذوات غنية عنه فلم يخلق الله شيئاً .

(الثاني) أن عندهم أن الله ليس رب العالمين ولا مالك الملك أو ليس إلا وجوده ، وهو لا يكون رب نفسه ، ولا يكون الملك المملوك هو الملك المالك ، وقد صرحوا بهذا الكفر مع تناقضه وقالوا : إنه هو ملك الملك ؛ بناء على أن وجوده مفتقر إلى ذوات الأشياء، وذوات الأشياء مفتقرة إلى وجوده، فالأشياء مالكة لوجوده، فهو ملك الملك .

(الثالث) أن عندهم أن الله لم يرزق أحداً شيئاً، ولا أعطى أحداً شيئاً، ولا رحم أحداً، ولا أحسن إلى أحد، ولا هدى أحداً، ولا أنعم على أحد نعمة، ولا علم أحداً علماً ، ولا علم أحداً البيان، وعندهم في الجملة لم يصل منه إلى أحد لا خير ولا شر، ولا نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا إضلال أصلاً. وأن هذه الأشياء جميعها عين نفسه ومحض وجوده. فليس هناك غير يصل إليه، ولا أحد سواه ينتفع بها، ولا عبد يكون مرزوقاً أو منصوراً أو مهدياً .

ثم على رأي صاحب الفصوص أن هذه الذوات ثابتة في العدم، والذوات هي أحسنت وأساءت، ونفعت وضرت، وهذا عنده سر القدر. وعلى رأي الباقين ماثم ذات ثابتة غيره أصلاً، بل هو ذام نفسه بنفسه، ولا عن نفسه بنفسه، وهو المرزوق المضروب المشتوم، وهو الناكح والمنكوح والآكل والمأكول، وقد صرحوا بذلك تصريحاً بيناً.

(الرابع) أن عندهم أن الله هو الذي يركع ويسجد ويخضع ويعبد ويصوم ويجوع ويقوم وينام ، وتصيبه الأمراض والأسقام ، وتبتليه الأعداء، ويصيبه البلاء ، وتشتد به اللأواء، وقد صرحوا بذلك، وصرحوا بأن كل كرب يصيب النفوس فإنه هو الذي يصيبه ، وأنه إذا نفّس الكرب فإنما يتنفس عنه ؛ ولهذا كره بعض هؤلاء الذين هم من أكفر خلق الله وأعظمهم نفاقاً وإلحاداً وعتواً على الله وعناداً أن يصبر الإنسان على البلاء ؛ لأن عندهم هو المصاب المبتلى. وقد صرحوا بأنه موصوف بكل نقص وعيب فإنه ما ثم من يتصف بالنقائص والعيوب غيره ؛ فكل عيب ونقص وكفر وفسوق في العالم فإنه هو المتصف به لا متصف به غيره. كلهم متفقون على هذا في الوجود .

ثم صاحب الفصوص يقول: إن ذلك ثابت في العدم، وغيره يقول : ما ثم سوى وجود الحق الذي هو متصف بهذه المعايب والمثالب .

(الخامس) أن عندهم أن الذين عبدوا اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى والذين عبدوا وداً وسواع ويغوث ويعوق ونسراً ؛ والذين عبدوا الشعرى والنجم والشمس والقمر والذين عبدوا المسيح وعزيراً والملائكة وسائر من عبد الأوثان والأصنام: قوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون وبني إسرائيل وسائر المشركين والعرب ما عبدوا إلا الله، ولا يتصور أن يعبدوا غير الله، وقد صرحوا بذلك في مواضع كثيرة مثل قول صاحب الفصوص في فص الكلمة النوحية :

﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [نوح ٢٢] لأن الدعوة إلى الله مكر بالمدعو ؛ لأنه ما عدم من البداية فيدعى إلى الغاية ﴿ أَدْعُو إِلَى ﴾ [يوسف ١٠٨] هنا عدة المكر

﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف ١٠٨] فيه أن الأمر له كله فأجابوه مكراً كما دعاهم - إلى أن قال – : فقالوا في مكرهم : ﴿ لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [نوح ٢٣] فإنهم إذا تركوهم جهلوا من الحق على قدر ما تركوا من هؤلاء ؛ فإن الحق في كلّ معبود وجهاً خاصاً يعرفه من عرفه ، ويجهله من جهله في المحمديين ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء ٢٣] أي حكم فالعالم يعلم من عبد، وفي أي صورة ظهر، حتى عبد، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء في الصورة المحسوسة وكالقوى المعنوية في الصورة الروحانية ، فما عبد غير الله في كل معبود ، فالأدنى من تخيل فيه الألوهية. فلولا هذا التخيل ما عبد الحجر ولا غيره ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ [الرعد ٣٣] فلو سموهم لسموهم حجراً وشجراً وكوكباً ، ولو قيل من عبدتم ؟ لقالوا : إلها واحداً كما كانوا يقولون الله ولا الآلهة . والأعلى ما تخيل ، بل قال : هذا مجلى إلهي ينبغي تعظيمه فلا يقتصر. فالأدنى صاحب التخيل يقول : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر ٣] والأعلى العالم يقول: ﴿ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ [الحج ٣٤] حيث ظهر ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ ﴾ [الحج ٣٤، ٣٥] خبت نار طبيعتهم فقالوا : «إلها» ، ولم يقولوا : «طبيعة».

وقال أيضاً في فص الهارونية: ثم قال هارون لموسى : ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [طه ٩٤] فتجعلني سبباً في تفريقهم، فإن عبادة العجل فرقت بينهم، وكان فيهم من عبده اتباعاً للسامري وتقليداً له، ومنهم من توقف عن عبادته حتى يرجع موسى إليهم فيسألونه في ذلك، فخشي هارون أن ينسب ذلك التفريق إليه ، فكان موسى أعلم بالأمر من هارون لأنه علم

ما عبده أصحاب العجل ؛ لعلمه بأن الله قد قضى أن لا يعبد إلا إياه ، وما حكم الله بشيء إلا وقع ، فكان عتّب موسى أخاه هارون لما وقع الأمر في إنكاره وعدم اتساعه، فإن العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء، فكان موسى يربي هارون تربية علم ؛ وإن كان أصغر منه في السن، ولذلك لما قال له هارون ما قال رجع إلى السامري فقال: ﴿ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ ﴾ [طه ٩٥] يعني فيما صنعت من عدو لك إلى صورة العجل على الاختصاص – وساق الكلام – إلى أن قال – : فكان عدم قوة إرداع هارون بالفعل أن تنفذ في أصحاب العجل بالتسليط على العجل كما سلط موسى عليه ؛ حكمة من الله ظاهرة في الوجود ليعبد في كل صورة، وإن ذهبت تلك الصورة بعد ذلك فما ذهبت إلا بعد ما تلبست عند عابدها بالألوهية ؛ ولهذا ما بقي نوع من الأنواع إلا وعبد، إما عبادة تأله، وإما عبادة تسخير، ولا بد من ذلك لمن عقل، وما عبد شيء من العالم إلا بعد التلبس بالرفعة عند العابد والظهور بالدرجة في قلبه ؛ ولذلك تسمى الحق لنا برفيع الدرجات ولم يقل رفيع الدرجة ؛ فكثر الدرجات في عين واحدة فإنه قضى أن لا يعبد إلا إياه في درجات له كثيرة مختلفة أعطت كل درجة مجلى إلهيا عبد فيها وأعظم مجلى عبد فيه ، وأعلاه الهوى كما قال: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ [الجاثية ٢٣] فهو أعظم معبود ، فإنه لا يعبد شيء إلا به ولا يعبد هو إلا بذاته، وفيه أقول :

وحق الهوى إن الهوى سبب الهوى ... ولولا الهوى في القلب ما عبد الهوى

ألا ترى علم الله بالأشياء ما أكمله كيف تمم في حق من عبد هواه واتخذه إلهاً فقال : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية ٢٣] والضلالة الحيرة ، وذلك أنه

لما رأى هذا العابد ما عبد إلا هواه بانقياده لطاعته فيما يأمر به من عبادة من عبده من الأشخاص، حتى إن عبادة الله كانت عن هوى أيضاً فإنه لو لم يقع له في ذلك الجناب المقدس هوى ، وهو الإرادة بمحبة ما عبد الله ولا آثره على غيره، وكذلك كل من عبد صورة من صور العالم ، واتخذها إلها ما اتخذها إلا بالهوى ، فالعابد لا يزال تحت سلطان هواه ثم رأى المعبودات تتنوع في العابدين ، وكل عابد آمراً ما يكفر من يعبد سواه، والذي عنده أدنى تنبه لا يحار لاتحاد الهوى بل لأحدية الهوى كما ذكر ، فإنه عين واحدة في كل عابد ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ ﴾ [الجاثية ٢٣] أي حيره على علم بأن كل عابد ما عبد إلا هواه ، ولا استبعده إلا هواه، سواء صادف الأمر المشروع أو لم يصادف، والعارف المكمل من رأى كل معبود مجلى للحق يعبد فيه ؛ ولذلك سموه كلهم إله مع اسمه الخاص شجر أو حجر أو حيوان أو إنسان أو كوكب أو ملك ، هذا اسم الشخصية فيه ، والألوهية مرتبة تخيل العابد له أنها مرتبة معبوده ، وهي على الحقيقة مجلى الحق لبصر هذا العابد المعتكف على هذا المعبود في هذا المجلى المختص بحجر ؛ ولهذا قال بعض من لم يعرف مقاله جهالة ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر ٣] مع تسميتهم إياهم آلهة ، كما قالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝﴾ [ص ٥] فما أنكروه ، بل تعجبوا من ذلك ؛ فإنهم وقفوا على كثرة الصور ونسبة الألوهية لها، فجاء الرسول ودعاهم إلى إله واحد يعرف ، ولا يشهد أيضاً بشهادتهم أنهم أثبتوه عندهم واعتقدوه في قولهم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر ٣] لعلمهم بأن تلك الصور حجارة ، ولذلك قامت الحجة عليهم بقوله :

﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ [الرعد ٣٣] فما يسمونهم إلا بما يعلمون أن تلك الأسماء لهم حقيقة كحجر وخشب وكوكب وأمثالهم ، وأما العارفون بالأمر على ما هو عليه فيظهرون صورة الإنكار لما عبد من الصور ؛ لأن مرتبتهم في العلم تعطيهم أن يكونوا بحكم الوقت لحكم الرسول الذي آمنوا به عليهم الذي به سموا مؤمنين ، فهم عباد الوقت ، مع علمهم بأنهم ما عبدوا من تلك الصور أعيانها ، وإنما عبدوا الله فيها بحكم سلطان التجلي الذي عرفوه منهم ، وجهله المنكر الذي لا علم له بما يتجلى ، وستره العارف المكمل من نبي أو رسول أو وارث عنهم، فأمرهم بالانتزاح عن تلك الصور لما انتزح عنها رسول الوقت اتباعاً للرسول طمعاً في محبة الله إياهم بقوله : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران ٣١] فدعا إلى إله يصمد إليه ويعلم من حيث الجملة ولا يشهد ولا تدركه الأبصار، بل هو يدرك الأبصار للطفه وسريانه في أعيان الأشياء، فلا تدركه الأبصار كما أنها لا تدرك أرواحها المدبرة أشباحها، وصورها الظاهرة ، فهو اللطيف الخبير، والخبرة ذوق ، والذوق تجلي ، والتجلي في الصور ، فلا بد منها ولا بد منه ، فلا بد أن يعبده من رآه بهواه. إن فهمت هذا إ هـ .

فتدبر حقيقة ما عليه هؤلاء فإنهم أجمعوا على كل شرك في العالم ، وعدلوا بالله كل مخلوق ، وجوزوا أن يعبد كل شيء ، ومع كونهم يعبدون كل شيء فيقولون : ما عبدنا إلا الله، فاجتمع في قولهم أمران: كل شرك، وكل جحود وتعطيل مع ظنهم أنهم ما عبدوا إلاّ الله، ومعلوم أن هذا خلاف دين المرسلين كلهم وخلاف دين أهل الكتاب كلهم، والملل كلها ، بل وخلاف دين المشركين

أيضـاً، وخـلاف مـا فطر الله عليـه عـبـاده مما يعـقلونه بقلوبهـم، ويجـدونـه في نفوسهم، وهو في غاية الفساد والتناقض والسفسطة والجحود لرب العالمين.

وذلك أنه علم بالاضطرار أن الرسل كانوا يجعلون ما عبده المشركون غير الله، ويجعلون عابده عابدا لغير الله مشركاً بالله عادلاً به جاعلاً له ندا؛ فإنهم دعوا الخلق إلى عبادة الله وحده لا شريك له. وهذا هو دين الله الذي أنزل به كتبه ، وأرسل به رسله ، وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين غيره، ولا يغفر لمن تركه بعد بلاغ الرسالة كما قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء ٤٨] وهو الفارق بين أهل الجنة وأهل النار والسعداء والأشقياء ؛ كما قال النبي ﷺ : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة » وقال : « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله وجبت له الجنة» وقال : « إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجد روحه لها روحاً وهي رأس الدين» وكما قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » .

وفضائل هذه الكلمة وحقائقها وموقعها من الدين فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون، وهي حقيقة الأمر كله كما قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء ٢٥] فأخبر سبحانه أنه يوحي إلى كل رسول بنفي الألوهية عما سواه وإثباتها له وحده، وزعم هؤلاء الملاحدة المشركون أن كل شيء يستحق الألوهية كاستحقاق الله

لها، وقال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف ٤٥] .

وزعم هؤلاء الملاحدة أن كل شيء فإنه إله معبود فأخبر سبحانه أنه لم يجعل من دون الرحمن آلهة ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل ٣٦] ؛ فأمر الله سبحانه بعبادته واجتناب الطاغوت. وعند هؤلاء: أن الطواغيت جميعها فيها الله أو هي الله ومن عبدها فما عبد إلا الله. وقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة ٢١] الآيتين . وأمر سبحانه بعبادة الرب الخالق لهذه الآيات ، وعند هؤلاء الملاحدة الملاعين هو عين هذه الآيات ، ونهى سبحانه أن يجعل الناس له أنداداً وعندهم هذا لا يتصور فإن الأنداد هي عينه فكيف يكون نداً لنفسه؟ والذين عبدوا الأنداد فما عبدوا سواه.

ثم إن هؤلاء الملاحدة احتجوا بتسمية المشركين لما عبدوه إلهاً كما قال : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ [ص ٥] واعتقدوا أنهم لما سموهم آلهة كانت تسمية المشركين دليلاً على أن إلهية الله لهم. وهذه الحجة قد ردها الله على المشركين في غير موضع كقوله سبحانه عن هود في مخاطبته للمشركين من قومه : ﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم ﴾ الآية [الأعراف ٧١] هذا رداً لقولهم: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ [الأعراف ٧٠] فأخبر رسول الله ﷺ أن تسميتهم إياها آلهة ومعبودين تسمية ابتدعوها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من حجة ولا سلطان، والحكم

ليس إلا لله وحده، وقد أمر هو سبحانه أن لا يعبد إلا إياه، فكيف يحتج بقول مشركين لا حجة لهم ؟ وقد أبطل الله قولهم ؟ وأمر الخلق أن لا يعبدوا إلا إياه دون هذه الأوثان التي سماها المشركون آلهة، وعند الملاحدة عابدو الأوثان ما عبدوا إلا الله .

ثم إن المشركين أنكروا على الرسول حيث جاءهم ليعبدوا الله وحده ويذروا ما كان يعبد آباؤهم، فإذا كانوا هم ما زالوا يعبدون الله وحده كما تزعمه الملاحدة، فَلِمَ يدعو إلى ترك ما يعبده آباؤهم هو وغيره من الأنبياء؟ وكذلك قال سبحانه في سورة يوسف عنه : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف : ٣٩] ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ إلى قوله : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف ٤٠] وقال سبحانه : ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ إلى قوله : ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم ٢٠ - ٢٣] وهذه الثلاثة المذكورة في هذه السورة هي الأوثان العظام الكبار التي كان المشركون ينتابونها من أمصارهم، فاللات كانت حذو قديد بالساحل لأهل المدينة، والعزى كانت قريبة من عرفات لأهل مكة، ومناة كانت بالطائف لثقيف، وهذه الثلاثة هي أمصار أرض الحجاز.

أخبر سبحانه أن الأسماء التي سماها المشركون أسماء ابتدعوها لا حقيقة لها، فهم إنما يعبدون أسماء لا مسميات لها ؛ لأنه ليس في المسمى من الألوهية ولا العزة ولا التقدير شيء، ولم ينزل الله سلطاناً بهذه الأسماء، إن يتبع المشركون إلا ظناً لا يغني من الحق شيئاً في أنها آلهة تنفع وتضر

ويتبعوا أهواء أنفسهم . وعند الملاحدة أنهم إذا عبدوا أهواءهم فقد عبدوا الله ، وقد قال سبحانه عن إمام الأئمة وخليل الرحمن وخير البرية بعد محمد ﷺ : إنه قال لأبيه : ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ إلى قوله : ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم ٤٢ - ٤٥] فنهاه ، وأنكر عليه أن يعبد الأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ، ولا تغني عنه شيئاً.

وعلى زعم هؤلاء الملحدين فما عبدوا غير الله في كل معبود فيكون الله هو الذي لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئاً وهو الذي نهاه عن عبادته وهو الذي أمره بعبادته. وهكذا قال أحذق طواغيتهم الفاجر التلمساني في قصيدة له :

يا عاذلي أنت تنهاني وتأمرني ... والوجد أصدق نهّاء وأمّار

فإن أطعك وأعص الوجد عذرني ... عمى عن العيان إلى أوهام أخبار(١)

وعين ما أنت تدعوني إليه إذا ... حققته تره المنهي يا جاري

وقد قال أيضاً إبراهيم لأبيه : يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ [مريم ٤٤] وعندهم أن الشيطان مجلى إلهي ينبغي تعظيمه، ومن عبده فما عبد غير الله، وليس الشيطان غير الرحمن حتى نعصيه ، وقد قال سبحانه : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ إلى

---

(١) كذا في الأصل ، وليحرر .

قوله : ﴿ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يس: ٦٠ – ٦٢] فنهاهم عن عبادة الشيطان وأمرهم بعبادة الله سبحانه ، وعندهم عبادة الشيطان هي عبادته أيضاً، فينبغي أن يعبد الشيطان وجميع الموجودات فإنها عينه ، وقال تعالى أيضاً عن إمام الخلائق خليل الرحمن أنه لما: ﴿ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام ٧٦ – ٨٢] .

وقال أيضاً: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة ٤] وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ الآية [الزخرف ٢٦ – ٢٧] وقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الشعراء ٧٥ – ٩٨] وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الشعراء ٧٠، ٧١] وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنبياء ٦٨].

فهذا الخليل الذي جعله الله إمام الأئمة الذين يهتدون بأمره من الأنبياء والمرسلين بعده وسائر المؤمنين قال: ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾ [الأنعام ٧٨ ، ٧٩] ، وعند الملاحدة الذي أشركوه هو عين الحق ليس غيره ، فكيف يتبرأ من الله الذي

وجه وجهه إليه ؟ وأحد الأمرين لازم على أصلهم إما أن يعبده في كل شيء من المظاهر بدون تقيد ولا اختصاص وهو حال المكمل عندهم فلا يتبرأ من شيء ، وإما أن يعبده في بعض المظاهر كفعل الناقصين عندهم .

وأما التبريء من بعض الموجودات فقد قال: إن قوم نوح لو تركوهم لتركوا من الحق بقدر ما تركوا من تلك الأوثان، والرسل قد تبرأت من الأوثان فقد تركت الرسل من الحق شيئاً كثيراً وتبرأوا من الله الذي دعوا الخلق إليه، والمشركون على زعمهم أحسن حالا من المرسلين ؛ لأن المشركين عبدوه في بعض المظاهر ولم يتبرأوا من سائرها، والرسل يتبرأون منه في عامة المظاهر .

ثم قول إبراهيم : ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ [الأنعام ٧٩] باطل على أصلهم ، فإنه لم يفطرها ؛ إذ هي ليست غيره ، فما أجدرهم بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴿٥١﴾ ﴾ الآية [النساء ٥١] .

ثم قول الخليل : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ ﴾ الآية [الأنعام ٨١] وهذه حجة الله التي آتاها إبراهيم على قومه بقوله: كيف أخاف ما عبدتموه من دون الله ؟ وهي المخلوقات المعبودة من دونه، وعندهم ليست معبودة من دونه ، ومن لم يقم بحقها فلم يخف الله ، والرسل لم يخافوا الله .

وقول الخليل : ﴿ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً ﴾ [الأنعام ٨١] لم يصح عندهم فإنهم لم يشركوا بالله شيئاً ؛ إذ ليس ثم غيره حتى يشركوا

به ، بل المعبود الذي عبدوه هو الله وأكثر ما فعلوه أنهم عبدوه في بعض المظاهر، وليس في هذا أنهم جعلوا غيره شريكاً له في العبادة .

وقوله : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام ٨٢] ورد في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال النبي ﷺ : «ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح ﴿لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان ١٣] فقد أخبر الله ورسوله أن الشرك ظلم عظيم، وأن الأمن هو لمن آمن بالله ولم يخلط إيمانه بشرك، وعلى زعم هؤلاء الملاحدة فإيمان الذين خلطوا إيمانهم بشرك هو الإيمان الكامل التام، وهو إيمان المحقق العارف عندهم ؛ لأن من آمن بالله في جميع مظاهره وعبده في كل موجود هو أكمل ممن لم يؤمن بالأمر حيث لم يظهر، ولم يعبده إلا من حيث لا يشهد ولا يعرف(١) وعندهم لا يتصور أن يوجد إلا في المخلوق، فمن لم يعبده في شيء من المخلوقات أصلاً فما عبده في الحقيقة، وإذا أطلقوا أنه عبده فهو لفظ لا معنى له، أي إذا فسروه فيكون بالتخصيص بمعنى أنه خصص بعض المظاهر بالعبادة، وهذا عندهم نقص لا من جهة ما أشركه وعبده، وإنما هو من جهة ما تركه، فليس عندهم في

---

(١) يعنون بهذا الإيمان بالغيب الذي هو أساس دين الله في القرآن وسائر الكتب الإلهية، وهذا عندهم أدنى وأنقص درجات الإيمان بل هو عندهم باطل؛ إذ لا موجود عندهم غير هذه المظاهر، فأكمل العبادة عبادتها أو عبادة ما سمي الإله فيها كلها وهو هي، ودون ذلك عبادته في بعضها كعبادة المسيح وغيره من البشر وعبادة العجل والأصنام؛ فكلما كثرت المعبودات كانت العبادة أكمل، ولا يسمى هذا شركاً عندهم ؛ لأن هذه كلها وسائر الموجودات شيء واحد في نفسه متعدد في مظاهره .

الشرك ظلم ولا نقص إلا من جهة قلته ، وإلا فإذا كان الشرك عاماً كان أكمل وأفضل .

وكذلك أيضاً قول الخليل لقومه: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الممتحنة ٤] تبرأ عندهم من الحق الذي ظهر فيهم وفي آلهتهم، وكذلك كفره به ومعاداته لهم كفر بالحق عندهم ومعاداة له.

ثم قوله : ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة ٤] كلام لا معنى له عندهم ، فإنهم كانوا مؤمنين بالله وحده ؛ إذ لا يتصور عندهم غيره، وإنما غايتهم أنهم عبدوه في بعض المظاهر وتركوا بعضها من غير كفر به فيها، وكذلك سائر ما قصَّه عن إبراهيم من معاداته لما عبده أولئك هو عندهم معاداة لله ؛ لأنه ما عبد غير الله كما زعم الملحدون محتجين بقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء ٢٣] قالوا: وما قضى الله شيئاً إلا وقع. وهذا هو الإلحاد في آيات الله، وتحريف الكلم عن مواضعه، والكذب على الله، فإن «قضى» هنا ليست بمعنى القدر والتكوين بإجماع المسلمين بل وبإجماع العقلاء حتى يقال : ما قدر الله شيئاً إلا وقع، وإنما هي بمعنى أمر، وما أمر الله به فقد يكون وقد لا يكون. فتدبر هذا التحريف، وكذلك قوله ما حكم الله بشيء إلا وقع كلام مجمل فإن الحكم يكون بمعنى الأمر الديني ، وهو الأحكام الشرعية كقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾ الآية [المائدة ١] وقوله : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة ٥٠] وقوله : ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة ١٠] ويكون الحكم حكماً بالحق والتكوين والعقل كقوله : ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ [يوسف ٨٠] وقوله : ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء ١١٢] .

ولهذا كان بعض السلف يقرؤون (ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) وذكروا أنها كذلك في بعض المصاحف ؛ ولهذا قال في سياق الكلام ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الآية. [البقرة ٨٣] وساق أمره ووصاياه إلى أن قال : ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الإسراء ٣٩] فختم الكلام بمثل ما فتحه به من أمره بالتوحيد ونهيه عن الشرك ليس هو إخباراً ، إنه ما عُبِدَ أحدٌ إلا الله ، وإن الله قدر ذلك وكونه، وكيف وقد قال : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ [الإسراء ٣٩] وعندهم ليس في الوجود شيء يجعل إلهاً آخر فأي شيء عبد فهو نفس الإله ليس آخر غيره.

ومثل معاداة إبراهيم والمؤمنين لله على زعمهم حيث عادى العابدين والمعبودين وما عبد غير الله، وما عبد الله غير الله، فهو عين كل عابد وعين كل معبود وقوله تعالى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة ١] وعلى زعمهم ما لله عدو أصلاً، وإنه ماثم غير ولا سوى بحيث يتصور أن يكون عدو نفسه أو عدو الذوات التي لا يظهر إلا بها.

(السادس) أن عندهم أن دعوة العباد إلى الله مكر بهم ؛ كما صرح به حيث قال: إن الدعوة إلى الله مكر بالمدعو فإنه ما عدم من البداية فيدعى إلى الغاية.

وقال أيضاً صاحب الفصوص : « ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الحج ٣٤] الذين خبت نار طبيعتهم فقالوا إلها ولم يقولوا طبيعة ، ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ [نوح ٢٤] أي حيروهم في تعداد الواحد بالوجوه والنسب ، ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ ﴾ [نوح ٢٤]

لأنفسهم المصطفين الذين أورثوا الكتاب فهم أول الثلاثة فقدمه على المقتصد والسابق ، ﴿ إِلاَّ ضَلالاً ﴿٢٤﴾ ﴾ [نوح ٢٤] أي الأخيرة وفي المحمدي زدني فيك تحيراً ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ [البقرة ٢٠] له فالمحير له الدور والحركة الدورية حول القطب فلا تبرح منه، وصاحب الطريق المستطيل مائل خارج عن المقصود طالب ما هو فيه، صاحب خيال إليه غايته، فله «من» و«إلى» وما بينهما، وصاحب الحركة الدورية لابدء له فيلزمه «من» ولا غاية فتحكم عليه «إلى» فله الوجود الأتم وهو المؤتى جوامع الكلم» اهـ.

وقال بعض شعرائهم:

ما بال عينك لا يقر قرارها … وإلام خطوك لايني متنقلا ؟

فلسوف تعلم أن سيرك لم يكن … إلا إليك إذا بلغت المنزلا

فعندهم الإنسان هو غاية نفسه، وهو معبود نفسه وليس وراءه شيء يعبده أو يقصده، أو يدعوه أو يستجيب له ؛ ولهذا كان قولهم حقيقة قول فرعون .

وكنت أقول لمن أخاطبه : إن قولهم هو حقيقة قول فرعون حتى حدثني بعض من خاطبته في ذلك من الثقات العارفين : إن بعض كبرائهم لما دعا هذا المحدث إلى مذهبهم وكشف له حقيقة سرهم قال: فقلت له هذا قول فرعون، قال: نعم، ونحن على قول فرعون، فقلت له : الحمد لله الذي اعترفوا بهذا، فإنه مع إقرار الخصم لا يحتاج إلى بينة .

وقد جعل صاحب الطريق المستطيل صاحب خيال ، ومدح الحركة المستديرة الحائرة ، والقرآن يأمر بالصراط المستقيم ويمدحه ويثني على أهله

لا على المستدير. ففي أم الكتاب ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة ٦] وقال : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ [الأنعام ١٥٣] وقال ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ ﴾ الآيتين(1) [النساء ٦٦] . وقال تعالى في موسى وهارون: ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الصافات ١١٧، ١١٨] وقال تعالى : ﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأنعام ١٢٦] وقال عن إبليس : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم ﴾ الآية [الأعراف ١٦، ١٧] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سبأ ٢٠] وهؤلاء الملحدون من أكابر متبعيه ، وإنه قعد لهم على صراط الله المستقيم فصدّهم عنه حتى كفروا بربهم ، وآمنوا أن نفوسهم هي معبودهم وإلههم ، وقال تعالى في حق خاتم الرسل : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ [الشورى ٥٢، ٥٣] الآية ، وأيضاً فإن الله يقول: ﴿ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾ [الأنعام ٦٢] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية ٢٥، ٢٦] وقال تعالى : ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ الآية [المائدة ٤٨] . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانشقاق ٦] وهؤلاء عندهم ماثم إلا أنت ، وأنت من الآن مردود إلى الله ، وما رأيت مردوداً إليه ، وليس هو شيء غيرك حتى ترد إليه أو ترجع إليه ، أو تكدح إليه أو تلاقيه ؛ ولهذا حدثونا أن ابن الفارض لما احتضر أنشد بيتين :

(1) أي اقرأ الآيتين بعد هذه ؛ إذ آخرهما ﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [النساء ٦٨] .

إن كان منزلتي في الحب عندكم ... ما قد لقيت فقد ضيعت أيامي
أمنيـة ظفـرت نفسـي بهـا زمنـاً ... واليوم أحسبها أضغاث أحلام

وذلك أنه كان يتوهم أنه الله، وأنه ماثم مرد إليه ومرجع إليه غير ما كان عليه، فلما جاءته ملائكة الله تنزع روحه من جسمه، وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب، تبين له أن ما كان عليه أضغاث أحلام من الشيطان.

وكذلك حدثني بعض أصحابنا عن بعض من أعرفه وله اتصال بهؤلاء عن الفاجر التلمساني أنه وقت الموت تغير واضطرب، قال: دخلت عليه وقت الموت فوجدته يتأوه، فقلت له: مم تتأوه؟ فقال من خوف الفوت، فقلت : سبحان الله، ومثلك يخاف الفوت وأنت تدخل الفقير إلى الخلوة فتوصله إلى الله في ثلاثة أيام؟ فقال ما معناه: زال ذلك كله وما وجدت لذلك حقيقة.

(الثامن)[١] أن عندهم من يدعي الإلهية من البشر كفرعون والدجال المنتظر، أو ادعيت فيه وهو من أولياء الله نبياً كالمسيح، أو غير نبي كعلي، أو ليس من أولياء الله كالحاكم بمصر وغيرهم، فإنه عند هؤلاء الملاحدة المنافقين يصحح هذه الدعوى، وقد صرح صاحب الفصوص أن هذه الدعوى كدعوى فرعون ، وهم كثيراً ما يعظمون فرعون فإنه لم يتقدم لهم رأس في الكفر مثله ، ولا يأتي متأخر لهم مثل الدجال الأعور الكذاب ، وإذا نافقوا المؤمنين وأظهروا الإيمان قالوا : إنه مات مؤمناً وإنه لا يدخل النار، وقالوا :

---

(١) لم يذكر السابع .

ليس في القرآن ما يدل على دخوله النار. وأما في حقيقة أمرهم فما زال عندهم عارفاً بالله، بل هو الله، وليس عندهم نار فيها ألم أصلاً كما سنذكره - إن شاء الله - عنهم ، ولكي يتفطن بهذا لكون البدع مظان النفاق، كما أن السنن شعائر الإيمان.

قال صاحب الفصوص في فص الحكمة التي في الكلمة الموسوية لما تكلم على قوله: ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الشعراء ٢٣] « وهنا سر كبير ، فإنه أجاب بالفعل لمن سأل عن الحد الذاتي فجعل الحد الذاتي عين إضافته إلى ما ظهر به من صور العالم أو ما ظهر فيه من صور العالم، فكأنه قال له في جواب قوله : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الشعراء ٢٣] قال الذي يظهر فيه صور العالمين من علو وهو السماء وسفل وهو الأرض ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشعراء ٢٤] أو يظهر هو بها ، فلما قال فرعون لأصحابه : إنه لمجنون كما قلنا في معنى كونه مجنوناً أي لمستور عنه علم ما سألته عنه أو لا يتصور أن يعلم أصلاً، زاد موسى في البيان ليعلم فرعون رتبته في العلم الإلهي لعلمه بأن فرعون يعلم ذلك فقال : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ [الشعراء ٢٨] فجاء بما يظهر ويستر وهو الظاهر والباطن ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [الشعراء ٢٤] وهو قوله : « وهو بكل شيء عليم » ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء ٢٨] أي إن كنتم أصحاب تقييد فإن العقل للتقييد .

«والجواب الأول جواب الموقنين ، وهم أهل الكشف والوجود ، فقال له : ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشعراء ٢٤] أي أهل كشف ووجود فقد أعلمتكم ما تيقنتموه في كشفكم ووجودكم ، فإن لم تكونوا من هذا الصنف فقد أجبتكم بالجواب الثاني إن كنتم أهل عقل وتقييد وحصرتم الحق فيما تعطيه أدلة

عقولكم ، فظهر موسى بالوجهين ليعلم فرعون فضله وصدقه ، وعلم موسى أن فرعون لكونه سأل عن ذلك من الماهية فعلم أنه سؤاله ليس على اصطلاح القدماء في السؤال ؛ فلذلك أجاب فلو علم منه غير ذلك لخطأه في السؤال ، فلما جعل موسى المسؤول عنه عين العالم خاطبه فرعون بهذا اللسان والقوم لا يشعرون فقال له: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء ٢٩] والسين من حروف الزوائد ؛ أي لأسترنك فإنك أجبت بما أيدتني به أن أقول مثل هذا القول فإن قلت لي بلسان الإشارة: فقد جهلت يا فرعون بوعيدك إياي والعين واحدة ؛ فكيف فرقت فيقول فرعون إنما فرقت المراتب العين ما تفرقت العين ولا انقسمت في ذاتها، ومرتبتي الآن التحكم فيك يا موسى بالفعل ، وأنا أنت بالعين، وأنا غيرك بالرتبة ، وساق الكلام إلى أن قال: ولما كان فرعون في منصب الحكم صاحب الوقت وأنه الخليفة بالسيف وإن جار في العرف الناموسي ؛ لذلك قال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات ٢٤] وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما ، فأنا الأعلى منهم بما أعطيته في الظاهر من التحكم فيكم ، ولما علمت السحرة صدقه فيما قال لهم لم ينكروه وأقروا له بذلك وقالوا له: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾﴾ [طه ٧٢] فالدولة لك ؛ فصح قوله : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات ٢٤] وإن كان عين الحق فالصورة لفرعون فقطع الأيدي والأرجل وصلب بعين حق في صورة باطل ؛ لنيل مراتب لا تنال إلا بذلك الفعل فإن الأسباب لا سبيل إلى تعطيلها ؛ لأن الأعيان الثابتة اقتضتها، فلا تظهر في الوجود إلا بصورة ما هي عليه في الثبوت ؛ إذ لا تبديل لكلمات الله، وليست كلمة الله سوى أعيان الموجودات» .

فصـــل

ومن أعظم الأصول التي يعتمدها هؤلاء الاتحادية الملاحدة المدعون للتحقيق والعرفان ما يأثرونه عن النبي ﷺ قال : « كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان » ، وهذه الزيادة وهو قوله : « وهو الآن على ما عليه كان » كذب مفترى على رسول الله ﷺ . اتفق أهل العلم بالحديث على أنه موضوع مختلق ، وليس هو في شيء من دواوين الحديث ، لا كبارها ولا صغارها، ولا رواه أحد من أهل العلم بإسناد لا صحيح ولا ضعيف ، ولا بإسناد مجهول، وإنما تكلم بهذه الكلمة بعض متأخري متكلمة الجهمية ؛ فتلقاه من هؤلاء الذين وصلوا إلى آخر التجهم وهو التعطيل والإلحاد، ولكن أولئك قد يقولون: كان الله ولا مكان ولا زمان، وهو الآن على ما عليه كان، فقال هؤلاء: كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان، وقد عرف بأن هذا ليس من كلام النبي ﷺ . أعلم هؤلاء بالإسلام ابن عربي فقال : « ما لا بد للمريد منه ، وكذلك جاء في السنة : «كان الله ولا شيء معه» قال: وزاد العلماء وهو الآن على ما عليه كان، ولم يرجع إليه من خلقه العالم وصف لم يكن عليه ولا عالم موجود، فاعتقد فيه من التنزيه مع وجود العالم ما يعتقده فيه ولا عالم ولا شيء سواه». وهذا الذي قاله هو قول كثير من أهل القبلة. ولو ثبت على هذا لكان قوله من جنس قول غيره ، لكنه متناقض ؛ ولهذا كان مقدم الاتحادية الفاجر التلمساني يرد عليه في مواضع يقرب فيها إلى المسلمين ، كما يرد عليه المسلمون المواضع التي خرج فيها إلى الاتحاد ،

وإنما الحديث المأثور عن النبي ﷺ ما أخرجه البخاري ومسلم عن عمران ابن حصين عن النبي ﷺ أنه قال : « كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض» وهذه الزيادة الإلحادية ، وهو قولهم : وهو الآن على ما عليه كان ، قصد بها المتكلمة المتجهمة نفي الصفات التي وصف بها نفسه من استوائه على العرش ونزوله إلى السماء الدنيا ، وغير ذلك فقالوا : كان في الأزل ليس مستوياً على العرش ، وهو الآن على ما عليه كان ، فلا يكون على العرش لما يقتضي ذلك من التحول والتغير ، ويجيبهم أهل السنة والإثبات بجوابين .

(أحدهما) أن المتجدد نسبة إضافية بينه وبين العرش بمنزلة المعية ، ويسميها ابن عقيل الأحوال، وتجدد النسب والإضافات متفق عليه بين جميع أهل الأرض من المسلمين وغيرهم ؛ إذ لا يقتضي ذلك تغيراً ولا استحالة.

(والثاني) أن ذلك وإن اقتضى تحولاً من حال إلى حال ، ومن شأن إلى شأن ، فهو مثل مجيئه وإتيانه ونزوله ، وتكليمه لموسى وإتيانه يوم القيامة في صورة ونحو ذلك مما دلت عليه النصوص ، وقال به أكثر أهل السنة في الحديث ، وكثير من أهل الكلام ، وهو لازم لسائر الفرق ، وقد ذكرنا نزاع الناس في ذلك في قاعدة الفرق بين الصفات والمخلوقات والصفات الفعلية . وأما هؤلاء الجهمية الاتحادية فقالوا : وهو الآن على ما عليه كان ، ليس معه غيره كما كان في الأزل ولا شيء معه ، قالوا : إذ الكائنات ليست غيره ولا سواه ، فليس إلا هو ، فليس معه شيء آخر لا أزلا ولا أبداً بل هو عين الموجودات ، ونفس الكائنات ، وجعلوا المخلوقات المصنوعات هي نفس الخالق

الباريء المصور، وهم دائماً يهذون بهذه الكلمة : «وهو الآن على ما عليه كان» وهي أجل عندهم من ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ [الإخلاص ١] ومن آية الكرسي ؛ لما فيها من الدلالة على الاتحاد الذي هو إلحادهم، وهم يعتقدون أنها ثابتة عن النبي ﷺ وأنها من كلامه ومن أسرار معرفته، وقد بينا أنها كذب مختلق، ولم يروها أحد من أهل العلم ولا في شيء من دواوين الحديث بل اتفق العارفون بالحديث على أنها موضوعة، ولا تنقل هذه الزيادة عن إمام مشهور في الأمة بالإمامة، وإنما مخرجها ممن يُعرف بنوع من التجهم، وتعطيل بعض الصفات، ولفظ الحديث المعروف عند علماء الحديث الذي أخرجه أصحاب الصحيح : «كان الله ولا شيء معه، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء » ، وهذا إنما ينفي وجود المخلوقات من السموات والأرض ، وما فيهما من الملائكة والإنس والجن ، لا ينفي وجود العرش ؛ ولهذا ذهب كثير من السلف والخلف إلى أن العرش متقدم على القلم واللوح مستدلين بهذا الحديث، وحملوا قوله : « أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب فقال : وما أكتب ؟ قال اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة » على هذا الخلق المذكور في قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ۝٧ ﴾ [هود ٧] وهذا نظير حديث أبي رزين العقيلي المشهور في كتب المسانيد والسنن أنه سأل النبي ﷺ فقال : يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ فقال: «كان في عماء، ما فوقه هواء وما تحته هواء» فالخلق المذكور في هذا الحديث لم يدخل فيه الغمام، وذكر بعضهم أن هذا هو السحاب المذكور في قوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ ﴾ [البقرة ٢١٠] وفي ذلك آثار معروفة .

والدليل على أن هذا الكلام وهو قولهم : «وهو الآن على ما عليه كان» كلام باطل مخالف للكتاب والسنة والإجماع والاعتبار وجوه :

(أحدها) أن الله قد أخبر بأنه مع عباده في غير موضع من الكتاب عموماً وخصوصاً مثل قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ إلى قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد ٤] وقوله : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلى قوله : ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة ٧] وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل ١٢٨] ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة ٢٤٩] في موضعين ، وقوله : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه ٤٦] ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة ٤٠] ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ [المائدة ١٢] ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء ٦٢] وكان النبي ﷺ إذا سافر يقول «اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا، واخلفنا في أهلنا» فلو كان الخلق عموماً وخصوصاً ليسوا غيره ، ولا هم معه بل ما معه شيء آخر امتنع أن يكون هو مع نفسه وذاته، فإن المعية توجب شيئين ؛ كون أحدهما مع الآخر ؛ فكما أخبر الله أنه مع هؤلاء امتنع علم بطلان قولهم : «هو الآن على ما عليه كان» لا شيء معه بل هو عين المخلوقات، وأيضاً فإن المعية لا تكون إلا من الطرفين، فإن معناها المقارنة والمصاحبة، فإذا كان أحد الشيئين مع الآخر امتنع ألا يكون الآخر معه، فمن الممتنع أن يكون الله مع خلقه ولا يكون لهم وجود معه ولا حقيقة أصلا بل هم هو .

(الوجه الثاني) أن الله قال في كتابه : ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء ٣٩] وقال تعالى : ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ

﴿إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء ٢١٣] وقال : ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص ٨٨] فنهاه أن يجعل أو يدعو معه إلهاً آخر، ولم ينهه أن يثبت معه مخلوقاً ، أو يقول : إن معه عبداً مملوكاً أو مربوباً فقيراً ، أو معه شيئاً موجوداً خلقه، كما قال : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [القصص ٨٨] ولم يقل لا موجود إلا هو ، ولا هو إلا هو ، ولا شيء معه إلا هو، بمعنى أنه نفس الموجودات وعينها . وهذا كما قال : ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل ٢٢] فأثبت وحدانيته في الألوهية ولم يقل : إن الموجودات واحد ، فهذا التوحيد الذي في كتاب الله هو توحيد الألوهية وهو أن لا تجعل معه ولا تدعو معه إلهاً غيره ، فأين هذا من أن يجعل نفس الوجود هو إياه ، وأيضاً فنهيه أن يجعل معه أو يدعو معه إلهاً آخر دليلاً على أن ذلك ممكن كما فعله المشركون الذين دعوا مع الله آلهة أخرى.

فهذه النصوص تدل على أن معه أشياء ليست بآلهة ولا يجوز أن تجعل آلهة ولا تدعى آلهة، وأيضاً فعند الملحد يجوز أن يعبد كل شيء ويدعي كل شيء ؛ إذ لا يتصور أن يعبد غيره ؛ فإنه هو الأشياء، فيجوز للإنسان حينئذ أن يدعو كل شيء من الآلهة المعبودة من دون الله، وهو عند الملحد ما دعا معه إلهاً آخر فجعل نفس ما حرمه الله وجعله شركاً جعله توحيداً، والشرك عنده لا يتصور بحال .

(الوجه الثالث) أن الله لما كان ولا شيء معه لم يكن معه سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر، ولا جن ولا إنس ولا ذوات ولا شجر ولا جنة ولا نار ولا جبال ولا بحار. فإن كان الآن على ما عليه كان، فيجب أن لا يكون معه شيء من هذه الأعيان ، وهذا مكابرة للعيان ، وكفر بالقرآن والإيمان .

(الوجه الرابع) أن الله كان ولا شيء معه ، ثم كتب في الذكر كل شيء ؛ كما جاء في الحديث الصحيح ؛ فإن كان لا شيء معه فيما بعد فما الفرق بين حال الكتابة وقبلها، وهو عين الكتابة واللوح عند الفراعنة الملاحدة ؟.

فصـــل

وزعمت طائفة من هؤلاء الاتحادية الذين ألحدوا في أسماء الله وآياته أن فرعون كان مؤمناً وأنه لا يدخل النار، وزعموا أنه ليس في القرآن ما يدل على عذابه بل فيه ما ينفيه كقوله : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر ٤٦] قالوا : فإنما أدخل آله دونه ، وقوله : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ [هود ٩٨] قالوا : إنما أوردهم ولم يدخلها قالوا : ولأنه قد آمن أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، ووضع جبريل الطين في فمه لا يرد إيمان قلبه.

وهذا القول كفر معلوم فساده بالاضطرار من دين الإسلام لم يسبق ابن عربي إليه فيما أعلم أحد من أهل القبلة ولا من اليهود ولا من النصارى، بل جميع أهل الملل مطبقون على كفر فرعون. فهذا عند الخاصة والعامة أبين من أن يستدل عليه بدليل، فإنه لم يكفر أحد بالله ويدعي لنفسه الربوبية والإلهية مثل فرعون ؛ ولهذا ثَنَّى الله قصته في القرآن في مواضع ؛ فإن القصص هي أمثال مضروبة للدلالة على الإيمان، وليس في الكفار أعظم من كفره، والقرآن قد دل على كفره وعذابه في الآخرة في مواضع.

(أحدها) قوله تعالى في القصص: ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا

لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القصص ٣٢ - ٤٢] فأخبر سبحانه أنه أرسله إلى فرعون وقومه، وأخبر أنهم كانوا قوماً فاسقين، وأخبر أنهم: ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ [القصص ٣٦] وأخبر أن فرعون: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص ٣٨] وأنه أمر باتخاذ الصرح ليطلع إلى إله موسى وأنه يظنه كاذباً، وأخبر أنه استكبر فرعون وجنوده وظنوا أنهم لا يرجعون إلى الله، وأنه أخذ فرعون وجنوده فنبذهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين، وأنه جعلهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون، وأنه أتبعهم في الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين .

فهذا نص في أن فرعون من الفاسقين المكذبين لموسى الظالمين الداعين إلى النار الملعونين في الدنيا بعد غرقهم، المقبوحين في الدار الآخرة. وهذا نص في أن فرعون بعد غرقه ملعون، وهو في الآخرة مقبوح غير منصور. وهذا إخبار عن غاية العذاب، وهو موافق للموضع الثاني في سورة المؤمن وهو قوله: ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر ٤٥، ٤٦] وهذا إخبار عن فرعون وقومه أنه حاق بهم سوء العذاب في البرزخ ، وأنهم في القيامة يدخلون أشد العذاب، وهذه الآية إحدى ما استدل به العلماء على عذاب البرزخ .

وإنما دخلت الشبهة على هؤلاء الجهال لما سمعوا آل فرعون فظنوا أن فرعون يخرج منهم. وهذا تحريف للكلم عن مواضعه، بل فرعون داخل في آل فرعون بلا نزاع بين أهل العلم والقرآن واللغة يتبين ذلك بوجوه :

(أحدها) أن لفظ آل فلان يدخل فيها ذلك الشخص مثل قوله في الملائكة الذين ضافوا إبراهيم ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ [الحجر ٥٨ - ٦٠] ثم قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ﴾ يعني لوطا ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الحجر ٦١، ٦٢] وكذلك قوله : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [القمر ٣٤] ثم قال بعد ذلك : ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر ٤١، ٤٢] ومعلوم أن لوطاً داخل في آل لوط في هذه المواضع وكذلك فرعون داخل في آل فرعون المكذبين المأخوذين، ومنه قول النبي ﷺ : «قولوا اللَّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم» وكذلك قوله : «كما باركت على آل إبراهيم» ؛ فإبراهيم داخل في ذلك، وكذلك قوله للحسن : «إن الصدقة لا تحل لآل محمد».

وفي الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان القوم إذا أتوا رسول الله ﷺ بصدقة يصلي عليهم، فأتى أبي بصدقة فقال : «اللَّهم صل على آل أبي أوفى» وأبو أوفى هو صاحب الصدقة.

ونظير هذا الاسم أهل البيت اسما، فالرجل يدخل في أهل بيته كقول الملائكة : ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود ٧٣] وقول النبي ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب ٣٣] وذلك لأن آل الرجل من يتولى أباه ونفسه ممن يؤول إليه ، وأهل بيته هم من يأهله ، وهو من يأهل أهل بيته .

فقد تبين أن الآية التي ظنوا أنها حجة لهم هي حجة عليهم في تعذيب فرعون مع سائر آل فرعون في البرزخ وفي القيامة، ويبين ذلك أن الخطاب في القصة كلها إخبار عن فرعون وقومه. قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ إلى قوله : ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [غافر ٤٢ - ٤٨] فأخبر عقب قوله : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر ٤٦] عن محاجتهم في النار وقول الضعفاء للذين استكبروا وقول المستكبرين للضعفاء ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ [غافر ٤٨] ومعلوم أن فرعون هو رأس المستكبرين ، وهو الذي استخف قومه فأطاعوه، ولم يستكبر أحد استكبار فرعون فهو أحق بهذا النعت والحكم من جميع قومه .

(الموضع الثاني) وهو حجة عليهم لا لهم قوله : ﴿ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ ﴾ إلى قوله : ﴿ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [هود ٩٧ - ٩٩] أخبر أنه يقدم قومه ولم يقل يسوقهم وأنه أوردهم النار. ومعلوم أن المتقدم إذا أورد المتأخر النار كان هو أول من يردها وإلا لم يكن قادماً بل كان سائقاً. يوضح ذلك أنه قال: ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [هود ٦٠] فعلم أنه وهم يردون النار، وأنهم جميعاً ملعونون في الدنيا والآخرة. وما أخلق المحاج عن فرعون أن يكون بهذه المثابة فإن المرء مع من أحب ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال ٧٣] وأيضاً فقد قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ [يونس ٩٨] يقول : هلا آمن قوم فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس. وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ

يَسيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ﴾ إلى قوله : ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر ٨٢ - ٨٥] فأخبر عن الأمم المكذبين للرسل أنهم آمنوا عند رؤية البأس وأنه لم يك ينفعهم إيمانهم حينئذ، وأن هذه سنة الله الخالية في عباده، وهذا مطابق لما ذكره الله في قوله لفرعون: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس ٩١] فإن هذا الخطاب هو استفهام إنكار ؛ أي الآن تؤمن وقد عصيت قبل ؟ فأنكر أن يكون هذا الإيمان نافعاً أو مقبولاً ، فمن قال : إنه نافع مقبول فقد خالف نص القرآن وخالف سنة الله التي قد خلت في عباده.

يبين ذلك أنه لو كان إيمانه حينئذ مقبولاً لدفع عنه العذاب كما دفع عن قوم يونس، فأنهم لما قبل إيمانهم متعوا إلى حين، فإن الإغراق هو عذاب على كفره فإذا لم يك كافراً لم يستحق عذاباً. وقوله بعد هذا ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس ٩٢] فوجب أن يعتبر به من خلفه، ولو كان إنما مات مؤمناً لم يكن المؤمن مما يعتبر بإهلاكه وإغراقه. وأيضاً فإن النبي ﷺ لما أخبره ابن مسعود بقتل أبي جهل قال : «هذا فرعون ، هذه الأمة» فضرب النبي ﷺ المثل في رأس الكفار المكذبين له برأس الكفار المكذبين لموسى. فهذا يبين أنه هو الغاية في الكفر فكيف يكون قد مات مؤمنا؟ ومعلوم أن من مات مؤمناً لا يجوز أن يوسم بالكفر ولا يوصف ؛ لأن الإسلام يهدم ما كان قبله، وفي مسند أحمد وإسحاق وصحيح ابن أبي حاتم عن عوف بن مالك عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ في تارك الصلاة «يأتي مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف » .

{ هذا آخر ما وجد من هذه الرسالة }.

فهرس

القسم الثاني من مجموع رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية ، وفيه رسالتان

(رسالة الحجج النقلية والعقلية)

فيما ينافي الإسلام من بدع الجهمية والصوفية

الصفحة

الصفحة

(الرسالة الثانية)

في حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود

الصفحة

الصفحة

(تم الفهرس والحمد لله)

طبع بمطابع الناشر العربي
الرياض – هاتف : ٤٥٣٠٠١١
فاكس : ٤٥٦٣١٤٥

مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

١٣١٩ - ١٤١٩ هـ

جاءت فكرة الاحتفال بمناسبة مرور مائة عام على دخول الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود - يرحمه الله - مدينة الرياض، وتأسيس المملكة العربية السعودية ؛ تأكيداً لاستمرار المنهج القويم والمبادئ السّاميَة التي قامت عليها المملكة، ورصداً لبعض الجهود المباركة التي قام بها المؤسس الملكُ عبدُ العزيز في سبيل توحيد المملكة ؛ عرفاناً بفضله، ووفاءً بحقّه، وتسجيلاً لأبرز المكاسب والإنجازات الوطنية التي تحقّقت في عهده وعهد أبنائه خلال المائة عام، والتعريف بها للأجيال القادمة.

وما الأعمال العلمية التي تُصدرها الأمانة العامة للاحتفال بهذه المناسبة - وهذا الكتاب أحدها - إلا شواهد صادقة على نهضة هذه البلاد الزاهرة في ظل دوحة علم ؛ أصولها ثابتة وفروعها نابتة، تولّى غرسها الملك المؤسس، وتعهّدها من بعده بنوه ؛ فواصلوا رعايتها وعنُوا بخدمتها حتى عمّ البلادَ خيرُها، وانتفع بها الجميع.

ردمك : ٨-٢-٠-٦٦٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٦-٣-٠-٦٦٠-٩٩٦٠ (ج١)